

موسوعة تاريخ الأباطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي



مكتبة اقرأ الثقافي
www.igra.ablamenteada.com



المجلد الثاني

الجزء العربي للموسوعات

مَوْسُوعَةٌ
تَارِيخُ الْأُمْبَرَاتُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ
السِّيَاسِيَّ وَالْعَسْكَرِيَّ وَالْحَضَارِيَّ
٦٢٩-١٣٤١هـ / ١٢٣١-١٩٢٢م

تأليف
يلماز أوزتونا

ترجمة
عبدنار محمود سلمان
مراجعة وتنقيح
د. محمود الأنصاري

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

الدار العربية للموسوعات



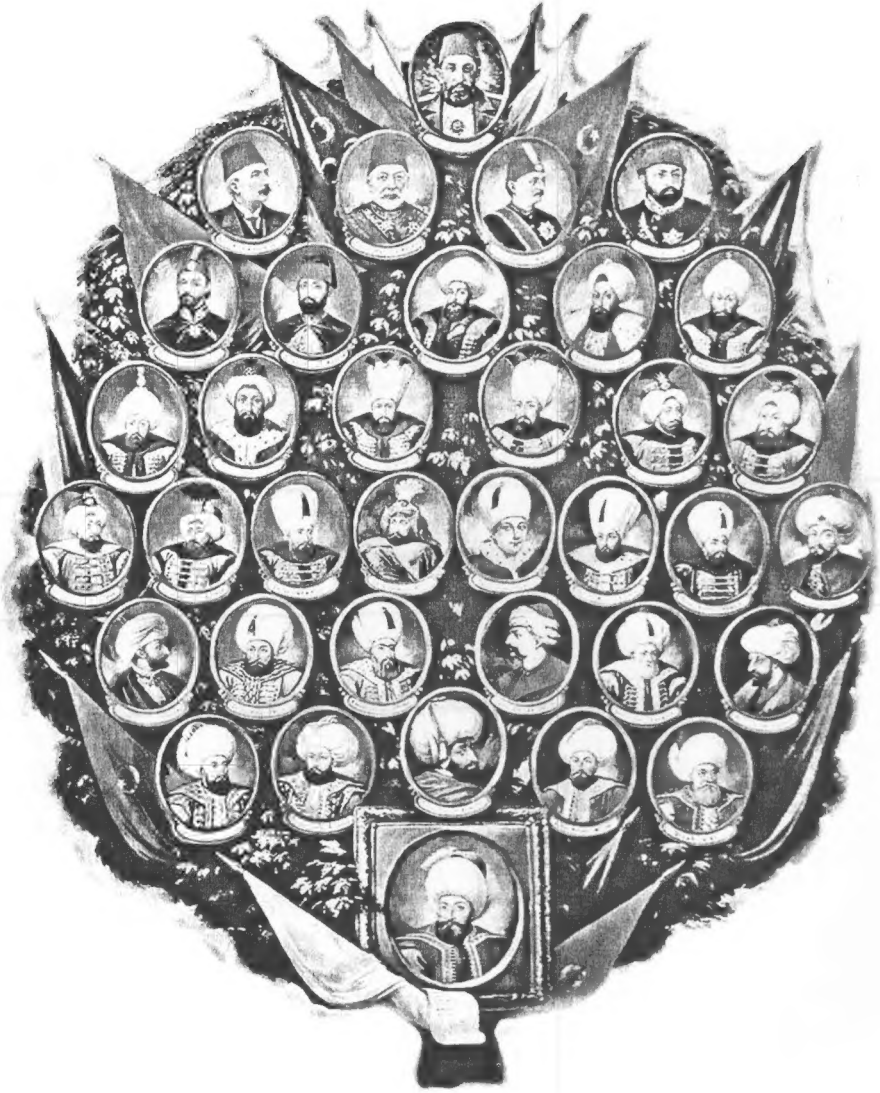
الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان

ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١

هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني : مؤسسها ومديرها العام



سلطان بن عثمان

البحث الخامس

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني

(١٥٦٦ - ١٦٨٣)

الدولة العثمانية العالمية بعد القانون (١٨٦٦ - ١٦٨٣)

(١) جلوس سليم الثاني (١٥٦٦/٩/٧)

كان سليم الثاني وليا للعهد منذ قتل أخيه الكبير مصطفى خان قبل ١٣ سنة (١٢ سنة و ١٠ أشهر و ١ يوم) والآن يرتقى العرش وعمره ٤٢ سنة .
ولى ٦ سنوات على قره مان (قونية) ، ١٤ سنة على صاروخان (مانيسا) ،
وأخيرا ٥/٥ سنة في جرميان (كوتاهية) .

جاء إلى استانبول وارتنى العرش بعد ٢٣ يوما من وفاة أبيه في سيجتوار (١٥٦٦/٩/٣٠) . بقى فيها ٣ أيام ثم غادرها ، وعند مجيئه إلى بلغراد ، كان الجيش يتحرك للعودة بقيادة صهره الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . كان في صحراء موهاج . كان قد مضى ٤٨ يوما على وفاة السلطان سليمان ، وعندما أبلغ الجيش بوفاة البادشاه ، تأثر إلى درجة كادت أن تنقلب إلى قلاقل . كان قد بقى على قيد الحياة قليل جدا من الجنود الذين شاهدوا سلطانين ، يتذكرون عهد السلطان سليم (ياوز) . اعتلى السلطان سليم خان الثاني العرش بعد يومين أمام الجيش في صحراء سيرم Sirem خارج بلغراد . أقام الجيش صلاة الميت للقانونى فى ٢٦ ت ١ فى صحراء سيرم . نادى أستاذ سليم الثانى الأستاذ السلطانى (خواجه سلطانى) عطاء الله أفندى ، قائلا « الصلاة للميت » وأقام الصلاة . وصل الجثمان إلى استانبول فى ٢٨ ت ٢ قبل وصول الجيش بأسبوع . وقد أقام شيخ الإسلام أبو السعود أفندى صلاة الميت مرة أخرى فى استانبول . اشترك فى حمل الجثمان إلى سليمانية مئات الآلاف من أهالى استانبول .

بقى سليم الثانى فى استانبول ٦ أشهر و ١٨ يوماً وغادرها (١٥٦٧/٦/٢٢) متوجهاً إلى أدرنة . قضى الشتاء فى أدرنة . اجتمع به سفير إيران وألمانيا . تجددت معاهدات الصلح مع هاتين الدولتين وصودق عليها . وضع حجر الأساس لجامع سليمانى فى أدرنة فى نهاية سنة ١٥٦٧ .

(٢) القضية اليمنية (١٥٦٧ - ٦٩)

برزت القضية اليمنية بتمرد الإمام الزيدى . انحصر العثمانيون فى شريط ساحلى ضيق . انتقل القسم الأعظم من القطر لحوزة الإمام . قسم الديوان اليمنى — لغرض تأمين دفاع أفضل — إلى إياالتى اليمن وصنعاء على أن يكون مركزها زبيد ، وكانت الأولى منها تشمل البحر الأحمر التى تسمى تهامة ، والثانية المنطقة الجبلية التى تسمى جبل . ارتبطت عدن وحضرموت بصنعاء ، وقد سهل هذا انتقال القطر بكامله لسيطرة الإمام . لأن السلطة والجيش العثمانى انقسمت إلى قسمين . ونزل الإمام مطهر إلى الساحل واحتل مخا . تمكن العثمانيون بصعوبة من الاحتفاظ بزبيد وعدن .

عين الديوان أوزدمير أوغلو عثمان باشا والياً على صنعاء (١٥٦٧/١٢/١٦) . كان والد عثمان باشا قد سبق وأخذ صنعاء من الإمام . وعثمان باشا ، كان يعرف القطر بصورة جيدة . كان عثمان باشا قد نقل قبل مدة من منصب والى (فريق أول) الحبشة ، ويقوم فى القاهرة فى انتظار تعيينه الجديد . كلف والى مصر قوجا سنان باشا بإخماد عصيان اليمن كقائد أعلى (سردار) (١٥٦٨/٨/١٥) ، ورفعت رتبته إلى درجة وزير (مارشال ، مشير) . خصص قائد الهند قورد أوغلو خير الدين خضر رئيس ، مع ١٧ سفينة حربية لأمر عثمان باشا . جاء عثمان باشا بأسطول من السويس إلى جدة . أنزل خياله فيها وساقهم برا إلى اليمن . وسار هو وجنوده المشاة عن طريق البحر ونزلوا فى الأراضى اليمنية عن طريق ميناء حديدة . احتل تعز التى كانت قد انتقلت لحوزة الزيديين قبل ١٠ أشهر . أما سنان باشا ، فقد سار بجنده من القاهرة فى ١٥/١/١٥٦٩ عن طريق البر واجتاز الحجاز ، عسير ، اليمن وجاء إلى المناطق الجنوبية من القطر .

دب الخلاف منذ المقابلة الأولى بين القائد والوالى، بين سنان باشا وعثمان باشا . وقد كان بينهما أساساً نفور متبادل . كان عثمان باشا من رجال والى الشام السابق لالا مصطفى باشا الذى كان عدواً لدوداً لسنان باشا . وكان سنان باشا ، من رجال الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا ، وكان يعتمد عليه . كان لالا مصطفى باشا من أسرة صوقوللو (صوقوللو — زاده) . لكنه كان يأمل إسقاط ابن عمه صوقوللو محمد باشا ويحتل منصبه هو . كان هناك نزاع عنيف بينهما وهما من أسرة صوقوللو . سيسرى هذا النزاع من استانبول إلى اليمن ، إلى مصر ، إلى بودين وققاسيا .

كان العلماء معارضين لصوقوللو . إذ إنه كان بمثابة الوزير الدكتاتور . كان يستفيد من ترك سليم الثانى كامل أمور الدولة إلى الحكومة . وكان المعروف أن سليم الثانى لا يكن محبة متزايدة لصهره صوقوللو ويحب مودبه (لالا) السابق مصطفى باشا . لكنه كان عازماً على عدم إظهار مشاعره هذه ومزجها بأمور الدولة ، وظل هذا شأنه إلى النهاية . حاول جهده الحيلولة دون سحق صوقوللو منافسيه ، ولم يفكر فى عزله . إذ إن صوقوللو كان ملتزماً من قبل صنف الجيش الموجود فى استانبول المسمى حاميات قابوقولو ، وخاصة من قبل الانكشارية الذين هم أقدر هذه الحاميات . كان الوزير ٣ وثم ٢ داماد بياله باشا ، قد تزوج بابنة سليم الثانى الثانية . كان ينفر من صوقوللو ، لكنه لم يكن يظهر ذلك أبداً . كان يأمل أن يتصدر تلقائياً فى حالة وفاة صوقوللو . أما لالا مصطفى باشا ، فكان قد قدم خدمات جمة إلى سليم الثانى ويمكن أن يقال بأنه ضمن له العرش ، ويسر له أن يتغلب فى نزاعه مع إخوته ، أذكى وأمكر رجل فى عهده . أما عثمان باشا ، فإنه أعظم جنرال فى عهده . كان يحاول أن يقى نفسه من عداء سنان باشا المخيف معتمداً على دهائه العسكرى ومستنداً على لالا باشا .

جاء أوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى استانبول على أثر عزله من وظيفته كوال على اليمن من قبل سنان باشا وتعيين حسن باشا مكانه ، تاركاً جنده لسنان باشا ، للتعرف على أوامر الديوان . تمكن لالا مصطفى باشا مستفيداً من تأثيره على السلطان ، من إنقاذ عثمان باشا أكبر عسكرى وزير فى القرن ١٦ من غضب صوقوللو بصعوبة ، حيث قد اتهم عثمان باشا بترك جنده ، وطلب إعدامه . قال

للبادشاه : « سيدى السلطان : إن عبدكم عثمان باشا أكسب دولتكم العلية الأقطار كالسودان ، الحبشة واليمن ، أوزدمير باشا هو ابن العبد المخلص لوالدكم طيب الله مشواه فى الجنة ، سلك درب أبيه وحصل على مكاسب كثيرة فى اليمن ، لاشك أنه يليق بعفوكم » . أمر الخاقان صوقوللو بتعيين عثمان باشا واليا على إيالة البصرة ، وحذره من إصابة عثمان باشا بأى ضرر . بقى عثمان باشا الذى ذهب إلى إيالة البصرة التى تشمل عدا العراق ، شرق الجزيرة العربية وكامل الساحل الغربى لخليج البصرة ، وبقي إلى حين بعيدا عن مؤامرات استانبول السياسية . كان قد ذهب إلى قطر يعرفه جيدا ويجيد لغته ويستطيع فيه أن يظهر قدراته العسكرية .

من ناحية أخرى ، استرجع سنان باشا اليمن من الأمام وساق الزيديين من الشمال إلى بحر عمان فى الجنوب . وجاء قورد أوغلو خضر رئيس بأسطوله واسترجع عدن من الزيديين (١٥٦٩/٥/١٥) . انتهت حركات اليمن باسترداد صنعاء فى ٢٦ تموز (١٥٦٩) . كانت قد بقيت لدى الإمام مطهر قلعة كوكبان . تم الاستيلاء عليها كذلك (١٥٧٠/٥/١٨) . تعهد الإمام بطاعة الخليفة . ورغم سفك دماء عثمانيين كثيرين ، لم يمس بسوء بسبب هويته الدينية . وخشى كذلك من ثورة الشعب الزيدى . كان الزيديون الذين هم شيعة معتدلون ، يعيشون مع السنين على قدم المساواة . ولكن كان من الخطر ترك اليمن لإدارة الزيدية ؛ إذ إن البرتغاليين سيحتلون فور انسحاب الجيش العثماني . جاء بهرام باشا إلى زبيد (١٥٧٠/٥/٢١) . وكوال (فريق أول) أخذ عهدا من الأشراف ومن بينهم شيوخ حضرموت . كان يعرف البلاد بصورة جيدة ويجيد التكلم بالعربية حيث إن والده قره شاهين باشا وكذلك أخيه الكبير رضوان باشا كانوا ولاة على اليمن . حكم اليمن بدراية تامة لمدة ٧ سنين .

أما سنان ، فقد أركب جنوده سفن الأسطول من مخا وغادر اليمن (١٥٧١/٣/١) . كان قد ترك القاهرة قبل ٢ سنة و ٢ شهر ، وبقي فى اليمن ١ سنة و ١٠ أشهر . صعد إلى البر فى جدة . حج . اجتمع بأمر مكة أبو ندى . انشغل فى الحجاز بالأمر الإدارية وجاء إلى استانبول . دخل إلى الديوان الهمايونى ، إلى حكومة الإمبراطورية العثمانية كوزير ٧ وأخير . أما الوزير ٦ ، فكان خصمه اللدود لالا مصطفى باشا .

(٣) حملة أندونيسيا (١٥٦٨ - ٦٩)

أسرة قورد أوغللرى ، هى إحدى الأسر التركية البحرية الشهيرة فى القرن ١٦ . إن قائد الهند قورد أوغلو خضر خير الدين رئيس الذى حقق حملة أندونيسيا ، هو ابن مصلح الدين رئيس ، قائد الأسطول فى محاصرة القانونى لرووس سنة ١٥٢٢ ، الذى سمى ابنه باسم زميله بروس خير الدين باشا .

كانت توجد فى سومطرة فى ذلك القرن ، ملكية آجه Ace المحلية المسلمة . دامت هذه الدولة من ١٥١٤ إلى ١٩٠٣ . تسلط البرتغاليون على هذه المناطق أيضا . بدأوا بإعاقه الأمور البحرية للآجين . كان الجالس على العرش ، علاء الدين رعايت شاه قهار (١٥٣٧ - ١٥٦٨) الحاكم ٣ لآجه . وهو الذى طلب المساعدة من العثمانية . لكن كان الجالس على العرش خلال حملة أندونيسيا ، حسين شاه (١٥٦٨ - ١٥٧٥) .

كان قد مضى ٣٠ سنة على حملة الهند التى جرت فى ذات الموسم الذى جرت فيه حملة بروزة لسليمان باشا ، و ٧٠ سنة على وصول أول سفينة برتغالية جلبت بضاعة من الهند ، إلى أوروبا فأصابت البندقيه بالقلق خوفا على تجارتها .

لم يكن الحكام المسلمون فقط هم الذين يطلبون المساعدة من استانبول ، وإنما بدأ الحكام الهندوس كذلك . فمثلا ، كان اثنان من راجات سيلان والبنغال قد أرسلوا رسالتين إلى استانبول ، يذكران فيها أنه فى حالة مساعدتهما عسكريا وتكنولوجيا ، فإنهما سيعترفان بالبادشاه متبوعا لهما ويقران الدين الإسلامى . أرسل السلطان سليمان مساعدات تكنولوجية إلى خاقانات وخانات تركستان كذلك . أرسل مدافع ، بنادق وعسكريين فنيين .

فكر السلطان ياوز سليم فى فتح قناة السويس وإعادة الحركة لطريق البحر الأبيض . وبذلك سوف تقل الرغبة فى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل جدا . لكن وافاه الاجل . والقانونى كذلك كان قد أمر الوزير الأعظم سميز على باشا ببحث موضوع القناة . وقد أخذ مشروع القناة بعين الاعتبار فى عهدى كل من سليم الثانى وابنه مراد الثالث ، ولم يتحقق ، فقد أصر قائد القوات البحرية قيليج على باشا على

ذلك ، عارضه صوقوللو محمد باشا . وربما كان ذلك لأن العثمانية كانت أغنى دولة في العالم ، ولم تتمكن آسيا التي لاحظت غناء أوروبا الذي يفوق التصور لغاية أواسط القرن ١٨ ، من اتخاذ التدابير اللازمة ، ولم يتيسر إدراك قرب انتقال تفوق عالم البحر الأبيض الذي يرقى عهده إلى ٢٠٠٠ سنة ، إلى غرب البحر الأبيض .

كان السلطان سليمان قد أرسل مساعدة إلى آجه قبل قورد أوغلو خضر رئيس . وعلى سبيل المثال ، أرسل لطفى بك كسفير وأرسل معه ٨ من المدفعيين وعدة مدافع . أخذ سلطان آجه الهدايا ، قائلا : إنه عبد الخليفة المخلص ، وإنه سيعامل أى جندي يرسله ، معاملة الأمير ، وطلب مساعدة على نطاق أوسع . أرسلت إليه عدة مساعدات أخرى بأساطيل صغيرة . وأصبحت آجه بهذه المساعدات على مر الزمن ، صاحبة حصنة عثمانية كبيرة . وفي حملة ملقة ١٥٦٧ ، كان تحت إمرته ٤٠٠ جندي بحرى عثماني (لوند) (Menez Pinto Les Voyages ، باريس ١٦٢٨) . إن وفاة القانوني في الوقت الذي قرر فيه تقديم مساعدة كبيرة ، واستبقاء الأسطول بسبب قضية اليمن ، أدى إلى تأخير المساعدة لعدة سنوات . وأخيرا ، أبحر قورد أوغلو من السويس في ١٥٦٨ بـ ٢٢ قطعة من سفنه . سلم إلى السلطان مهمات تكنولوجية كثيرة ومئات من المتطوعين البحريين والمدفعيين . توسعت بذلك حدود الدولة العثمانية إلى الشرق الأقصى إلى جنوب شرق آسيا وإلى أندونيسيا . اعترفت دولة آجه التي تحكم شمال سومطرة وماليزيا ، بالعثمانية متبوعا لها . منح الأتراك القادمين مراتب عالية . أعطيت لهم قيادة الأسطول . قام الآجيون بواسطة هذا الأسطول بفتوحات مهمة . وهناك من هؤلاء الأتراك الذين تزوجوا بالنساء الآجيات من ارتقى إلى مرتبة الإمارة . احتفظ شعب آجه بالمدافع والأعلام التركية كذكرى مقدسة حتى يومنا هذا . واليوم يقول كثير من أهالي آجه بأنهم أحفاد البحارة الأتراك ، لكنهم نسوا التكلم بالتركية (ولمزيد من التوسع راجع الوثائق الأرشيفية العثمانية الرسمية في سجل الوقائع اليومية للديوان الهمايوني Divân-Hümayûn Mühimme defteri ، انظر العقيد (ميرالاي) البحري صفوت بك ، Bir Osmanli Filosunun Sumatra Seferi, TOEM ، no.10,11) . لقد دحرت بدرجة كبيرة المساعدة العثمانية التعرض البرتغالي في أندونيسيا — ماليزيا .

(٤) حملة استرخان (١٥٦٩)

إن إمارة (خانلق) استرخان Astirhan (أجدرخان Ejderhan ، استرخان Astrahân) هي دولة تركية يترأسها أمراء من أسرة جوجي أولوصو المنتسبة إلى بنى جنكيز ، وإحدى الدول التي تشكلت من أنقاض دولة الطون أوردى .. كانت الدولة في أواخر عهدها تابعة للعثمانية . لكن روسيا احتلتها في ١٥٥٦ وسيطرت على دلتا الفولغا ، وكان القطر عند القيام بحملة استرخان ، تحت الحكم الروسى منذ ١٣ سنة .

كان هدف الحملة استرداد الإمارة القديمة وأكثر من ذلك ، فتح قناة بين نهري الدون والفولغا وتأمين المرور بين البحر الأسود والخزر بصورة متقابلة والوصول إلى تركستان عن طريق البحر . لو حفر طريق طوله ٥٠ كم من الموقع الذى ينعطف فيه النهران ، فسوف يمتلئ الطريق بالماء . وهكذا كان بالإمكان تأمين طريق نهري طوله ٩٥٠ كم بين الميناء التركى Azak (Rostov) الواقع على بحر آزوف Azak واسترخان الواقعة على بحر الخزر . توجد حاليا مدينة فولغاغراد (قديما جارستان وحاليا ستالينغراد) فى الموقع الذى يقترب فيه نهر الفولغا (بالتركية : Idil) من الدون (بالتركية : Ten) على منعطف الفولغا . حفر الروس هذه القناة فى ١٩٥٢ ، وربطوا البحرين ببعضهما .

أمر سليم الثانى (Divân-Hümayûn Mühimme Defterleri ، ٧ ، ٩٤٨) باسترداد إمارة قزان التى كانت فيما مضى تابعة للعثمانية من الروس . وعلى الرغم من أن عملا كهذا كان مهما جدا .. يقتضى ذهاب البادشاه أو على الأقل الوزير الأعظم ، فإن صوقوللو محمد باشا لم يكلف أجدر الوزراء ، وإنما كلف مستشار المالية جركس قاسم بك الذى عينه واليا (فريق أول) على كفه . ولم يتمكن هذا من السيطرة لا على الجند ولا على جيش العمال ولا على خان قزم . تصرف خان قزم بطريقة تؤدى إلى تبيع هذا العمل وعدم وصوله إلى نتيجة . كان يخشى من بقاء جنود البحرية والمشاة العثمانيين بصورة مستمرة فى حالة فتح القناة وأخذهم قزم من سلالة كيراي إذا اقتضى الأمر .

تحرك الأسطول لحملة استرخان من استانبول (١٥٦٩/٨/٤) ، ودخل ميناء

آزك (روستوف) أى إلى مصب نهر الدون . بدأ ٨٠٠٠ انكشارى ، أكثر من ٢٠ ٠٠٠ سباهى تمارلى و ٣٠ ٠٠٠ عامل فى حفر القناة اعتباراً من آزاك . أما خان قرم دولت كيراي فإنه دخل مع ٣٠ ٠٠٠ من خياله استرخان (١٥٦٩/٩/١٢) . ورغم سرية المدفعية العثمانية فقد رفع حصار القلعة بعد ٨ أيام ، وبناء على ذلك تعذر أخذ قلعة المدينة من الروس . جدير بالذكر أن القراميين غزاة وصاعقة ينفرون من محاصرة القلاع لأنها عملية شاقة وتستدعى خسائر كثيرة . من الواضح أن روح اللامبالاة التى أحاطت بالعملية لم يكن يتوقع معها أى نجاح للعملية .

لقد كانت عملية مهمة ؛ لأنها تحتاج السدين : الإيرانى والروسى ، وترتبط تركية بتركستان ، ومع ذلك فقد توقفت . أوقفت الأعمال فى القناة بحجة هجوم البرد . إن قصب خان قرم ومبلغ فزعه من العثمانية يظهر من كلامه التالى :

« عندما تبدأ جنود العثمانية بالقدوم إلى الأراضى القبحاقية وشيروان (أوكرانيا وشمال آذربيجان) سوف لا تبق هناك قيمة للتتر ويحتمل أن تذهب قرم من أيدينا ! » .

ألقى سليم الثانى مسئولية عدم التوفيق فى هذه العملية على عاتق صققوللو بهذه الكلمات : « يقتضى تغريمك كافة المصاريف والأضرار ! » لقد كان تشخيص العثمانية للخطر الروسى فى هذه الفترة وحتى بعدها بوقت طويل .. قاصراً ؛ فقد كان ينظر إلى موسكو على أنها دولة من الدرجة الثانية تسدد ضريبة سنوية للعثمانية . أما قرم فإنها لم تفكر فى هذا الخطر أبداً (لأجل تدقيق الوثائق العثمانية الرسمية عن المعلومات حول هذه القناة ومحاولة فتح استرخان وقران ، انظر أحمد رفيق ، Bahr-i Hazar-Karedeniz Kanali

. (ve Ejderhan Seferi, TOEM, No. 43

٥) حملة قبرص (١٥٧٠ - ٧١)

انتقلت جزيرة قبرص التى أخذت فى الحملة الصليبية الثالثة من البيزنطيين والتى اسس فيها ملكية كاثوليكية لاتينية وجيء بأسرة Lusignan الفرنسية لراثستها .. إلى حوزة البندقية وأصبحت مستعمرة بندقية . ولكون الشعب القبرصى رومى الأصل ، فقد عامله الإيطاليون الذين تلو الفرنسيين معاملة الكلاب . قامت مصر (المماليك)

في ١٤٢٤ بمحاولة جديدة لفتح الجزيرة . احتل الأسطول المملوكى الذى أنزل الجنود في ميناء Limasol (بالتركية : ليماسون) Magosa (بالتركية : ماغوسا) ، وأسروا الملك Janus وأرسلوه إلى القاهرة . أصبحت قبرص تابعة للسلطان المملوكى وتدفع ضريبة سنوية . وعندما انتقلت الجزيرة لإدارة البندقية ، أخذت البندقية كذلك في تسديد هذه الضريبة إلى القاهرة . وبانتقال مصر إلى السلطان سليم في ١٥١٧ ، أبلغت الجمهورية البندقية من تلقاء نفسها بأنها سوف تدفع ضريبة قبرص السنوية بعد الآن إلى استانبول .

لم تكن قبرص وكرا للقراصنة وبلية على المسلمين كجزيرة رودس في حالة الصلح مع البندقية ، ولكنها كانت كذلك عندما تكون البندقية في حالة حرب مع تركية ، لكن وجود مستعمرة لاتينية من بقايا الحروب الصليبية في شرق البحر الأبيض ، كان شيئا قد مضى عهده . كانت تقطع طريق الأناضول — مصر البحرى . هذا عدا أنها كانت في عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين تشكل إحدى إيلات الامبراطورية الإسلامية ، ثم انتقلت لحوزة البيزنط ، ومازال بقبرص أماكن إسلامية مقدسة من بقايا عهد الحكم العربى .

نشأت فكرة فتح قبرص عند سليم الثانى . كان صوقوللو معارضا . كان الأميرالات يضغطون على البادشاه لتحقيق ذلك ويبحثون عن مخاذير بقاء مستعمرة أوروبية في شرق البحر الأبيض . كان خروج السلطان والوزير الأعظم في حملات عبر البحار ممنوعا في النظام العثمانى . كان صوقوللو يخشى من وزير يفتح قبرص فيحصل على شهرة فينافسه . وفي الوقت ذاته ، كان يقول : إن محاولة كهذه سوف لا تقتصر على حرب عثمانية — بندقية وإنما سوف تجر إلى حرب أوروبية جديدة .

قام الوزير داماد بيالة باشا بواسطة التشكيلات السرية العثمانية بعملية تدمير واسعة في ميناء ومصنع السفن البندقى . شب حريق كبير ، استولى الذعر على الناس ، احترقت سفن كثيرة في الميناء وفي المصنع ، انتبه مجلس السناتوفى البندقية اتضح أن الهدف هو قبرص . ذهب أسطول مسيحي مكون من ٢٠٤ قطعة إلى المياه القبرصية لحماية الجزيرة . رتب الديوان لقبرص أكبر عدد من السفن لم يسبق أن تجمع حتى ذلك التاريخ دفعة واحدة ، خصص لهذه العملية ٤٠٠ . جاء أسطول الاستطلاع لمراد رئيس إلى مياه قبرص في شهر آذار وفي شهر

أيار ، سار الوزير ٣ داماد بيالة باشا بالقسم الأعظم من الأسطول الهنمايوني من استانبول (١٥٧٠/٥/١٥) . ولكون قائد القوات البحرية وناظر البحرية مؤذن — زاده على باشا جنرالاً بالأصل وليس أمير بحر ، عين للقيادة بيالة باشا . أما الجيش البرى فقد تولى قيادته الوزير ٦ لالا مصطفى باشا وسوف يكون هو المسئول عن فتح الجزيرة . وبذلك يكون قد كلف لفتح قبرص ١ أميرال — كبير ، ١ مارشال (مشير) ٣ فريق أول بحرى و ٧ فريق أول . الفرقاء الأول البحرىون هم ناظر البحرية على باشا ، ببروس — زاده حسن باشا وأولوج على باشا . كان الأسطول يحتوى على ١٠٠ ٠٠٠ شخص ٦٠ ٠٠٠ منهم جنود مشاة والبقية بحرية وجدافة . دخل الأسطول ميناء ليماسول (١٥٧٠/٧/١) وجرت عملية الإنزال فى اليوم التالى .

إن أقرب نقطة من قبرص إلى الأناضول ٧٠ ، إلى سورية ١٠٠ ، إلى مصر ٣٨٠ كم . وفى ٤ تموز جرى إنزال على ميناء لارنقة كذلك (بالتركية : طوزلا) . فتحت Kyrinia (بالتركية : كيرنة أو سرينية) فى ٩ تموز وبدأت محاصرة لفكوشة فى ٢٢ تموز . كان مركز الجزيرة لفكوشة ، لكن أقوى القلاع تحصينا كانت ماغوسا . كانت حامية لفكوشة ١٠ ٠٠٠ جندى بندقى و ١٥٠ مدفعا . فتحت لفكوشة فى الهجوم العام الثالث بعد ٤٩ يوما (١٥٧٠/٩/٩) ، قتل والى عام قبرص Nicolo Dandolo وبعد فترة قليلة استسلمت باف ، ليماسول ولارنقة . عين لالا مصطفى باشا ، والى شهرزور السابق مصطفى باشا واليا على قبرص واستبقاه فى لفكوشة مع ٢٠٠٠ جندى وجاء أمام ماغوسا .

كان ٥ جنرالات بندقين يقومون بحماية ماغوسا المحصنة جدا ، ومعهم ٧٠٠٠ من جنودهم و ٧٥ مدفعا (Von Hammer ، ٦ ، ٤٠٨) ، لكنها تسلمت فى هذه الأيام ١٦٠٠ جندى وكمية كبيرة من المهمات . عاد بيالة باشا إلى استانبول فى ٦ ت (١٥٧٠) وفى ٤ أيار ١٥٧١ ، غادر استانبول الوزير ٢ برتو باشا (الذى لم يكن أميرالا وكان عسكريا برىا) وعين « قائدا للأسطول » « دونانمه سردارى » كان بيالة باشا . وهذه إحدى ترتيبات صوقوللو الغريبة التى تدل على نفوره من البحرىين . أبحر برتو باشا مع قائد القوات البحرية مؤذن — زاده على باشا ، مع ٤٠٠ قطعة من الأسطول الهمايوني إلى إيطاليا ، وحالوا دون قدوم المساعدات إلى

قبرص بنجاح . وفي الوقت الذى كان فيه الأسطول يقوم بإنزال على صقلية ، كان لالا باشا مستمرا فى حصار ماغوسا وكان قد استبقى تحت إمرته ٤٠ سفينة فقط . كان باقى الأسطول قد انتشر فى مياه إيطاليا وبضمنه أولوج على باشا وبربروس — زاده حسن باشا .

سقطت ماغوسا فى الهجوم (بالعثمانية : يورويوش) ٦ (١٥٧١/٨/١) وتم فتح قبرص فى غضون ١٣ شهراً . تكونت الإيالة الجديدة بإضافة ٤ ألوية (علائقية = آانية ، إيجل = سلفكة ، طرسوس ، سيس = قوزان) من الأناضول . تم إسكان عدو كبير من الأتراك الأناضوليين فى الجزيرة . وبينما كان تعداد قبرص التى يسميها الأتراك « يشيل أده » (أى الجزيرة الخضراء) عند الفتح ١٢٠ ٠٠٠ (روضة الأبرار ، ص ٤٥٠) زادت إلى ٣٦٠ ٠٠٠ .

منحت العثمانية لرئيس الأساقفة الأرثوذكسى كافة الصلاحيات وأعطته الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعة الرومية ، ولم تكن لرئيس الأساقفة هذه الصلاحية فى العهد البندقى . غنم الأتراك المدافع الموجودة فى الجزيرة وعددها ٧٦٠ مدفعا .

بقى « فاتح قبرص » لالا مصطفى باشا فى الجزيرة مدة مجموعها ١ سنة ، ١/٥ شهر . أما الحملة فقد استمرت نحو من ١/٥ سنة . غادر لالا باشا الجزيرة فى ١٥ أيلول (١٥٧١) (Hammer ، ٦ ، ٤١٧) .

٦) هزيمة اينبختى Inebahti (١٥٧١/١٠/٧)

عقد البابا فى ٢٥ آيار ١٥٧١ معاهدة الاتفاق ضد العثمانية مع ملك أسبانيا ، دوج (رئيس جمهور) البندقية وضموا إليها بعض الدول الصغيرة كذلك . هذا هو الاتفاق ١٣ الموجه ضد تركية منذ تأسيس الدولة العثمانية (Hammer ، ٦ ، ٤٢٠ — ١) . ذكر البابا بيوس ٥ فى الكتاب الذى حرره إلى ملك أسبانيا فيليب — ابن شارل — كوينت — المؤرخ ١٥٧٠/٣/٨ مائلى : « لاتوجد فى العالم المسيحى أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف لوحدها تجاه العثمانية . وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركى . » .

كانت أجهزة المخابرات التركية فى البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايونى خير

معاهدة الاتفاق عندما كانت في مرحلتها التحضيرية ، على بساط المفاوضات . وفي سنة ١٥٧٠ وصيف ١٥٧١ كان الأسطول الهمايوني قد فتنش عن الأسطول الصليبي ولم يعثر عليه ، ولعل ذلك يؤكد أن العثمانية لم تكن غافلة . كان قائد الأسطول الوزير ٢ برتو باشا ، قد تسلم أمر العثور على الأسطول الصليبي وإبادته ، وكان الديوان قد أعطى الأمر القطعي ذاته إلى قائد القوات البحرية . لكن كلاً من برتو باشا أو مؤذن — زاده على باشا ، كانا قائدين لم يركبا السفن إلا حديثاً وقضيا حياتهما كجنرالين في القوة البرية . ومع أن الأسطول التركي في البحر الأبيض يبلغ نحو ٤٠٠ سفينة ، لكنها توزعت عند حلول الخريف إلى قواعد مختلفة . أما السفن الـ ١٨٤ التي تشكل القسم الكلى ، فهي بإمرة برتو باشا ومؤذن — زاده على باشا ، فقد جاءت إلى قاعدة اينبختى (Lepanto) . ذهب عدد غير قليل من الضباط بإذن أو بدون إذن إلى هنا وهناك لقضاء الشتاء . ويظهر كذلك إن الجنرالين لم يتمكنوا من السيطرة على الأسطول وضبطه . وهناك عدد كبير من السفن كانت تحتاج إلى إصلاح وأودعت مصنع التصليح في اينبختى بسبب سيرها مدة طويلة . اينبختى Inebahti ، وهى ميناء عثمانى في اليونان على خليجى باتراس — كورنثوس ، الساحل المواجه لها مورا وميناء Patras (بالعثمانية : بالى بادرا) .

كان الأسطول الصليبي (أرمادا) يحتوى على ٢٩٥ سفينة و ٣٠ ٠٠٠ جندى ، ١٦٠٠٠ جنداف (فورسا) و ٢٠٨ من السفن الحربية (قادرغه) ؛ ١١٤ منها بندقية و ٧٠ أسبانية و ١٢ بابوية و ٦ مالطية و ٣ جنوية و ٣ سافوائية . كان القائد العام أخو فيليب الثانى Don Juan « وهو ابن الإمبراطور كارلوس الثانى ابن زنى » (كاتب جلبى ، تحفة الكبار ، ص ٩٢) ، أى أنه كان ابناً غير شرعى . كان قائد الأسطول البندقى الأميرال — الكبير Veniero ، والأسطول البابوى الأميرال Marco-Antonio Colonna . ويقود الأسطول الأسباني Giovanni Andrea Doria الذى هزم في جربة أمام بيالة باشا . كان الأميرال — الكبير لصقلية Cordona على رأس ٨ قطع من الأسطول الطليعى . كان الاميرال — الكبير لنابولى Marki Bazzano على رأس أسطول الاحتياط المكون من ٣٠ قطعة . ويحتوى الأسطول على أميرالات مشهورين بينهم دوق Parma ، أميرال — كبير جنوة دوق Urbano ، أميرال — كبير كاستيليا ، صهر ملك البرتغال ولى عهد بارما Alessandro

Farnese ، أميرال — كبير مالطة (Hammer ، ٦ ، ٤٢٢ — ٥) .

كان الأسطول التركى يحتوى على ١ وزير (مارشال ، الوزير ٢ برتو باشا) ،
٤ فريق أول بحرى (قائد القوات البحرية مؤذن — زاده على باشا ، والى الجزائر
أولوج على باشا ، والى طرابلس الغرب جعفر باشا وبربروس — زاده حسن باشا
الذى كلف بواجب المستشار لبرتو باشا) ، ١٥ لواءً بحرياً ، ونحو ٢٠٠ قائد سفينة
(قبطان) . كان حسن باشا الذى يعيش أشهره الأخيرة فى ال ٧١ ، وأولوج على
باشا فى ال ٦٤ سنة من عمره . كان بين الألوية البحرين صالح باشا — زاده محمد
بك ، بربروس — زاده محمود بك ابن حسن باشا المولود من ابنة طرغد باشا .
كان جميع الجدافة الموجودين فى الأسطول التركى على الإطلاق من المسيحيين . كان
هذا الأمر عنصراً مهماً . إن كثيراً من الضباط الذين شاهدوا السفن وقد أُلقت
مراسيها فى إينبختى لقضاء الشتاء وتوقعوا أن العدو لا يهجم فى هذا الموسم ، انفصلوا
عن سفنهم ، وفضلاً عن ذلك كان هناك نقص فى الجدافة (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ؛
منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ ؛ سلاينكى ، ١٠٥ ؛ تحفة ، ٩٢) .

وعلى أثر اقتراب العدو ، جمع برتو باشا فى سفينته الأميرالية ١٩ أميرالا ٤ منهم
فرقاء أول (بكربك) و ١٥ منهم ألوية (سنجق بك) ، وعلى أثر اختلاف الرأى
وانقسامه إلى قسمين ، انفض المجلس الحربى دون قرار . كان الثقل فى جانب برتو
باشا ومؤذن — زاده على باشا ، إذ إن كليهما كانا مسئولين أمام الديوان . كلاهما
لم يكن من البحرية . اقترح أمراء البحر الحقيقيون تكتيكاً مغايراً وأصرروا عليهم
وبخاصة أولوج على بك ، ولكنهم لم يفلحوا فى إقناع برتو باشا ومؤذن — زاده
على باشا . أراد الأميرالات عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف قطعات العدو
بمدافع القلاع وإتلافها ومن ثم تعقبه . وعندما أفاد برتو باشا وعلى باشا بأنهما استلما
أمر الهجوم بصورة مؤكدة ، أجابوا بوجوب الخروج إلى البحار المفتوحة . أفاد
الباشوات بأنهم سوف لن يتعدوا عن الساحل . أكد قائد القوات البحرية خاصة
أنه هو المسئول عن الأسطول وكرر ذلك مراراً ، إن عباراته التالية التى تدل على
جهله أصبحت فى ذمة التاريخ : « أى كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه ؟ »
(سلاينكى ، ١٠٤ ؛ « إننى لأخشى على منصبى ولا على رأسى ، أن الأوامر
الواردة من الديوان تشير إلى الهجوم » (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ — ٧) ؛ « لاضير من

نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة .. ألا توجد غيرة على الإسلام ، ألا يسان شرف البادشاه ؟ (منجمباشي ، ٣ ، ٥٢٨ - ٩) . ولم يجد صياح أولوج نفعا إذ قال « أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغدجه باشا ، لماذا لا يتكلمون ، هل يمكن أن تكون حرب بحرية في ساحل ؟ » (تحفه ، ٩٣) .

جرت حرب إينيبختي (Lepanto) إحدى أكبر الحروب في التاريخ ، بشكل دموي رهيب . استشهد قائد القوة البحرية مؤذن - زاده على باشا وابنه ، وأسر الأسبان ابنه الآخر . قتل الأميرال البندق Barbarigo . غرقت سفينة الأميرالية لبرتو باشا وشدت إلى الساحل بتضحية كبيرة وأنقذت . كان أولوج على بك يقود الجناح الأيمن . لم يفقد أية سفينة حربية من سفنه البالغ عددها ٤٢ . أباد كامل الأسطول المالطي الذي جابهه . قتل الأميرال - الكبير المالطي واغتنم رايته . استصحب بربروس - زاده حسن باشا وابتعد عن ساحة القتال . حيث لم تعد ترجى فائدة من المركز والجناح الأيسر العثماني .

إن كشف خسائر الحرب كان خفيفا لكلا الطرفين . ١٤٢ سفينة تركية بين غريقة وجائحة على الأرض أو مستولى عليها . استولى العدو على ٦٠ سفينة ، اقتسمت بين دول الاتفاق ، كما استولى على ١١٧ مدفعا كبيرا و ٢٥٦ مدفعا صغيرا صالحة للاستعمال خرجت من هذه السفن . تم تخليص ٣٠ ٠٠٠ من الأسرى الجدافة المسيحيين الذين كانوا في الأسطول الهمايوني . سقط آلاف من الأتراك شهداء و ٣٤٦٠ أسيرا . كان مجموع الشهداء والأسرى الأتراك يقارب ٢٠ ٠٠٠ . كانت خسائر المسيحيين ٨٠٠٠ قتيل ، ٢٠ ٠٠٠ جريح ، وقليل جدا من الأسرى (Hammer ، ٦ ، ٤٢٩) . لم تبق تقريبا سفينة حربية أو ناقلة مسيحية غير مصابة . فقد Cervantés كاتب دون كيشوت - الذي كان قد عاش سنين طويلة في الجزائر كأسير لدى الأتراك - ذراعه اليسرى . جرح أيضا القائد Don Juan .

كان ٣ من أسرى الأتراك برتبة لواء بحري وأحدهم ابن قائد القوات البحرية . حاز المسيحيون على ٣ شارات رأس لبرتو باشا ، راية مؤذن - زاده الحرية المطرزة بالذهب (أعاد البابا هذه الراية إلى تركيا في ١٩٦٥ كرمز للصداقة) .

لم تكن خسارة العثمانية الحقيقية خسارة مادية وإنما كانت خسارة معنوية . زالت شهرة العثمانية بأنها دولة « لانتقهر » ، وثبت فعليا إمكان قهرها . كانت تركية حقا

هى المنتصرة فى حرب البندقية ، ولم تكن إينبختى سوى حرب واحدة ضمن تلك الحروب ، لكنها كانت حربا ذات مغزى كبير . رقصت أوروبا فرحا .

« أثبتت إينبختى بأنه يمكن قهر الأتراك . ولكن لونظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها فولثير فى *Essai Sur les Moeurs* لاعتقد المرء بأن الأتراك هم الذين انتصروا فى إينبختى » . إن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب ، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث إثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية ، فهم قد شيدوا عددا من السفن يعادل ما فقدوه فى إينبختى ، وجهزوها وأثوثها وأنزلوها فى البحر الأبيض خلال عدة أشهر .. ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التى سجلها التاريخ ، وفى الوقت الذى كان البنادقة يشيدون التماثيل فيه على شرف انتصارهم ، كان الأتراك يعملون فى مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير ، لقد منح البادشاه قسما من أراضي حديثته الخاصة إلى المصنع لغرض إنشائه ٨ سفن ، وشيد الأتراك خلال شتاء واحد وهو الذى عقب إينبختى ١٥٣ سفينة حربية وجهزوها وهى أكثر من التى فقدوها فى إينبختى . وبذلك يكون الأسطول التركى قد فاق عدد مجموع سفن دول الاتفاق . وأساساً فإن المعاهدة التى عقدت مع البندقية صريحة جدا ، وهى تبين من هو المنتصر فى الحرب . إن انتصار إينبختى لم يجد نفعا للمسيحيين (Von Hammer ، ٦ ، ٤٣٠ - ٣) .

ولتقوية الروح المعنوية لشعب إستانبول ، استصحب أولوج على باشا صديقه بربروس - زاده حسن باشا مع القطع البحرية الموجودة فى بحر إيجه ، ودخل إستانبول بعد الهزيمة بشهرين ، ١٣ يوما مع أسطول كبير يتألف من ٨٧ سفينة حربية . مثل الأميرال بين يدى سليم الثانى ، وبدل اسمه إلى « قيليج على » (على القاطع أو على السيف) . تمت ترقيته من منصبه إلى قائد القوات البحرية وناظر البحرية . وهكذا دخل بين أعضاء الديوان بحار صلب لا يستريح له صوقوللو أبدا . لكن الوزير ٢ برتو باشا ، أحال نفسه على التقاعد . سر صوقوللو لخلاصه من أحد منافسيه . أصبح بيالة باشا المكروه أكثر من صوقوللو وزيرا ثانيا . توفى بربروس - زاده حسن باشا بعد عدة أسابيع من عودته إلى إستانبول .

غادر قيليج على باشا إستانبول مع ٢٤٥ سفينة حربية (١٥٧٢/٦/١٣) . كانت خطة أسطول الحلفاء إنقاذ قبرص . لكنه كان قد قدم ضحايا كثيرة من السفن

وخاصة من البشر ، ولعدم امتلاكه مخزونا من الأطعمة لم يتمكن من الدخول إلى قبرص ، فاتجه إلى المياه التركية بعد أن ضمد جراحه بأمل الاستيلاء على مودون . لكن دون جوان ابتعد وذهب حينما شاهد قيليج على باشا قادما مع أسطولته ومتجها نحوه . إن تمكن الأسطول التركي من تعويض خسائره خلال شتاء واحد خيب آمال إسبانيا والبندقية . اختلف دون جوان مع البنادقة أيضا وعاد إلى إسبانيا . مات البابا بيوس ٥ الذى كتب رسالة إلى الشاه الصفوى كما كتب إلى الإمام الزيدى فى اليمن يدعوها للتحالف (١٥٧٢/٥/١) .

عقدت معاهدة إستانبول بين تركية والبندقية (١٥٧٣/٣/٧) ، وهى تتكون من ٧ مواد من بينها ؛ تسدد البندقية إلى تركية ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب كعقوبات حرب رمزية ، تزداد الضريبة السنوية لجزيرة زنتا Zenta الموجودة فى حوزة البندقية من ٥٠٠ ليرة ذهب إلى ١٥٠٠ . تبقى قبرص لدى تركية . تلقت البندقية - التى خشيت من احتمال هجوم قيليج على باشا على كريت - خبر الصلح بسرور .

تحرك قيليج على باشا بالأسطول من إستانبول فى السنة التالية (١٥٧٣/٦/٣) . كان الوزير ٢ داماد بيالة باشا موجودا كذلك . تم تدمير سواحل إيطاليا الجنوبية المشرفة على بحرى Adria و Tiren . كانت هذه الحملة التى جرت بواسطة ٢٢٠ سفينة حربية مقدمة لفتح تونس . لقد كان أخذ قبرص من البندقية بمثابة تعويض عن خسارة إنيبختى ، وسوف تؤخذ بعدها تونس من إسبانيا .

(٧) فتح موسكو (١٥٧١/٥/٢٤)

سار خان قرم دولت كيراي فى ربيع ١٥٧١ بجيش مكون من ١٢٠ ٠٠٠ خيال أكثرهم من قرم ، وقسم منه جنود عثمانيون ، إلى روسيا . استصحب معه سرية مدفعية عثمانية . جرت هذه الحملة للتعويض عن هزيمة استرخان وتحذيرا للروس من محاولتهم التوسع أكثر . تشتت الجيش الروسى بعد أن خسر ٨٠٠٠ شخص ولم يتمكن من الدفاع عن موسكو . دخل الأتراك موسكو وأحرقوا المدينة . عاد الخان إلى قرم مع ١٥٠ ٠٠٠ أسير وعلى أثر انتصاره ، حصل على لقب " تحت - آلان " (كاسب العرش) . شاهد الأتراك الذين دخلوا موسكو فى ٢٤ أيار ١٥٧١

وأحرقوا حتى سزای الكرملين، فرار معظم الأهالي وأسروا البقية . وفى ١٥٧٢ ،
 سار دولت كيرای بحملة ثانية . اجتاز نهر Oka ، لم يصعد إلى الشمال أكثر من
 ذلك . دفعت روسيا ضريبة سنوية قدرها ٦٠ . ٠٠٠ ليرة ذهباً وعقدت صلحاً مع
 قرم (d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣ ؛ Lavis - Rambaud ، ٥ ، ٧٤٩ ؛ Hammer ، ٦ ،
 ٤٤٦) . لقد أدى ترك القيصر إيفان (المدهش) الرابع ٣٠ . ٠٠٠ خيال و ٦٠٠٠
 جندي مشاة من حملة البنادق وفراره من موسكو واغتنام الأتراك خزانة القيصر
 الموجودة في قصر الكرملن (هذه الكلمة تركية الأصل) ، ومقتل أخوى زوجة
 القيصر الإثنيين ، كل ذلك أدى بسلالة Rurik إلى الانقراض . بارك سليم الثانى
 دولت كيرای بإرساله إليه سيفاً مرصعاً وخلعة وكتاباً سلطانياً . لم يلتفت الديوان
 أبداً إلى سفراء الروس الذين جاءوا لإيقاف الغزوات القرامية ، وكان الشعب في
 إستانبول حانقاً جداً على الروس بسبب اجتلالهم إمارات قران وإسترخان . إن هاتين
 الإماراتين هما من أوائل الأقطار التى انتقلت لحوزة المسيحيين، وحالياً مسلمة ومازالت
 لدى الروس .

(٨) حملة تونس (١٥٧٤)

كانت مشكلة مسلمى الأندلس مستمرة بين العثمانية وإسبانيا ولا تزال تشكل
 جرحاً بليغاً ودامياً وتعرقل الديوان عن عقد الصلح مع أكبر دولة مسيحية .
 كانت إسبانيا في حالة حرب مستمرة ، تزعم الثوار المسلمين في الأندلس
 بالتسلسل ابن أمية ، عبد الله بن عبدو ومحمد منصور .

صعد جماعة الأندلسيين المجارين إلى سفوح سيرانفادا ، ثم إلى ذراها ، ذبحهم دون
 جوان غالب إينبختى بصورة قذرة . حقيقة لقد تكبد الإسبان خسائر جسيمة ولكنهم
 لم يكن قد بقى لديهم ما يخشون على ضياعه (١٥٦٩) .

اقتربت إسبانيا الظلم ذاته تجاه رعاياها البروتستانت الموجودين في إسبانيا ،
 هولندا . وأشهر اثنتين من هذه المجازر البشرية هي ذبح كل سكان مدينة Harleem
 البالغ عددهم ١٥ . ٠٠٠ نسمة في ١٥٧٣ وتكرار الفعل ذاته في ١٥٩٥ مع كل
 سكان مدينة Dullans البروتستانت البالغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة
 (Lavis - Rambaud ، ٥ ، ١٣٠) .

استمر أولوج على باشا في الاهتمام بقضية المهاجرين الأندلسيين عند تعيينه واليا (فريق أول) على الجزائر اعتبارا من ٢٧ حزيران ١٥٦٨ وحتى تعيينه ناظرا للبحرية وقائداً للقوات البحرية (قبودان دريا) . وكان قبلها قد قام بالولاية (برتبة لواء) على تلمسان لمدة طويلة ، ونقل مهاجرين أندلسيين على دفعات عديدة . وهو أحد الأميرالات من بقايا عهد الإخوة بربروس الذين قلوا كثيرا ، كما أنه خبير كبير بأمور المغرب والأندلس . أرسل سفنه الـ ٤٠ إلى ميناء Almeria (بالعربية : المرية) في إسبانيا . وتمكن من توصيل قدر كبير من الأسلحة النارية إلى الثوار في جبال الأندلس . أركب آلاف المهاجرين من الذين أمكنهم الاقتراب إلى الساحل .

اجتاز المياه المواجهة لوهراو ودخل فاس مع ١٤٠٠٠ جندي تركي ، ٦٠ ٠٠٠ جندي عربي بربري أكثرهم مهاجر أندلسي و ١٤٠٠ جمل محمل بالبارود وجاء أمام أسوار فاس .

تمكن عدة مئات من جنود البحرية الأتراك من النزول في الأراضي الإسبانية مع أسلحتهم النارية ومن بينها المدافع ، والوصول إلى الثوار الأندلسيين والانضمام إليهم . وفي ١٥٦٩ جرى إنزال على الأندلس على نطاق أوسع . عدة مئات من جنود البحرية ، دخلوا أعماق الأندلس ومعهم ٤٠٠٠ بندقية ومهمات أخرى وانضموا إلى الثوار .

ومن ناحية أخرى ، كان شعب مدينة تونس يعاني من أمرين ، ظلم الإسبان والحفصيين . جاء أعيان الشعب وممثلوهم إلى إستانبول أيضا وشكوا مصائبهم بعد استراحتهم في الديوان (١٥٦٣) . كانوا يريدون قدوم العثمانية وطرد السلطان والحامية الإسبانية من مدينة تونس ، خاصة وأن التونسيين كانوا يشاهدون المدن وعلى رأسها مدينة الجزائر والموانئ الجزائرية قد اغتنت جدا بفضل مبيعات الغنائم التركية ، كما استقر فيها الأمن بشكل لم يسبق له مثيل من أية إدارة حتى ذلك التاريخ .

سار أولوج على باشا بعد أن ترك وكيلا عنه في الجزائر ، على تونس بـ ٥٠٠٠ جندي تركي و ٦٠٠٠ عربي (أيلول ١٥٦٩) . ورغم أن السلطان الحفصي قابله بـ ٣٠ ٠٠٠ جندي فقد انتقل هؤلاء الجنود إلى صفوف أولوج على باشا .

لجأ السلطان إلى الحامية الإسبانية في حلق الواد .

دخل الباشا مدينة تونس (ك ١٥٦٩/١) استبقى رمضان بك (باشا) في المدينة كوال .

جاء السلطان الحفصى بعد مدة مع الإسبان وطرد رمضان بك وجنوده ال ٣٠٠٠ . ورغم أن أولوج على باشا راجع الديوان مرارا سواء حول القيام بإنزال واسع النطاق على الأندلس أو فتح مدينة تونس الحاسم ، لكنه لم يحصل على أية نتيجة من بطل الصلح صوقوللو محمد باشا .

حاول أولوج على باشا بعد أن أصبح عضوا في الديوان الهمايوني وقائدا للقوات البحرية باسم قيليج على باشا في إستانبول أن يشرح الوضع للوزراء في الديوان . ومع أن بيالة باشا أيده ، إلا أن الأكثرية في الديوان كانوا ينظرون إلى الكلمة التي ستخرج من فم الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . وصرح للديوان بأن بربروس - زاده حسن باشا الكبير السن مطلع أتم الاطلاع على قضايا المغرب وأوصاهم بتعيينه مرة أخرى في الجزائر بدلا منه . أنفذ الديوان هذا التعيين ، لكن حسن باشا توفى قبل مغادرته إستانبول (١٥٧٢/٣/١٥) .

رفع اللواء البحري والى قوجا إيلي (إزميت) أحمد بك إلى رتبة الأدميرالية (فريق أول بحري) وأرسل إلى الجزائر .. ولحين قدومه قام ميمي Memi رئيس أحد الأmirالات المشهورين بإدارة الإمالة بالوكالة (Divân - Hümayûn Mühimme Defteri ، ١٠ ، ١٧٩) . كان الوالى الجديد أحمد باشا ، أميرالا قديرا نشأ في كنف قيليج على باشا ، ولأن أمه إسكندرانية ، كان يجيد التكلم بالعربية وكان أمير لواء بحري (والى) على رودس ، قبل كونه واليا على قوجا إيلي .

ورغم أن ثلاثة أرباع تونس تابعة للعثمانية لإمالة طرابلس ، إلا أن إسبانيا كانت تحتل شمال القطر ومدينته الكبيرة تونس . جاء دون جوان مع ١٣٨ سفينة حربية و ٢٧٠٠٠ جندي إلى تونس . كان رمضان بك (باشا) الشهير الذى كان يحمل لقب « تونس سنجق بك » (أى لواء بحري « والى » تونس) قد ترك مدينة تونس وأقام في القيروان التي لا يصلها النفوذ الإسباني - الحفصى . استدعى الديوان أحمد باشا إلى إستانبول وعين رمضان بك بمنحه رتبة بكربك (فريق أول بحري) واليا على إمالة الجزائر (١٥٧٤/٣/٢٧) بدلا منه ، استنادا إلى أنه أكثر خبرة منه بأمر

المغرب . كان دون جوان قد ترك في تونس ٨١٠٠ جندي ثم عاد . كان رمضان باشا عازما على إخراج الإسبان من تونس وكذلك من فاس ، وكان عالما بأن أستاذه قيليج على باشا سوف يسانده في الديوان . كان أميرالا واسع البصيرة ويحتمل أنه آخر بحار تركي داهية في القرن ١٦ ، وأصغرهم سنا . فصل الديوان الأراضى التونسية من إمالة طرابلس وأسس إمالة تونس الجديدة وعين حيدر باشا واليا عليها (١٥٧٣/٥/١٧) . كان حيدر باشا مقيما في القيروان . وفي هذه الحالة كان فتح تونس الخامس قد استكمل وفي انتظار المحاولة العثمانية .

خلع الإسبان السلطان أحمد الذي لم يستطع الدفاع عن تونس وظفر بها الأتراك . توسل أخوه مولاي حميد لدى الدون جوان لاحتلال مكان أخيه الكبير ، وحاول كثيرا في هذا الشأن دون جدوى . أرسل مع عائلته للإقامة في مدينة نابولي . لكن الأخ الآخر مولاي محمد ، أصبح الحاكم ٢٤ والأخير لحفصى تونس بلقب « نائب الملك الإسباني وأمير (infant) الملكية الإسبانية في تونس » . كانت نهاية هذه السلالة السنية - الملكية البربرية المستعربة التي دامت ٣٤٦ سنة منذ ١٢٢٨ قد دنت .

سار الأسطول الهمايوني من إستانبول (١٥٧٤/٥/١٥) لأخذ مدينة تونس من الإسبانين . جرت مراسم عسكرية ودينية كبيرة أمام قبر بربروس ، وبعد تحية القبر بمدافع السفن أبحرت ٢٩٨ سفينة تحمل ٤٠٠٠٠ جندي ، ٧٠٠٠ منهم إنكشارية و ٤٨٠٠٠ جندافة . كان ناظر البحرية المشير البحري قيليج على باشا قائدا للأسطول ، والقائد العام الوزير قوجا سنان باشا قائدا للقوات البرية . جاء الأسطول إلى تونس (٢٢ تموز) بعد أن دخل ميناء مسينا وقام بعرض . كان الأسطول يحتوى عدا قائد البحرية على ٤ فرقاء أول بحرين (والى طرابلس مصطفى باشا ، والى تونس حيدر باشا ، والى الجزائر رمضان باشا ، والى الجزائر السابق ثم والى قبرص أحمد باشا) . كان الإسبان قد حصنوا قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette ؛ بالإسبانية : Gouletta) بشكل ممتاز . قاوم الإسبان بشدة في هذه القلعة التي سبق أن انتقلت لحوزة العثمانيين مدة ٣٣ يوما . فتحت في ٢٤ آب . قتل ٥٠٠٠ جندي إسباني - إيطالي وأسر ٣٠٠٠ منهم . كان الأدميرال Pagano Doria بين القتلى ، وكان القائد العام Don Pietro والسلطان الحفصى محمد بين

الأسرى . أرسل مولاي محمد مع عائلته إلى إستانبول وخصص له قصر أقام فيه إلى نهاية عمره . غنمت العثمانية ٢٢٥ مدفعا و ٣٣ راية ، أرسل منها ١٩٠ مدفعا إلى إستانبول . زرع قيليج على باشا ٣٠ لغما وفجر هذه القلعة الشهيرة ليقطع الطريق على مجيء الإسبانيين الذين لم يكن أمامهم بعد تفجير القلعة سوى مدينة تونس المفتوحة .

أنقذت البلاد التونسية من تسلط الإسبان مدة قرن تقريبا . سقطت في ١٣ أيلول قلعة Bastion (بالعربية : البسطيون) الموجودة في أحد جوانب مدينة تونس التي يقوم بحمايتها ٢١١٠٠ إسباني بعد حصار دام ٦ أيام . دخلت المدينة الكبيرة التي تحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف نسمة من السكان في حوزة العثمانية لمدة ٣٠٧ سنة . دامت الحملة ٦ أشهر و ١٦ يوما . وقف السلطان سليم الثانى الذى تسلم خبر الفتح بعد ٣٤ يوما (١٧ ت ١) من الفتح لمشاهدة عودة الأسطول الهمايوني (١٥٧٤/١١/٣٠) . كان قد بقى من عمره ١٥ يوما . أهدى قيليج على باشا سيفاً مرصعاً و ٣٠٠٠ ليرة ذهب وهدايا أخرى .

نقل حيدر باشا مركز الإيالة من قيروان إلى مدينة تونس ، زوده قيليج على باشا بـ ٤٠٠٠ جندي إضافي . أسست في تونس كما في الجزائر حامية إنكشارية من المتطوعين القادمين من الأناضول الذين ليست لهم أية علاقة بحماية الإنكشارية الموجودة في إستانبول . (تحفة الكبار ، ٩٧ - ٨ ؛ بجوى ، ١ ، ٥٠١ - ٣ ، صولاقزاده ، ٥٩٤ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٣١) .

(٩) وفاة السلطان سليم الثانى (١٥٧٤/١٢/١٥) وشخصيته

توفى السلطان سليم الثانى على أثر سقوطه من جراء انزلاق قدمه أثناء استحمامه في حمامه في سراى طوبقايو . توفى بعد عدة أيام من هذه الحادثة بسبب نزيف دماغى (١٥٧٤/١٢/١٥) . كان عمره يتجاوز الـ ٥٠ سنة بـ ٦ أشهر و ١٨ يوما . دامت سلطنته ٨ سنوات و ٣ أشهر و ٨ أيام . توفى في ذات العمر الذى توفى فيه جده السلطان ياوز سليم الأول وسلطنة ياوز تيزيد على سلطنة حفيده بـ ٥٠ يوما فقط . الشبه ينتهى هنا ، فقد كان سليم الثانى هو السلطان العثمانى الأول الذى

لم يتمكن من اللحاق بركب أجداده . ومع أن حلقة الدهاة قد جاءت بعد ذلك بين الحين والآخر بثمارها لكنها اكتملت بالسلطان سليمان القانوني ولم تتعداه إلى السلطان سليم الثاني .

كان السلطان سليم ، أول سلطان يولد في إستانبول ، وهو كذلك أول سلطان يموت فيها . دفن في فناء جامع أياصوفيا في قبره الجميل من بناء سنان ، ورغم تشييده جامعته الكبير سليمية في أدرنة ، إلا أنه لم يتيسر أن يدفن فيه .

كان متوسط القامة ناصع الجبين . عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ، أشقر ، صيادا وصانع أقواس ماهرا . اشترك في حملات أبيه الهمايونية ، وشاهد أقطارا كثيرة جدا ، تمت تنشئته وتعليمه بشكل ممتاز لكنه ترك أمور الدولة بشكل واسع إلى صهره صوقوللو محمد باشا الذي كان أكبر منه سنا . وهو وزيره الأعظم الأوحده . هو أول حاكم لم يخرج إلى الحملات بنفسه . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الحملات كانت عبر البحار وأن صوقوللو اتبع سياسة عدم خروج البادشاه للحملات لئلا يخرج هو كذلك .

لم يخرج صوقوللو إلى الحملة أبدا طيلة مدة وزارته العظمى الطويلة . ومع خشيته من صوقوللو ، والأصح من الانكشارية الذين يستند عليهم ، لم يسمح لصوقوللو بالقضاء على كثير من رجال الدولة الذين أراد البطش بهم . وحاهم بشكل يليق بذكائه . ولولا هذه الحماية لما تمكن لالا مصطفى باشا (الذي سيفتح قبرص) ولا أوزدمير أوغلو عثمان باشا (الذي سيفتح القفقاس) من احتفاظهما بحياتهما . وكذلك كان فتح قبرص وتعيينه أميرا لكفليج على باشا إلى القيادة البحرية ونظارة البحرية ، نتيجة لقراره الشخصي ، واستمر على طريقة أبيه في محبته للبحارة .

كان حاكما رقيقا ، حساسا ، متواضعا ، يحب المشروبات ، مدركا لمصلحة الدولة ولا يقبل على العمل الكثير . شاعريته مشهورة . إن بيت الشعر التالي الذي قاله يعتبر من أجمل الأبيات في الشعر التركي بأسره ، البيت معناه :

نحن بلبل يشكو من حرقة نار الفراق لو مرت ريح الصبا بحدائق أورادنا لانقلب نار

بناته ، أسهمان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٥/٨/٧) ، جوهرخان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٠) ، فاطمة سلطان (١٥٤٨ - أيلول ١٥٨٠) وقد تزوجن بالتسلسل بالوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا (١٥١٠ - ١٩٧٩/١٠/١٢) ، الوزير ٢ داماد بيالة باشا (١٥١٠ - ١٥٧٨/١/٢١) ، الوزير الأعظم داماد سياوش باشا (وفاته ١٦٠٢) . ابنته الأخرى شاه سلطان (١٥٤٤ - أيلول ١٥٨٠) تزوجت بداماد جارقجياشي حسن باشا (وفاته ١٩٧٤/١/١٣) (وزير) ، ثم بالوزير داماد زال محمد باشا (١٥٣٠ - ١٥٨٠) .

كان أولو شهزاده (ولي العهد) مراد واليا على مانيسا . جاء إلى إستانبول مساء يوم ٢١ ك١/١٥٧٤ وجلس على العرش . أمه نوربانو والده سلطان (١٥٣٠ - ١٥٨٣/١٢/٧) . كان السلطان مراد ٣ واليا على آقشهر مدة ٣ سنوات ، ثم مايقرب من ١٤ سنة واليا على صاروخان (مانيسا) ووليا للعهد منذ جلوس والده نحو ٨ سنوات و ٣ أشهر . كان عمره عند جلوسه ٢٨/٥ سنة . وفي صباح يوم ١٢ ك١ تقبل بيعة صهره الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٢ داماد بيالة باشا ، الوزير ٣ أحمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٤ داماد زال محمود باشا ، الوزير ٥ لالا مصطفى باشا ، الوزير ٦ قوجا سنان باشا ، شيخ الإسلام حامد أفندي ، الأفندي قضاء العسكر وناظر البحرية قيليج على باشا .

(١٠) اتحاد امبراطورية فاس مع الدولة العثمانية (١٥٧٦/٣/٩)

مات أبو عبد الله محمد المهدي الشيخ سلطان فاس ، بعد سلطنة دامت ١٨ سنة ، عن عمر يناهز ٦٩ سنة (١٥٥٧/١٠/٢٣) .

كان والي الجزائر صالح باشا قد دخل مدينة الجزائر على عهده في ١٥٥٣ وأسس نظام الحماية العثمانية . لكن فاس كانت قد رفضت هذه الحماية بعد عدة سنوات . ولكن نفوذ العثمانية لم يرفع عن إيالة الجزائر في أي وقت من الأوقات . كانت العثمانية تتخوف من اتفاق فاس مع إسبانيا والبرتغال ؛ حيث إنها كانت قد سلكت هذا الطريق مرات عديدة . كان ٨ من أولاد محمد ٢ العشرة ، على قيد الحياة حين وفاته في ١٥٥٧ . كان قد قتل بنفسه أحد ابنه اللذين ماتا وهو مولاي عبد الله الأول في ١٥٥٠ ، والآخر هو مولاي عبد القادر ، قتله ببربروس - زاده حسن باشا في العام ذاته . كان عبد الله الأول

(أبو محمد عبد الله الغالب) الذى خلف محمد ٢ وعمره ٣٠ سنة قد تعايش مع
العثمانية بصورة جيدة ؛ أرسل إلى سليم الثانى سفراء وهدايا . ومات بعد سلطنة دامت
١٦ سنة (١٥٧٤/١/٢١) . خلفه ابنه الأصغر محمد ٣ . لكن عميه مولاي
عبد الملك ومولاي أحمد حاولا إسقاط ابن أخيهما والجلوس على مقام السلطنة .
وقد كان مثل هذا الوضع مألوفاً لدى سلالة فاس الحاكمة وهو أحد أسباب الضعف
الكبرى لهذه الدولة ؛ إذ كان يستعين الذى يريد قهر خصمه بالإسبانيين أو
البرتغاليين . وهذا كان يسبب قلقاً كبيراً للدولة العثمانية .

جاء مولاي عبد الملك إلى إستانبول . صعد أولاً إلى الديوان الهمايونى وقابل أركان
الحكومة العثمانية بصورة رسمية ، ثم اجتمع بمراد الثالث بناء على طلبه . وطلب عرش
فاس على أن يكون تابعاً للبادشاه .

أيد قيليج على باشا فى الديوان هذا الطلب بشدة . حيث إن الاتحاد مع فاس ،
عدا أنه حلم كافة ولاء الجزائر ، فإن مولاي عبد الملك (وهو صديق قيليج على
باشا) كان أميراً صديقاً للعثمانية ويحيد اللغة التركية ، وكان قد بقى فى الجزائر ضعيفاً
على قيليج على باشا لسنوات طويلة . أدرك مبلغ قدرة العثمانية لا بالسماع ولكن
بالمشاهدة . كان يكره الإسبانيين والبرتغاليين لما فعلوه مع المسلمين فى الأندلس
والمغرب ، كذلك كان يخشى كثيراً من استيلاء المسيحيين على فاس . وكان يدرك
جيداً أنه لولا وجود العثمانية لاحتلت إسبانيا والبرتغال كافة المغرب منذ زمن بعيد ،
تزوج بابنة التاجر الفاسى الحجاج موراتو المقيم فى إستانبول .

تحرك الديوان بعد أن تسلم بيان والى الجزائر رمضان باشا العلنى عن مولاي
عبد الملك وتقرير قيليج على باشا السرى . كتب رسالة إلى محمد ٣ ابن أخ
عبد الملك وطلب تركه نصف شمال القطر لعنه عبد الملك ، حيث إن فاس الشمالية
هى من المناطق الحساسة التى تخشى العثمانية تعرضها للاستيلاء الإسبانى أو البرتغالى .
رفض محمد ٣ .

سار رمضان باشا من الجزائر ، ويلاحظ أنه بالإضافة إلى عدم وجود وحدة
داخلية فى دولة فاس ، فإنها كانت مفتوحة للاستيلاء الخارجى ، خرج كل من
عبد الملك وأخيه عبد المؤمن الذى يؤيد أخاه الكبير اللذين كان يتسلم كل منهما

راتبا شهريا قدره ألف ليرة ذهباً ، من الجزائر مع رمضان باشا . كان الجيش العثماني مكونا من ٧٠٠٠ جندي بحرية و ٧٠٠ سباهي (فارس) و ١٠٠٠ قول أوغلو (التركي المولود من أم عربية) و ٦٠٠٠ فارس عربى بربرى (المجموع ١٤٧٠٠ جندي) . وبالطبع كانت المدفعية متوفرة كذلك .

وقد انضم إليهم فى الطريق الفاسيون المؤيدون لعبد الملك . ارتفع عدد الجيش إلى ٢٠ ٠٠٠ .

اجتاز الباشا مدينة فاس . شوهد جيش محمد ٣ البالغ ٦٠ ٠٠٠ شخص قرب مكناس . لكن الأندلسيين الموجودين فى هذا الجيش انضموا إلى الصفوف العثمانية . تمكن الباشا من كسر السلطان بسهولة . فر محمد ٣ .

دخل العثمانيون مدينة العرش فاس . أعلن رمضان باشا مولاي عبد الملك ساطانا (١٥٧٦/٣/٩) باسم خليفة الكرة الأرضية مراد خان الثالث . جاء قيليج على باشا بصحبة الأسطول الهمايوى إلى البحر الأبيض للحيلولة دون مساعدة إسبانيا لمحمد ٣ . لم يكن محمد ٣ الذى خلع بعد سلطنة دامت سنتين وشهرا وتسعة عشر يوما ، ينوى ترك العرش لعمه مولاي عبد الملك الذى كان عمره ٤٩ سنة . وطلب المعونة من إسبانيا والبرتغال الدولتين المسيحيتين الحائزتين على أكبر قوة عسكرية وبحرية فى العصر واللتين كانتا ألد أعداء العثمانية والعالم الإسلامى كافة فى ذلك التاريخ . انسحب محمد ٣ إلى مراكش مركز البرابرة الخالص فى الجنوب .

كان السلطان عبد الملك حاكما عاقلا ، تمكن من تنمية معلوماته فى السياسة العالمية باختلاطه بالمحيط العثماني ، وقد أدرك بأن فاس فى حالة انحطاط وأنه يعيش حاليا عصر المرابطين والموحدين وبداية عهد المرينيين ، ومن ثم فإن من مصلحته أن يلتف بصدق حول السياسة العثمانية ، وإلا فستكون بلاده طعما لإسبانيا والبرتغال .

أرسل إلى إستانبول ٢٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهباً ضريبة عن السنة الأولى ، وأفاد بأنه خادم السلطان مراد المخلص ، وبدأ بإصلاح الجيش والنظام الفاسى متخذاً تشكيلات النظام العثماني نموذجا له ، وقد جلب لهذا الغرض من الجزائر ضباطا أتراكا ، وكان لباسه كلباس البادشاه العثماني وقلنسوته مماثلة له ، وكان يخرج لصالة الاستقبال يوم الجمعة باحتفال عسكري مثله ، وحتى تشكيلات الحراسة فى قصره جعلها على غرار

تشكيلات سراى طوبقايو . وأخذ من الجزائر كميات كبيرة من المدافع والتجهيزات العسكرية الأخرى ، وسدد لخزينة الجزائر عن المساعدات التي تسلمها مبلغ ٤٨٠٠ ٠٠٠ قطعة ذهب . وتقلد السيف الذي أرسله له مراد الثالث وارتدى الخلعة .

سار بجيشه إلى ابن أخيه محمد ٣ واحتل مراكش . جاء رمضان باشا إلى واحة فجيج وألحقها بإيالة الجزائر . إلا أن الديوان عزل رمضان باشا لعدم تقديمه المساعدة إلى السلطان عبد الملك في حملته على مراكش وأمره بالبقاء في موقعه لحين استلامه أمرا جديدا . نقل الأدميرال أولوج حسن بك الشجاع والشديد جدا وعمره ٣٠ سنة من وظيفة لواء بحرى في سلانيك إلى وال على إيالة الجزائر مع ترفيعه إلى رتبة فريق أول .

نشأ أولوج حسن باشا كجندى بحرى لدى طرغد باشا ، ثم كضابط بحرى لدى قيليج على باشا ، وقبطان (قائد سفينة) ثم لواء بحرى في حمايته ، كان قد عين كوال (فريق أول بحرى بكلمرك) على الجزائر بتوصية قيليج على باشا أيضا . وكان الأديب الإسباني الشهير Cervantes قد أسر على يدميمى Memi رئيس وأهدى إلى حسن باشا ، ثم أطلق سراحه بعد أن خدم عدة سنوات لدى حسن باشا كعبد . وكان مؤلف دون كيشوت ، قد كتب عن سيده أولوج حسن باشا قائلا : « رجل لامع العينين ، معجب بنفسه ، ظالم » . والمعلوم أن أولوج حسن باشا ، أصبح ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية بعد وفاة قيليج على باشا وبقي في هذا المقام ٣ سنوات ، ٣ أشهر ومات وهو ناظر للبحرية وعمره ٤٤ سنة (١٥٨٨/٤/١٤ - ١٥٩١/٧/١٢) ولو قدر له أن يعيش لأصبح أميراً لمرشحا ليكون من كبار البحارة المشهورين .

(١١) انتصار وادى السيل (١٥٧٨/٨/٤)

جاء أولوج حسن باشا إلى الجزائر ١٥٧٧/٧/٢٧ وسار فورا بحملة جزر بالير Balear . أمر الديوان الذى علم بأن محمد ٣ طلب مساعدة من إسبانيا والبرتغال ، حسن باشا بتولى أمور إيالة الجزائر وأسطولها والحملات البحرية ، والانتباه إلى عدم

إصابة الجزائر بأى ضرر من قبل العدو ، أما رمضان باشا فقد كلفه الديوان بالدفاع عن سلطان فاس عبد الملك ضد المستولين المسيحيين .

كان ملك البرتغال Sebastiano ، يستعد لحملة فاس منذ ٣ سنوات . طلب مساعدة إسبانيا أيضا . وعد فيليب الثانى ملك البرتغال الشاب بالمساعدة ، شريطة أن يتزوج بإحدى بناته . وافق سيباستيانو رغم نفوره من النساء . وهكذا تسلم من اسبانيا ٥٠ سفينة حربية و ٥٦٠٠ جندي مشاة . سيدفع فيليب ثلث مصروفات الحملة ، على أن تكون ثلث الفتوحات التى ستجرى فى فاس لإسبانيا ، وثلثهما للبرتغال . حقا إنها كانت قسمة عادلة ! .

ستكون سواحل فاس على الأطلسى بكاملها من حصبة البرتغال ، وتقسم سواحلها على البحر الأبيض بين البرتغال وإسبانيا ، وتكون سلطنة فاس دولة برية ، تؤخذ تحت حماية البرتغال ، ويطرد العثمانيون منها ويزاحون .

غادر الملك Sebastiano البرتغال (١٥٧٨/٦/٤) لتحقيق هذا الهدف وأنزل الجنود فى ميناء أرزيلة على الأطلسى فى جنوب غربى طنجة ، بهدف أخذ ميناء العريش (بالفرنسية : Larach) . لكنه عندما علم بمسيرة رمضان باشا إليه من الجزائر ، نزل إلى سهل وادى السيل على مقربة من الجنوب - الشرق للقضاء على العثمانية . شاهد الجيشان بعضهما قرب مدينة القصر الكبير (بالإسبانية : Alcazarquivir) الكائنة فى هذا السهل . ستحسم كل من تركيا والبرتغال نزعهما الخفى طيلة ٦٠ سنة والذى يجرى على الأغلب فى البحار الهندية ، فى هذا الموقع .

كان رمضان باشا قد عين فى هذه الأيام واليا (فريق أول) على إيالة تونس ، لكنه نظراً لسعة معرفته بشئون فاس كلف من قبل الديوان بمهمة طرد المستولى فى فاس ، ولم يكلف أولوج حسن باشا .

جاء من تونس إلى شمال فاس مسرعا ، وعلم أن مجموع الوحدات الإسبانية المساعدة والفاسيين الموالين لمحمد ٣ والجيش البرتغالى قد ارتفع عدده إلى ٨٠ ٠٠٠ جندي و ٣٦٠ مدفعا . كان هذا الجيش يشتمل على وحدات بابوية ، وإيطالية ، وألمانية ، وحتى فرنسية . أما الأسطول البرتغالى - الإسبانى ، فكان على سواحل الأطلسى من فاس . تمكن رمضان باشا من جمع مايقرب من ٣٠ ٠٠٠ جندي تركي

ونحو ٣٠.٠٠٠ جندي عرني . سمي الأوريون هذه المعركة باسم « معركة الملوك الثلاثة » ، لوجود ملك البرتغال ومحمد ٣ في صفوف جيش العدو ووجود السلطان عبد الملك في الطرف المقابل . وفي الحقيقة كانوا ٤ ملوك ، حيث إن أخا عبد الملك ، سلطان المستقبل أحمد الثاني كان في الجيش العثماني .

أهاد رمضان باشا ، الجيش الصليبي بشكل حاسم خلال ساعات . خسر العدو نحو ٢٠.٠٠٠ قتيل ونحو ٤٠.٠٠٠ أسير . تمكن ٢٠.٠٠٠ من جنود العدو من النجاة واللجوء إلى الأسطول في الساحل بصورة مشتتة (Hammer ، ٧ ، ٥٥) . كان ملك البرتغال وكبار رجال الدولة البرتغالية بين القتلى . انتقل ٣٦٠ مدفعا لحوزة العثمانيين . أمر رمضان باشا بقتل محمد ٣ الذي دعا المسيحيين إلى البلاد فوراً . كان السلطان عبد الملك مريضاً . لكنه رغب في أن يترأس الوحدات الفاسية . كان يائساً تماماً . كان لا يعتقد أن الجيش العثماني الصغير سيتمكن من قهر العدو الذي جاء بجيش جرار ، كان قلقاً جداً خشية دخول بلاده تحت الحكم المسيحي . ياترى هل سيتمكن الجيش العثماني - الفاسي من الانسحاب بخسائر طفيفة ؟ وعندما علم بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة وأن الملك كذلك قتل مات في لحظتها من شدة الفرح . وطارد الباشا العدو حتى ساحل الأطلسي ، وأعطى للأسطول التركي الذي يقوده سنان رئيس أمر الهجوم . انكسر الأسطول البرتغالي - الإسباني الذي لم يتمكن من التحرك والاستدارة بسبب تعب الجنود المنهزمين . غرقت كثير من السفن البرتغالية ومات آلاف البرتغاليين . أنقذ الأتراك ٥٠٠ منهم وانتشلوهم من الماء إلى السفن التركية . ولم يفقد الأتراك ولا سفينة واحدة .

أعلن رمضان باشا حينما علم بوفاة السلطان عبد الملك في ساحة الحرب أخاه مولاي أحمد سلطاناً بلقب « أبو عباس أحمد المنصوري الذهبي » . كان أحمد الثاني في الـ ٢٩ من عمره . وهو ٧ الأشرف السعديين . قضى في العرش مدة ٢٥ سنة حتى ١٦٠٣/٩/٥ . يعتبر عهده من ألمع الفترات التي عاشتها فاس . حرص على التعايش مع الدولة العثمانية . كان أحمد الثاني في الـ ٨ من عمره عندما احتسب مع أخويه الكبار عبد الملك وعبد المؤمن لدى والي تلمسان كلاجيين سياسيين ، ثم لدى والي (فريق أول) إمالة الجزائر ، وكان قد أقام سنوات عديدة في الجزائر . تعلم اللغة التركية ، شاهد قدرة العثمانية بعينه . ولد مولاي إسماعيل أحد ابني

السلطان عبد الملك في هذه المدينة ، عاش في إستانبول وتطبع بالعادات التركية وأصبح كالأتراك .

سار السلطان أحمد ، في الطريق التي سلكها أخوه . دعا آلاف العثمانيين إلى فاس . جدد تشكيلات دولته على النظام العثماني . قسم بلاده إلى إيالات كما في الدولة العثمانية . وعين على رأس كل منها والى إيالة بلقب « باشا » وهذا النظام مطابق للنظام الملكي (المدني) العثماني ، تمثل ألقاب باشا وبك التي يمنحها سلاطين فاس ، ذكريات بقيت من هذا العهد ، كما ساند الحركة الوطنية البرتغالية ضد إنكلترا وهولندا وإسبانيا ، بناء على مارسمته سياسة الديوان ، وطبق سياسة مخاصمة تماما لإسبانيا . تسلم من السلطان مراد الثالث رسائل سلطانية عديدة تبين امتنانه . وكانت العثمانية قد اتخذت كافة التدابير لمنع أى تدخل برتغالي أو إسباني في فاس بعد الآن . وعلى سبيل المثال ، أمر أولوج حسن باشا ، بقتل وزير (رئيس وزراء) فاس المدعو ابن رضوان الذي ثبتت علاقته بالإسبانيين . أنقذ مراد الثالث أحمد الثاني وأبناءه من قلقهم بشأن المدعين بالسلطنة بتكراره مراراً أن فاس ستبقى لأحمد الثاني ومن ثم لأبنائه . ومن كتاب البادشاه المؤرخ ١٥٨٢/٨/١٣ الموجه إلى السلطان أحمد : « ستنقل ولاية فاس عن طريق الإيالة نسلا بعد نسل (من الأب إلى الابن) إلى انقراض الزمان وتعتبر كبقية ملحقات إمبراطوريتنا » (مهمة دفترى ، ٤٨ ، ٣١) .

قلق السلطان أحمد بقدر ماقلقت إسبانيا من حملات قبليج على باشا في غرب البحر الأبيض في ١٥٨٢ و ١٥٨٣ . حيث إن فكرة الباشا في جعل فاس إيالة كالجزائر كانت معلومة . لكن الديوان كان يعلم بأن فاس لاتشبه الجزائر ، وأنها تملك سلالة حاكمة عريقة جدا ومنحدرة من نسل الرسول (ص) . ورغم محاولات الباشا العديدة لم يسلك الديوان هذا الطريق . إن الكتاب السلطاني المؤرخ ١٥٨١/٣/٨ الذي أرسله مراد الثالث لوالى (فريق أول) الجزائر يدعو إلى الانتباه : « يبقى السلطان أحمد في مقامه مادام يتلو الخطبة الشريفة في منابر مساجد بلاد فاس ويطبع السكة اللطيفة باسمي ولايصدر منه مايشعر بالخيانة » (مهمه ، ٤٢ ، ٨٣) .

استدعى أولوج حسن باشا من الجزائر إلى إستانبول بعد ٥ سنوات و ٧ أشهر . أصبح جعفر باشا لمدة ١١ شهراً ، ثم (ت / ١٥٨٣/٢) رمضان باشا للمرة الثانية ، وبعد عدة أشهر تولى أولوج حسن باشا مرة أخرى ولاية على الجزائر . قتل رمضان

باشا ١٥٨٩ بطلقة أثناء شجار جرى بعد مجيئه من تونس إلى الجزائر بقليل .

سيطر أولوج حسن باشا في فترة ولايته الثانية مع أميراليه المشهورين جدا الرئيسين ممي (محورة عن كلمة محمد) ومراد على غرب البحر الأبيض . طارد Giovanni Andrea Doria حتى ميناء جنوة . حرق ميناء Alicante الإسباني . أوصل المساعدات إلى الأندلسيين . نقل كثيرا جدا من الأندلسيين إلى المغرب . خرب المناطق المجاورة لبرشلونة وأنقذ ٢٠٠٠ تركي من الأسر . اختلف مع السلطان أحمد بسبب فجيح . جاء السلطان أحمد إلى هذه الواحة وأعاد المسئولين الأتراك بعد إعزازهم وإكرامهم إلى الجزائر . أبلغ حسن باشا بأن هذه الواحة التي ألحقها رمضان باشا سابقا تعود لإيالة وطلب تخليتها في الحال . قال السلطان أحمد بأن السلطان مراد كان قد تطف وأهداه هذه الواحة . سأل حسن باشا الديوان . أيد الديوان ذلك . وأمر ترك الواحة إلى السلطان (١٥٨٤/١/٢٦) . إن مجموع مدة إدارة حسن باشا للجزائر في الدفتين ٩ سنوات و ٧ أشهر . وقد تسلم أمر تعيينه ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية وطلب قدومه إلى إستانبول (١٥٨٨/٤/١٤) وبعد ٢٤ ساعة من وفاة أستاذه قيليج على باشا أصبح كل من محمد باشا والي طرابلس الغرب ، وبعده بعدة أشهر استانكويلو أحمد باشا والين (فريق أول) على إيالة الجزائر . قام أحمد باشا بحملة كبيرة على إسبانيا ، لكنه نقل في السنة التالية (١٥٨٩) إلى إيالة طرابلس . أصبح خضر باشا وبعد ٤ سنوات (١٥٩٣) شعبان باشا والين برتبة فريق أول . استدعى إلى إستانبول بعد سنتين (ك٢/١٥٩٥) . قام بإدارة الإيالة بالوكالة لمدة ٤ أشهر مصطفى بك أحد فرقاء أول البحريين وقريه من الدرجة الأولى . ولي خضر باشا للمرة الثانية . وأصبح مصطفى بك واليا برتبة الباشوية (ك٢/١٥٩٧) . استدعى إلى إستانبول وأرسل بدلا منه دلي حسن باشا (ك١/١٥٩٩) . عين سليمان باشا واليا (ك١/١٦٠٠) - ١٦٠٤) وعلى أيامه جاء قائد القوات البحرية وناظرها - الذي صار بعدها وزيرا أعظم كذلك - إلى الجزائر (١ أيلول ١٦٠١) مع ٧٠ سفينة حربية و ١٠٠٠٠ جندي مشاة ، ورغم أنه بحث عن الأسطول الإسباني إلا أنه لم يعثر عليه . ولي خضر باشا للمرة ٣ ، لكنه توفي في مقامه (١٨/٥/١٦٠٥) . حكم الجزائر في المرات الثلاث مدة ٧ سنوات . عين كوسه محمد باشا (١٨/٥/١٦٠٥) ثم

مصطفى باشا برتبة وزير (ك ١٦٠٥/١) ورضوان باشا (١٦٠٨) ومصطفى باشا مرة أخرى (١٦١٠ - ١٦١٣) ولاية على الجزائر .

(١٢) تونس وطرابلس الغرب وإفريقية الوسطى

فصل لواء فيزان (فزان) عند تأسيس إيالة تونس ، عن إيالة طرابلس وألحق بإيالة تونس . كان مركز الإيالة مرزوق . صرف والى (برتبة لواء) فزان محمد بك جهدا كبيرا فى نقل النظام العثمانى إلى أواسط إفريقية . نزل من مرزوق مع ٥٠٠ جندى نحو الجنوب مسافة ١٩٥٠ كم عن البحر الأبيض بخط مستقيم . ووصل شمال بحيرة جادو . إن القسم الأكبر من الصحراء يشكل أقساما غير صغيرة من دولتى جادو والنيجر الحالية . تم ربطها بلواء فزان . تبعت دولة بورنو التى تقع على جنوبها ، العثمانية . أما الدول الزنجية المسلمة الموجودة فى غرب إفريقية بين الأطلسى ونهر النيجر فكانت تابعة لفاس وبذلك كانت تتمتع بنظام عثمانى . ورغم أن ملك بورنو إدريس يملك ١٥٠٠٠ فارس و ١٥٠٠٠ جندى مشاة فقد راجع الديوان وعرض أن يكون خادما لخليفة سطح الأرض (خليفة روى زمين) ، لكنه مل من ضغط محمود بك . أمر الديوان محمود بك بعدم المساس باستقلال بورنو وأن يطبق عليها نظام الدول التابعة (مهمة ، ٣٠ ، ١٨٨ ، ٢١٣ - ٥)

وخضوعا للضرورة أعيد تشييد قلعة حلق الواد التى هدمها قيليج على باشا (١٥٨٨) . فصل لواء سفاكس Safaskus بأمر الديوان من إيالة طرابلس (ليبيا) ، وضم إلى إيالة تونس (مهمة ، ٦٤ ، ١١٦) . جعلت جزيرة جربة لواء وربطت بطرابلس . أدار مى رئيس (محمد باشا) طرابلس والجزائر كوال ، إدارة ممتازة . كان رجلا مسنا . أما استانكويو أحمد باشا فقد عين واليا على الجزائر وطرابلس بعد تونس واستشهد أثناء إخماده إحدى حركات التمرد ودفن فى طرابلس ابنه الوزير الأعظم على باشا .

وقد يجدر بنا تحقيقا للقائدة أن نشرح النظام العثمانى لفاس (La Pax Ottomawa ، بالعثمانية : نظام عالم) .

لم تكن تبعية إمبراطورية فاس للإمبراطورية العثمانية تبعية عادية . إن تبعيتها كملكية بولونيا تماما . كان سلطان فاس تابعا للبادشاه العثماني مباشرة . أى أنها لم تكن ضمن نظام الدول التى تتسلم الأوامر من الديوان الهمايوى مباشرة . التزم مولاي أحمد المنصور الثانى الذى توفى فى مراكش السياسة الخارجية العثمانية تماما ، وأرسل ضريته إلى إستانبول ، وعلى الأصح للبادشاه تأكيدا صريحا لتبعيته .

لقد طبق النظام العثماني فى بلاده وقام بحملة إصلاحات عسكرية واجتماعية ، لكنه لم يدع للأتراك مجالا للتدخل فى الشؤون الداخلية . كان ولاية الجزائر يرغبون فى التدخل فى شؤون فاس الداخلية ، فحاول الحيلولة دون ذلك بدقة .

وخلفه بعد وفاته (١٦٠٣/٩/٣) أبناؤه الثلاثة بالتسلسل . أحدهم زيدان الناصر (١٦٠٣ - ١٦٢٧) سعى جهده فى عدم الانفصال عن الدولة العثمانية . لكن الإثنين الآخرين لم يهتما كثيراً بذلك وانفصلت فاس على مر الزمن عن النظام العثماني وأخذت تتقدم منفردة نحو مصير منفصل .

وأخذ الفلاليون (أشراف الفلالية) الذين هم فرع لنفس الأسرة الحاكمة يتنازعون فى ١٦٤٠ مع السعديين (أشراف السعدية) من أجل فاس . وفى ١٦٥٨ انفردوا بالحكم فى فاس ، وانقطعت العلاقة مع الدولة العثمانية على عهد الفلايين .

أخذ نفوذ العثمانية يتزايد فى الملكيات الزنجية فى إفريقية الوسطى ووصل إلى غايته . حاول طرغد باشا اعتبارا من ١٥٥٠ إدخال بورنو ، أقدم (تأسست نحو عام ١٠٠٠) وأهم دولة إسلامية فى هذه المنطقة ، إلى النفوذ العثماني . لكن إرسال الملك إدريس ٣ سفراء لإستانبول فى ١٥٧٧ وعرضه تبعيته ، أكسب الوضع صفة قطعية (بورنوسية - مالكية) . إن إدريس ٣ هو ابن أخ الملك محمد الذى عرض تبعيته لطرغد باشا فى ١٥٥٠ . وفى ١٥٧٧ أرسلت الأسلحة النارية بأمر الديوان للمرة الأولى فى التاريخ من طرابلس إلى بورنو (Ki - Zerbo Le Monde Contemporain ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٦٢٩) . حيث كانت بورنو فى مقدمة الدول الإسلامية التى كافحت الوثنيين ونشرت الدين الإسلامى فى إفريقية .

لقد كان وادى السيل نهاية للدولة البرتغالية المعظمة . انحمت البرتغال من الجغرافية السياسية لمدة ٦٠ سنة . لم تستطع البرتغال التى فقدت جيشها وأسطوطها ومليكمها

في وادى السيل أن تصون استقلالها تجاه جارتها إسبانيا لمدة ٦٠ سنة (١٥٨٠ - ١٦٤٠) وأصبح ملك إسبانيا ملكا على البرتغال في ذات الوقت . وفي هذه المرة أخذ الديوان في مساندة البرتغال ، وإرسال المساعدات إلى الوطنيين البرتغاليين الذين ثاروا ضد إسبانيا . أرسلت تعليمات محدودة بهذا الشأن لفاس وللجزائر ؛ إذ إن إسبانيا - برتغال متحدة ، كانت مخالفة لسياسة الديوان . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت ماتزال محتفظة ببرازيليا إلا أنها لم تعد بصورة نهائية في عداد الدول العظمى .

(١٣) إدخال إنكلترا تحت الحماية العثمانية

على الرغم من أن إسبانيا ادركت بعد حرب عثمانية دموية شديدة دامت ٦٥ سنة أنها فقدت المغرب وأنها سوف لا تتمكن من جعل المغرب أمريكيا لاتينية ، إلا أنها استمرت في تسلطها على جميع الأماكن ؛ تسعى من ناحية لإفناء العرب المسلمين من رعاياها بأنواع التعذيب التي لا يصدقها العقل ، وتسلط من ناحية أخرى على فرنسا التي ضعفت بسبب دخولها في النزاع الكاثوليكي - البروتستانتي . وآسى فيليب الثاني نفسه بأخذه ملكية البرتغال على عاتقه . لكنه لم يقنع ، ذهب إلى حد التفكير في الاستيلاء على إنكلترا . لم يكن ذلك عسيرا بسبب كون هولندا وبلجيكا مستعمرتين إسبانيتين . اضطرب الديوان الهمايوني . كان قد أنقذ فرنسا من برائن شارل - كوينت ، والآن سيضع كافة إمكاناته في المساعدة لإنقاذ إنكلترا من برائن ابنه .

اعترف الديوان لإنكلترا ، بعد البندقية وفرنسا بحق المتاجرة بحرية في موانئ تركية مع تطبيق تعريفه جمركية مخفضة (١٥٨١/٩/١١) وذلك بغرض تنمية تجارة إنكلترا .

طلبت الملكة إليزابث في رسالتها إلى مراد الثالث مساعدته ضد الكاثوليك الذين ستمتهم « عبدة الأصنام » وذكرت أن عبادة التصابوير في المذهب البروتستانتي ممنوعة كما في الدين الإسلامي (Hammer ، ٧ ، ١٤١ ، ٢٥٢) .

كتب السلطان في خطابه السلطاني الذي حرره في ١٥٨٠ للملكة « وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لباني العالي » ووعداها بالمساعدة المالية والعسكرية .

حررت الملكة كاتبا عديدة ومنفصلة - تطلب فيها المساعدة - إلى الوزراء الأعظم كسنان باشا وسياوش باشا ، وناظر البحرية قيليج على باشا ، والأستاذ السلطاني (شيخ الإسلام) سعد الدين أفندى وإلى زوجة البادشاه صفية خاصكى سلطان وأرسلت إليهم هدايا ثمينة . كانت إليزابث في ١٥٨٧ ترجو « إرسال ٦٠ - ٧٠ سفينة حربية تركية على الأقل » تجاه الأسطول الإسباني (Hammer ، ٧ ، ٢٦٥) . طلبت فرنسا كذلك المساعدة . كان الملك في باريس يلقي الفزع في قلب السفير الإسباني بقوله : إن ٢٠٠ سفينة حربية عثمانية مستعدة لفتح طولون ، رهن إشارته . كانت فرنسا مطوقة لأن شمال وجنوب إيطاليا ، وفي الشمال بلجيكا ، كانت تعود لإسبانيا (كانت منطقة إيطاليا الوسطى فقط تعود للبابا والشمال - الشرق من إيطاليا للبنادقة) . زار السفير Sir William Horborne ، قيليج على باشا في مقامه في سفينته الإمبرالية (١٦/٤/١٥٨٤) ، وقبل يد قائد القوات البحرية (قبودان دريا) وسلمه كتاب الملكة . (يورد السفير في تقريره السياسي تعجبه من طلاء سفينة الباشا من الخارج والداخل بطلاء الذهب) أجابه الباشا بأنه سوف يقدم لإنكلترا المساعدة القصوى التي يعينها الديوان .

فوجيء الأسطول الإسباني الخفيف الذي أعلنته إسبانيا بأنه « الارمادة التي لا تقهر » بعاصفة لم يسبق لها مثيل وتحطم في بحر الشمال (آب ١٥٨٧) بعد أن جعلت إسبانيا العالم بأسره يصدق أنها سوف تحتل إنكلترا .
تنفس الديوان والدول التي سئمت من التسلط الإسباني الصعداء .

(١٤) دخول بولونيا التبعية العثمانية (١٥٧٣ - ١٥٩٢)

مات في ١٥٧٢/٧/٧ آخر ملك لبولونيا ودوق - كبير ليتوانيا من أسرة Yagellon (بالبولونية : Jagellonsky) . ظل عرش بولونيا خاليا . كانت بولونيا من الدول العظمى وتعتبر في ذلك العهد ملكية أقوى بكثير من روسيا . كانت تمتد اعتبارا من داخل ألمانيا إلى منطقة قرية من غرب موسكو (٦٩٧ ٠٠٠ كم^٢ و ٧ ملايين نسمة ولأجل المقارنة ، ملكية إنكلترا ٣٤٧ ٠٠٠ كم^٢ ، ٥/٩ مليون نسمة) .

أرادت ألمانيا أى أسرة هابسبورغ إجلالاً أرشيدوق (أمير إمبراطورى) من سلالة هابسبورغ على عرش كراكوفى Krakovi . كانت صلة القرابة بالأسرة البولونية المالكة تعطى ألمانيا مثل هذا الحق . قرر الديوان الهمايونى الحيلولة دون ذلك ؛ إذ إن تشكيل ألمانيا تمتد من الراين إلى موسكو سوف يصنع بالنسبة للعثمانية ماردا جديدا .

قرر الديوان بعد إجراء المحادثات اللازمة إجلالاً أحد الأمراء من فرنسا التى تحت حمايتها على عرش كراكوفى . اتفق فى هذا الشأن مع كل من مجلس الأشراف (Diyet) البولونى وملك فرنسا شارل ٩ . انتخب هنرى شقيق شارل ٩ للملكية بولونيا وأعلن بالكتاب السلطانى لسليم الثانى ملكا على بولونيا (١٥٧٣/٥/١٧) (« استنادا لأمرنا الشريف نصبنا وعينا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية بولونيا (Leh) أفضّل عليكم أنتم أمراء بولونيا ، أن تتقبلوا كلكم بالإجماع الملك المشار إليه عند قدومه إلى بولونيا ؛ وفى حالة مخالفتكم أمرى الشريف لا يتقبل منكم أى عذر » .

أعلن ، على أثر هذا الخط السلطانى ، مجلس الأشراف البولونى (Henride (Leh Diyet Valois ملكا على بولونيا . جاء الملك هنرى إلى بولونيا . لكنه بقى ٤ أشهر و ٢٣ يوما فقط ثم غادرها إلى باريس تحسّية دون أن يخبر الشعب الذى انتخبه ملكا . مات أخوه الكبير هنرى ٩ دون أن يخلف ولدا . أعلن ملكا على فرنسا بدلا منه بلقب هنرى ٣ . استاء الديوان . كان عرش بولونيا قد خلى مرة أخرى . تجدد أمل ألمانيا . كانت ألمانيا قد هدّدت بحرب أكيدة وكان الديوان قد اضطرها إلى العدول عن ذلك ، لكن الديوان كان يخشى من الأمر الواقع . وفى هذه المرة انتخب باقتراح صوقوللو ، الأمير Bathory أمير أردل (ترانسلفانيا) التابعة للعثمانية ، أى أحد المجريين ملكا على بولونيا وتمكن من الحصول على موافقة مجلس الأشراف البولونى (١٥٧٥/١٢/١٣) . يأمر الخط السلطانى (١٥٧٦/١/٢٣) الذى أرسله مراد الثالث إلى الملك باثورى بأنه « أمر وتفضل » بمنح إمارة أردل كذلك ، لكنه سيقوم بإدارة أردل وبولونيا - ليتوانيا كدولتين منفصلتين وأن كلا الدولتين هما جزءان لا ينفصلان عن الدولة العثمانية « بمثابة ممالكنا المحروسة وتلتزم بالطاعة والانقياد » . وافقت بولونيا فى معاهدة ١٥٧٧/٧/٣٠ المكونة من ٢٤ مادة على كونها جزءاً من

الدولة العثمانية ، وأن الملك Bathory بصفته ملكا على بولونيا ودوقا - كبيرا لليتوانيا تابع للبادشاه ، وبصفته أمير أردل سيتلقى الأوامر من الديوان بصورة مباشرة .

جلس مراد الثالث ، وقد انضمت دولتان كبيرتان كفاس على الأطلسى في الغرب ، وبولونيا - ليتوانيا في بحر البلطيق في الشمال إلى النظام العثماني .

مات الملك Bathory في ١٥٧٨ بلا وريث . ووقع الديوان كذلك في مشكلة . عرض دوق - كبير فلورنسا استعداداه لدفع مليون ليرة ذهبا دفعة واحدة للديوان ، إذا ماانتخب ملكا على بولونيا ، وأن يسدد ضريته السنوية بانتظام .

لم يسع الديوان انتخاب أمير لهذا العرش تابع لإسبانيا . وانتخب الأمير السويدي Sigismund الذى لم يكن لقطره أية مشكلة مع العثمانية . كان إمبرطور ألمانيا رودلف ٢ (١٥٧٦ - ١٦١٢) ، يرغب في تزويج ابنه بأميرة السويد وتنصيبه ملكا على بولونيا . راجع الديوان ، فرفض ، وبناء على ذلك سار الأرشيديوق Maximilian بجيش ألماني على بولونيا ودخلها وظفر بالأميرة عنوة وأراد تحقيق رغبته بالأمر الواقع .

هزم الجيش البولوني المعزز بوحدات الصاعقة التركية الألمان في حرب Krakovi الميدانية (١٥٨٨/٦/٢٦) وأسر الأرشيديوق . أجلس Sigismund الثالث على عرش بولونيا ، كما أصبح بالإضافة إلى ذلك في ١٥٩٢ ملكا على السويد . كان قد ترك المذهب البروتستانتي وأقر المذهب الكاثوليكي عند تنويجه ملكا على بولونيا ، ونظرا لعدم موافقة السويديين في ١٦٠٤ على ملك كاثوليكي ، ترك عرش السويد ، وظل ملكا على بولونيا فقط . احتل ملك بولونيا الذى توج بحضور طرغد جاووش أحد مرافقى السلطان مراد الثالث بخط سلطاني ، موسكو في ١٦١٠ - ١٢ وليس تاج القيصر في الكرملن . كان عداء السويد وبولونيا تجاه الروس متمشيا مع سياسة الديوان .

نظم كل من Bathory و Sigismund الجيش البولوني على غرار الجيش العثماني . رفعت المتبوعية العثمانية عن بولونيا بعد ذلك ، لكن النفوذ العثماني استمر على مدى سنوات طويلة . تعتبر معاهدة ١٥٩١/٩/١٦ وثيقة هامة ، وهي تبين تبعية بولونيا - لتوانيا العثمانية ، وتنص على أن تسدد بولونيا إلى إستانبول ٢٥٠ . ٠٠٠ ليرة ذهبا سنويا

وتسدد من ناحية أخرى ضريبة إلى قرم ، كما تنص على أن تتعهد باتباع السياسة الخارجية العثمانية .

كان الإمبراطور الألماني ، ليس بصفته إمبراطوراً ، وإنما بصفته أرشيدوق النمسا ، تابعا للبادشاه (هامر ، ٧ ، ٤٠) ، وكان يهتم بإرسال ضريته إلى البادشاه كل عام . وكان عليه أن يأخذ موافقة إستانبول حتى في اختيار الأميرة التي سيتزوجها ابنه . وبينما وصلت شوكة العثمانية في الخارج إلى هذا الحد ، بدأ الفساد يدب في الداخل . لكن العالم الخارجى لم يكن قد أحس بهذا الفساد بعد . كانت « الدولة العالمية العثمانية » أمرا واقعا ، ولم تكن أية دولة تقوم بأى عمل على رغم العثمانية وإنما كانت تستأذنها وتأخذ موافقتها ، وكانت الدول المقاومة للعثمانية كأسبانيا وإيران لا توفق غالبا في مساعيها .

ومع أنه لم يشعر لا العالم الخارجى ولا العثمانيون في تلك الفترة بنثر بذور الانحطاط العثماني ، كذلك لم يشعر أحد بنثر بذور الانتعاش الروسى . لم تكن لروسيا أية أراض في القارة الآسيوية في ١٥٨٧ ، وخلال المدة القصيرة جدا لغاية ١٦٠٠ احتلت قسما لا يستهان به من سيبيريا ، ومنذ ١٥٩٢ توسعت أراضيها إلى حد ٥ ملايين كم^٢ و ٧ ملايين نسمة ، وبالنسبة للعثمانية كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية تابعة لها بل كانت تابعة لتابعها قرم . ولم تكن فكرة أوروبا عن روسيا مختلفة عن هذه .

كان القيصر بالنسبة للملك بولونيا « سائس خان قرم » . والمملك بالنسبة للروس « خادم الأتراك » (Lavis - Rambaud ، ٥ ، ٧٥٢) . ترك إيفان « الرهيب » (مدهش) (١٥٣٣ - ١٥٨٤) لقب « الأمير - الكبير » لأجداده الحكام واتخذ لنفسه في ١٥٤٧ لقب « قيصر » (جار) الذى يعنى « ملك - كبير » أو « إمبراطور - صغير » .

كان على سطح الأرض حتى سنة ١٥٨٩ ، ٤ بطاركة أرثوذكس ، وكان هؤلاء البطاركة المقيمون في كل من إستانبول ، القدس ، أنطاكية وأسكندرية من رعايا العثمانية وكان الأول الذى « يسمى جهان بطريكى » (بطريك العالم) أرفعهم منزلة . رفع Yermia بطريك إستانبول في ذلك التاريخ درجة مطران موسكو إلى

درجة بطريك أرثوذكس خامس بعد ذهابه إلى موسكو مرات متعددة . وهكذا ظهر بطريك ليس من رعايا العثمانية . كان ذلك أول علامة على عدم تمكن العثمانية من احتضان كامل العالم الأرثوذكسى (Lavissee-Rambaud ، ٥ ، ٧٥٨ - ٩) . وإن كانت العثمانية حتى ذلك الوقت قادرة على سحق روسيا . تقدم خان قرم غازى كيراي ٢ فى ١٥٩١ ، حتى أسوار موسكو . وانتصر على القيصر مثلما انتصر أبوه دولت كيراي فى حروب عديدة وأجبره على دفع ضريبة سنوية ، وسوف يسدد القيصر هذه الضريبة لخان قرم لغاية ١٦٨٩ .

(١٥) بدء الحرب مع إيران (١٥٧٨/٤/٥)

استقبل الشاه طحمسب جلوس مراد الثالث بسرور بالغ . مثل بين يدى السلطان مراد ، (١٥٧٥/٥/١٣) طوقمان محمد خان من الأتراك الآزريين ابن الصدر الأعظم شاه قولو الذى قدم آنذاك إلى تركيا (١٥٦٨/٢/١٦) للتوقيع على معاهدة أدرنه . كان الوفد الإيرانى مكونا من ٢٥٠ شخصا يصحب معه هدايا نعمة على ٥٠٠ جمل . قدمت لحاقان العالم ٦ جرارات مليئة بالمال ، الزمرد ، الياقوت ، اللؤلؤ والهدايا الأخرى . مات الشاه طحمسب بعد فترة قصيرة (١٥٧٦/٥/١٤) . دامت سلطنته ٥٢ سنة إلا ٢١ يوما . كان عمره ٦٢ سنة ، وشهران و ٢٠ يوما . وكان قد ترك لإيران الدولة الثانية فى العالم خزينة احتياطية لا يصدقها العقل . خلع (١٥٧٧/١١/٢٤) ابنه إسماعيل الثانى الذى خلفه لميله إلى المذهب السنى - الشافعى . خلفه أخوه الكبير محمد خدابنده . كان أعمى وعمره ٤٥ سنة . كانت السلطة الحقيقية بيد أبنائه ميرزا حمزة وعباس . كان الوضع الداخلى لإيران متأزما . وكانت العثمانية تشعر أنها دائنة ، وتطلب من الصفويين الشىء الكثير . أخذ هذا التفكير يتعاظم على مر الزمن .

عارض صوقوللو بشدة الحرب مع إيران ، لم يتمكن من منعها . حال دون ذهاب البادشاه إلى إيران ، ولم يذهب هو أيضا .

أعطيت القيادة لفتاح قبرص لالا مصطفى باشا . سار القائد من إستانبول . أعلنت الحرب على إيران بصورة رسمية (١٥٧٨/٤/٥) . ولكن بإصرار من

صوقوللو انقسمت جبهة إيران بعد قليل إلى قسمين ، بقيت الجبهة الشمالية لدى الوزير ٣ لالا باشا . عين خصمه اللدود قوجا سنان باشا الذي كان برتبة وزير ٤ في الديوان ، لقيادة الجبهة الجنوبية (١٥٧٨/٥/٩) . ولم يكلف الوزير ٢ داماد بيالة باشا بواجب في البر ، لكونه أميراً بحرياً .

جاء لالا باشا إلى قونية . قبل غطاء صندوق قبر مولانا . فتح صحيفة من المنشوى - بصورة غير مقصودة - في حضور المتصوف الكبير المعنوى . كانت أمامه أبيات شعرية تتحدث عن فتوحات إسكندر الكبير . سر القائد . كان لالا باشا قد طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا مساعداً له (رئيس أركان الجيش) . عين عثمان باشا والياً (فريق أول) على البصرة ومن ثم على ديار بكر . عزله صوقوللو الذي ينفر منه ، من إيالة ديار بكر ، وعين بدلاً منه ابن عمه صوقوللو - زاده درويش باشا . لم يذهب عثمان باشا إلى إستانبول خشية إصابته بحادث . كان مقيماً في ديار بكر . جاء إلى لالا باشا الذي عسكر في قرية جنس Cinis (١٥٧٨/٧/١) . كان يحمل مهمات الجيش العثماني ٤٠٠ قطار من الإبل (القطار الواحد = ٧ جمال) وكان القطار ٢٦ هو الذي يحمل الخزينة والحاجات الثمينة ، أما القطار ١٥٠ فكان يحمل الأعتدة والبقية تحتوي على الأطعمة . كلف القائد العام ، الذي سمع بخبر هزيمة الوالي خسرو باشا لأمر خان قرب وان أوزديرا أوغلو بمهمة إيقاف الجيش الصفوى المقبل عليه . خرج أوزديرا أوغلو قبل الجيش ، وصل الجيش العثماني إلى شمال غرب بحيرة جلدرد Gildir . شوهد الجيش الصفوى بقيادة طوقماق خان الذي كان قد جاء إلى إستانبول مع الوفد قبل مدة .

١٦ حروب ميدانية كبيرة في صيف وخريف ١٥٧٨ وفتح قفقاسيا

كان لدى طوقماق خان ٣٠٠٠٠ فارس . كان مساعداً والى كنجة أمام قولو خان وقره خان أسطه جالو . كان والى أرضروم بهرام باشا ووالى دلقادر (مراثى أحمد باشا) ، في جناحى عثمان باشا . كانت كتيبة الاستطلاع تتقدم الجيش العثماني بقيادة آمر كتيبة بايبورت بكربك ، ويعقبه فوراً كوحدة طليعية والى (برتبة لواء) أردخان عبد الرحمن بك . وسوف يحدد هذا القتال مصير قفقاسيا ، إما أن تظل لدى إيران ، أو تنتقل إلى العثمانية .

كسر عثمان باشا الجيش الصفوى التركى الذى يتكلم اللغة ذاتها بسهولة . ترك طوقماق خان الذى قدم ٥٠٠٠ قتيل و ٥٠٠ أسير وآلاف الجرحى ساحة القتال . كانت خسائر العثمانية عبارة عن ٧ أمراء كتيبة من الأكراد و ٢٠٠ شهيد وعدة مئات من الجرحى (حرب جلدرد الميدانية ١٥٧٨/٨/٩) . دخل لالا باشا إلى تفليس (١٥٧٨/٨/٢٤) بعد أن احتل آخيلكلك فى ١٠ آب . لم يتمكن Dawith ملك الكرج فى كارثلى Karthli من صيانة مدينة عرشه وكان قد لجأ إلى متبوعه الشاه . كانت مدينة أرثوذكسية مسيحية ، وكان بها مسلمون كثيرون . لم يمس الشعب بأى سوء . عين لالا باشا والى قسطنطين محمد بك ابن صولاق فرهاد باشا والى بغداد ، أول وال على تفليس . كان Alexandre ٢ ملك كاخيتى Kakheti الكرجى الأقل أهمية فى الشرق ، جاء إلى تفليس وقبل يد لالا باشا . جعل لالا باشا من Kakheti إمالة كذلك باسم إمالة كرجستان وعين الكساندرخان واليا (فريق أول) عليها (١٥٧٨/٩/١) .

أصبح من الواضح أن هدف الفتح العثمانى هو شيروان (شمالى آذربيجان) . أراد الصفويون قطع طريق شيروان . جاء أمير خان وطوقماق خان مع ٢٠ ٠٠٠ من فرسان التركان . هزم أوزدميرا أوغله عثمان باشا الجيش الصفوى مرة أخرى (معركة قويون كجيدى الميدانية ١٥٧٨/٩/٩) . قتل ٥٠٠٠ جندى صفوى . مات ١٠ ٠٠٠ غرقا فى آراس أثناء انسحابهم . أسر أو هرب ٥٠٠٠ من الجرحى . كان بمعية عثمان باشا فى هذا الانتصار ٤ فرقاء أول (ولاية) ، (حلب ، أرضروم ، دياربكر ، دلقادر) . وجدير بالذكر أن عثمان باشا الذى أكسب الدولة كرجستان بانتصاره فى جلدرد ، كان قد أكسبها كذلك آذربيجان التى يطلق عليها اسم « شيروان » بانتصاره فى قويون كجيدى . كان لالا باشا أدهى وأذكى رجال الدولة فى عهده . ترك إدارة جميع الحروب لعثمان باشا ، ولم يبد أدنى علامة للغيرة والحسد . وتأخر هو مرحلة عنه إلى الورا . كان لالا باشا كذلك أكبر عسكري فى عهده ، لكن عثمان باشا كان يتمتع بدهاء عسكري منقطع النظير . ولو كان صوقوللو أو سنان مكانه لقضيا فى الحال على جنرال يظلل شهرتهم . سرت إستانبول سرورا كبيرا بفتح شيروان وذلك لكونها بلادا غالبية أهلها سنيون ويتكلمون التركية . بقى لالا باشا فى إرش Eres مركز القطر اعتبارا من ١٢ أيلول حتى ٨ ت ١ . شيد

قلعة عظيمة وضع فيها ١٠٠ مدفع . عين والى (برتبة لواء) صاروخان قيتاس بك ، أول وال (فريق أول) على شيروان (منجمباشى ، ٣ ، ٥٤١) .

كان القطاع الغربى من شيروان قد تم فتحه ، والقطاع الشرقى أى سواحل الخزر لا يزال لدى الصفويين . كان شعب هذا القطاع سنيا ، وعند اقتراب العثمانية ثار ضد الصفويين الذين عانوا من ظلمهم وطردوهم . دخل لالا مصطفى باشا وأوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى شيروان الشرقية بسهولة وأمعنا النظر فى المياه الخضراء لبحر الخزر بسرور . والآن كان الأمر يقتضى ذهابهم إما إلى داغستان فى الشمال ، أو إلى آذربيجان الجنوبية التى مركزها تبريز فى الجنوب . كلاهما كانا قطرين تركيين . رُجح الذهاب إلى داغستان لكونها سنية لإنقاذ شعبها من سيطرة الشيعة .

أمر لالا بإجراء تعداد فى شيروان . تم تثبيت ضريبة القطر السنوية بـ ٢٥ مليون آقجه ؛ مليون آقجه من هذا المبلغ كان ضريبة تؤخذ من نفط (بترول) باكو . قام بهذا التعداد المؤرخ الشاعر دالي . محمد جلبى الذى عين واليا بعد ذلك . عين أمر كتيبة آفلونيا واليا (لواء) على باكو بعد ترفيعه . كلف لالا باشا أولاً فريق أول (والى) دياربكر درويش باشا ومن ثم فريق أول (والى) حلب محمد باشا أن يكونا واليين على شيروان ووعدهما إن وفقا فى واجبهما فسيرفعان خلال عدة سنوات إلى رتبة وزير (مشير) . اعتذر كلاهما رغم هذا الوعد . إذ كان واضحا أن الجيش الصفوى ويحتل الشاه بالذات سيدخل الإيالة فور انسحاب القائد . طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا هذه الولاية التى لم يرغب فيها أحد . أثنى لالا باشا كثيرا على تضحية صديقه هذه . تشكلت داغستان كإيالة مستقلة . أعطيت إدارة كلا الإيالتين اللتين تفصل بينهما جبال القفقاس إلى أوزدمير أوغلو ، ويمكنه إدارة الإيالتين بواسطة واليين منفصلين يكون هو أمراهما . إن هذا الاستعداد لدى أوزدمير أوغلو لتحمل المسؤولية سوف يفتح أمامه باب رتبة الوزارة العظمى . رفع القائد قبيل مغادرته رتبة عثمان باشا إلى وزير (مشير) .

حصلت الإمبراطورية خلال الفترة آب - ت ٢ من سنة ١٥٧٨ على ٤ إيالات جديدة . كانت أهمها شيروان .

انسحب عثمان باشا الذى كان يتسلم ٢ مليون آقجه كمخصصات ، إلى دمر قابو مركز داغستان فى الشمال . أعطى إدارة أرش Eres إلى قيتاس باشا أى ولاء على

شيروان بمخصصات قدرها ٧٠٠ ٠٠٠ آقجه . قسمت شيروان إلى ١٦ لواء وداغستان إلى ٦ ألوية . خصص لأوزدمير أوغلو ٣٠٠٠ إنكشارى و ١١٠٠٠ سباهى ، ٦٦ مدفعا و ١٨٠ صندوق عتاد . وأعطيت وجدان أخرى لأمرء الأولوية . سدد القائد لالا مصطفى باشا رواتب ٦ أشهر مقدما لأفراد الجيش الذين سيقون فى القفقاس وانسحب فى شهر ت ١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء وكانت دغستان التى تشكل كامل جنوب القفقاس والقطاع الشرقى من شمال القفقاس التى تبلغ مساحتها ١٧٤٠٠٠ كم^٢ الغنية ذات الكثافة السكانية والتى يشكل أكثريتها السنيون ، وقد فتحها الصفويون خلال شهرين (٨ آب — ٨ ت ١) . وكانت روان ، أران ، قره باغ وناهجوان لا تزال لدى الصفويين . كان أوزدمير أوغلو عثمان باشا بانتصاره فى معركتين ميدانيتين بفاصل زمنى مدته ٣١ يوما قد أضاف كذلك إلى فتوحاته فى الحبشة واليمن لقب « فاتح قفقاسيا » .

كان الصفويون عازمين على استرداد القفقاس من العثمانية . فى الوقت الذى غادر فيه لالا باشا أرش إلى أرضروم (٨ ت ١) ، كان أوزدمير أوغلو قد نصب مقره العسكرى فى شمهى Samahi (شماهى Semahi) بين باكووارش Eres . أعلن اميرى الكرج Imerethi فى كوتائيس و Guria فى بوتى تابعيتهما للعثمانية (١١ ت ٢) . أسس لالا باشا فى هذه المنطقة إيالة جلدردعى إليها مصطفى باشا . كانت تشمل بعض أراضي كرجستان وقسما من أراضي لواء قارص الحالى .

كان على الصفويين أن يجتازوا نهر كور Kür (Kura) ليتمكنوا من الدخول إلى شيروان . كان عثمان باشا قد شيد ٥ سفن حربية نهريه للحيلولة دون اجتيازهم النهر . اجتاز الجيش الصفوى المكون من ٢٥٠٠٠ شخص النهر ودخل البلاد بقيادة والى شيروان السابق أوريوس خان . وجاء جيش الفرسان التركمانى الذى اجتاز النهر من ساليان وصعد نحو الشمال - الغربى أمام شماهى والتقى بجيش عثمان باشا المكون من ١٤٠٠٠ . جندى . سار جيش صفوى آخر مكون من ١٥٠٠٠ فارس إلى قايتاس باشا الذى كان لديه حينذاك ٣٠٠ جندى فى أرش . عزم الفريق الأول الشاب قايتاس باشا ، بدلا من أن ينسحب ويحصل على الإمداد ، على الدفاع ، استشهد هو مع وحدته ، أسر عبد الرحمن بك أحد الضباط برتبة لواء . دخل الصفويون أرش وذبخوا أهلها السنيين .

أرسل الديوان الهمايونى الذى كان ينتظر هجوما صفويا كهذا فرسان قرم الذين

اعتادوا على مناورات الشتاء إلى قفقاسيا . دخل عادل كيراي ولى عهد (كالغاي)
 قرم القفقاس مع ١٥٠٠٠ جندى . كان يرافقه ٣٠٠ انكشارى و ١٠ مدافع ووالى
 آزاك (زوستوف) محمد بك . « تفضل وأمر » الديوان رؤساء القبائل السنية فى
 قفقاسيا بالذهاب لنجدة عثمان باشا . ولكن قبل أن تصل كل هذه الإمدادات أُنفى
 عثمان باشا جيش أوروس خان عن بكرة أبيه بعد أن دمره وأتلفه بصورة تامة بواسطة
 ال ٦٦ مدفعا الموجودة لديه . تمكن عدة آلاف من الجرحى والجنود المشتتين من
 الجيش الصفوى الذى خسّر ١٥٠٠٠ قتيل ، نحو ١٠٠٠٠ أسير من النجاة بشكل
 غير نظامى (حرب شماهى الميدانية الأولى ١١/١١/١٥٧٨) . أسر القائد العام
 أوروس خان وابنه ده ده خان واثنان من أمراء التركمان وقطعت رؤوسهم لإعطائهم
 أمر مذبحه أرش الجماعية . عين عثمان باشا ، بيالة بك أحد الضباط برتبة لواء واليا
 على شيروان مع ترقيته لرتبة الباشوية بدلا من قايتاس الذى استشهد . وأمر عادل
 كيراي الذى وصل آنذاك بأن يبيد الوحدات الصفوية التى يلاقيها فى شمال نهر كور
 Kür وألا يحاول اجتياز النهر نحو الجنوب . علم لالا مصطفى باشا بخبر انتصار
 شماهى الأول فى أرضروم (٢١ ت ٢) التى استغرق قدومه إليها من أرش ٤٤ يوما .

سار ولى عهد الإمبراطورية الصفوية حمزة ميرزا إلى عثمان باشا الذى انتصر فى
 ثلاث حروب ميدانية بفترات زمنية قصيرة جدا ، على أساس أنه لا يمكن القضاء عليه
 إلا بخروج ولى عهد صفوى يقود الحملة الموجهة إليه . ولكن لكونه صغير السن
 فى ١٢/٥ من عمره ، كان الهدف من وجوده رفع الروح المعنوية لجيشه فقط .
 وكانت القيادة الأصلية لدى سلمان خان . سار الصفويون على شكل ٤ فيالق .
 كان الجيش الصفوى البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص يحتوى على أكثر من ٥٠ فريق أول
 (بكهربك) الذى يسمى « خان » ولواء (سنجق بك) الذى يسمى « سلطان » .
 كانت قوات أوزدمير أوغلو ١٤٠٠٠ جندى عثمانى و ٢٥٠٠٠ جندى قرامى و ٧٦
 مدفعا . كان الباشا داخل قلعة شماهى وأما القراميون فكانوا خارج القلعة ؛ حيث
 إن القلعة ، لم تكن تستوعب هذا العدد من الجند . وقع عادل كيراي فى كمين
 فى اللحظة التى هاجم فيها وحسب أنه انتصر ، وأسر مع بيالة وسبق إلى سراى
 قزوین . عرض الشاه هناك على ولى عهد قرم اعتناقه المذهب الشيعى . وعدا أن
 عادل كيراي رفض ذلك ، عشقته زوجة الشاه وكذلك أخت الشاه وأوقع الخلاف
 بينهما لتنازعهما عليه . أمر الشاه الذى علم بخبر هذه الفضيحة ، بقتل الأمير . كان

عادل كيراي محاربا ممتازا إلى درجة أنه قتل ٧ من أفراد الحرس الصفوي الخاص الذين حملوا عليه ثم سقط « شهيدا للعشق » .

من ناحية أخرى ، لم يكن عثمان باشا قد خضع للصفويين رغم أنه فقد ١٠ ٠٠٠ من جنده وكبد الصفويين ٢٠ ٠٠٠ قتيل . لم تسفر حرب شماهى الميدانية الثانية (١٥٧٨/١١/٢٧) عن نتيجة حاسمة . لكن عثمان باشا الذى قل عدد جيشه ، ترك شيروان للصفويين وانسحب إلى دمر قابو (بالفارسية : دربند ، بالعربية : باب الأبواب) فى داغستان (٧ ك ٢) . وفى ١٢ ك ٢ ، جاء إلى دمر قابو . أما بيالة باشا الذى وقع فى اسر الصفويين مع عادل كيراي فقد نجح فى الفرار من قزوين إلى سمرقند . استقبل هناك بحفاوة بالغة وأكرمه خاقان تركستان عبد الله خان ، وعاد إلى إستانبول بصحبة سفيره .

حاول الصفويون الذين استرجعوا شيروان أخذ تفليس مفتاح كرجستان قبل حلول الربيع و قدوم لالا بياشا . بدأ حصار تفليس (١٥٧٩/٣/٣٠) . أما لالا باشا ، فلم يتمكن من التحرك قبل ١١ تموز (١٥٧٩) بسبب انتظاره قدوم الجند من الإيالات . سار من أرضروم بـ ١٠٠ ٠٠٠ جندى .

١٧ (حركات عام ١٥٧٩

يعتبر دفاع محمد باشا عن تفليس بـ ١٨٠٠ من جنوده تجاه ١٥٠٠٠ من جنود إمام قولوخان ، من أكبر حروب الدفاع فى التاريخ .

بدأ الحصار الشديد فى ٣٠ آذار ، لم يبق من جند فرهاد باشا - زاده محمد باشا فى نهاية تموز سوى ٧٠٠ جندى . أكلت جميع الحمير والقطط والكلاب بعد الخيل الموجودة فى القلعة وأصبح سعر الكلب الواحد داخل القلعة سعرا خياليا مثل ٢٠٠٠ آقجه . وخلال هذه الأيام ، جاء قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى Poti (بالتركية : فاش) وشيد فيها قلعة وأسطولا نهريا رفيعا . أما القائد العام لالا باشا ، فقد جاء فى ٢٦ تموز إلى قارص وأمر بإنشاء قلعة محصنة جدا . وبينما الباشا يقترب رفع إمام قولو الحصار المدهش الذى دام ١٢٤ يوما (١ آب) . والمشهور

عنه أنه عندما سمع عزف الموسيقى العسكرية (مهترخانة) لم شعته في الحال وهرب . وكان والى (فريق أول) دلقادر مصطفى باشا في المقدمة يقود الوحدة الطليعية . فتح محمد باشا مع ٧٠٠ من جنده الذين أشرفوا على الموت من الجوع ، باب القلعة وحضن مصطفى باشا باكيا . كان قد صرف ثروته البالغة ٥٠ . ٠٠٠ قطعة ذهب التى ورثها عن أبيه للدفاع عن تفليس .

أنجز خلال ٢٧ يوماً بناء قلعة قارص في ٢٣ آب ، ويعتبر ذلك من ألمع الأعمال والإنجازات فى التاريخ العسكرى التركى . كان مجموع طول الأسوار والحصن ، والخنادق ٥٠٠ / ٣٠ م . فى ٢٧ آب ، جاء والى (برتبة لواء) آزاك محمد بك مع ١٠ آلاف جندى إلى ديمقابو (داغستان) والتقى بقوات أوزدمير أوغلو وأعلمه باقتراب خان قرم محمد كيراي . أسس أوزدمير أوغلو أسطول الخزر على أن تكون القاعدة ديمقابو (دربند) كان الديوان قد أرسل ٢٠ قائد سفينة (قبطان) ، جنود بحرية ، مدفعيين ، مهندسين ، معماريين ، أخشاب ، قطران ، مجادف ، مدافع بحرية وأنواع أخرى من المهمات . عين لقيادة أسطول الخزر والى آزاك محمد بك . رفعه أوزدمير أوغلو إلى رتبة فريق أول . كان أسطول الخزر تابعا للديوان مباشرة ، كأسطول الهند (السويس) وألطنونة ، وليس تابعا إلى القائد العام ناظر البحرية .

كان لالا باشا فى قارص . أنشأ مدينة بعد إنشائه القلعة . كان العثمانيون قد تسلموا قارص كما تسلموا أرضروم خالية خربة وغير مسكونة . شيد لالا باشا فيها ٥ مساجد ، وجسرين ، وسراى للوالى ومدرسة (التحصيل المتوسط والعلوم الدينية) ، ومكتبا (التعليم الابتدائى) ، ثكنة ، حمامات ومسكن وافتتح المدينة فى ٢٢ أيلول . وطلب قسوم الأهالى من المناطق المجاورة وسكناهم فيها . تم تحصين تفليس . أسر العثمانيون الذين دخلوا روان فى ٦ ت ١ ، ٢٠ . ٠٠٠ صفوى . وجاء محمد كيراي خان إلى دربند فى ٧ ت ١ والتقى بأوزدمير أوغلو . كان الخان يبنى الانتقام لأخيه وولى عهده عادل كيراي . وكان قد سار من قرم فى ٢٦ تموز بـ ٨٠ . ٠٠٠ فارس . وفى ١١ ت ١ ، سار أوزدمير أوغلو مع الخان من دربند . دخل باكو . قتل فريق أول (والى) شيروان الصفوى محمد خان الذى حاول الدفاع عن شيروان مع ١٥٠٠٠ من جنوده . لم يدم الاحتلال الصفوى فى شيروان سوى

عشرة أشهر ونصف . وقع في هذه الأيام حادث امتد صداه وشمل العالم بأسره ؛ فقد اغتيل في إستانبول الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، واحتل مكانه الوزير ٢ أحمد باشا . وبذلك ارتقى لالا مصطفى باشا من رتبة الوزارة ٣ إلى الوزارة ٢ ، وأصبح سنان باشا وزيرا ٣ . وفي ٢٢ ت ١ انسحب لالا باشا مع جنوده وعددهم ١٠٠ ٠٠٠ إلى أرضروم لقضاء الشتاء . انتهى موسم هذه الحملة بفتح روان . واسترداد شيروان وهما شمالي آذربيجان وأرمستان الحالية . لكن تحقيق لالا باشا هذه الانجازات بواسطة قواده التابعين له وانشغاله هو في قارص بإنشاء المدينة مدة شهرين ، ٢٧ يوما وعدم تقدمه ، أفاد كثيرا أعداءه في الديوان . ورغم أن أوزدمير أوغلو كان قد اقترح على القائد العام لالا باشا بأن هناك ٨٠ ٠٠٠ جندي قرامى وأنه بالإمكان الدخول إلى قزوین والقضاء على إيران بقيادة لالا باشا ، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . إذ إن مسألة إيران بالنسبة إلى لالا باشا هبطت إلى الدرجة الثانية . كان كل همه وتفكيره في تبديل السلطة في إستانبول . كان مقتنعا بأن أحمد باشا شخصية ضعيفة وأن باب الصدارة قد انفتح له ، وسيمكنه ترأس مقام الإجراء في الدولة العالمية الذي حاول اقتناصه قبل ١٣ سنة . أما خان قرم فإنه ودع أوزدمير أوغلو في ٧ ت ٢ وذهب إلى قرم . ترك لأوزدمير أوغلو وحدة عسكرية بقيادة أخيه غازى كيرای .

(١٨) حركات عام ١٥٨٠

كان بقاء الباشا القائد عاطلا في الوقت الذي كان فيه القضاء على إيران ممكنا خطأ عسكريا وسياسيا كبيرا . ولكن كان الشائع أنه لم يكن يرغب في إكساب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذي ذاع صيته وفاقه شهرة لقب فاتح إيران . نقل الديوان وزيره ٢ من القيادة العامة لحملة إيران (١٥٨٠/١/٧) ، وعين مكانه الوزير ٣ قوجا سنان باشا الذي كان سبيء السجاياء وعديم الأخلاق ، ولا قيمة له من الناحية العسكرية . ومن غير الممكن أن يستعاض به عن لالا باشا ، ويصبح وهو عدو لأوزدمير أوغلو قائدا له . لكن سنان باشا وعد في الديوان بأنه إذا ما أعطيت القيادة العامة له فإنه سيكبل الشاه بالسلاسل ويقتاده إلى إستانبول ، وقد صدق الديوان هذه الثثرة . جاء كل من لالا باشا إلى إستانبول ليحتل مكانه كوزير ٢ في الديوان ، وسنان باشا إلى أرضروم . وبوفاة أحمد باشا بعد عدة أسابيع ، أصبح لالا مصطفى

باشا وزيرا أعظم بعنوان « وكيل السلطنة » (١٥٨٠/٤/٢٨) وكان يستعد للقضاء على سنان باشا ، لكنه مات بعد ٣ أشهر و ٩ أيام من الحياة السياسية والعسكرية الصاخبة . وعندما علم سنان باشا العاطل بدون عمل بوفاة غريمه الأكبر ، أقام احتفالا في الجيش عندما كان بجوار تفليس وعاد إلى إستانبول بصفة وزير أعظم . وهكذا قضى سنان باشا الذى لم تكن له أبدا نية إرسال جنود إلى أوزدمير أوغلو ، ولا الالتحاق به ، سنة ١٥٨٠ دون حركة وبلا مكسب . وأعطى مجالا لإيران لكى تلم شعنها . كان يعلم - رغم كونه قائدا عاما - أنه لو اشترك فى حركات عسكرية فإن النصر سيعود لعثمان باشا وليس له . حيث إن الشعب لم يكن غبيا . كان الكل يعلم أن سنان باشا عسكرى متملق . وعثمان باشا رجل حرب داهية .

١٩) حركات عام ١٥٨١

هكذا توفى صوقوللو - زاده داماد قره لالا مصطفى باشا (١٥١١ - ١٥٨٠) ، فاتح قبرص وأحد أكبر العسكرين فى القرن ١٦ بعد صدارة دامت ٣ اشهر و ٩ أيام وعمره ٦٩ سنة . أخواه الوزير ٢ دلى خسرو باشا (وفاته ١٥٤٤) وفريق أول (والى) إيالة روملى محمود باشا (وفاته ١٥٨٠) . وقد خلف مؤسسات خيرية كبيرة جدا . تزوج أولا بفاطمة خاتون حفيدة سيياى نائب السلطنة المملوكية فى الشام المولودة من ابنته والسلطان قانصو غورى ، وتزوج بعدها هما سلطان ابنة الشهبازة محمد ابن القانونى . تزوج أحد أبنائه الوزير جعفر باشا (وفاته ١٥٨٧) بصفية خانم سلطان ابنة صوقوللو محمد باشا المولودة من ابنة سليم الثانى .

إن حاجى قوجا سنان باشا عدو لالا باشا مدى الحياة والذى يعتبر من الشخصيات النموذجية لبداية عهد الانحطاط العثمانى - ألبانى (١٥٠٦ - ١٥٩٦) . أخوه الكبير هو الوزير إياز باشا (١٥٠٠ - ١٥٦٠) . كان سنان باشا الذى يكبر لالا باشا سنا ويأتى بعده مباشرة فى القدم متزوجا بأميرة هى (خانم سلطان) ابنة السلطان ياوز سليم . وقد ترك هو كذلك أفعالا خيرية تحير العقل .

انقضت سنة ١٥٨١ بجمود بسبب عجز سنان باشا وطلب إيران الصلح . كان أوزدمير أوغلو قد نقل قاعدته إلى باكو ، واهتم بتحسين إنتاج آبار نפט باكو

وإصلاح قلعة باكو ، كما عني بتعزيز أسطول الخزر وكان ينتظر قدوم الجند ، لكنه لم يتمكن من الحصول من قرم على أكثر من ٥٠٠٠ جندي فقط . دُمر جيش سلمان خان أثناء محاولته اجتياز نهر كور Kur لاستعادة شيروان على يد غازي كيراي الذي أرسله أوزدمير أوغلو لصدّه . تمكن ٣٠٠ جندي فقط من النجاة من بين ١٨٠٠٠ من جنود الصفويين (ك ١٥٨١/٢) . ثم حاصر سلمان خان آخر وهو صدر أعظم لإيراني باكو لكنه انسحب منهزماً . هنا مراد الثالث عثمان باشا وغازي كيراي . أما الوزير الأعظم سنان باشا ، فإنه لم يكتف بعدم مساعدة عثمان باشا الذي صاحب لالا مصطفى باشا مدى الحياة ، بل إنه كان يبحث عن الوسائل التي تمكنه من القضاء عليه . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب شهرة الباشا العسكرية الفاتكة . استمرت قيادة سنان باشا الذي عاد إلى استانبول في ٢٢ تموز (١٥٨١) مدة سنة و ٦ أشهر و ١٥ يوما . وكان قد قضى ٥ أشهر و ٥ أيام من هذه المدة في أرضروم في توزيع الإيالات والألوية على مؤيديه .

٢٠) حركات عام ١٥٨٢

جاء السفير الصفوي إبراهيم خان توركمن في ٢٩/٣/١٥٨٢ حاملاً مقترحات الصلح . وأفاد بأن الشاه موافق على الصلح مع بقاء كرجستان وداغستان لدى العثمانية شريطة إعادة شيروان . لكن شيروان كانت بحوزة العثمانية ، وكان ترك العثمانية شيروان السنية التي حصلت عليها بسكب الدماء معارضا لمبادئها . كانت إيران في هذه الأثناء تحارب الخاقان التركستاني جنكيز أوغلو عبد الله خان شيباني . لم يفكر سنان باشا حتى من الاستفادة من هذا الوضع . عزل مراد الثالث ، الذي غضب على طلب السفير الإيراني استعادة شيروان ، سنان باشا من الوزارة العظمى ، كان الشاه في خراسان في حملة ضد الخاقان التركستاني . كان وضع إيران حرجاً . لكن جبهة إيران ، كانت بعهد أوزدمير أوغلو مع جيش غير كاف أبداً . ترك الجيش الموجود معظمه في أرضروم عثمان باشا لحاله في ضفاف الخزر ، لعدم تسلمه أمراً من استانبول .

دخل بيكر خان مع ١٥٠٠٠ جندي صفوي إلى شيروان . انتصر على غازي كيراي الذي حمل عليه بـ ٣٠٠٠ فارس قرامى وأسره كما كان قد أسر أخاه الكبير

عادل كيراي . غازى كيراي عسكرى فائق ، يجيد لغات عديدة ، عالم ، شاعر متميز باللغة التركية وملحن قدير جدا . بهر ولى عهد الإمبراطورية الإيرانية حمزة ميرزا بهذا الأمير القرمى الذى يجمع كل هذه الصفات ، وأكرم كثيرا . عرض عليه أنه يمكنه أن يطلب مايريد فى حالة اعتناقه المذهب الشيعى وحاول معه كثيرا فى هذا الصدد . وعلى أثر معارضة غازى كيراي ، حبسه فى قلعة قهقهة (آلاموت) . بقى الأمير القرامى حفيد جنكيز فى البطن ١٦ وعمره ٢٨ سنة فى الزنزانة عدة سنين لكنه لم يترك اعتقاده السنى . أسر بعد مدة أمير اللواء دال محمد بك (باشا) وسبق إلى حجرة غازى كيراي . كان هو كذلك شاعرا ومؤرخا . بدأ الأميران قضاء الوقت فى الأحاديث وقراءة الأشعار والنظم .

حرر أوزدمير أوغلو عثمان باشا رسالة إلى مراد الثالث . ذكر فيها أنه أصبح ألوبة بأيدي الرجال عديمى الكفاءة فى إيران ، وأنه ظل منذ سنوات فى الجبهة الإيرانية وأن فرصا كبيرة قد ضاعت ، وأنه فى حالة عدم إصلاحه هذا الوضع فسوف يصاب شرف الدولة بالشوائب . جن الوزير الأعظم والديوان الهمايونى . كيف يمكن لهذا الوزير أن يتجاوزهم ويراجع البادشاه مباشرة ؟ لكن البادشاه لم يعط أذنا مصغية للأقوال الصادرة عن الديوان ، وأرسل جيشا من إستانبول إلى كفة فى قرم . اجتاز الجيش الذى توحد تحت قيادة جعفر باشا فريق أول (والى) كفة جبال القفقاس الهائلة وجاء من كفة إلى دمير قابو خلال ٨٠ يوما (١٥٨٢/١١/٢٤) . حصل عثمان باشا على الجنود الذين كان فى انتظارهم منذ سنين . وتخلص من حرج الوضع .

(٢١) حركات عام ١٥٨٣ ، انتصار مشعلة لر (١٥٨٣/٥/١١) ،
فتح روان (١٥٨٣/٨/١٥)

منح فرهاد باشا رتبة الوزارة (مارشال) وعين قائدا عاما على الجبهة الإيرانية (١٥٨٣/٣/٢٨) . تحرك القائد فى ١٠ نيسان من إستانبول مع ٦٠/٤٠٠ جندى و ١٠ ٠٠٠ عامل بناء و ٣٠٠ مدفع للحاق بالجيش فى أرضروم . سار أمام قولو خان الذى علم بحجر قدوم جيش كبير ، بـ ٥٠ ٠٠٠ جندى قاصدا القضاء على عثمان باشا قبل قدوم هذا المدد . اقترب حتى الضفة الجنوبية من نهر سامور Samur الذى

يفصل شيروان عن داغستان . وجاء إلى سهل بيلاسا Bilasa قرب مدينة كوبا .
تقابل الجيشان التركيان مرة أخرى للنزاع على شيروان . ورغم أن الحرب الميدانية
بدأت في ٨ أيار لم يتمكن عثمان باشا من تحقيق نتيجة حاسمة إلا بعد ٣ أيام . كان
والى كفه الفريق الأول جعفر باشا في الجناح الأيسر ، ووالى سيواس الفريق الأول
جر كس حسن باشا في الجناح الأيمن . كان القائد العام (السردار) عثمان باشا قد
قطر ٣٠ مدفعاً أمام جيشه . وفي ليلة ٩ - ١٠ أيار ، اقتتل الطرفان على ضوء
المشاعل ليرى كل منهم خصمه ويحسن قتله . تفكك الصفويون في وقت مبكر من
الصباح .

كان الفرسان التركانيون الصفويون الأبطال الذين خسروا ١١٠٠٠ قتيل و
٣٠٠٠ أسيراً وعشرات الألوف من الجرحى يتساقطون على الأرض الواحد تلو الآخر
بمدافع العثمانية . بدعوا في التراجع . ورغم أن امام فولو خان تور كمن تقدم جيشه
المنهزم منادياً باللهجة التركانية : « يا هذا ، إلى اين تذهبون ؟ هل تحرمون عليكم خبزة
الشاه ؟ » ، لكنهم اكتسحوه معهم وذهبوا به . انتصر عثمان باشا على الصفويين
انتصاره ٤ والأكبر (حرب مشعله لر (المشاعل) الميدانية ١١/٥/١٥٨٣) .

وفي ٣ حزيران دخل أوزدمير أوغلو شهاى للمرة الخامسة . كانت شيروان قد
أنقذت وبقيت روان (أرمنستان الحالية) مفتوحة وبدون مدافع أمام العثمانية . أمر
عثمان باشا بإنشاء قلعة كبيرة في شهاى ، أنجزت خلال ٤٤ يوماً (٢٠ تموز) ،
حفر حولها خندق ملاء من ماء نهر Pirsagat . عين والى (برتبة لواء) آماسيا
مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول) على شهاى (شيروان) بعد ترقيته إلى رتبة
الباشوية وإعطائه مدافع ثقيلة .

أما فرهاد باشا فقد جاء إلى قارص في ١٢ تموز مع ١٠٠٠٠٠ جندي . وعندما
علم بانتصار مشعله لر دخل روان بسهولة (الأيام الأولى من شهر آب) . جاء
عثمان باشا إلى باكو في ١٦ أيلول ، بعد أن مكث في شهاى ٣ شهر و ١٣ يوماً .
شيد فرهاد باشا في روان قلعة كبيرة (٩/٤ - ١٨/١٠/١٥٨٣) . وضع على القلعة
التي تحتوى على ٥١ برجاً ، ٥٣ مدفعاً . وأصبح خضر باشا واليا على روان . ترك
لخضر باشا ٥٦٠١ جندي ، ولجفال أوغلو سنان باشا الذي رفع إلى مرتبة الوزارة
بصفته قائدا لروان - والذي هو بالأصل أميرال - ٨٠٠٠ جندي ، وانسحب لقضاء

الشتاء . كانت المصروفات السنوية لهذه الوحدات ٥١٤٤٠٠٣٤ آقجه ، وبين هذا الرقم ماتكبدته العثمانية بسبب الحروب الإيرانية . وعين والى مورا اللواء على بك قائدا لحامية قلعة خوى فى جنوب آذربيجان وخصص له ٨٠٠٠ جندى و ٢٠٠ مدفع . أرسل صوقوللو - زاده حسن باشا مع ٨٠٠٠ جندى إلى باطوم . عين الفريق الأول دلقادر أوغلو ميرزا - على باشا واليا على تفليس . وبعد إنجاز فرهاد باشا هذه التدابير انسحب إلى أرضروم .

غادر أوزدمير أوغلو عثمان باشا ديمر قابو (١٥٨٣/١٠/٢١) متجها إلى إستانبول وسوف تستغرق هذه السفرة ٨ أشهر و ٨ أيام . وترك فريق أول (والى) كفة جعفر باشا فى ديمر قابو وكيلا لقائد الجبهة . اجتاز نهر Terek فى شهرت ٢ . اجتاز السفوح الشمالية لجمال القفقاس اعتبارا من الشرق إلى الغرب . اجتاز نهر كوبان المنجمد وعبر مضيق كرج ، وبدخوله مدينة كرج وطئت قدماه أرض قرم . جاء إلى مركز الإيالة العثمانية كفة .

(٢٢) حركات عام ١٥٨٤

كانت سن محمد كيراي خلال هذه الفترة ٥٠ سنة ، وخانا على قرم منذ ٧ سنوات . ولعدم رغبة سميز محمد كيراي كبير أبناء دولت كيراي الـ ١٨ الذى اعتلى العرش الدخول تحت إمرة وزير عثمانى ، لم يذهب إلى عثمان باشا فى داغستان مختلعا أعذارا واهية ، رغم أمر الديوان ، وأرسل وحدات بقيادة الأمراء القراميين . قرأ عثمان باشا عند وصوله إلى كفة أمر الديوان بعزل محمد كيراي من الإمارة . وصل قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى كفة مع ٣٥ سفينة حرب محملة بـ ١٠٠٠٠ جندى . كان قد استصحب إسلام كيراي البالغ عمره ٢٤ سنة الذى كان مقيما فى قونية منذ ١٠ سنوات ، قرأ الخط السلطاني (الفرمان) بتنصيبه أميرا (خان) . كان إسلام كيراي شقيقا لمحمد كيراي . أعدم (١٥٨٣/٤/٢٤) محمد كيراي الذى أئى أن يخضع لأخيه الذى عمره بقدر عمر ابنه بعد مقاومته . كان حاكما وعسكريا ممتازا . ولو لم يكن مصابا بالشعور بنقص عدم تسلمه الأوامر من الوزراء العثمانيين كبنى جنكيز وتعاون مع عثمان باشا بصورة صادقة ، لكان

بالإمكان الحصول على نتائج مهمة من إيران (بجوى ، ٢ ، ٩٠ - ١ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٠٧) .

ركب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة ٢ على ظهر سفينة الأميرالية لقيليج على باشا المطلية بماء الذهب والمفروشة بالأطلس وجاء بواسطتها من كفة إلى إستانبول (١٥٨٤/٦/٢٨) . كانت قد مضت ٦ سنوات منذ انضمامه إلى الجيش فى مقر أرضروم فى ١ تموز ١٥٧٨ . وفى غضون هذه المدة كان قد انتصر فى ٤ حروب ميدانية تحت أقسى الظروف ، وفتح من إيران التى تعتبر الدولة الكبرى الثانية فى العالم ، أقطارا مهمة جدا تبلغ مساحتها ٣٠٠ . ٠٠٠ كم^٢ . استقبله شعب استانبول بمظاهرات كبيرة جدا . كان أبوه أوزدمير باشا ، صديقا شخصيا وكاتم سر معتمدا للسلطان سليمان القانونى جد مراد الثالث . استقبل مراد الثالث عثمان باشا بصورة خاصة فى قصر يالى كشك (القصر المطل على البحر) الواقع على المضيق واجتمع به مدة ٤ ساعات بصورة انفرادية (١٥٨٤/٧/٥) . خلع السيف المرصع المعلق فى خاصرته ، وخنجره المرصع ، وشارة رأسه المكونة من أنواع الماسات النادرة وأهداها إلى عثمان باشا . ويسجل مؤرخو ذلك العهد الثقات أن السلاطين لم يكرموا أحدا أو يحتفوا به بمثل ماكرم مراد الثالث عثمان باشا .

لايمكن لاحد أن يضع عائقا أمام بطل وطنى يحمل هذه الصفات ، ولايمكن لأية قوة أن تحرمه من السلطة . عزل سياوش باشا وعين أوزدمير أوغلو عثمان باشا وزيرا أعظم (١٥٨٤/٧/٢٥) . كانت قد مضت ٢٤ سنة على وفاة والده أوزدمير باشا وتعيينه مكان أبيه واليا (فريق أول) على إمالة الحبشة ، و ٦ سنوات على حصوله مرتبة الوزارة . بقى فى إستانبول مدة ٣ أشهر و ١٧ يوما . غادر إستانبول فى ١٥ ت ١ (بجوى ، ٢ ، ٩١ - ٥ ؛ صولاق - زاده ، ٦٠٧ - ٨ ؛ منجمباشى ، ٢ ، ٥٥٤ ، ٥) . وكل نيابة عنه الوزير ٢ مسيح باشا كوكيل لرئيس الوزارة (صدارت قائمقامى) . لم يكن هناك نظير للزحام والمظاهرات التى جرت له عند مغادرته إستانبول . يصف حريمى جاوش إستانبول يوم مغادرة أوزدمير أوغلو ببيت من الشعر معناه : « هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص - لو رميت لإبرة ماسقطت على الأرض من كثرة الأشخاص » .

جاء الوزير الأعظم والقائد الأعلى إلى قسطنطين فى ١٨ ك^١ . كان قيليغ على

باشا في سينوب منذ ٢٤ ت ١ ، أمر عثمان باشا بقدم ١٢ فريق أول ، ومن روملى ١٧ لواء ومن إستانبول ٤٠٠ مدفع وتجمعوا في سيواس ، ونزل خان قرم إلى قفقاسيا . لكن ساءت صحته ، لقد سبب بقاؤه في قفقاسيا ٦ سنوات بعد أن قضى سنوات طويلة في حر السودان واليمن الجهنمي وفي الصحراء في البصرة والأحساء ، إصابته بالبرد . لم يتمكن من الركوب على الحصان ، وكان يتقدم بواسطة المحفة .

(٢٣) حركات عام ١٥٨٥ ، فتح تبريز (١٥٨٥/٩/٢٢)

وجد أوزدمير أوغلو ، عند مجيئه إلى سيواس ، ٢٠٠ ٠٠٠ جندي بصورة مجمعة . استكثر هذا العدد وأعاد ٤٠ ٠٠٠ منهم إلى أماكنهم . وبقدر ضخامة عدد الجيش ، كانت تتعاضد أمور الإقامة والتموين . وفي ١ آب خيم مع ١٦٠ ٠٠٠ جندي خارج أرضروم . كان سبب مجيئه من قسطنطين إلى أرضروم خلال مدة ٣ أشهر و ٢٣ يوماً ، هو بقاؤه ٢٢ يوماً في آماسيا و ٢٠ يوماً في سيواس وانشغاله بأمور الدولة والجيش . التقى في طوقات بالقائد العام السابق الوزير فرهاد باشا (وزير أعظم في المستقبل) الذي غادر أرضروم في طريق عودته إلى إستانبول وتحادث معه . سر عثمان باشا عند مشاهدته في أرضروم غازي كيراي ودال محمد بك (باشا) الذين كانا أسيرين لدى الصفويين وسجينين في سجن قلعة آلاموت بعد فرارهما من السجن . كان كلاهما صديقيه الشخصيين . كانا قد تمكنا من الفرار من قلعة تدهش العقل كآلاموت وإضافة إلى ذلك كانا منفصلين عن بعضهما ، ولا يمكن لأحدهما استقصاء أخبار الآخر . أخبر الباشا غازي كيراي بأنه سيعينه خاناً على قرم بدلا من أخيه الصغير إسلام كيراي ٢٠ في أقرب فرصة . كان غازي كيراي قد فر من أقرب الطرق عن طريق آلاموت - تبريز - وان . ولم يكن دال محمد محظوظاً مثله واضطر إلى اختيار طريق آلاموت - أصفهان - شيراز - بصرة - بغداد - دياربكر ، عانى مصاعب لا يمكن وصفها في الأراضي الإيرانية حتى وطئت قدماه أرض البصرة ، واضطر إلى التسول حافي القدمين ليستمر في سفره .

بقى الجيش الهمايوني ١٠ أيام في أرضروم ، ثم تحرك في ١١ آب . اشتد مرض

القائد الأعلى . كان سابقا يمتطى جواده العربى الأسود المشهور جدا المسمى قره قايتاس (وتعنى الحوت الأسود) منذ مايقرب من ٣٠ سنة ، كان كل أفراد الجيش يتعرفون على هذا الجواد . كان كثير من أفراد الجيش يعتقد أن الباشا إنما حصل على فتوحاته الفريدة لكون هذا الجواد مسحورا . كان الاعتقاد السائد أن صهيل الجواد إشارة للنصر . تشاءم الجيش عندما لم يشاهد القائد الأعلى على ظهر هذا الجواد . وصل الجيش فى ٧ أيلول إلى صحراء جالديران الذى حصل فيه ياوز على انتصار كبير . كان عثمان باشا يعتقد بأنه سوف يتقابل مع الشاه . تأثر عثمان باشا عندما علم بأن الشاه فر من تبريز فى ٢٧ آب .

شوهدت تبريز فى ٢١ أيلول . أصبح فتح هذه البلدة لدى الباشا الذى كان يتمم كل يوم « أين أنت ياتبريز ؟ » فكرة ثابتة وعقيدة لايمجد عنها . ظهر الجيش التركمانى الكبير لحمزة ميرزا ابن الشاه فى ضواحي آوار ، لكنه لم يتمكن من صيانة تبريز . وهذه هى المرة ٤ التى يفتح فيها العثمانيون تبريز . وهكذا تأسست إمالة تبريز التى سوف تستمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما .

دخل عثمان باشا المدينة فى ٢٥ أيلول ، وفى ٢٦ منه تقبل تزيكات عيد الفطر . وفى ٢٧ منه استمع فى جامع حسن باشا (أوزون حسن) لخطبة الجمعة على الأصول السنية وكان ياوز قد صلى صلاة الجمعة فى ذات الجامع قبل ٧١ سنة و ٩ أيام (بجوى ، ٢ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٧ ؛ حريمى ، غونجه باغ مراد ؛ دال محمد بك ، شجاعنامه) . وفى ٢٩ منه شرع فى بناء قلعة عظيمة على أن تتم خلال شهر . خصص لها ٨٠٠٠ جندى . وعندما ازدادت صحة عثمان باشا سوءا عين سنان باشا وكيلا للقائد العام ، وهو القائد الوحيد فى الجيش برتبة وزير ، وعين والى طرابلس الشام الفريق الأول جعفر باشا واليا على تبريز . وعد جعفر باشا بأنه إذا احتفظ بتبريز مدة ٣ سنوات وأدى خدمات جيدة ، سيمنحه مرتبة وزير ويعطيه إدارة بودين (المجر) . ركز عدة مئات من المدافع فى تبريز . سدد رواتب الجنود الموجودين فى تبريز من دراهمه الخاصة مدة طويلة وبلغت ١٠ ملايين آقجه وعين فريقا أول (والى) حلب محمد باشا معاونا لجعفر باشا لتوفير راتب شخص برتبة فريق أول فى تبريز ، ليكون بديلا عن جعفر باشا فيما إذا أصيب بمحادث من قبل حمزة ميرزا الذى يتجول فى المنطقة . خرج من تبريز ، وفى ٢٨ ت ١ ، جاء على

رأس جيشه إلى ضاحية شنب غزان . كان حمزة ميرزا قد حصل على معلومات خاطئة تفيد وفاة الباشا . وقام بهجوم ليلي مفاجيء . هجم على مؤخرة العثمانية بـ ٣٠ . ٠٠٠ فارس تركمانى . لكنه هزم وتراجع . كان هذا آخر انتصار سمعه عثمان باشا . وبينما يعسكر الجيش فى ساحل آجى صو توفى ليلة ٢٩ - ٣٠ نحو منتصف الليل (١٥٨٥) . إن عينيه اللتين أغلقتا كانتا تنظران فى اتجاه تبريز . كان قد ولد فى القاهرة . ودع الحياة وعمره يتجاوز ٥٨ سنة بعدة أشهر ، فى جانب آخر من الدولة العثمانية العالمية قرب تبريز - نقل جثمانه حسب وصيته إلى مدينة دياربكر ودفن فى قبره الموجود فيها . كان عباسيا من جهة الأم ، أى أن والدته كانت أبنة أحد خلفاء العباسية . حقق فتوحات عظيمة فى مناطق تختلف أقاليمها عن بعضها تمام الاختلاف . كان أكبر عسكري عثمانى فى القرن ١٦ ، عدا القواد من الحكام . ولم تجد العصور التالية بعسكري على هذا القدر . وحين وفاته ، كانت أمه وزوجته وابنته على قيد الحياة فى إستانبول . أحدثت وفاته حزنا كبيرا فى إستانبول . وضع النعش على ظهر حصانه الذى كان يمتطيه منذ ٣٠ سنة المسمى قره قايتاس مع وضع السرج على المقلوب - حسب الطريقة التركية القديمة - وجيء به إلى عامد (دياربكر) عن طريق وان . قامت المدينة كلها واشتركت فى مراسم تشيع الجثمان .

أصبح الوزير ٢ مسيح باشا وزيرا أعظم بصورة تلقائية وسان باشا قائدا عاما بالأصالة . لكن عين بعدها الوزير ٣ فرهاد باشا قائدا عاما (١٥٨٦/١/١٤) ، تحرك من إستانبول إلى الشرق لتسلم القيادة من سنان باشا . وفى أثناء ذلك كان ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ١٩ سنة قد جاء أمام تبريز ، وبدأ فى حصار المدينة (١٥٨٥/١١/١٣) .

(٢٤) حركات عام ١٥٨٦

دام حصار تبريز ٩/٥ أشهر حتى ١٥٨٦/٨/٣٠ . كان عثمان باشا يدافع بجنوده البالغ عددهم ٨٠٠٠ تجاه جيش جرار للعدو . لكن كانت لديه مدافع كثيرة والمدافع الصفوية غير كافية . كان حمزة ميرزا يتوقع نفاذ عتاد ومؤن العثمانية واستسلامها بعد تكبدها خسائر كبيرة . أخرج الشعب الشيعى من القلعة توفيرا لاستهلاك

الأطعمة . بقى الشعب السنى فقط فى القلعة . كانت حربا قدرة . سار فرهاد باشا من أرضروم إلى تبريز بجيش عدده ٨٠ ٠٠٠ جندى . وفى الوقت الذى اعتقد فيه مدافعو القلعة بأن نهايتهم قد دنت إذا بهم يشاهدون أفراد الجيش الصفوى الكبير يمتطون جيادهم وينسحبون بسرعة . أدركوا الوضع بعد فترة قصيرة عند سماعهم صوت الموسيقى العسكرية (مهترخانة) . لم يبق فرهاد باشا فى تبريز مدة طويلة . لكنه أعطى جعفر باشا ٢٠ ٠٠٠ جندى ودراهم تقدر بـ ٢٢ مليون آقجه . وأطعمة مقدارها حمولة ١٠٠٠ حمل . كان أوزدمير أوغلو قد كدس فى القلعة كمية كبيرة من العتاد ، ورغم الحصار الذى دام ٩/٥ أشهر كان لا يزال هناك عتادا يكفى لمدة سنة . تم ترميم القلعة . انسحب القائد العام والجيش الهمايونى إلى أرضروم لقضاء شتاء عام ١٥٨٦ - ٨٧ . هنا الديوان جعفر باشا لدفاعه عن تبريز ومنحه رتبة وزير (مارشال ، مشير) (شباط ١٥٨٦) . قتل خلال ذلك ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ٢٠ سنة فى حادث اغتيال (١٩٨٦/١٢/٥) . ومات الشاه خدابنده وعمره ٥٥ سنة ، بعد عدة أشهر (أيار ١٥٨٧) . صار عباس ميرزا البالغ عمره ٣٠ سنة شاه . دامت ولاية جعفر باشا لتبريز مدة ٨ سنوات ثم عين واليا على إالة وان .

تشمل الحرب الإيرانية جبهة العراق الجنوبية كذلك . لكن حروب هذه الجبهة لم تصل فى أى وقت من الأوقات إلى درجة عظمة حروب الجبهة الشمالية أى جبهة قفقاسيا . بدأت الحرب فى هذه الجبهة باحتلال دهنور على يد والى (فريق أول) شهر زور إسفنديار أوغلو محمد باشا فى ربيع عام ١٥٧٨ . عرض أمير الخويزة الذى يسيطر على المدن كالمحمرة فى القطاع الجنوبى من خوزستان شستر ديزفول تابعيته للعثمانية . وهكذا انتقلت سواحل خليج البصرة الشمالية لحوزة العثمانية . أسست إيالة جديدة فى بلنكان وعين والى (برتبة لواء) أربيل أحمد بك واليا (برتبة فريق أول) عليها . هزم فريق أول (والى) بغداد الورد - زاده (آل الورد) على باشا ، أحد أمراء آقويونلو الصفويين فى حرب ديزفول الميدانية (١٥٨٣/١١/٧) . جاء شعب قبائل وأمراء المناطق التى تعتنق المذهب الشافعى فى غرب إيران إلى العثمانية وأعلنوا خضوعهم وطاعتهم فردا فردا . وهكذا انتقلت الإيالات من الجنوب إلى الشمال خوزستان ، لورستان ، كرمنشاه ، أردلان (كردستان) لحوزة العثمانية . وكانت إيالة آذربيجان فى الشمال قد فتحت كذلك . بقيت إيالات همدان وخمسة

مفتوحة لاحتلال العثمانية . عين جفالوغلو سنان باشا قائدا عاما على الجبهة الجنوبية ، ووضع تحت إمرته كل من ولاية بغداد ، موصل ، شهرزور (كركوك) ، بصرة ، بلنكان . جعل من دينور مركزا لإيالة جديدة وعين لها والى درنتك سنان بك . جاء جفالوغلو إلى ديزفول ، ومنها إلى نهاوند . جعل هذه المدينة مركزا للإيالة وعين لها معاونه محمد بك واليا برتبة فريق أول . سار فريق أول (والى) همدان الصفوى قورقماز خان إلى القائد العام . فقد الصفويون فى الحرب الميدانية (١٥٨٧/١٠/٣٠) التى وقعت على مقربة من نهر جاماسب ، ٩٠٠٠ قتيلًا وأسير ، كان الخان بين الأسرى . كان اليوم التالى عيد الأضحى . استمر الوزير ٤ جفالوغلو سنان باشا على قيادة الجبهة الجنوبية حتى تعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية بدلا من أولوج حسن باشا الذى توفى فى ١٥٩١/٧/١٢ .

٢٥) حركات عام ١٥٨٧

خرج فرهاد باشا من أرضروم (١٥٨٧/٧/٣٠) . جاء إلى Guri مركز الإيالة العثمانية (١١ أيلول) . شيد قلعة خلال ٢٧ يوما ، وسماها (حسن آباد) . جعل تومانيس مركزا لإحدى الإيالات . وظلت تفليس ، بين إيالتى غورى وتومانيس . وفى الجنوب كانت تمتد بكلميك (إمارة الأمراء) روان . وفى جنوب نهر آراس ، كانت تبدأ أراضى إيالة تبريز . أنشئت هذه الإيالات الصغيرة لتقوية الأسلوب الدفاعى تجاه الصفويين . عاد فرهاد باشا فى ٣٠ ت ١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء لعام ١٥٨٧ - ٨٨ .

٢٦) حركات عام ١٥٨٨

غادر فرهاد باشا أرضروم فى ١٥٨٨/٧/٢١ . استغرقت حملته فى العام الماضى مدة ٣ أشهر ، ويوم . واستغرقت حملته أرضروم - كنجة فى هذا العام مدة ٣ أشهر و ١٩ يوما . لم تكن هنالك أية صعوبة فى الاستيلاء على قزوین . لكن فرهاد باشا كان عسكريا من النوع الذى يهتم فى الدرجة الأولى بتأمين الحفاظ على

مأجوزته ، ولم يكن فاتحاً مثل أوزدمير أوغلو . كان الشاه عباس في خراسان في معركة بقاء أو فناء تجاه جنكيز أوغلو عبد الله خان شيباني . حاصر عبد الله خان الثاني المسمى « الكبير » مشهد ، المدينة الشيعية المقدسة ، بجيش مؤلف من ١٠٠ ٠٠٠ جندي . بادر شاه عباس الذي سيطلق عليه اسم « الكبير » للدفاع عنها . وعلى الرغم من أنه كانت هنالك روابط متينة بين إستانبول وسمرقند إلا أنه لم يتسن تحقيق خطة مشتركة للقتال (هامر ، ٧ ، ١٩٦) .

كانت خاقانية تركستان تعيش أواخر سنين عظمتها ، وبعد مدة سوف تفقد قدرتها على مجابهة إيران وتنقسم إلى خانات صغيرة .

أما العثمانية فكانت منتشرة في منطقة واسعة جداً ، وكان همها الحفاظ على ماملكه ، وكانت قد بدأت تفقد دهاءها وقدرتها على الانطلاق نحو تحقيق مآمن شأنه أن يغير سير التاريخ ؛ لقد كان القائد فرهاد باشا شديد الخوف من أن يؤدي فشله إلى فقدان مركز الصدارة الذي سوف يستحقه عن قريب . أمر الخاقان قائده الأعلى ، تحريريا بالبحث عن الشاه والانتصار عليه في معركة حاسمة ، وإن لم يجده ، فالاستيلاء على أقطاره الخالية من جيش العدو ، وأن هذا الاستيلاء في مقدور أى ضابط . قرر القائد وبخذر شديد فتح كنجة . كان نجاحا مهما ، لكنه لا يمكن أن يكون حركة استراتيجية من شأنها هزيمة الصفويين .

كنجة ، شمال آراس هي أهم الأماكن المعدودة التي بقيت بيد الصفويين . البلدة التركية التاريخية الكبيرة ، وطن « نظامي » أكبر شاعر مثنوى (حكاية منظومة) تركي الأصل .

قدم الجيش إلى قارص في ٢٥ تموز . أرسل السلطان رسالة هاميونية (سلطانية) يخبر فيها بتواجد الشاه في خراسان ، وخلاء قزوین من الجيش وأمر بالاستيلاء عليها .

تظاهر الإنكشارية الذين جرأهم - أغلب الظن - فرهاد باشا ، وهتفوا « ليأت سيادة السلطان شخصيا ، ونذهب سوياً ، إن شاء الله نذهب إلى قزوین في السنة القادمة ١ » تأخر الباشا ١٦ يوما في قارص ، تحرك في ١٠ آب ووصل كنجة مركز إيالة قره باغ مجتازا تفليس . مجيئه من أرضروم إلى هنا في ٤٢ يوما . ذهب الصفويون الذين تيقنوا من عدم إمكانهم الدفاع وانسحبوا . دخل الباشا كنجة وأخذ في تشييد

قلعة كبيرة . تم إنشاء القلعة التي أحيطت بسور له برج و ٧ أبواب حديدية وبارتفاع ٢٠ ذراعا وعرض ٣ أذرع ، محيطه ٣٨٠٠ ذراع . عين حيدر باشا لإدارة بكلر بكية كنج . وضع تحت إمرته ٣٠٠٠ جندي . هجم جعفر باشا بكلربك (أمير الأمراء - فريق) شيروان ، بحملة مؤلفة من ٣٠٠٠٠ جندي على زياد أوغلو محمد خان ، بكلربك الصفويين في كنجة وأفنى نصف الجيش الإيراني (١٥٨٨/٩/٢٩) . قاد جعفر باشا الجيش وهو في حالة مرض . مات بعد فترة قصيرة (٢ ت ١) . وصار حسن باشا بكلربك حلب ، بكلربك لشيروان برتبة وزير . غادر فرهاد باشا الذي بقي ٤٤ يوما في كنجة وشيد قلعة خلال ٣٧ يوما ، يوم ١٥ ت ١ ، ووصل معسكره في أرضروم يوم ٨ ت ٢ .

تعنى أذربيجان (تبريز) بالنسبة للصفويين مثل مايعنيه لواء أرتغرل (بيلة جك) ، أو لواء خداوندكار (بورصة) بالنسبة للعثمانيين ؛ فهي موطن الصفويين ؛ وشریان الحياة بالنسبة لإيران . وقد أجبر عدم التمكن من استردادها الشاه عباس على الصلح والانتظار لفترة استعداد طويلة المدى . إن سقوط كامل خراسان في الشرق (التي تبلغ ٤٥٠٠٠ كم^٢) بأيدي الأوزبك الأتراك الشرقيين ، واستيلائهم على مشهد المدينة المقدسة أعجز إيران . كانت علاقة بني تيمور الهند التابعة لإيران ، سيئة كذلك مع أكبر شاه ، وكانوا على خلاف دائم مع الأفغان . كانت الدولة الصفوية التركية الشيعية المحاطة بثلاث إمبراطوريات تركية سنية - حنفية ؛ في موقف الكفاح من أجل البقاء أو الفناء .

٢٧) معاهدة إستانبول (١٥٩٠/٣/٢١)

كان دحر جعفر باشا بكلربك تبريز بجيشه البالغ ١٥٠٠٠ شخص الجيش الصفوي الذي أغار عليه قد قطع أمل الشاه في استرجاع تبريز بالمرة .

طلب الصلح . ترأس وفد السفارة الإيرانية بصورة فخرية حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا ولي عهد إيران المقتول . قابل فرهاد باشا الوفد في مقره الكائن في حسن قلعة يوم ١٤/١٠/١٥٨٩ . قبل الوزير الثاني فرهاد باشا يد ولي العهد الطفل . أطلقت المدافع في مقر القيادة العامة العثمانية على شرف حفيد حفيد الشاه إسماعيل . وفي

عيد الأضحى (٢٠ ت ١) ، رتب فرهاد باشا وليمة على شرف البكوات الأتراك الصفويين ، وكان على رأسهم مهدي قولو خان أسطة جالو ، وإلى أردبيل . جاء إلى إستانبول كل من فرهاد باشا الذي رفعت عنه صفة القيادة بانتهاء الحرب في ١٤/١٠/١٥٩٠ ، وحيدر باشا ومعه معيته الكبيرة العدد في ٢٨ ك ٢٠ . عين المؤرخ الشهير مصطفى أفندي السلانيكي دليلا لميرزا . خصص قصر برتو باشا الكائن في وفاء ميداني لإقامة ولي العهد الصفوي . هب شعب إستانبول ، رجالا ونساء لرؤية ولي العهد الذي استقبله في أسكدار ، الأميرال الكبير (مشير البحر) أولوج حسن باشا . ولشدة الزحام أخذ الوفد يسير ببطء إلى درجة أنه لم يتمكن من الوصول إلى قصر برتو باشا إلا وقت العشاء . أخلد ولي العهد إلى الراحة فوراً . واستعد الديوان بميزانية ضخمة لمصروفات الوفد (يوميا ١٠٠ ٠٠٠ آقجة و ١٠٠ رأس غنم و ١٠٠ كلة (قطعة كبيرة) سكر و ١٠٠ كيلة شمع ومايناسب العدد من الخضر والفاكهة ، الخ .) . وفي اليوم التالي (١٥ ك ٢٠) ، قدم مهدي قولو خان توركمين أوراق اعتماده إلى الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قوجا سنان باشا .

استقبل مراد الثالث صدر ميرزا في ٢٩ ك ٢٠ في احتفال عمد فيه إلى أن يكون رائعا ليهر عيون الإيرانيين . يعتبر إرسال ولي عهد الدولة الوحيدة على وجه الأرض ، التي تعتبرها العثمانية معادلة لها إلى إستانبول إشارة إلى أن إيران ، لم تعد تعتبر دولة على قدم المساواة مع الدولة العثمانية . وبعد وليمة الغداء التي قدمها الوزير الأعظم سنان باشا بالصحن الذهبية جلس السلطان مراد على التخت الموجود حاليا في سراي طوب قابو ، المصنع والمذهب الذي صنع حديثا ، وسمح لولي العهد بتقبيل يده . وبعد إجلاس ولي العهد الطفل على كرسي إلى جانب السلطان أخبر سنان باشا مهدي قولو خان بالإذن له في الحديث . بدأ المرخص الأول الصفوي بإلقاء خطاب طويل باللغة التركية (طبعا) . استمع السلطان بإنصات . ذكر في خطابه أن الشاه يعترف بكافة الفتوحات العثمانية ، ويطلب الصلح على أساس مبدأ الـ Statu quo = (الوضع الراهن) أي الاعتراف بالوضع الراهن وبقاء الأماكن الكائنة لدى الدولتين حاليا ، بصورة فعلية ، على حالها ، وأن الشاه هو من جملة الحكام الذين يجرون سلطاتهم تحت سيادة السلطان . يعتبر هذا الحادث ذروة الشوكة في التاريخ العثماني إنه يعني أن الشاه قد قبل أن يكون السلطان هو الحاكم الأعلى . ولم يكن الشاه

إسماعيل قد صرح إلى ياوز ، ولابنه تاحماسب القانوني بمثل هذا التصريح . قدمت الهدايا التي أرسلها الشاه إلى السلطان ، والموجود أكثرها حالياً في متحف طوب فابو سراي . يستنتج من كل هذا أن الشاه عباس قد طلب الصلح بشكل قطعي . وأنه قد أيقن أنه سوف لن يتمكن من العثمانيين ما لم يلم شعثه بصورة جيدة .

وقعت معاهدة إستانبول بتاريخ ٢١ آذار ١٥٩٠ . وانتهت حرب من أقسى حروب التاريخ العثماني التي استمرت منذ ١٢ عاماً تنقصها ١٤ يوماً . حرر المعاهدة الشيخ سعد الدين أفندي (المتن . منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٤٩ - ٥٢) انضمت إلى الدولة العثمانية الأراضي التي فتح أكثرها أوزدمير أوغلو عثمان باشا والبالغة ٥٩ . ٠٠ كم^٢ ، وأمتدت حدود الدولة بشكل قطعي حتى غربي سواحل بحر الخزر (قفقاسيا الشمالية ، داغستان ، روان ، كرجستان ، شيروان ، آذربيجان ، آردلان ، كرمشاه ، لورستان ، خوزستان) . وبالإضافة إلى قبول إيران احترام حرية المذاهب السنية فإنها وافقت على عدم سب شخصيات السنة العظام . وتنص المعاهدة على مبادلة الأسرى وعلى رأسهم ٣ بكهربك صفويين لدى العثمانية و ٢ بكهربك عثماني لدى الصفويين .

زادت هذه المعاهدة من اعتبار العثمانية في تركستان كذلك . وأساساً ومنذ عهد القانوني فإن تركمان ياكا الذين كانوا يحتلون قسماً من تركستان الحالية كانوا يعتبرون العثمانية متبوعة . والوزير الأعظم فرهاد باشا الذي كان يخاطب خاقان تركستان ويصفه بالخاقان المعظم والخاقان الأعظم « عبد الله خان » كان يمل عليه أوامر سلطانه بشكل جلي ضمن هذه الألفاظ التوقيرية الرقيقة (منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٣٩ ومابعده) . وعدا ذلك فإن معاهدة إستانبول أمنت حماية المذهب السني لمسلمي القفقاس إلى يومنا هذا . ولو استمر الحكم الصفوي لمدة أطول لأصبح أهل السنة القاطنون في هذه الأقطار شيعة . ولغرض حل مشكلة كيلان ارتأى الديوان إعطاءها إلى الصفويين كعمويض . وكانت سلالة كاركياي السنية - الشافعية ، تعترف بولاية العثمانية ، على أن يكون مركزها في رشت - كيلان . والثاني عشر من هذه السلالة أحمد خان الذي استمرت سلطنته أكثر من نصف قرن ، هو من السلاطين الذين نظموا الشعر وكتبوا النثر باللغتين التركية والفارسية ولحنوه ، وفي الأيام الأولى لعام ١٥٩٣ جاء إلى إستانبول ومات فيها ١٦٠٠ .

أقيم لولى العهد حيدر ميرزا ، فى قصر صوقوللو فى ميناء قدرغة فى إستانبول مراسم ختان فخمة (١٧/٥/١٥٩٣) . واشترك فى هذا الحفل الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، وكافة الوزراء وجميع شعب استانبول . وفى جو كهذا بدأت حرب ألمانيا الكبرى . إيران كانت تسعى لإزالة آثار ضعفها . وقد وسع أكبر شاه فى الهند ، سلطنة بنى تيمور . ولو ملكت الإمبراطوريتان التركية فى إيران ، والتركىة فى الهند ، الأسطول فى هذا العهد كما ملكه العثمانيون لتغير سير التاريخ العالمى ، ولما تمكن الأوروبيون من التدخل فى شئون آسيا .

٢٨) المرحلة الأولى للحرب التركية - الألمانية الكبرى (١٥٩٢ - ١٥٩٥)

سأت العلاقات التركية - الألمانية ، بالغارات المتوالية التى أجراها تلى حسن باشا بكلمربك بوسنة على الأراضى الألمانية ، وخاصة الغارات الأخيرة فى صيف عام ١٥٩٢ . أعلم الإمبراطور رودلف الثانى الديوان بواسطة سفيره فى إستانبول بأن الأراضى الألمانية اخترقت على العمق ، وقتل ٢٠٠٠ جندى ألماني وجرح الآلاف ، وأسر حسن باشا ١٠٠٠ جندى ألماني وأرسلهم إلى إستانبول مع ١٢ مدفعاً و ٧ رايات ألمانية ، وبناء على ذلك فإنه بعد الآن سوف يتمتع عن دفع الضريبة السنوية ، وفى العام التالى أغار الألمان إغارة انتقامية على ضفاف نهر كولبا الذى يشكل القسم الشمالى من حدود بوسنة ، لىالة حسن باشا وباغتوه أثناء تواجده فيها مع ١٠ ٠٠٠ جندى . وأحرز الجيش الألمانى البالغ ٤٠ ٠٠٠ شخص نصراً حاسماً (٢٠/٦/١٥٩٣) قرب قصبة سيساك (Sissek بالتركية شيشكا) (فى الجنوب - الشرق من زغرب) . واستشهد ٧٠٠٠ جندى عثمانى من بينهم حسن باشا ، وشابان مشهوران جداً من العائلة السلطانية هما الأخوان محمد بك ومصطفى بك وهما ابنا بنت بنت القانونى بكوات برتبة لواء لفرق الصاعقة ، أى أنهما ابنا أخ السلطان مراد الثالث (بجوى ، ٢ ، ١٢٨ - ٩ ، ٤ ، نعيمان ، ١ ، ٨١ - ٣) . وفور وصول هذا الخبر إلى إستانبول أعلن الديوان السلطانى بعد جلسة صاحبة الحرب على ألمانيا (٤/٧/١٥٩٣) .

كانت الامبراطوريتان: التركية والألمانية فى حالة صلح منذ ٢٥ عاماً و ٤ أشهر ، و١٦ يوماً . وخلال هذه الفترة جرت حوادث كثيرة جداً على الحدود بصورة

متقابلة ، أكثر هذه الحوادث قام بها الطرف العثماني . إلا أن هذه الحوادث اعتبرت مناوشات عادية بين الولاة العسكريين في حدود كلا الطرفين ، ولم يذهب الأمر إلى حد تصعيد تلك المناوشات إلى حروب . ألمانيا كانت تدفع ضريبتها . وفي الحقيقة كان حادث هزيمة Kulpa ضربة قاسية ولكنه كان ردأ على غارة حسن باشا في العام الماضي . لكن استشهاد الشاين الجنرالين حفيدي السلاطين والذين كانت لهما مكانة مرموقة ولدت هياجا كبيرا . كان من رأى الشيخ سعد الدين أفندي ذى النفوذ القوى مساندة إنجلترا وفرنسا وهولندا ، تجاه أعداء الدولة الرئيسيين إسبانيا ، ألمانيا وإيران . وكان سائرا على سياسته هذه بنجاح . ورغم أنه كان عدوا للألمان إلا أنه عارض بشدة إعلان الحرب على ألمانيا ، وتراشق بالألفاظ الشديدة ، مع قوجا سنان باشا الذى يترأس الديوان . وأفاد سنان باشا بأنه سوف يكبل « ملك بيج (فينا) » إلى إمبراطور ألمانيا بالسلامل ويحضره إلى إستانبول . كانت هذه الأكذوبة تعادل أكذوبته التى قالها قبل مدة وهى أنه سوف يقوم بأسر الشاه . أفاد سعد الدين أفندي بصراحة أن دعوى سنان باشا هذا كذب وتلفيق . إلا أن الوزراء أيدوا رئيس الوزراء خشية منه وصوتوا في صالح الحرب (بجوى ، ٢ ، ١٣٣ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٦٥) ، واندلعت حرب كرامة طويلة الأمد ، لا تستند إلى سبب حياى أو استراتيجى .

أخذ وظيفة السردار الأكرم (القائد الأعلى) على عاتقه الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، خرج في حملته ضد ألمانيا (١٥٩٣/٧/٢٩ - ١٥٩٤/١/١٠) . وبعد استيلائه على قلعة أو قلعتين لا أهمية لهما انسحب إلى المشتى في بلغراد (١٥٩٤/١/١٠ - ١٥٩٤/٥/٥) . وخلال انسحابه إلى المشتى شرع الجيش الألمانى في محاصرة أستولنى - بلغراد . وهزم صوقوللو حسن باشا بككربك (بودين) (ابن صوقوللو محمد باشا) الذى هرع مع قوته البالغة (٢٠ . ٠٠٠ جندى) وهى أقل بكثير من قوات العدو لفك الحصار عن أستولنى - بلغراد ، واستشهد ٦٠٠٠ ، واستولى الألمان على ٤٤ مدفعا . تمكن ترياكى حسن باشا العسكرى بدهائه من تخليص أستولنى - بلغراد . وهكذا انتهت السنة الأولى للقتال بحصول العثمانيين على قلعتين صغيرتين من الألمان ، وحصول الألمان على ١٠ قلاع صغيرة من العثمانية .

وبعد أن مكث سنان البالغ ٨٠ عاما في بلغراد مدة ٣ أشهر و ٢٦ يوما تحرك في ٥ أيار ، واجتاز الحدود الألمانية ووصل يانق قلعة في ٧ آب (١٥٩٤) . كان في الجيش الخاقاني ٧ بكلربك . والمدينة التي يسميها الأتراك « يانق قلعة » والتي حوصروا فيها تسمى بالألمانية : Raab وباللغة المجرية ، Györ) ، وتقع على مسافة ١١٠ كم على الشمال - الغربي من بودابست وعلى مسافة ١٠٠ كم من الجنوب - الشرق من فينا و ٦٠ كم على الجنوب - الشرق كذلك من Bratislava . وهي قلعة محكمة جدا تعتبر منفذا لفينا . وكان قد فتحها القانوني من قبل ، وتعذر الحفاظ عليها . استمر الحصار ٥١ يوما . كان الكونت هاردك يحمي القلعة ومعه ١٠٠٠٠ جندي و ٢٩٠ مدفعا . وكان جيش الإمبراطورية الألمانية البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص بقيادة الأرشيدوق ماتياس Matthias (الذي صار بعدها إمبراطورا) يراقب الحصار من الساحل الشمالي لنهر الدونة ، ولكنه لم يكن راغبا في اجتياز النهر ومجابهة الجيش العثماني الذي يفوقه قوة بكثير والاشتباك معه في حرب ميدانية كبرى . نصب الجيش العثماني الجسور على الدونة واجتازها وشتت الجيش الألماني الذي يضم كتائب الميليشيات الإسبانية ، الفرنسية ، البابوية ، البولونية والروسية ، واستولى الأتراك على ٤٠٠ مدفع ، ١٠ سفن صغيرة و ٦٠٠ زورق على نهر الدونة ومات الآلاف من الألمان . واستسلمت يانق قلعة . ونظرا إلى أن الكونت هاردك استسلم من تلقاء نفسه ودون مقاومة أخذ جيشه البالغ ١٠٠٠٠ جندي وانسحب . لكن الـ ٢٩٠ مدفعا وكافة المهمات الموجودة في القلعة انتقلت إلى يد العثمانية . ذهب الكونت هاردك وقواده الجنرالات إلى فينا . وضعهم الإمبراطور في مخزن وبنى فوقهم جدارا . أصبحت يانق قلعة مركزا للإيالة وعين بها عثمان باشا بكلربك (فريق) الذي كان أمير لواء شكودرا .

يعود الفضل في الدرجة الأولى في فتح « يانق قلعة » إلى غازي كيراي الثاني خان قرم الذي جاء في ١١ آب مع ٤٠٠٠٠ خيال أمام القلعة ، وعسكري كبير آخر ، صار فيما بعد وزيرا أعظم ، هو صوقوللو - زاده لاله محمد أغا (الذي كان رئيسا « أغا » للانكشاريين) . وبفضل التكتيك العسكري الذكي الذي استخدماه ، أمكن فتح القلعة المهمة ، بالإضافة إلى شريط كبير يمتد بين بودين وفينا كما تمكنا من تشتيت الجيش الإمبراطوري والانتصار عليه في معركة ميدانية . لكن سنان باشا أرجع الفضل

في هذه الانتصارات إلى شخصه - كما هي عادته - وأصبح أنفه في السماء (بجوى ، ٢ ، ١٤٦ - ٥٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٠ ؛ هامر ، ٧ ، ٢٧٢) .

وفي ٣ ت ٢ (١٥٩٤) ، غادر سنان باشا بودين ، عائدا إلى بلغراد لقضاء فصل الشتاء فيها . وتم تثبيت الحدود العثمانية - الألمانية ، على مسافة ٧٥ كم من فينا (Lavis - Rambaud ، ٥ ، ٨٠٩) . لكن فويفودات (أمراء) كل من أردل (ترانسلفانيا) أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدا فيا) أعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية ، وانضموا في الحرب إلى جانب ألمانيا .

ويعتبر خريف عام ١٥٩٤ ذروة الدولة العثمانية العالمية . حيث وصلت إلى الحد الأعلى في التوسع الجغرافي ، واعتبارا من الخريف يبدأ السقوط من الذروة .

وفي ٥ ت ٢/١٥٩٤ ، أعلن البابا اتفاقا مقدسا جديدا ضد العثمانية وأعلن أن هذا الاتفاق مفتوح للدول الإسلامية فيما عدا العثمانية . استجاب لهذه الدعوة فورا فويفودا (إمارة) مجرية وأخريان رومانيتان من الإمارات المرتبطة بالدولة العثمانية بروابط التبعية المتينة . لم يكن ذلك أمرا سهلاً ، إذ إن هذه الإمارات كانت منسجمة تمام الانسجام مع النظام العثماني ، ذلك بالإضافة إلى أن أردل فقط كانت كاثوليكية والأخريان كانتا أرثوذكس . لكن فويفودة بغدان عندما أوضح سبب عصيانه تلفظ بهذه الجملة التاريخية : « إن الأتراك الحاليين هم ليسوا أتراك الأنسال الماضية الذين يفتحون الأقطار بعدالتهم ودون قتال » . ويقتضى أن نشير هنا إلى حادث إجبار سنان باشا هذه الإمارات الثلاث على دفع الجزية بالمقادير الفاحشة لأغراضه الشخصية والتي لم تكن موجودة في النظام العثماني إلى ذلك الحين . وهذه الفويفودات (الإمارات) أخذت في إعدام البويار (الأشراف الذين يرفضون العصيان . وفي أردل أعدم ٧ أمراء من ذوى النسب الرفيع لموالاتهم العثمانية (مكائى *Histoire de Transylvanie* ، ١٩١) . وأرسلت ألمانيا معونة عسكرية كبيرة لكل من الأمراء الثلاثة (هامر ، ٧ ، ٢٧٦) .

بدأ العصيان فعلا في الإمارات (١٣/١١/١٥٩٥) أثناء السبات الشتاى في بلغراد لسنان باشا البالغ سنه ٨٠ عاما . ذبحت معظم الأقلية التركية والرومية الموجودة في الإمارات بالسيف . قتل ٤٠٠٠ تركى من الساكنين في بخارست والمشتغلين بالتجارة . أغار بغتة على القلعة التركية المسماة يركوى (بالرومانية :

Git ziu) وقتل ال ٤٠٠٠ تركي الموجودين فيها . حرق Mihai Viteazul فوبفودا الأفلاق الذى كان يعيش بخيال تأسيس ملكية رومانية كبرى ، قلعة إسرائيلي الكائنة فى دلتا ألتونة ، وقصف سلسرة الكائنة مقابل ألتونة وحرقها (٦ ك ٢) . وبعد حادث سلسرة بـ ١٠ أيام ، توفى مراد الثالث وانتقلت الحرب الألمانية إلى عهد سلفه محمد الثالث (نعيما ، ١ ، ١٠٣ - ٦ : بجوى ، ٢ ، ١٥٦ - ٦٢ : منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ : صولاق - زاده ، ٦٢٢ - ٣) .

(٢٩) بعض المسائل الداخلية لعهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)

توفى داماد بيالة باشا فى بداية سلطنة مراد الثالث على رتبة وزير ثان (١٥٧٨/١/٢١) . ولو قدر له أن يعيش سنتين آخرين لأصبح وزيرا أعظم (رئيسا للوزراء) محل صوقوللو . قبطان دريا (مشير بحرى) لمدة ١٤ عاما ، بعدها وزير ثالث وثان لمدة ١٠ سنوات تقريبا ، حقق خلالها حملات بحرية بالأسطول الهمايوى كل عام تقريبا وانتصر فى جميعها ، وفى انتصار « جربة » سجل اسمه ضمن أميرات التاريخ الخالدين . بعد ٤ أيام توفيت السلطانة مهرماه ، عمة السلطانة جوهران وزوجة بيالة باشا ، كأغنى امرأة فى العالم . كانت الأبنة الوحيدة للقانونى .

زادت المعارضة داخل الديوان الهمايوى وخارجه ضد صوقوللو محمد باشا الوزير الأعظم الأخير للقانونى ، والوحيد لسليم الثانى ، والأول لمراد الثالث . لم يفكر فى تلطيف حكمه الدكاتورى ، كما لم يفكر فى التنحى عن الحكم كذلك . ولم يكن إعدام ابن عمه صوقوللو — زاده مصطفى باشا ، الإدارى الفائق القدرة دون ماسبب تقريبا (١٥٧٨/١٠/١٠) كافيا لتنبيه صوقوللو .. أدار مصطفى باشا إمالة بودين (المجر) مدة ١٢ سنة ٣ أشهر ٧ أيام بدراية فائقة . أخذ مراد الثالث ، ينفر من زوج أخته صوقوللو . وأخيرا طعن أحد الدراويش الوزير الدكاتور بطعنة خنجر ، أثناء خروجه من إحدى جلساته فى الديوان ، قيل عن الدراويش : إنه مجنون (١٥٧٩/١٠/١٢) . من المؤكد تقريبا أن حادث الاغتيال كان بتدبير السلطان . لم يتمكن من عزله بصورة رسمية ، خوفا من حدوث ثورة ، وذلك لاعتماده على تشكيلات الانكشارية . قضى صوقوللو الذى ترك عددا لا يحصى من المؤسسات

الخيرية مدة ١٤ سنة و ٣ أشهر و ١٥ يوما في وظيفة وزير أعظم . وبأقنى تسلسله التاسع في طول مدة بقائه في رئاسة الوزراء في تاريخ تركية . لم يخرج بنفسه خلال رئاسته للوزارة لأية غزوة ، وأرسل قادة ، ولم يرض بخروج كل من سليم الثاني ومراد الثالث لأية حملة ، وتجاوز تقاليد عصر القانونى .

خلف صوقوللو في رئاسة الوزارة - بصورة أوتوماتيكية دون تعيين - أحمد باشا ، بسبب كونه وزيرا ثانيا وكان من معارضى صوقوللو . كان متزوجا بالسلطنة مهرماه وعائشة خانم - سلطنة ابنة رستم باشا . توفى بعد ٦ أشهر و ١٦ يوما (١٥٨٠/٤/٢٨) . جاء بعده لمنصب الرئاسة بصورة أوتوماتيكية وبدون تعيين الوزير الثانى لاله مصطفى باشا ، وبعد بقائه في منصبه هو كذلك مدة ٣ أشهر ، و ٩ يوم (١٥٨٠/٨/٧) جاء بعده رئيسا للوزارة بصورة أوتوماتيكية الوزير ٢ قوجا سنان باشا . عزل من منصبه بعد ٢ سنة و ٤ أشهر (١٥٨٢/١٢/٦) جرى حفل الختان الذى أقيم للشهزادة (الأمير) ولى العهد محمد (الثالث) (٢٩ آيار - ٢٤ تموز ١٥٨٢) . فى عهد صدارته ، ويعتبر هذا الاحتفال أكبر احتفال جرى فى العهد العثمانى . كان معرضا باهرا لبيان عظمة دولة عالمية .

أخذ مكان سنان باشا بعد عزله الوزير ٢ ، داماد سياوش باشا الذى عزل بعد سنة و ٧ أشهر و ٢٠ يوما (١٥٨٤/٧/٢٥) . جرى على عهده حادث وفاة نور بانو ، السلطنة الوالدة « والدة سلطان » (١٥٨٣/١٢/٧) وإرسال شهزاده - ولى العهد محمد إلى مانيسا لجلوسه على عرش ساروهان (١٥٨٣/١٢/١٧) . خلفه أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى توفى فى جبهة القتال (١٥٨٥/١٠/٣٠) ، مدة صدارته سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام . وخلال ذلك توفيت السلطنة أسمهان زوجة صوقوللو وابنة سليم الثانى الكبرى (١٥٨٥/٨/٧) . تم صنع العرش الذهبى للسلطان مراد الثالث وتسليمه له ٢٣ أيلول ١٥٨٥ وهو العرش الذى جلس فيه بنو عثمان فى الأيام الخاصة كاحتفالات الجلوس والأعياد حتى عام ١٩٢٤ .

خلف أوزدمير أوغلو بعد وفاته الوزير ٢ نصوح باشا . كان عمره ينوف على الـ ٨٠ . استقال بعد ٥ أشهر و ١٤ يوما (١٥٨٦/٤/١٤) . أصبح سياوش باشا وزيرا أعظم مرة أخرى . وسقط بعد سنتين و ١١ شهراً و ١٨ يوما فى الثورة التى تسمى واقعة بكربكى (١٥٨٩/٤/٢) . وخلال ذلك توفى قيليج على باشا فى سن الـ ٨٠ ، وهو الذى كان قبطان دريا (مشير البحرية) منذ أكثر من ١٥ عاما

(١٥٨٧/٦/٢١) . خلف مؤسسات خيرية عديدة ، ورثته ماتوا قبله . ثروته البالغة ٥٦٠ . ٠٠٠ سكة ذهبية انتقلت إلى الخزينة . بعد عدة أشهر توفي المعمار سنان عن عمر يناهز ٩٨ عاما (١٥٨٨/٤/٩) . أخذت سلسلة الدهاق الذين أخذهم القانوني تحت حمايته ورفعهم إلى منزلتهم هذه ، أخذت تنقطع ، وتنقرض ، وتفتنى .

وفي الحقيقة فإن واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) ، أثبتت أن الإمبراطورية ، أخذت تسير نحو الأزمات في الداخل . إن الدراهم المتداولة لدى العثمانية هي المسكوكات الفضية المسماة « آقجه » ، والمسكوكات الذهبية كانت تستعمل في المبيعات الكبيرة . كان يدفع القسم الأعظم من الرواتب بالـ « آقجه » . وخلال ١٥٨٤ - ٨٩ ، شرع في تصغير حجم الآقجه تدريجيا حتى بلغت ٥٠٪ من حجمها السابق . أى أن المسكوك الذى نقص بمقدار النصف من الفضة صار العملة الرئيسية للدولة . كان هذا الوضع يقتضى أن تزيد الدولة الرواتب بمقدار الضعفين . بقيت الرواتب كما كانت في السابق من ناحية عدد الـ « آقجه » مع العلم بأنها في الحقيقة فقدت قيمتها بمقدار النصف . ومنذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا (١٩٨٥) أخذت الرواتب في ترقية في الهبوط بصورة مستمرة . العلوات التى أضيفت على الرواتب لم تكن في أية فترة من الفترات كافية لمواجهة تضخم العملة ، وكانت قوتها الشرائية تحت معدل التضخم باستمرار ، الأمر الذى سبب ثورة الإنكشارية . ولأول مرة في التاريخ العثماني يطلب من السلطان قطع الرؤوس . لم يتمكن السلطان من إخماد العصيان . فقد وزير المالية (باش دفتردار) محمود أفندى ودوغانجى محمد باشا حياتهما . نجا الوزير الأعظم سياووش باشا ، المسئول الحقيقى عن الأزمة المالية من الموت بعزله . وهكذا يبدأ عصر قيام الإنكشارية بتشكيل عصابة لهم ، تسعى وراء مطالب سياسية ، وتمضى عند عدم تحقيق مطالبهم التى سوف تستمر ٢/٥ عصر . وقد كان ذلك من أهم أسباب إضعاف الدولة .

صار ، قوجا سنان باشا ، وزيرا أعظم للمرة الثانية ، عزل بعد سنتين ، و٣ أشهر و٢٩ يوما (١٥٩١/٨/١) . وكما منع صوقوللو فتح قناة السويس وقناة الدونة - فولغا كذلك منع مؤيده سنان باشا فتح قناة مرمرة - صقاريا ، الذى استغرق تصميمها الجهد والوقت الطويل (١٥٩١/٤) . الوزير ٢ فرهاد باشا أخذ مكان سنان باشا . عزل بعد ٨ أشهر و٤ أيام بفضل مؤامرات سنان باشا

(١٥٩٢/٤/٤) . احتل سیاووش باشا مجلس الصدارة للمرة الثالثة ، وعزل بعد ٩ أشهر و٢٤ يوما (١٥٩٣/١/٢٨) . عزل من صدارته الأولى بسبب عصيان الإنكشارية ، أما عزله عن صدارته هذه فكان بسبب عصيان السباهية (صنف من الخيالة) . كان عصيان السباهيين أيضا بسبب قضية تخفيض سعر الـ « آقجه » إلى النصف . بدأت فترة الصدارة الثالثة لقوجا سنان باشا الذي فتح فيها بلية الحرب الألمانية (١٥٩٣/١/٢٨) وعزله عن صدارته هذه محمد الثالث بعد ٣١ يوما من وفاة مراد الثالث . استمرت صدارته هذه سنتين و١٩ يوما (١٥٩٥/٢/١٦) .

توفي السلطان مراد خان الثالث بسبب مرض المثانة ، عن عمر يتجاوز الـ ٤٨ عاما بـ ٦ أشهر و١٣ يوما . دامت سلطنته ٢٠ سنة ، وشهرا ، ويومين . وعندما كان شهزاده (أميرا) ، أصبح صنجق بك (أمير لواء) ، أولا لأقشهر ٣ سنوات ، ثم لصاروهان (مانيسا) لمدة ١٣ سنة و٨ أشهر و٢٧ يوما . ولد في مرتفع بوزدوغان قرب مانيسا ، وتوفي في سراي طوب قابو في إستانبول ، دفن في ضريحه الكائن في رواق أياصوفيا . خطاط ، مؤلف كتاب عن التصوف ، شاعر له ديوانان باللغة التركية وديوان في كل من اللغتين العربية والفارسية . أساتذته في الدرجة الأولى شيخ الإسلام خواجه سلطاني محمد سعد الدين أفندي (١٥٣٦ - ١٥٩٩) ، بقاى أفندي (وفاة ١٥٩٥) ، الشيخ شجاع أفندي ، إبراهيم أفندي (وفاة ١٥٧٣) ، مرهوه ترياكي حسن باشا المشهور ، فروخ بك ، إسفنديار أوغلو سلطان زاده شمسي أحمد باشا .

أكثر من له أولاد من بين السلاطين أجمعهم هو مراد الثالث . صار له ١٠٢ شهزاده (أمير) ، أكثرهم ماتوا وهم في المهد ، وأطول من عاش من بين هؤلاء الأمراء وصل سن ١٧ ، عدا ابنه الكبير محمد الثالث الذي خلفه في العرش . أما بناته اللواتي بلغن سن الزواج فهي السلطانة عائشة التي تزوجت ٣ زيجات (١٥٧٠ - ١٦٠٥/٥/١٥) السلطانة فاطمة التي تزوجت ٤ زيجات (١٥٨٠ - ١٦٢٠) ، السلطانة فخرية التي تزوجت زيجتين (١٥٩٤ - ١٦٥٦) ، أما اللواتي تزوجن مرة واحدة فهن السلطانة مهرماه (١٥٩٢ - ؟) ، السلطانة خديجة ، السلطانة رقية ، السلطانة مهربان .

زوجة (خاصكى سلطان) مراد الثالث هي السلطانة الوالدة صفية المشهورة

(البندقية ١٥٥٠ - إستانبول ، ١٦٠٥/١١/١٠) . وخلال سلطنة ابنها محمد الثالث أصبحت والدته - سلطان (السلطانة - الوالدة) مدة ٩ سنوات وأصبح لها نفوذ كبير . كانت ابنة والى كورفو من عائلة بافو العريقة النسب فى البندقية .

ومع أن الدولة خلال عهد مراد الثالث أعلم رجال بنى عثمان وأكثرهم ثقافة قد وصلت إلى ذروة قدرتها وحدودها وعظمتها إلا أن آثار الانحطاط بدأت تظهر بصورة واضحة ، خلال السنة أو السنتين الأخيرتين؛ التضخم المالى ، عصيان صنف قابو قولو فى المركز وتشكيلهم عصابة ، انشغال نساء السراى بالسياسة ، انتشار الرشوة ، تفشى الفخفخة ، الإسراف ، الحرص على المظاهر والعظمة ، إمكان حصول الأشخاص الذين لاقية لهم على المناصب الحساسة ، تناسى الفتوحات وإعلاء كلمة الله ، ظهور وزراء يتسمون بالدكتاتورية ، إمكان عزل شيوخ الإسلام كالموظفين ، طرء الفساد على زمرة العلماء ، ظهور زمرة الأشقياء فى الأناضول باسم « جلالى » . كل ذلك بدأ فى الظهور فى هذه الدورة أو بعدها بقليل . رجال الدولة،الفن والعلوم ، الدهاة الذين عاصروا القانونى يتوفون الواحد تلو الآخر ويظل مكانهم شاغرا ، خاصة فى المجالات العسكرية ، البحرية ، الإدارية والسياسية وغيرها ويقل شأن الدولة ، ومن ثم تقع مقدرات الدولة فى أيدي الكوادر الضعيفة ، وهؤلاء بدورهم يبدون اهتمامهم الزائد بانتقاء كوادر أضعف منهم . مع كل هذا فإن أسس الدولة كانت قائمة على درجة من المثانة لايمكن تصديقها ، وكان يجرى بطبيعة الحال بين الحين والآخر حركات إصلاح ، وتمر فترات لامعة ، وهذا هو الذى سبب إطالة حياة وحيوية الدولة والنظام .

ويجب ألا ننسى أن العصر ١٦ هو « عصر الأتراك » . أما العصر ١٧ الذى نحن على أبوابه فيمكننا أن نقول إنه العصر الثانى الأفضل فى تاريخ تركية بأجمعه بعد العصر ١٦ . ومن ناحية أخرى ، فإن أوروبا لم تكن قد وصلت بعد إلى الحد الذى يمكنها معه ابتلاع الشرق ، والإسلام ، والأتراك . ولكى تصل إلى ذلك الحد ، احتاجت إلى عدة عصور . كان كيان المجتمع ، ونظام الدولة ومستوى الرفاهية ، سواء فى العثمانية أو فى العالم الإسلامى وحتى فى آسيا كلها ، متقدما على أوروبا بشكل بارز .

وفى ١٥٩٠ ، حتى شيخ موباسا الواقعة بين كينيا وتانجانيكا دخلت تحت الحكم

العثماني (A.Warner, Mombasa, IA,410 a) . كانت الأساطيل التركية في المحيط الأطلسي والمحيط الهندي . ولو أن البحث عن الانحطاط في مثل هذا العصر يتراءى كأنه مبالغة إلا أنه حقيقة . وفون هامر يكتب مايلي (٧ ، ٢٩٠) : « عند وفاة مراد الثالث ، كانت الإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى قفقاسيا ، من الحبشة إلى الدونة وتحوى أراضي ٢٠ دولة ملكية بالضبط . وصل الأتراك إلى فينا وهي منتصف طريق إستانبول - باريس تقريبا . بولونيا كانت دولة يعين البادشاه ملكها وتدفع ضريبة سنوية إلى إستانبول وكذلك تدفع إلى قرم التي هي من أتباع إستانبول الاعتياديين . وكان وضع الدول الأوروبية الأخرى تجاه العثمانية يشابه هذا الوضع » . كان هنالك رجال دولة ، تجار وأصحاب سفن .. دخلهم يفوق دخل ملوك أوروبا . مثلا كان دخل صوقوللو السنوى يفوق مليون سكة ذهبية .

إن الدولة التي خلفها القانوني في ١٥٦٦ ، كانت تقريبا ١,٩٩٨,٠٠٣ كم^٢ في أوروبا + ٤,١٦٩,١٧٧ كم^٢ في آسيا + ٨,٧٢٥,٧٢٠ كم^٢ في إفريقيا = ١٤,٨٩٢,٩٠٠ كم^٢ . وفي أواخر سلطنة مراد الثالث كانت : ٢,٨٤٨,٩٤٠ كم^٢ أوروبا + ٤,٨١٥,٨٣٢ كم^٢ آسيا + ١٢,٢٣٧,٤١٩ كم^٢ إفريقيا = ١٩,٩٠٢,١٩١ كم^٢ . هذا الرقم يبين أوسع ما ملكته العثمانية من الحدود في آن واحد . وهنالك أقطار أخرى دخلت تحت حكم الأتراك خارج هذه الحدود المذكورة ، وهي واسعة كذلك إلى درجة كبيرة ؛ إن مجموع مادخل في حكم العثمانية من الأراضي في التواريخ المختلفة يبلغ ٢٣ مليون كم^٢ : ٣,٥٤٣,٦٦٢ كم^٢ في أوروبا + ٥,٧٢٩,٢٨٥ كم^٢ في آسيا ١٣,٧٢٧,٤٦٤ كم^٢ في إفريقيا = ٢٢,٩٩١,٤١١ كم^٢ . ولا يدخل في هذا الحساب كافة الأقطار التي وصلتها كتائب الصاعقة والقراصنة وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، والتي دخلت ضمن السيطرة العليا ونفوذ العثمانية .

وضمن حدود عام ١٥٩٢ ، احتسبت بولونيا (٦٩٦,٧٣٧ كم^٢) في أوروبا ، فاس وأقطار الزنوج التابعة لها (٣٠٥١٦٩٩ كم^٢) في إفريقيا . وألحقت قبرص شمال تونس في زمن سليم الثاني ، وفي آجه (أندونيسيا) أسس نظام الحماية . وفي عهد مراد الثالث تم ضم أراض تبلغ مساحتها ٥٩٠,٠٠٠ كم^٢ من شمال وجنوب

القفقاس مع غرب إيران . وأدخلت أماكن كثيرة في إفريقيا الشرقية ، أفريقيا الوسطى . تحت الحماية .

ويقدر عدد سكان كافة الأقطار العثمانية هذه ، في ١٥٩٢ ؛ ١٠٠ مليون نسمة . ٧ ملايين منها تشكلها بولونيا - لتوانيا و ٩ ملايين تشكلها الأقطار المرتبطة بفاس . بلغ تعداد إستانبول مع الضواحي ١٢٠٠,٠٠٠ وتعداد القاهرة ٧٥٠,٠٠٠ نسمة . أما الإمبراطوريات التركية الأخرى فتقدر هكذا في نفس التاريخ كما يلي : ١٦٢١ ٠٠٠ كم^٢ و ١٥ مليون نسمة صفويين إيران ، ٣ ٦٧٤ ٠٠٠ كم^٢ و ١٢٠ مليون نسمة بنى تيمور في الهند ، ٥ ٥١٣ ٠٠٠ كم^٢ و ١٢ مليون نسمة بنى جنكيز في تركستان ، ٤٥٣ ٠٠٠ كم^٢ و ٢٢ مليون نسمة بنى عادل شاه في الهند الجنوبية . وكانت الإمبراطورية الصينية في هذا التاريخ تقريبا ١٢ ٢٦٨ ٠٠٠ كم^٢ والسكان ٨٠ مليون نسمة .

أما في الدول الأوروبية فكان تعداد النفوس حينئذ قليلا جدا (وضمنها كافة المستعمرات) : ملكية إسبانيا ٢٤ ٥٧٥ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٣٣ مليون ، إمبراطورية ألمانيا ٦٥٩ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١٧/٥ مليون نسمة ، ملكية فرنسا ١ ١٤٢ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١٥ مليون . ملكية إنكلترا ٣ ٤٧ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٥/٩ مليون ، جمهورية البندقية ٥٥ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٣/٨ مليون ، إمبراطورية روسيا ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٧ ملايين .

نماذج من الدول العالمية الأخرى التي لا تعتبر دولا كبرى : ملكية السويد ١٠٥٨ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٢/٦ مليون ؛ ملكية الدانمارك ٥٥٩ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١/٦ مليون ؛ الباهوية ٤٥٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١/٩ مليون ؛ إمبراطورية اليابان ٣٧٤ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١٤ مليون ؛ القطب شاه (أترك الهند الجنوبية) ٢٩٥ ٠٠٠ كم^٢ والنفوس ١٠ ملايين .

وفي ١٦٠٠ تقريبا كان تعداد العالم حوالى ٥٤٨ مليون نسمة . وتوزيعه على القارات كما يلي : آسيا ٣٥٠ ، أوروبا ١٢٢ ، إفريقيا ٦٠ ، أمريكا الشمالية ٩/٥ ، أمريكا الجنوبية ٥ ، المحيطات ٢ مليون .

٣١) جلوس محمد الثالث (١٥٩٥/١/٢٧) والحوادث الداخلية

جاء محمد الثالث من مانيسا وجلس على العرش في إستانبول . كان في سن ٢٧/٥ . كان سنجق بك (أمير لواء) لساروهان في مانيسا منذ ١١ عاما . عزل قوجا سنان باشا (١٥٩٥/٢/١٦) وعين فرهاد باشا وزيرا أعظم للمرة الثانية . استمرت الصدارة الثالثة هذه سنة و ١١ شهرا و ١٩ يوما . خرج فرهاد باشا لحملة ألمانيا ، وعلم في روسجك بعزله نتيجة مؤامرات سنان باشا . دامت صدارته هذه ٤ أشهر و ١٩ يوما ، ومجموع الصدارتين سنة و ٢٢ يوما . كان عسكريا قديرا . عمل سنان باشا كل ماوسعه لإزاحته باعتباره أكبر منافس له في الحياة ، وفي النهاية أعدم فرهاد باشا (١٥٩٥/١٠/٩) . إن صدارة سنان باشا الرابعة (١٥٩٥/٧/٧) ، عبارة عن ٤ أشهر و ١٣ يوما . صار لاله محمد باشا وزير أعظم ، مات بعد ٩ أيام . اعتلى سنان باشا منصب الصدارة للمرة الـ ٥ (١٥٩٥/١١/٢٨ - ١٥٩٦/٤/٣) . صدارته هذه دامت ٤ أشهر ، و ٥ أيام . ومجموع صداراته الخمس ٧ سنوات و ٤ أشهر و ٥ أيام . خلف سنان باشا الجبان بقدر ماهو خائن ، والعاجز جنسيا بقدر ماهو عديم الأخلاق ، خلف ثروة كبيرة لايتصورها العقل ، والقسم الكبير من هذه الثروة حصيلة النهب والرشوة . نظم الشعراء قصائد الفرح عند موته في صدارته الخامسة .

خلفه الوزير ٢ داماد إبراهيم باشا ، ورؤساء الوزارة على التوالي جفال أوغلو سنان باشا (١٥٩٦/١٠/٢٧) ، إبراهيم باشا للمرة الثانية (١٥٩٦/١٢/٥) ، الوزير الـ ١٣ حسن باشا (١٥٩٧/١١/٣) ، وبعد ٥ أشهر و ٦ أيام الوزير الـ ٢ داماد جراح محمد باشا (١٥٨٩) ، وبعد ٨ شهر و ٢٧ يوما إبراهيم باشا للمرة ٣ (١٥٩٩/١/٦ - ١٦٠١/٧/١٠) . دامت صدارة إبراهيم باشا الأخيرة سنتين ، و ٦ أشهر و ٥ أيام ومجموع صداراته الثلاثة ٤ سنوات إلا يومين . توفي خلال ذلك شيخ الإسلام حاجه سلطاني خوجا سعد الدين أفندي وسنه ٦٣ (١٥٩٩/١٠/٢) . كان رجل دولة كبيرا في عصره وسياسيا ومؤرخا . هو الشخص الذى قال عنه هاجر : « هو من أكبر الدهاة الذين شرفوا الأدب العثماني » (٣٧٣ ، ٧) . هو جد العائلة العلمية المشهورة التى تسمى بالنسبة إليه خوجا

- زاده لر ، وبالنسبة لأبيه حسن خان - زاده لر ، وابنين من أبنائه شغلا منصب شيخ الإسلام . وبعد ذلك بقليل توفي « باقى » الشاعر الأكبر الذى ترك الحياة السياسية عندما كان قاضى عسكر (قاضى عسكرى) لقضاء رومة لى ، قبل أن يتمكن من نيل مقام « شيخ الإسلام » (١٦٠٠/٤/٧) . باقى الذى كان صديقا لسعد الدين أفندى ومنافسه ، والذى يكبره بـ ٩ سنين كان شاعر السلطان سليمان المفضل . وهكذا انتقل آخر دهاة عصر القانونى إلى الماضى .

دامت صدارة داماد يمىشى حسن باشا ستين وشهرين و ٢٥ يوماً (١٦٠١/٧/١٠ - ١٦٠٣/١٠/٤) . كان رجل دولة وعسكريا لاقيمة له . جىء به محل داماد إبراهيم باشا على أثر وفاته . وكان مالمقوج أوغلو ياووز على باشا ، الوزير الأعظم الأخير لمحمد الثالث واليا على مصر ، واستدعى من القاهرة إلى إستانبول .

كثرت الاضطرابات فى الأناضول فى عهد سلطنة محمد الثالث . أخذ العصيان يتلو الآخر باسم « ثورة الجلالى » ضد الولاة الذين أرسلتهم إستانبول . وانتقل العصيان إلى إستانبول كذلك (١٦٠٣/١/٦) .

وفى الوقت الذى تعالج فيه العثمانية ، الحرب الألمانية فى الخارج ، وثورة الجلالى ، فى الداخل ؛ كانت إيران تلم شعثها . توفى عبد الله خان ٢ ، خاقان تركستان الذى يسمى « الكبير » ، قبل وصول سفيره - الذى سيطلب النجدة لمواجهة إيران - إلى إستانبول بشهر واحد (ك ١٥٩٨/٢) . انقسمت تركستان إلى خانلق (مقاطعات يحكمها الخان) لم تعد من بين الدول الكبرى ، ودخلت فى فترة عجز اقتصادى كبير . لأن طرق التجارة تغيرت . استرجع الشاه عباس من تركستان إيالة خراسان العظيمة التى تشتمل على هرات ومشهد . وفى ١٥١٧ قدم إلى إستانبول سفير تيمور أوغلو أكبر شاه سلطان الهند لاستلفات نظر الديوان ضد الخطر الإيرانى .

عكر حادث إعدام الشهزادة الأعظم محمود فى سن ١٦ نتيجة لمؤامرة فى القصر (١٦٠٣/٦/٧) صفو الأيام الأخيرة لمحمد الثالث وفتح طريق العرش للسلطان أحمد بشكل غير متوقع أبدا .

٣٢) حرب ألمانيا : حركات عام ١٥٩٥

تحرك الوزير الأعظم فرهاد باشا إلى جبهة ألمانيا بصفة سردار أكرم (قائد أعلى) (١٥٩٥/٤/٢٧) . وعزل نتيجة مؤامرات سنان باشا ، قبيل اجتيازه الدونة في رسجك (١٥٩٥/٧/٧) . صار سنان باشا رئيسا للوزارة وقائدا أعلى ، وظل داماد ابراهيم باشا برتبة وزير ٢ كقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) في إستانبول كذلك .

خلال هذه الأيام بدأ الجيش الإمبراطورى الألمانى المؤلف من ٥٠ . ٠٠٠ مشاة و ٢٠ . ٠٠٠ خيال بقيادة الأمير مانسفيلد بمحاصرة Estergon (١ تموز) . ولحين قدوم الوزير الأعظم أعطيت قيادة الجبهة إلى ابن قوجا سنان باشا الوزير محمد باشا الذى يفوق أباه فى النذالة ، لايفقه من العسكرية شيئا ، جبان وعديم الشرف ، وكان يلقب بـ « المنحث » . أراد مجابهة الجيش الألمانى بالجيش الموجود تحت قيادته . غلب نتيجة عدم استماعه إلى الجنرالات المقتدرين الموجودين تحت إمرته . وبعد حرب شديدة خارج استركون . استولى الأمير Mansfeld على ١٥٠٠ خيمة تركية و ٢٧ راية و ٣٩ مدفعاً .

أما سنان باشا فقد دخل الأفلاق لغرض إخماد العصيان (١١ آب) . عبر الدونة في رسجك وانتقل إلى رومانيا . دخل بخارست في ٢٨ آب . مركز فوفودة (إمارة) أفلاق في ذلك العهد لم يكن بخارست وكان في Tragoviste على بعد ٧٥ كم في الشمال - الغربى منها . دخلتها الصاعقة أيضا ، ولكن لم يتم العثور على الأمير Mihai والتخلص منه .

قاومت أستركون الحصار مدة شهرين ويومين بعد قصف مدافع الحصار الألمانية الـ ٤٢ التى كانت تقصف بمعدل ٢٠٠٠ قذيفة يوميا . رضى غزاة الأتراك بالتسليم ، بعد أن ظلوا عدة أيام يلحقون الممر لإزالة عطشهم ، بعد أن قطع الألمان مجارى المياه الواردة إلى القلعة . وافق الأرشيذوق الذى حضر أمام القلعة على انسحاب الأتراك وذهابهم مع مايمكنهم حمله من الحاجيات . ترك بكلكربك الأناضول القلعة باكيا وهو يقسم على استعادتها (١٥٩٥/٩/٢) . أستركون ، بلدة الغزاة التى تقع

على طريق بودابست - فينا ، كل حجر من أحجارها مسقى بدم وعرق ودموع
العثمانيين والتي كان قد فتحها السلطان سليمان القانوني قبل ٥٢ سنة و ١٣ يوما .
وهكذا بدأ الاحتلال الألماني لإستركون الذى استمر ١٠ سنوات ، وشهرا ، ويوما .
وسقطت قلعة فيشغراد بعد ٦ أيام . « عندما احتل الأتراك ، إستركون فى عهد
القانونى احترموا كافة الآثار القديمة فى المدينة ، وحافظوا بعناية على القصور وعلى
ماتخويه من قطع التماثيل . ولكن الألمان نهبوا كافة الآثار التاريخية وخربوها عند
دخولهم المدينة » (فون هامر ، ٧ ، ٣٠٨) .

وأثناء حدوث هذه الكوارث مكث سنان باشا ١٦ يوما فى بخارست ، وعين
ساطرجى محمد باشا بكلربك لأفلاق وتركة مع ٢٠٠٠ جندى فى بخارست ، وجاء
هو مع ١٠٠ ٠٠٠ جندى ، إلى خلال ٥ أيام (١٨ أيلول) . وكان الفويفودا
Mihai قد أحلأ أفلاق وفر إلى أردل . وبذلكائه تمكن من تشخيص عدم لياقة سنان
باشا ، وكان ينتظر الفرصة للبطش به . لم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذى
كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة ، والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام
الفويفودات العصاة .

سنان باشا ، الذى شيد قلعة فى كل من بخارست وتاركوفيشته (لم تكن هنالك
أية قلعة فى الأفلاق وبغدان بموجب النظام العثمانى) ، غادر المدينة فى ١٧ ت ١ ،
بعد أن أبقى فى تاركوفيشته حيدر باشا - زاده على باشا بكلربك طرابزون . كان
الفويفودا ميخائى يتعقب الجيش الهمايوى على مدار الـ ٢٤ ساعة . وفى ١٩ ت ١ ،
دخل ميخائى إلى تاركوفيشته . أجلس ٣٥٠٠ تركيا على الأوتاد . شوى على النار
الخفيفة على باشا وكبار الضباط الأتراك « وأكلهم بكامل الشهية » مع معيته فى طعام
العشاء . وأثناء حدوث هذه الوحشية التى لايتقبلها المنطق أمر سنان باشا
بالانسحاب ، خوفا من الهجوم المفاجيء . وصل يركوى التى تقع على الدونة ،
وعلى الضفة الثانية تقع أمامها مدينة رسجك . بدأ الجيش فى اجتياز الدونة الكبير .
حل الخريف ، الدونة هائج بأواجه المتلاطمة .

فى مثل هذه الحركات العسكرية لايعبر صنف الصاعقة (الكوماندو) الجسر إلا
بعد أن يعبره الجيش بكامله ، لحماية مؤخرة الجيش من العدو . حصل الجيش وخاصة
الصاعقة على غنائم كبيرة . وينص القانون ، وكذلك الدين على أن يكون خمس الغنائم

من حق الخزينة . كان سنان باشا طماعا لا يشبع من المال . عين حرسا على رأس الجسر ، وبدأ بحصر الغنائم والاستيلاء على خمسمها . استمر هذا العمل أثناء اقتراب العدو من الجسر . وبسبب ذلك استغرق عبور الجيش ومهمات الجسر مدة ٣ ليال . بقى صنف الصاعقة فى الضفة الثانية . وأثناء وجود جيش الصاعقة فوق الجسر ، أدركهم ميخائى بجيشه (المكون من جنود الأفلاق - بغداد - أردل - ألمان) ، الذى يقال إنه يبلغ ٧٠ ٠٠٠ وهدم الجسر بنار مدفعيته . حدثت كارثة كبيرة ، سقط خيرة كتائب الصاعقة فى الدونة وغرقوا . تكبدت الصاعقة التى كانت القوة الضاربة الرئيسية فى الفتح حات العثمانية خسائر كبيرة . ولم يتيسر تعويض هذه الخسارة فى المستقبل . ولهذا أصبح الجيش العثمانى بحاجة إلى خيالة قزم لتعويض ذلك . ولأن هؤلاء لم يكونوا منظمين بنفس درجة كتائب الصاعقة فقد سببوا للدولة كوارث عديدة .

لم يظهر سنان باشا أثرا كبيرا على كارثة الصاعقة ، والتى تتضاءل أمام خياناته السابقة ، ولم يقلق على شيء ، كما قلق على منصبه والتخطيط لرشوة الأشخاص الذين لهم تأثير على بقائه فى منصبه فى إستانبول من الغنائم التى استولى عليها على أنها حق قيادته . دخل ميخائى قلعة يركوى وقتل المسلمين بمن فيهم النساء والأطفال بالسيف وحول المدافع التركية نحو مدينة رسجك الواقعة فى الساحل المقابل وأحدث تخريبات غير قليلة فى هذه المدينة التركية المهمة .

انتشر الجيش هنا وهناك بحجة التشتى ، دون طلب الإذن من الوزير الأعظم (نعيما ، ١ ، ١٦٩ - ٧٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاقى - زاده ، ٦٢٢ وما بعده ؛ هامر ، ٧ ، ٣٠٣ - ٦) . عزل سنان باشا بعد ١١ يوما من عودته من رسجك .

سقطت عدة قلاع فى أردل ، واتسعت حدود أردل حتى بلغت أسوار تامشوار Tamesvar إحدى الإهالات التركية .

وهكذا انتهى عام ١٥٩٥ على هذا الوضع المشؤم جدا .

(٣٣) حملة أكرى Eger الهمايونية (١٥٩٦/٦/٢٠ - ١٥٩٦/١٢/٢٢)

تجددت إزاء وضع كهذا ضرورة خروج السلطان للحملة . لم يخرج سلطانان إلى الجبهة منذ وفاة القانونى أى قبل ٣٠ سنة . كما يعبر الكتاب العثمانيون « فطس » (gebermis) سنان باشا ، ابراهيم باشا ، وصاروزير أعظم . دعى السير إدوارد بورتون (Sir Edward Burton) سفير اليزابث الذى تحميه العثمانية للاشتراك فى الحملة . خرج محمد الثالث إلى الجبهة ، تاركا فى خزانة السلطان فى إستانبول ٢٢ مليون سكة ذهبية وأخذ معه ١٨/٥ مليون قطعة ذهبية (خزانة السلطان ليست هى خزانة الدولة) .

استقبل الشعب محمد الثالث فى بلغراد ، بحفاوة منقطعة النظير ، جرت مراسم استعراض للجيش . بقى ١١ يوما ثم تحرك (٢١ آب) جاء إلى Segedin (٧ أيلول) . وصل قلعة أكرى . بدأ الحصار (٢٤ أيلول - ١٢ ت ١) . كانت أكرى (بالألمانية : Erlau ، بالجرية : Eger) قلعة مهمة جدا فى الجبر الشمالية ، فى حوزة الألمان . لم يتمكن عسكري مقتدر كالوزير الأعظم قره أحمد باشا فى عهد القانونى من فتحها ، رغم محاصرته لها ٣٩ مرة . يعتبر فتح قلعة كهذه خلال ١٨ يوما ؛ توفيقا كبيرا . قتل ١١٠٠٠ جندى ألماني . أقيمت صلاة الجمعة فى أكرى يوم ١٨ ت ١ ، وتلا الخطبة سعد الدين أفندى . جعلت مركزا للإمالة وعين لها بكلربك أضرورم ، صوفو سنان باشا (فتح نامه أكرى ، منشقات السلاطين ، ٢ ، ١٠١ - ٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٩٣ ، ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٤٤ - ٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٣٠ ، ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٧ ، ٩ ؛ هامر ، ٧ ، ٣١٩ - ٢٤) .

فى حرب هاجوفا الأولى Haçova (٢٢ ت ١) انتصر الجيش الألماني على مقدمة الجيش العثماني ، سقط ١٠٠ جندى عثماني شهيدا وفقد ٤٢ مدفعا ، إن معركة هاجوفا الكبرى الأصلية بدأت بعد ٤ أيام (١٥٩٦/١٠/٢٦) .

كان مع الأرشيدوق Maximilian أخو الإمبراطور ، ٣٠٠٠ جندى وأفراد مساعدون و ١٠٠ مدفع فى الصحراء التى يسميها الأتراك هاجوفا (بالجرية : Keresztes-mezoe) التى تقع على الضفة الغربية من نهر Tisa .

كان قوام الجيش الهمايوني ١٤٠.٠٠٠ جندي (٦٠.٠٠٠ سباهي) تماري
سباهي (خيال و ٥٥.٠٠٠ من صنف قابوقولو و ٢٥.٠٠٠ قرمي) كان فتح كيراي
أخى غازي كيراي ٢ يقود خيالة قرم .

بدأت الحرب بهجوم الألمان واختراقهم مراكز العثمانية في العمق ووصولهم بالقرب
من المخيم السلطاني .

ترجل محمد الثالث عن حصانه ، دخل خيمته ، على كتفيه بردة الرسول ﷺ
الشريفة ، وممسك بيده رمح الرسول ﷺ ، كان يصلي ويدعو الله .

دخل الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى السرادق ، وقطع الدعاء مخبرا السلطان بأن
انسحابه أصبح من الضرورات العسكرية ، ومن المؤكد أنه كان يخشى وقوع
السلطان في الأسر ، فيصيب الدولة مكروه لا يمكن إصلاحه ، لأنه كان طيبا
وعسكريا شجاعا . استمع محمد الثالث للتوصية ، وحالما امتطى جواده أمسك
خوذة سعد الدين أفندي رئيس أساتذته وأساتذة أبيه بعنان الجواد قائلا : إن الجيش
الذي لا يرى السلطان في مكانه يتشتت ، وإن الحرب مستمرة وليس هناك هزيمة ،
وإن روح الرسول تنظر إليهم . بدأ أفراد الصاعقة الذين شاهدوا البادشاه على صهوة
جواده وأستاذه ممسك بالأعنة بهجوم مدهش .

هزم الجيش الألماني . قتل ٥٠.٠٠٠ من أفراد العدو في ساحة القتال و ٢٠.٠٠٠
في المستنقعات التي سيقوا إليها ، واغتنم ١٠٠ مدفع . كانت خسائر العثمانية عبارة
عن عدة آلاف من الشهداء . كانت جثث قتلى العدو مكدسة في ساحة القتال الواحد
فوق الآخر . وتعقب كل من فتح كيراي وجفال أوغلو سنان باشا العدو المغلوب ،
وأسرا قسما منه .

كانت هاجوفا Haçova من أكبر انتصارات العثمانيين . ولكنه انتصار لم يقيم
استراتيجية . عادوا إلى الخلف بعد إفناء جيش العدو . ولو ذهبوا بالبادشاه إلى الأمام
لفتحوا بالتأكيد أقطارا عديدة . ولكن العثمانية كانت قد بدأت تأخذ بفكرة الحفاظ
فقط على ماتملكه . فقد العثمانيون روح الفتوحات وطاقة التحرك . حملة أكرى ،
هي الحملة الهمايونية الوحيدة خلال الـ ٥٥ عاما من ١٥٦٦ إلى ١٦٢١ (كاتب
جلبي ، الفذلكة ، ١ ، ٩٠ ومابعده ، بجوى ، ٢ ، ١٩٥ - ٢٠٣ ؛ صولاق -

زاده ، ٦٣٤ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٩٠ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٥٥ - ٦٨ ؛ هامر ، ٧ ، ٣٢٨ ومابعده) .

فى السنة التالية ، عين الوزير الشاب صاطرجى محمد باشا قائدا عاما للجبهة الألمانية (١٥٩٧/٦/٩ - ١٥٩٩/١/٦) . لم يكن الوزير الشاب هو الشخص الذى يمكنه القيام بمثل هذا الواجب العسكرى . جاء إلى بلغراد فى ١٣ آب ، وقضى فيها مدة ٢٣ يوما . أثناء اقتراب القائد من بودين ، كان الألمان يحاصرون يانق قلعة . وفى ٢ ت ١ خسروا ٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . استولى صاطرجى باشا على Tata وأبعد الألمان عن شمال بودين وخلص Yanik و Tamesvar ، إلا أن يانق قلعة انتقلت إلى يد الألمان بشكل غير متوقع (١٥٩٨/٣/٢٩) . كان الألمان يتجسسون من فينا على القلعة التى تبعد عنها ٩٠ كم . كانت الأرزاق تصل إلى القلعة عن طريق أستولنى - بلغراد .

جاءت ليلا قافلة تتكلم التركية وأفادت بأنها تحمل الأرزاق . فتح الحرس الذين كانوا سكارى باب القلعة . اجتاز الألمان الذين كانوا فى كمين الجسر ، ودخلوا القلعة . أشعل بكهربكى محمود باشا مخزن البارود مع ٣٠٠ جندى ، وقتلوا كلهم مع مئات الألمان نتيجة الانفجار . كانت حامية القلعة تتألف من ٤٠٠٠ جندى ، إلا أنهم كانوا منتشرين فى النواحي المجاورة ، ولايتوقعون هجوما شتويا ، بقى فى القلعة ٣٠٠ جندى فقط تحت قيادة ضابط انكشارى سكران اسمه يىحى أغا . لم يستمر الحكم الثانى للعثمانية فى يانق قلعة إلا ٣ سنوات و ٦ أشهر ويومان . وكأئنا تعادل النصر الذى حصلت عليه العثمانية فى فتح أكرى مع هذه الخسارة .

عند حلول الصيف تفقد الباشا مع غازى كيراي ٢ الجبهة . استولى القائد على جاناد (Csanad) وآراد ، وفى ٢ ت ١ شرع فى حصار فارات ، وفى ٣ ت ٢ رفع الحصار ، وخلال هذه الأيام شرع الأرشيدوق Matthias فى محاصرة بودين بقوته البالغة ٨٠٠٠٠ جندى (٢٨ أيلول) ، لكنه انسحب فى ٢ ت ٢ . احترق ٨٠٠٠ بيت فى بودين نتيجة قصف مدفعية العدو . كانت خسائر الطرفين كبيرة . استشهد ٢ بكهربكى ، جرح تريباق حسن باشا . عزل صاطرجى محمد باشا عن القيادة بعد عودته إلى بلغراد بـ ٢٩ يوما . وفى نفس اليوم عزل فى إستانبول عن الصدارة جراح محمد باشا . صار داماد إبراهيم باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى (١٥٩٩/١/٦) .

دامت قيادة صاطرجى سنة و ٦ أشهر و ٢٧ يوما (نعيما ، ١ ، ٢٠٤ ، منشآت السلاطين ، ٢ ، ١١٨ - ٩) .

(٣٤) حملتا أويفار Uyvar (٥/١٥ - ١٥٩٩/١١/٢٦) وقانيجة Kanije (٨/١٤ - ١٦٠٠/١١/٣٠) لداماد إبراهيم باشا

خرج إبراهيم باشا من إستانبول إلى الجبهة بعد ترأسه الوزارة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٥/٥/١٥٩٩) . انضم غازى كيراي ٢ إلى الجيش . استولى إبراهيم باشا على أويفار (بالسلفواكية : Nové Zamky) القلعة الألمانية المهمة (حاليا في جيكوسلوفاكيا) . طلبت ألمانيا الصلح ، جزع الفويغودا Mihai من ذلك ، وعرض عبوديته واسترحم الديوان الهابوى كى يقبله . عين للمفاوضات بكربك دياربكر قويوجى مراد باشا ، وهو صهر قاضى - زاده على باشا بكربك بودين . لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . قضى ، الوزير الأعظم والقائد الأعلى داماد إبراهيم باشا الشتاء في بلغراد (١٥٩٩/١١/٢٦ - ١٦٠٠/٨/١٤) . حاصر قانيجة (١٢ أيلول) وفتحها (١٦٠٠/١٠/٢٢) . انتقلت قلعة مهمة تقع بين بحيرة Balaton ونهر Dtava (بالجرية : Nagy - Kanisza) ليد الألمان بعد أن كانت في السابق لدى العثمانية . ورغم أن Philippe Emmanuel دوق Lothringen (Lorraine) هرع لنجدة قانيجة بـ ٤٠ ٠٠٠ جندى ؛ إلا أنه هزم وانسحب . جعلت قانيجة مركزا لإيالة وخصص لها ٥٠٠٠ جندى .

قضى إبراهيم باشا في بلغراد شتاء آخر (١٦٠٠/١١/٣٠ - ١٦٠١/٧/١) . تحرك بحملة جديدة على ألمانيا ، توفى في الطريق (١٠ تموز) . ختم حياته العسكرية والسياسية بشكل لامع . أدار دفة الحرب لصالح العثمانية باستيلائه على قلعتين مهمتين جدا كأويفار وقانيجة وقلاع كثيرة في الدرجة الثانية من الأهمية . لم يكن خلفه الوزير الأعظم والقائد الأعلى يمشجى حسن باشا جديرا بهذا المنصب . تحرك من إستانبول (١٦٠١/٨/٩) . وفي هذه الأيام ، قتل ميهائى ، وعندما استولى محمود باشا على الأفلاق بكاملها عرضت بغداد وأردل طاعتها . سيدأ يمشجى حسن باشا مرحلة تثبت عجزه وتخريبه للمخطط العسكرى الموفق الذى ورثه عن سلفه إبراهيم

باشا ، شاهد الألمان تجوال القائد الأعلى في الحدود دون جدوى ، جاعوا في الخريف أمام قانيجة .

(٣٥) محاصرة قانيجة (١٦٠١/٩/٩) والانتصار (١٦٠١/١١/١٨)

جاء الأرشيدوق Ferdinand الإمبراطور في المستقبل بقوته البالغة ١٠٠ . ٠٠٠ جندي و ٤٧ مدفع حصار أمام قانيجة . سيقوم بالدفاع عن القلعة تجاه الأرشيدوق البالغ سنه ٢٣ بـكلربك ترياكى حسن باشا البالغ سنه ٨٠ ، والذي قضى حياته على الحدود ، كان ذكيا ، بقدر ماهو حاضر الحيلة ، وداهية عسكريا ، شهد الحرب والضرب في عصر القانونى . كانت قواته ٩٠٠٠ جندي و ١٠٠ مدفع دفاع . كان ١٠٠٠٠ جندي من بين جيش الأرشيدوق أرسلهم البابا ، وكانت هنالك وحدات إيطالية ، مالطية ، ووحدات متطوعة مجرية وفرنسية . وخلال نفس الأيام بدأ جيش ألماني أصغر منه بمحاصرة أستولنى - بلغراد .

بدأ حصار قانيجة ، وكان يطلق عليها يوميا من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قذيفة . وبالرغم من أن حسن باشا كان موجوداً على مقربة من القلعة الا أنه لم يجسر على الهجىء لنجدتها « أودع قانيجة لأمان الله » وانسحب إلى مشاته . أذهل حسن باشا العدو بحيلة البارعة .

رفضت الوحدات المجرية في الجيش الألماني القتال مع الأتراك ، كما سرى التشاؤم من موت ابن أخى البابا برصاصة أطلقت من القلعة من بندقية تركية وحالات شبيهة .. كل ذلك أدى إلى تضعف الألمان . نصب الألمان الأكواخ فوق الثلوج واستمروا في الحصار . قلت ذخيرة ترياكى حسن باشا ، ولم يبق الا القليل . وبحيلة عسكرية تمكن من إيهام الألمان بهجوم ليل ، على أساس أن قوات يمشجى حسن باشا على وشك الوصول . كانت ليلة ١٧ - ١٨ ت ٢ - وهو اليوم ٦٩ من الحصار - استولى الرعب الشديد على الألمان ، ظنا منهم أن الجيش المهابوتى أغار عليهم بغتة وأخذوا في التراجع .

ترك الألمان الذين خسروا ٨٠ . ٠٠٠ جندي كافة مهماتهم . انتقل ليد الأتراك ،

٤٧ مدفع حصار بحجم هائل و ١٤٠٠٠ بندقية و ٦٠.٠٠٠ خيمة و ١٤٠٠٠ معول ومسحاة، آلاف العربات المليئة بالطعام والملابس والأدوية والبارود والأسلحة، وسرادق الأرشيدوق وخزنته. تمكن الأرشيدوق من امتطاء جواده بملابس النوم والهروب. تعقب ترياكى حسن باشا العدو بواسطة ٣٠٠٠ من خياله حتى داخل الأراضي النمساوية. انتقلت ٣٠٠٠ قرية ألمانية إلى سيادة الأتراك. ولد إفناء الجيش الألماني بشكل غير متوقع السرور العظيم في إستانبول. منح محمد الثالث رتبة الوزارة (المارشالية، مشير) إلى ترياكى حسن باشا، وسيفاً مرصعاً وباركه بكتاب همايونى (نعيماء، ١، ٢٥٤ - ٨١؛ هامر، ٨، ٩ - ١٤).

استرجع يمشجى حسن باشا، الذى تحرك من بلغراد، أستولنى - بلغراد، التى انتقلت إلى يد الألمان، خلال هذه الأيام (١٢ تموز - ٦ آب ١٦٠٢). حاصر الألمان بودين بـ ٨٠.٠٠٠ جندى. إلا أنهم هزموا بخروج لاله محمد باشا (١٦٠٢/١١/١٨)، لاله باشا أصبح وزيراً ٣ وقائداً أعلى. خرج إلى الجبهة في ١٦٠٣ (١١ أيار - ٢١ أيلول)، جرت معارك عنيفة قرب بودين، انسحب إلى بلغراد لقضاء الشتاء. توفى محمد الثالث في هذه الأثناء (١٦٠٣/١٢/٢١).

(٣٦) وفاة محمد الثالث، جلوس أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١)

عاش محمد الثالث ٣٧/٥ عاماً، دامت سلطنته ٩ سنوات إلا ٢٥ يوماً ويعرف بـ «فاتح أكرى»، وكان مثقفاً ثقافة عالية وله ديوان شعر. أساتذته الرئيسيون شيخ الإسلام سعد الدين أفندى (وفاة ١٥٩٩) قاضى عسكر عزمى أفندى (وفاة ١٥٨٢)، نوالى أفندى (وفاة ١٥٩٥)، جعفر أفندى (وفاة ١٥٧٤)، حيدر أفندى (وفاة ١٥٨٠)، مرييه الوزير الأعظم مانيسالى لاله محمد باشا (وفاة ١٥٩٥) (هو ليس الوزير الأعظم صوقوللو - زاده لاله محمد باشا العسكرى الكبير) رمضان أفندى، مصطفى باشا - زاده قورد بك، لاله على باشا الذى استشهد عندما كان بكلربك لتبريز (وفاة ١٦٠٤). سماه القانونى وهو ابن الحفيد الأول له. عند وفاة القانونى كان عمره ٣ أشهر و ١٢ يوماً.

جده سليم الثانى وأبوه مراد الثالث، كانا سلطانين بمعنى الكلمة، لهما حظهما

من الدهاء لترعرعها على عهد القانوني . كان محمد الثالث شخصية ضعيفة ، وقد كان السبب في إحياء سلطنة النساء في الدولة وإظهار كافة مساوئها بسبب ضعفه الشديد تجاه والدته وبقائه تحت تأثيرها . أبناؤه أولو شهزاده (١٥٩٥ - ٩٧) سليم (١٥٨٠ - ١٥٩٧/٤/٢٠) ، شهزاده جهانكير (١٥٨١ - ١٥٩٦) ، أولو شهزاده (١٥٩٧ - ١٦٠٢) محمود (١٥٨٧ - ١٦٠٣/٦/٧) ، أحمد الأول ، (الذي خلفه) . له ١٠ بنات وصلن سن الزواج . أصغر أولاده مصطفى الأول .

ولد أحمد الأول في قصر مانيسا (١٥٩٠/٤/١٨) . ولد أبوه محمد الثالث وجده مراد الثالث في مانيسا كذلك . جلس أحمد الأول على العرش بعد ولاية عهد دامت ١/٥ سنة ، وكان عمره يجاوز سن ١٣ بـ ٨ أشهر ، لم يكن قد تم تخنيته ، فجرى ختانه فوراً . لم يرسل إلى مانيسا بسبب صغر سنه ، ولهذا فقد كان أول سلطان اعتلى العرش دون أن يوفي وظيفة سنجق بك (أمير لواء) .. استمرت الحرب الألمانية خلال السنوات الـ ٣ الأولى من سلطنته وأسفرت عن نتائج .

٣٧ الصفحة الأخيرة للحرب الألمانية (١٦٠٤ - ١٦٠٦) ، معاهدة Sitvatorok (١٦٠٦/١١/١١)

جاء من القاهرة إلى إستانبول ، الملقب بأوغلو ياووز علي باشا بكرك بك مصر ، الذي صار وزيراً أعظم بدلاً من ميمشي حسن باشا (١٦٠٣/١٢/٢٩) . كان السلطان أحمد الثالث حينذاك سلطاناً منذ ٣ أيام . أخذ القيادة العامة في ٢ شباط (١٦٠٤) ، من صوقوللو - زاده لاله محمد باشا على عاتقه . تحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/٣) . لكنه توفي عند وصوله إلى بلغراد (١٦٠٤/٧/٢٦) . صار صوقوللو زاده لاله محمد باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى . تحرك من بلغراد (٥ آب) ، وصل بودين في ٢٥ أيلول ، حاصر Estergon ٣١ يوما ، لم يتمكن من فتحها . نقل المبادرة في الحرب إلى الطرف العثماني بشكل قطعي . وبعد بقاءه في بلغراد عدة أشهر قدم إلى إستانبول في ٩ شباط (١٦٠٥) ، تحرك في ١٦ أيار . وفي ٢٩ آب (١٦٠٥) كان أمام أستركون . دام الحصار ٣٥ يوما ، كان الحصار شديداً جداً .

فتحت أستركون التى أكملت حديثا السنة الـ ١٠ من سنين بقائها تحت الاستيلاء الألمانى ، فى (١٦٠٥/١٠/٣) . وكذلك تم استرداد قلاع عديدة كفيشغراد ، تبة ده لن ، جكرده لن (حاليا فى جييكوسلوفاكيا) ، *Vespirem, Palota* . وخلال نفس الشهر استرجع سرخوش إبراهيم باشا ابن أخى لاله باشا أوفيار *Uyvar* وصار بكهربك لها . كانت أوفيار ، حاليا فى جييكوسلوفاكيا ، قلعة مهمة ، تقع على بعد ٥٠ كم فى الشمال - الغربى من أستركون . وخلال ت ١ / ١٦٠٥ ، فتح سخوش إبراهيم باشا مع ٢٠.٠٠٠ من جنود الصاعقة *akinci* على الحدود النمساوية واجتاح كل من النمسا الشرقية ، *Karinthia, Karniol, Styrja* . وصل لاله باشا إلى أقصى الشمال الشرق من المجر . وفى صحراء راكوش (حاليا أوكرانيا ، أقصى الشرق من الجمهورية السوفيتية) ، منح أمير أردل *Istvan Bocskay* لقب « ملك » وألبسه التاج (١٦٠٥/١١/٢٠) . رجع الأمير أمام القائد الأعلى وقبل يده ثلاث مرات . عاد لاله باشا إلى إستانبول (١٦٠٦ / ٣/١٦) . كان قد أدار دفة الحرب لصاح العثمانية دون جدال . توفى صوقوللو زاده لاله محمد باشا بعد أن عين الوزير ترياكى حسن باشا وكيلا للقائد الأعلى فى بلغراد ، أثناء استعباده للخروج لحملة جديدة ، ولم يشهد المصالحة (نعما ، ١ ، ٤١٢ ، ٢٥ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٠١ - ٨ ؛ صولاق زاده ، ٦٩٠ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٢٢ ، ٣ ؛ هامر ، ٨ ، ٨١ ومابعده) . أدركت ألمانيا خسارتها فى الحرب فكانت تريد الصلح . وكانت العثمانية من أجل التفرغ لإيران وخروج لاله باشا لحملة إيران ، تطلب الصلح كذلك . أزيح العدو من المجر وفتحت سلوفاكية الجنوبية . قام بالمفاوضات التمهيدية والهدنة مع الألمان قوبوجو مراد باشا ، أما المعاهدة الأصلية فأجراها أبو زوجته قاضى زاده على باشا بكهربك بودين . جرت المفاوضات فى بودين (بوداپست) . وفى النهاية تم الاتفاق على المعاهدة الشهيرة المسماة *Sitvatorok* (١٦٠٦/١١/١١) .

انتهت بلية الحرب العثمانية - الألمانية الكبرى التى زج فيها قوجا سنان باشا الدولة دون سبب والتى استمرت ١٣ سنة و٤ أشهر و٨ أيام . كانت هذه المعاهدة طويلة الأمد ؛ استمرت ٥٦ سنة و٥ أشهر ، وبوما حتى إعلان تركية الحرب مجددا على ألمانيا فى ١٦٦٣/٤/١٢ .

تتألف المعاهدة التى اتفق الأطراف على استمرارها ٢٠ عاما قابلة للتجديد والتى أبرمت نتيجة المؤتمر الذى استمر ٢٢ يوما فى موقع سيتفاتوروك (*Zsitvatorok*)

وهى قصبة تركية تقع بين أستركون و Komarno على مقربة من الشمال الغربى لبودين - من ١٧ مادة . وأهم شروطها :

تسدد ألمانيا إلى العثمانية غرامة حرب قدرها ٦٧٠٠٠ سكة ذهبية . إلغاء الضريبة التى يسددها الإمبراطور للبادشاه ، ويستعاض عنها بهدية عينية يقدمها للبادشاه كل ٣ سنين ، على ألا تقل عن قيمة معينة . يعامل البادشاه الإمبراطور « بشفقة مثل معاملته لابنه » . تثبيت الحدود على أساس الأراضى الموجودة لدى الطرفين فى تاريخ عقد المؤتمر ، وليس هنالك مبادلة فى الأراضى . تمتنع الدولة العثمانية بعد الآن عن مخاطبة ومكاتبة الإمبراطور الألمانى بصفة « ملك » ، وتعترف بصفته إمبراطورا وتستعمل هذه الصفة فى كافة الوثائق الدبلوماسية . (كانت هذه هى أهم مواد الاتفاقية) . يوضح هذا أن العثمانية تركت ماسبق وأن دافع عنه الديوان بشدة ، وطلب كل من الفاتح والقانونى رعايته بإصرار ، وهو أن إمبراطور روما الفرد فى أوروبا هو الخاقان العثمانى . إن الصفة الرسمية لإمبراطور ألمانيا هو « إمبراطور روما الغربية » ولم يكن تعبير « إمبراطور ألمانيا » رسميا . ولكنه استعمل بكثرة فى ذلك العصر ، كما يستعمل فى يومنا هذا ؛ وعلى هذا فإن قبول الديوان الهامبورنى للقب إمبراطور روما الغربية لحاكم ألمانيا يعنى ضمنا موافقة البادشاه على أنه ليس هو إمبراطور روما الوحيد ، وأنه تقبل كونه إمبراطورا لروما الشرقية (البيزنط) فقط . ولكن ، يظهر من معاهدة سيتفاتوروك التى تنص على أن يكون البادشاه أباً والإمبراطور ابناً أنه حصلت الموافقة على أن البادشاه هو الإمبراطور الأكبر . وهذه القاعدة ، مطابقة للقاعدة التى كانت معتبرة فى وقت ما فى روما . حيث كان فى روما إمبراطوران حتى عام ٣٩٥ م ، ولكن كان أحدهما يعتبر أرفع شأناً من الآخر . ويستخلص من ذلك ، أن المعاهدة تحافظ على علو منزلة الدولة العثمانية والحقان الذى يمثلها . من ناحية أخرى تقوم ألمانيا بتخليصها من عبء دفع الضريبة السنوية (التى تقلل شأن دافعها) بدفعها كل ٣ سنين ، أو بحصولها على موافقة أقوى دولة فى العالم ، على قبول اللقب الحقيقى لحاكمها ، تكون قد حصلت على مكسب منهم بالقياس إلى ماسبق ، وعلى أقل تقدير من ناحية صيانة كرامتها ، إذ إنه لم يتمكن حتى أقوى الأباطرة قدرة مثل Charles-Quint ولا أخوه Ferdinand من الحصول على ذلك .

وتنص إحدى فقرات معاهدة سيتفاتوروك ، على أن شروط هذه المعاهدة مفتوحة بالنسبة لإسبانيا كذلك ، إلا أنه من الناحية العملية لم يكن معقولاً أن يوقع الديوان على صلح مع إسبانيا ، حيث كانت هذه الأعوام تصادف الفترة التي قضت فيها أسبانيا على البقية المتبقية من المسلمين :

وفي أيلول ١٦٠٩ صدر مرسوم ملكي باسم فيليب الثالث ابن وخلف فيليب الثاني ينذر كافة المسلمين الموجودين في إسبانيا بتركهم الأراضي الملكية خلال ٧٢ ساعة ، وإذا عرفنا أنه ليس بالإمكان في ذلك العهد السفر بين أقرب مدينتين خلال ٧٢ ساعة فإن القصد يكون واضحاً جداً ، وهو إلقاء آخر من بقى من المسلمين ، وقد استمر هذا الإلقاء ١٠ أشهر ، وتم في تموز عام ١٦١٠ .

كان قد بقى في البلاد في هذا التاريخ ، ٦٠٠ ٠٠٠ عرني ، وقد سهل قتلهم انتشارهم على نطاق واسع في إيلات بلنسية ، الأندلس ، مرسية ، قشتالة ، أرغون وقاتلونيا . كان هذا هو عدد البقية المتبقية من ملايين المسلمين . البقية قتلوا ، نصروا ، هربوا إلى إفريقية الشمالية . كان هنالك مهاجرون أندلسيون مستوطنون في الأناضول ، وأيضاً في إستانبول . القسم الأعظم من الإسبان اليوم في إسبانيا الجنوبية ، هم عرب برابرة من جهة الدم . قتل ٤٠ ٠٠٠ مسلم وهم الذين قاوموا بالسلاح في جبال بلنسية . ويقدر المؤرخون أن ١٥٠ ٠٠٠ عرني نقلوا بالسفن العثمانية إلى الجزائر و ٥٠ ٠٠٠ وهبت لهم حياتهم لقاء عبوديتهم وتنصرهم ، و ٤٠٠ ٠٠٠ منهم قتلوا خلال ١٠ أشهر (Pirene ، ٢ ، ٥٦١ ، Lavis - Rambaud ، ٥ ، ٦٥٢) .

كان العرب في طليعة سكان القطر تقدما في الفنون اليدوية والصناعة والزراعة . ولم يتمكن الإسبان من ملء الفراغ الذي أحدثه العرب لجهل الأسبان وتخلفهم بالقياس إلى العرب .

فقدت البلاد قدرا كبيرا من رفاهيتها . وفي نفس عام ١٦٠٩ ، انفصلت هولندا عن إسبانيا ، بعد صراع دموي استمر ربع قرن ، وصارت دولة مستقلة ، أخذت مكانها بسرعة كبيرة بين الدول الكبرى في الشؤون البحرية والمصرفية . أما بلجيكا الكاثوليكية فظلت مع إسبانيا . أما هولندا ، التي أسرعت في الدخول في مجال

الاستعمار فقد دخلت جاوا في ١٦١٠ ، وأخذت مكان البرتغاليين في المحيط الهندي . ملأت هولندا الفراغ الذي أحدثه انضمام البرتغال إلى إسبانيا خلال هذه الأعوام . وهكذا يكون القرن ١٦ قد مر بسيطرة البرتغال البحرية في المحيط الهندي ، والقرن ١٧ بسيطرة هولندا ، والقرن ١٨ بسيطرة إنكلترا .

(٣٨) الحرب التركية - الإيرانية (١٦٠٣ - ١٦١٨)

بدأت الحرب بين تركيا العثمانية وإيران الصفوية بهجوم الصفويين على تبريز ، بعد صلح دام ١٣ سنة و ٦ أشهر و ٦ أيام (١٦٠٣/٩/٢٦) . كانت هذه هي السنين الأخيرة لحكم محمد الثالث . بدأ شاه عباس الكبير بتطبيق سياسة الاسترداد بالقوة العسكرية . كان عازماً قدر الإمكان على استعادة الأقطار التي لم يتمكن من الحفاظ عليها ، واستولت عليها العثمانية .

افتتح الشاه دورة القتال تجاه العثمانية واستعد دبلوماسياً بعد مراسلات طويلة مع البابا والإمبراطور وملك إسبانيا . وعدا هذه الدول التي هي في حالة حرب مع العثمانية أرسل سفراء إلى الأقطار الأخرى كإنكلترا ، أسكوجيا ، فرنسا ، روسيا ، بولونيا ، هولندا ، وهي الدول التي يستبعد احتمال دخولها في حرب مع العثمانية طالبا الاتحاد معها . وحاول الاتفاق مع بنى تيمور الهند الذين يكرهون الصفويين (Hammetr, VIII, 38; Lavissee-Rambauel, 871: Grenard, 93) كان الشاه مقتنعاً بأنه أجرى صلحاً مهديراً لكرامته مع العثمانية ، وأنه اعترف رسمياً بأن البادشاه حاكم أعلى ، لذا كان يريد أن ينتقم . وبهجوم مفاجئ أسقط تبريز خلال ٢٢ يوماً . انتهى في تبريز آخر حكم عثماني كان قد استمر ١٨ سنة و ٢٨ يوماً . وباستيلائه بعدها بصورة سريعة على القسم الأكبر من أذربيجان الجنوبية ، أزاح فعلاً الإيالة العثمانية من الوجود . انتقل إلى شمال آراس . استولى كذلك على إيالة ناهجوان (١٦٠٣/١٠/٢٦) . وبعد حصار شديد دام ٦ أشهر و ٢٣ يوماً ، استولى على مركز إيالة عثمانية أخرى وهو روان (١٦٠٤/٦/٨) حالياً أرمنستان السوفيتية التي كانت حينذاك قطراً تركيا صرفاً .

صار جفال أوغلو سنان باشا الوزير الأعظم السابق قائدا أعلى على الجبهة الإيرانية وتحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/١٥) . لم يتمكن من اجتياز قارص وأغلق موسم الحملة (١٦٠٤/١١/٨) . وفي آب أغار على تبريز آملا استعادة أذربيجان . وغلب في معركة أورمية الكبرى أمام الجيش التركمانى الصفوى المؤلف من ٥٠ . ٠٠٠ شخص ، بقيادة الشاه شخصيا (١٦٠٥/٩/٩) ، انسحب إلى دياربكر وتوفى فيها متأثرا بهزيمته (١٦٠٥/١٢/٢) . عين مكانه سردار (قائد) ، دلى فرهاد ، أحد الوزراء وتحرك من إستانبول (١٦٠٦/٦/٢٥) . أما الصفويون فقد استولوا على كنجة (١٦٠٦/٧/٦) وشماه (١٦٠٧/٦/٢٧) واجتازوا نهر كور ، واستولوا على القسم الأكبر من شيروان . لم يتمكن الشاه من التقدم أكثر من ذلك . ودخلت الحرب في دور الركود .

عين الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قويوجو مراد باشا سردار أكرم (قائدا أعلى) على الجبهة الإيرانية (١٦١٠/٤/٢٩ - ١٦١١/٨/٥) ، تحرك من إستانبول . تقابل في أرضروم مع سفراء الشاه . طلب الشاه الذى أرسل هدايا ثمينة جددا الصلح على أساس معاهدة أماسيا التى عقدت في عهد القانونى . جاء قويوجو باشا إلى تبريز التى يتواجد فيها الشاه . حاول الشاه إفناء الجيش العثمانى خارج تبريز مدة ٥ أيام و ٥ ليال ولكن ، لم يتمكن كلا الطرفين من إحراز نصر حاسم على الآخر . كرر الشاه طلب الصلح (١٦١٠/١١/١٦) . انسحب الباشا الذى لم يرض عن قضاء الشتاء في تبريز إلى (عامد) في دياربكر ، توفى هناك (١٦١١/٨/٥) . عين مكانه الوزير نصوح باشا بكربك دياربكر وزيرا أعظم وسردارا أكرم (قائدا أعلى) . قدم إلى إستانبول (١٦١٢/٩/٢٧) ووقع على معاهدة إستانبول مع إيران (١٦١٢/١١/٢٠) . انتهت الحرب التى دامت ٩ سنوات وشهرا و ٢٤ يوما . في هذه المعاهدة اتفق على حدود معاهدة أماسيا التى تختلف قليلا عن حدود إيران العراقية والتركية الحالية . أعيد بموجب هذه المعاهدة مايقارب ٤٠٠ . ٠٠٠ كم^٢ من مجموع الأراضى البالغة ٥٧٠ . ٠٠٠ كم^٢ التى حصلت عليها العثمانية قبل ربع قرن . انتقلت إلى الصفويين المناطق المحيطة ببحر قى أورمية وكوكجة ، شرق مجرى نهري أراس وكور ، وبعبارة أوضح ، روان ، نهجوان ، قره باغ (عران) أذربيجان (شيروان) الشمالية والجنوبية ، وفي مقابل ذلك يبقى القسم الأكبر من كرجستان وداغستان وقفقاسيا الشمالية لدى العثمانية .

لم يدم الصلح أكثر من سنتين و ٦ أشهر و ٣ أيام . أعلنت الحرب على إيران . صار الوزير الأعظم داماد أوكوز قره محمد باشا ، سرداراً أكرم (١٦١٥/٥/٢٢) ، غادر في ١١ حزيران ووصل حلب في أيلول . ظل فيها ٧ أشهر ، ثم تحرك (١٦١٦/٤/١٨) بجيشه البالغ ١٠٠.٠٠٠ شخص ووصل روان (١٦١٦/٩/١١) حاصرها مدة ٥٤ يوماً ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . كان الشاه موجوداً في نهجوان التي تبعد ١١٥ كم في الجنوب - الشرق . لم يتمكن من الحملة على الجيش العثماني . انسحب العثمانيون عند حلول فصل الشتاء . صار السردار الأكرم الوزير الأعظم الجديد خليل باشا (١٦١٧/٦/١٥) . قضى شتاء عام ١٦١٧ - ١٨ في دياربكر . وجاء جاني بك كيراي ، خان قرم مع ٤٠.٠٠٠ خيال من قفقاسيا الشمالية وقلب لإيالات كنجة ونهجوان رأساً على عقب ، وبقضاء فصل الشتاء مع الوزير الأعظم جاء هو كذلك إلى دياربكر . تحرك الوزير الأعظم مع الخان من هنا في ١٦/٥/١٦١٨ . كان قالغاي (ولي عهد قرم) شاهين كيراي في المقدمة ، وقع أسيراً في يد الشاه ، أطلق الشاه سراح قالغاي ، دليلاً على طلبه الصلح . دخل الجيش الهمايوني أذربيجان الجنوبية . ووصل قرب أردبيل ، المدينة المقدسة للصفويين . وفي الحرب الميدانية المسماة بول شكسته (قيريق كوبري) (١٦١٨/٩/١٠) خسر العثمانيون ١٥.٠٠٠ مابين شهيد وجريح و ٥٠٠ أسير ، واستشهد ٣ بكلربك (فزيق) ، ووقع اثنان منهم في الأسر ، لكن خليل باشا تمكن من لم شعث الجيش وأثناءه عن التراجع . كرر الشاه طلب الصلح . وقعت أمام أسوار أردبيل معاهدة أردبيل (١٦١٨/٩/٢٦) ، وهي تختلف عن معاهدة إستانبول في أنها خفضت الـ ٢٠٠ حمل من الحرير الذي تقدمه إيران كخراج سنوي إلى العثمانية ؛ إلى ١٠٠ حمل . دام الصلح ٥ سنوات . وبعد ٥ سنوات استولى الصفويون على بغداد ، توسعت الحرب العثمانية - الصفوية بدرجة لم يشهد لها مثيل .

(٣٩) المسائل الداخلية لعهد أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧)

على أثر وفاة الوزير الأعظم والسردار الأكرم الملقوج أوغلو ياووز على باشا في بلغراد أخذ صوقولوزاده لاله محمد باشا على عاتقه كلا الوظائفيتين وحافظ على زمام

السلطة بيده حتى وفاته مدة سنة و ١٠ أشهر و ٢٦ يوما ، محرزا انتصارات لامعة (١٦٠٤/٧/٢٦ - ١٦٠٦/٦/٢١) . مدة سلطة سلفه ياوز علي باشا ، الصدر الأعظم الأخير لمحمد الثالث والأول لأحمد الأول . عبارة عن ٩ أشهر و ١١ يوما . خدم لاله باشا في بلغراد كما خدم كذلك في الجيش .

صار درويش محمد باشا وزيرا أعظم وولى فرهاد باشا سردارا (قائدا) على إيران . على أثر إعدام درويش باشا ، حل مكانه قويوجو مراد باشا ، الصدر الأعظم القوى السلطة ، ذو الشخصية الكبيرة في عهد أحمد الأول . دامت سلطته حتى وفاته ٤ سنوات ، و ٧ أشهر و ٢٧ يوما (١٦١٦/١٢/٩ - ١٦١١/٨/٥) . وهي أطول مدة صدارة ، منذ وفاة صوقولو قبل ٢٧ سنة .

كان مراد باشا سياسيا صبورا ، ماهراً ، صلبا جدا ، قائداً جيداً ، كبير السن ، رجل دولة مجربا . وكان صهرا لقاضى زاده علي باشا الذى قام بإدارة البحر فترة طويلة وبلياقة تامة بلقب بكلكربك . سقط من على ظهر جواده ، أثناء مصادمته مع الصفويين ، سقط في البحر قبل ٢١ عاما (١٥٨٥) عندما كان بكلكربك في معية أوزدمير أوغلو ، قام الصفويون بانتشاله من البحر وسجن في Alamaut ثم عاد من إيران . أطلق عليه لقب « قويوجو » نسبة إلى « البحر » . ولقب « قوجا » (الكبير) لكبر سنه .

كان يقصد مراد باشا الذى غادر إستانبول في ١٦٠٧/٧/٢ تخليص الدولة من الجلالين الذين أصبحوا دولة داخل الدولة ، وكان يتعاون معهم كثيرون من البكلكربكى (فريق) وسنجدى بكى (أمير لواء) . اختل الأمن في الأناضول ، وتدهور الوضع الاقتصادى الممتاز الذى كانت عليه البلاد في العصر ١٦ .

كان يرافق مراد باشا الوزير ترياكى حسن باشا بكلكربك روملى البالغ عمره ٨٠ عاما ، وفي الطريق قتل وسفك دماء كثيرة من الجلالين ، حتى وصل حلب في ٩ ت ٢ (١٦٠٧) .. حيث قضى الشتاء فيها واستمر في تنظيف الدولة من الجلالين في السنة التالية . عاد إلى إستانبول في ١٦٠٨/١٢/١٨ . وهكذا تكون حركة تنظيف الجلالين قد استمرت سنة و ٥ أشهر و ١٧ يوما . تم إخماد الجلالين ، ولكن لم يقض عليهم ؛ لأنهم كانوا يمثلون قسما من شعب الأناضول . لم يخرج

مراد باشا للجيبة في ١٦٠٩ . ظل يؤدي واجبه في استانبول مدة سنة و٥ أشهر و٧ أيام . غادر استانبول في ١٦١٠/٥/٢٤ ، وجاء إلى تبريز ثم عاد إلى دياربكر ومات هناك . وهكذا توفي آخر من أدرك عهد القانوني من رجال الدولة . صار في ١٥٦٠ معاون بكلكريك البين ، وفي ١٥٦٥ سنجق بك لمصر ، وفي ١٥٧٦ بكلكريك لكل من البين ، ثم قره مان ، دياربكر روملي .

بدأت صدارة داماد نصوح باشا التي استمرت ٣ سنوات و شهرين و ١٣ يوما (١٦١١/٨/٥ - ١٦١٤/١٠/١٧) . كان في مدينة دياربكر مع مراد باشا . وعين مكانه . مكث في جبهة إيران سنة وشهرا و٢٣ يوما . وفي ٢٧ أيلول جاء إلى استانبول ووقع مع إيران معاهدة صلح . ارتاح الشعب لعقد صلح مع إيران ، بعد ألمانيا وحل مشكلة الجلالين في الأناضول - ولو بصورة مؤقتة .

وخلال هذه الأيام ترعرع السلطان أحمد وأجتاز مرحلة الشباب وأصبح خاقانا ناضجا ، عاقلا وحذرا . تفقده تراقيا الغربية ، وذهابه إلى غاليبولي مع ٤ ضباط فقط فتح قلب الشعب وملأه سرورا . ذهب إلى بولاي وزار قبر الغازي سليمان باشا ، فاتح روملي ، وغطى قبره بوشاح فخم ملئ بشغل الذهب الكثيف . أخذ مسجد السلطان أحمد الملىء بالظرافة والذوق الرفيع والفن الذي يلقى في القلب البهجة والسرور في الارتفاع مقابل أياصوفيا . سمى الشعب هذا الميدان (الساحة) ، وقد كان يسمى منذ عصور « آط ميدان » باسم « سلطان أحمد ميداني » دامت سياحته لتراقيا ، ٤ أشهر و١٤ يوما . سكن في استانبول ٦ أشهر و٢٠ يوما فقط . ثم ذهب إلى أدرنة مرة أخرى . قضى فصل الشتاء وعاد في ربيع عام ١٦١٣ إلى استانبول .

أعدم الوزير الأعظم نصوح باشا . ترك ثروة عظمية . صار داماد قره إبراهيم باشا وزيرا أعظم مدة سنتين و شهر و يوما (١٦١٤/١٠/١٧ - ١٦١٦/١١/١٧) . كان رجل دولة قديرا . جاء سفراء فاس وألمانيا (١٦١٦/٩/٤) وعرضوا ضرائبهم وهداياهم وتابعيتهم وإجلالهم للبادشاه باسم حكامهم (فون هامر ، ٨ ، ٢٢٦ - ٣٣) . عزل محمد باشا الذي لم يتمكن من الاستيلاء على روان وعقد صلح مع إيران . وأخذ مكانه خليل باشا . وفي عهد صدارته ، افتتح جامع السلطان أحمد للصلاة (١٦١٧/٦/٩) . استمر الإنشاء مدة

٧ سنوات وه أشهر و٦ أيام ، وهو المسجد الوحيد في العالم الإسلامي ذو المآذن الست من آثار قوجا محمد أغا المبدع .

أهم حملة بحرية في هذه المرحلة هي حملة البحر الأبيض (١٣/٥ - ٢٨/١١/١٦١٤) . التي حققها « قبودان دريا » (مشير البحر) داماد خليل باشا ، الذي صار بعد ذلك وزيراً أعظم . استشهد مراد رئيس ، آخر من بقى من نسل البحارة القدامى ، في سن متقدمة جداً ، عندما كان سنجق بك (أمير لواء) موراً بعد إفنائه أسطولاً مالطياً (١٦٠٩) ، وكان في سن ٨٠ . كانت حالة الحرب مستمرة مع مالطة ، البابوية وإسبانيا ، كانت الإيالات البحرية الجزائر ، تونس وطرابلس الغرب ، التي تملك القطع البحرية تلعب دوراً مهماً في مثل هذه الحروب ، إلا أن سفر داي ، وكيل بكربك في طرابلس ، ماطل في تنفيذ الأوامر . أنزل خليل باشا الجنود إلى مالطة ، بواسطة ٤٥ سفينة من الأسطول الهمايوني وخربها ، ثم جاء إلى طرابلس ، وأعدم سفر داي الذي كان يظلم الشعب ، أمام داره . سعى في شئون السكان المهاجرين في أماكن كأدرنة ، طرسوس ، طرابلس الشام ، وغلطة في إستانبول (Mühimme, LXXV111,441) .

بعد ٨٩٩ عاما من فتح المسلمين لإسبانيا والبرتغال ، وبعد ١١٨ عاما من سقوط آخر دولة إسلامية في إسبانيا لم يبق مسلم واحد في إسبانيا والبرتغال ؛ كانت طائفة من الذين تنصروا لا يزالون يصلون سراً في مساكنهم ويذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد . كانوا يقدمون المعلومات عن الأسطول الإسباني ، موافقه وقواته العسكرية إلى بكربك الجزائر بواسطة رسائل سرية . وبعد مدة انتهت أيضا هذه الأعمال . قوضت كافة بدائع الهندسة المعمارية الإسلامية . وفي أواسط القرن ١٧ أصبح من الممكن أن نقول : إنه لم يكن هنالك في أى وقت من الأوقات حكم إسلامي في شبه جزيرة إيبيريا ، وأن هذا القطر كان كاثوليكيًا منذ الأزل . لكن المشاهد الذي يدق عن كتب ، الهندسة المعمارية الإسبانية ، الموسيقى ، الرقص ، العرف والعادات يمكنه أن يلمس استمرار التراث العربى الذى لانفاذ ولانهاية له .

أرسل الديوان في ١٦١٠ ، الحاج إبراهيم أغا إلى لندن سفيرا فوق العادة ، ولقد كان الغرض الحقيقى من ذهابه إلى أوروبا الغربية هو جمع الأنڈلسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى شمال إفريقية ، ولجئوا إلى غرب أوروبا والذين كان أكثرهم في عداد

العبيد . جمع العائلات التي تمكن من العثور عليها ونقلها إلى الأراضي العثمانية ، ويعتبر هذا نموذجا مريرا لسياسة الشفقة الإسلامية للدولة العثمانية . وفي ١٦٠٦ ، أعلن مصطفى باشا ، الذي قدم من الجزائر ، مولاى زيدان ، سلطانا . ولكن الباشا قتل في فاس في تموز عام ١٦٠٩ . أستمروا أكثرية الذين جلسوا على عرش فاس في استلام المعونة العثمانية والاعتراف بالبادشاه - خليفة متبوعا (August Cour, Etablissement des Chérifs du Maroc Les Tures, Paris 1904, ص ١٤٩ ومابعده) .

٤٠ (وفاة السلطان أحمد خان الأول (١٦١٧/١١/٢٢)

توفي السلطان أحمد على حداثة سنه ، بعد مرض أصابه في بطنه . يصاحبه حمى ، دام عدة أسابيع . كان قد تجاوز سن ٢٧ بـ ٧ أشهر و ٤ أيام . وحتى ذلك التاريخ ، لم يتوف أى خاقان في مثل هذا السن عدا موسى جلبي . سببت وفاته في هذا السن جلوس بادشاهات أطفال وحديثى السن على العرش لمدة طويلة . وكانت هذه من بين العوامل التي أدت إلى تعرض الإمبراطورية لاضطرابات داخلية . نضج السلطان أحمد مبكرا وأظهر في سن طفولته قدرات حكام عظام ، وسوف تظهر هذه القدرات بشكل أبرز في أبنائه عثمان الثانى ومراد الرابع . لأول مرة منذ عهد القانونى ، يسعى سلطان في أمور الدولة ، بشكل جاد ولا يترك كل شيء لوزرائه . كان معتدلا في ذوقه وأنسه ، لا يشرب المسكرات ، متدينا جدا ، ملبسه بسيط ، عدوا لسيطرة النساء في السراى ، مولويا كأجداده ، شاعرا في اللغتين التركية والفارسية ، مصارعا بارعا فارسا ، راميا ويستعمل السلاح بمهارة . رمى الـ « ششبر » (آلة حربية - كرة ذات ٦ رعوس) من برج علوه ٣٠ مترا وأصاب هدفا على بعد ٥٠٠ متر . وشيد في مكان سقوط (الششبر) مسلة (نشان طاش) وهو نصب تذكارى حجرى ليكون ذكراى لأبدية لهذه الرمية القياسية (رفعت عثمان ، أدرنة سرايى ، ٢٨) .

ولد في مانيسا وجاء إلى إستانبول مع أبيه البادشاه وعمره ٥ سنوات . ولصغر سنه ، لم يرسل إلى مانيسا لتعلم إدارة الألوية . لم يخرج للجهات . خرج للأماكن القريبة مثل أدرنة ، بورصة ، جناق قلعة . لم يمض سنين سلطنته في السفر إلى الأقطار

والقارات والحروب كبقية السلاطين . لكنه عمل ماوسع له لحماية مصالح الدولة العليا ، إلا أن عمره لم يمهل كى يعيش أكثر من ذلك ومات فى مقتبل عمره . تمكن فى سن طفولته من تحجيم النفوذ السيسى لجدته (والدة أبيه) السلطانة - والدة صفية وتدخلها فى السياسة فى عهد أبيه ، وفور جلوسه على العرش ، أخرجها من سراى طرب قابو ونفاها إلى السراى القديم . توفيت السلطانة صفية التى لم تتمكن من العيش بدون سياسة بعد عدة أشهر وهى فى حالة حزن شديد . أما خاندان ، والدة السلطان أحمد ، السلطانة - والدة (٩١٥٧٤ - ١٦٠٥/١١/٢٦) فقد توفيت فى شبابها فى نهاية السنة الثانية من سلطنة ابنها . لم يكن من الممكن للسلطان أحمد المعارض لسيطرة النساء إلى هذه الدرجة أن يتنبأ بأن إحدى زوجاته كوسم ما يكر ستكون أكثر النساء تدخلا فى السياسة فى تاريخ تركيا كلها وتظهر على المسرح بأدوار منحوسة للغاية . ورغم أنه كان مولويا فقد كان شيخه عزيز محمود خدائى المتصوف الكبير جدا (وفاة ١٦٢٨) ، شيخا للطريقة الجلوتية التابعة البائرامية . ورئيس أساتذته هو حاجة سلطانى آيدنلى مصطفى أفندى (وفاة ١٦٠٧) وهو والد شيخ الإسلام مسعود أفندى (وفاة ١٦٥٦) .

جلس أبناء السلطان أحمد الأول الثلاثة على العرش ، ومجموع مدد مكوثهم على العرش ١٩ سنة و شهرا و ١٩ يوما . تسلسل أبنائه كما يلى : عثمان الثانى (١٦٠٤/١١/١٣ - ١٦٢٢/٥/٢٠) ، ولى عهد - شهزاده (أمير) (١٦١٨ - ١٦٢١) محمد (١٦٠٥/٣/٨ - ١٦٢١/١/١٢) ، مراد الرابع (١٦١٢/٢/٢٧ - ١٦٤٠/٢/٨) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٢٣ - ١٦٣٥) ييازيد (١٦١٢/١٢ - ١٦٣٥/٧/٢٧) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٣٥ - ١٦٣٨) قاسم (١٦١٤ - ١٦٣٨/٢/١٧) ، شهزاده سليمان (١٦١٥ - ١٦٣٥/٧/٢٧) . والشهزادات (الأمراء) ال ٥ الآخرون لم يعيشوا أكثر من ٤ سنوات .

بناته - عدا بناته ال ٤ اللواتى توفين وهن صغيرات جدا - السلطانة عائشة (١٦٠٥ - ١٦٥٧/٥) التى تزوجت ٨ مرات (٤ منهم وزير أعظم) ، السلطانة فاطمة (١٦٠٦ - ١٦٧٠) التى تزوجت ٦ مرات (واحد منهم وزير أعظم) ، السلطانة جوهران (١٦٠٨ - ١٦٦٠) التى تزوجت ب ٢ وزير أعظم ،

السلطانة خاتزاده (١٦٠٩ - ١٦٥٠/٩/٢١) التى تزوجت مرتين (أحدهم وزير أعظم) ، السلطانة برناز عاتكة (١٦١٤ - ١٦٧٤) التى تزوجت ٣ مرات ، السلطانة عابدة (١٦١٨ - ١٦٤٨) التى تزوجت مرة واحدة .

لم يستمر نسل بنى عثمان من أى من هؤلاء وإنما استمر من السلطان إبراهيم ، أصغر أبناء السلطان أحمد (١٦١٥/١١/٥ - ١٦٤٨/٨/١٨) . احتل مكان السلطان أحمد أخوه مصطفى الأول وصار سلطانا لمدة ٣ أشهر ، ثم جلس على العرش بعده عثمان الثانى ، الابن الكبير للسلطان أحمد .

(٤١) الحرب البولونية ، حملة خوتين الهمايونية (١٦٢١ - ٢٢)

كان الوزير غازى إسكندر باشا المختص بشئون بولونيا هو الذى يتولى قضايا الحدود مع بولونيا خلال هذه السنوات . وهو من الأشخاص الذين دربهم غازى تريكى حسن باشا . خرج إسكندر باشا بحملة ضد بولونيا ، على أثر تدخلها فى شئون بغداد (Moldavya) واجتيازا Dnyestr (بالتركية : Turla) التى تشكل الحدود . كان جاني بك كيراي خان قرم يقود المقدمة . وفى الحرب الميدانية المسماة « ياش » (١٦٢٠/٩/٢٠) خسر البولونيون ١٠ ٠٠٠ قتيل . تعقب الباشا العدو . وفى الحرب الميدانية Dnyestr (Turla) (١٦٢٠/١٠/٧) التى جرت بعد ١٨ يوما ، أفنى كامل جيش بولونيا تقريبا ، البالغ عدده ٦٠ ٠٠٠ ومن بينهم القائد العام Zolkiewsky ، تمكن ٤٠٠ جندي بولوني فقط من الفرار ، اغتسم الجيش العثماني ١٢٠ مدفعا ومئات من عربات المهمات (هافر ، ٨ ، ٢٦٠) . كان الجيش العثماني ، ٤٢ ٠٠٠ شخص ، ٣٠ ٠٠٠ منهم من قرم . أسر مئات من الجنرالات البولونيين وذوى النسب العريق ، وتم سوقهم إلى إستانبول . وبعد عدة أشهر فى أوائل عام ١٦٢١ توفى إسكندر باشا .

أفرحت هذه الحملة روسيا ! قضت بولونيا الشتاء وهى فى حالة حذر خشية عودة الأتراك فى صيف عام ١٦٢١ . وفى الحقيقة كان السلطان عثمان الثانى قد قرر الخروج إلى الحملة بنفسه . كان قد مضى على الحملة الهمايونية لجده محمد الثالث على أكرى - خاجوه ، مدة ٢٥ عاما . انتقل الخاقان الشاب ، فى ٨ آذار إلى مقر

الجيش ، وفي ٢١ أيار (١٦٢١) تحرك من إستانبول . كان في مقدمة الجيش مهترخانة همايون (موسيقى الجيش الهمايونية) وأمامها الفيلة الـ ٤ هدية الشاه عباس وكل منها يحمل طبلا (كوس) . كان عدد الجيش العثماني ١٠٠ . ٠٠٠ جندي . وفي أيلول ، جاءوا أمام قلعة خوتين (Hotin) الواقعة على خط العرض ٤٨ ، ٣٠ ، في الساحل الجنوبي لـ Dnyestr وهي المدخل إلى Podolya وحتى غاليجية ، كانت قلعة بولونية مهمة . جاء جاني بك كيراي في اليوم الثاني ، وقبل يد الخاقان . وفي اليوم الأول من حصار خوتين في ٣ أيلول والذي سيستمر ٣٣ يوما ؛ استشهد بكركبك بوسنة . وفي الأيام التالية استشهد كل من قرة قاش محمد باشا بكركبك بودين (المجر) ودوغانجي على باشا بكركبك قرة مان . وبالرغم من تحقيق ٦ غارات عامة وتقديم آلاف الشهداء وقيام جيش الصاعقة بضرب بولونيا في العمق وجلبهم ١٠٠ . ٠٠٠ أسير فقد قاومت القلعة . لكن بولونيا طلبت الصلح . وبناء على ذلك ، أبرمت معاهدة صلح خوتين (١٦٢١/١٠/٦) : التي نصت على : اعتبار أحكام المعاهدة التي أبرمت مع بولونيا في زمن القانوني سارية المفعول ، وكذلك الحدود التي تقرها تلك المعاهدة ، يهدم البولونيون جميع القلاع التي شيدها على حدود العثمانية منذ ذلك العهد ، تستمر بولونيا في دفع الضريبة السنوية إلى قرم ، تترك خوتين إلى العثمانية . يمكن للعثمانية نقل جنودها من أوروبا الشرقية إلى المجر في أي وقت تشاء بإخطار مسبق شرط عدم إحداث أية تخريبات مهما كانت صغيرة .

تعتبر شروط هذه المعاهدة شديدة بالنسبة لبولونيا ، وأعتقد أنها تشكل الصفحة الأولى من خروج عثمان الثاني إلى البلطيق ، ولأن هذه المعاهدة جعلت دولة شديدة العداء لروسيا في وضع حرج فإنها في الحقيقة لم تكن تحقق النفع للعثمانية في المستقبل ، ولكنها تشكل بالنسبة لروسيا نموذجا في كيفية ضرب بولونيا كبرى . استمرت الحملة الهمايونية ٨ أشهر و ٥ أيام . عاد البادشاه إلى إستانبول في منتصف الشتاء (١٦٢٢/١/٢٥) شاهد كافة نقاط الضعف بعينه وعن قرب نفر - محقا كان أم غير محق - من جيش هذا وضعه . عاد الجيش وهو ناقم على حاكمه يخفى عدم رضائه الشديد منه .

٤٢) السلطان مصطفى والسلطان عثمان

عند وفاة السلطان أحمد الأول كان المفروض أن يجلس على العرش ابنه الكبير وولى عهده السلطان عثمان . إلا أن طبع هذا الطفل ، الذى دخل حديثا سن الشباب والذى يفوق طبع أبيه شدة - أخاف الكثيرين . وخاصة أن زوجة أحمد الأول المفضلة ماه بيكر خاصة كى التى تسمى « كوسم » أنفقت كل ثروتها وجندت ذكاءها الشيطاني لمنع حدوث هذا حيث كان من المحتمل أن يضر بأبنائها . خرقت القوانين ، وتم لإجلاس السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد الأول الصغير المريض على العرش .

ولكن اتضح بعد مدة أن السلطان مصطفى مجنون . كان من الواضح أن سلطنته ستكون قصيرة الأمد . ليس من الممكن - لا من الناحية الشرعية ، ولامن حيث العرف العثماني - أن يكون بادشاه خليفة شخصا مجنونا . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت مهيكر خاصكى تأمل أن تتخلص من الأمرين وليهي العهد الأولين للسلطان أحمد ، السلطان عثمان والسلطان محمد ؛ بواسطة السلطنة - الوالدة ، والدة مصطفى الأول ، التى كانت حذرة وغادرة ، بقدر ماكان ابنها متخلفا عقليا . وشهزادات (الأمراء أولاد السلطان أحمد الأول) الذين يأتون بعد ذلك هم مراد ، قاسم ، إبراهيم والسلطنة عائشة وفاطمة وقد ولدوا كلهم من كوسم مهيكر . كانت كوسم فى هذه الأثناء ، أرملة فى الـ ٢٩ من عمرها .

صار مصطفى الأول ، الذى ولد فى مانيسا عام ١٥٩٢ ، ولى عهد لمدة ١٠ أشهر ، لحين ولادة الابن الأول لأخيه الكبير أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١ - ١٦٠٤/١١/٣) . كان عمره عند جلوسه ٢٥ عاما . خلع بعد ٣ أشهر و ٤ أيام . جلس السلطان عثمان على العرش . كان رد فعله شديدا على الذين استهتروا بالحق وخالفوا القوانين بشكل يهدد نظام الدولة وأجلسوا عمه المجنون على العرش . كان سنه يزيد على ١٣ سنة بـ ٣ أشهر و ٢٤ يوما . لكنه سبق أباه فى النضوج والكمال . كان يؤمن بحاجة الدولة إلى تبديل نظامها فى كافة المجالات بإصلاحات جذرية . جلس الخاقان على العرش ، على صغر سنه هذا ، آخذا الصلاحيات التى تمكنه من تحقيق إصلاحات من البارى عز وجل . شيد قبرا لأبيه فى رواق مسجده المشهور .

أمه خديجة مهفوزة السلطنة - الوالدة (١٥٩٠ - ١٦٢١) باش خاصكى (زوجة السلطان) لأحمد الأول منذ ك ٢ / ١٦٠٤ ، وأصبحت الآن السلطنة - الوالدة ، لكنها توفيت بعد ٣ سنين . السلطنة - الوالدة هذه هى التى ولدت كلا من الشهزادة (أمير) بيازيد ، الشهزادة سليمان ، الشهزادة حسين ، ويحتمل أن تكون قد ولدت سلطانتين (أميرتين) أو أكثر ولو أنها تظهر كأنما هى والدة للشهزادة محمد كذلك ، الذى هو ولى عهد الآن ، إلا أن اليوم الذى ذكر تاريخاً لميلاده يضعف هذا الاحتمال .

عزل عثمان الثانى خليل باشا الذى ظل فى مقامه منذ سنتين و ٣ أشهر ويومين ، وعين مكانه داماد أوكوز قره محمد باشا وزيراً أعظم لمرتين (١٦١٩/١/١٨) . عزله بعد ١١ شهراً و ٦ أيام (١٦١٩/١٢/٢٣) . ومجموع صدارتى محمد باشا ٣ سنوات و ٧ أيام . صار سنجق بك لبحرية دمياط (مصر) ، بكربك يمن ، وزير قبه ، قبطان دريا . وعلى عهده أمر السلطان عثمان بنحق أخيه الشهزادة سلطان محمد الذى كان حينذاك ولى عهد (١٦٢١/١/١٢) . تسبب مقتل الابن الثانى للسلطان أحمد الشاب هذا عن عمر يزيد على ال ١٥ سنة بـ ١٠ شهر و ٥ أيام ، المفجع والذى لاداعى له - فى بث الكراهية ضد البادشاه . كان الشهزادة قد نشأ نشأة حسنة ، إن دعاءه أثناء موته على أخيه بأن تصيبه نفس العاقبة - مشهور . والذى يليه من إخوة السلطان عثمان هو السلطان مراد (الرابع) الذى صار ولياً للعهد .

تجمد المضيق بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد البيزنطيين ، سبب عبور الناس مشياً على الأقدام من أسكدار إلى إستانبول (١٦٢١/٢/٩) ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب البرد غير الطبيعى ، زيادة التذمر لدى الشعب . وخلال هذه الأيام ، توفى كوزلجة جلى على باشا (١٦٢١/٣/٩) . دامت صدارته سنة ، وشهرين و ١٧ يوماً . جاء الصدارة أوهريلى حسين باشا ، ولعدم مساعدته منافسه محمد باشا بكربك بوذين أثناء حصار خوتين وخيائته فى الحركات العسكرية عزل من منصبه أثناء استمرار الحصار (١٦٢١/٩/٧) . استمرت صدارته ٦ أشهر ، و ٩ أيام . لم يكن الوزير ديلاور باشا بكربك دياربكر الذى عين مكانه بأليق منه . استمرت صدارته حتى ١٦٢٢/٥/١٩ مدة ٨ أشهر ، ويومين ، قتل على يد الإنكشارية . لم يتمكن عثمان الثانى من انتقاء الشخصيات الجديرة بسبب قلة تجربته ،

وإضافة إلى ذلك فقد قلت بشكل بارز في كافة القطاعات الإدارية للدولة الشخصيات الفذة التي كانت موجودة في العهود السابقة .

جرت الحملة البحرية على إيطاليا (صيف عام ١٦٢٠) ، التي حققها داماد خليل باشا ، خلال إشغاله منصب قبطان - دريا للمرة الثالثة ، في عهد السلطان عثمان . قصفت السواحل الإدرية لتيكية لإيطاليا . بدأت في أوروبا خلال هذه الأيام حروب الثلاثين سنة المفجعة (١٦١٨ - ١٦٤٨) . بدأت كحرب كاثوليكية - بروتستانتية ، خلال هذه الأيام أيضا (تموز ١٦١٨) تم إعلان سلطان فاس تابعيته ، وإظهار الشاه عباس رغبته في استمرار الصلح بإرساله هدايا ثمينة جدا .. كل هذا من جملة التطورات الإيجابية الأخرى .

(٤٣) الهائلة العثمانية (هائلة عثمانية) (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ أيار ١٦٢٢)

فكر عثمان الثاني في إصلاحات عامة في كافة القطاعات ، بدأ بتطبيق بعضها .

الموضوع الذي يستحق الاهتمام هو إلغاء التشكيل العسكري الذي يسمى (قابو قولو) وتنظيم جيش مركزي جديد . شرع في محاولاته الجديدة بهذا الشأن وأرسل تعليمات سرية إلى العديد من البكر بك (فريق) . وطبعا سمع الناس بمحاولات البادشاه هذه . وبسبب تقليصه - غير العادي - لصلاحيات العلماء ، حدثت مواجهة معهم ، وحتى مع ألى زوجته شيخ الإسلام خوجه أسعد أفندى ، وهو ابن شيخ الإسلام خوجه سعد الدين أفندى وأخوش شيخ الإسلام محمد أفندى .

كانت فكرة إصلاح الجيش وخاصة صنف قابو قولو وصنف الإنكشارية ، من بنات أفكار الخوجه سعد الدين أفندى . تشير التحريات الأولية إلى أن ذلك يرجع إلى عام ١٥٩٦ ، ثم ورث هذه الفكرة بعد ذلك حاجه سلطاني (أستاذ السلطان) عمر أفندى وهو أستاذ عثمان الثاني ، وهو الذى لقن البادشاه الشاب فكرة كثير من الإصلاحات . بعبارة أخرى نريد أن نقول:، إن فكرة إصلاح بعض المؤسسات في الإمبراطورية لم تكن من بنات أفكار عثمان الثاني . لكن السلطان عثمان أخذ يجرى هذا العمل باستعجال شديد دون مراعاة شعور الناس ، مما سبب تخوفهم . هذا فضلا

عن أن نجاح الإصلاحات يحتاج إلى إعداد كوادر جديدة ؛ ولم يكن هنالك أثر لهذه الكوادر . كان البادشاه يعتقد أن كل ماينطلق به .. قانون . كان هذا الاعتقاد مضرا ، لأنه كان حبرا على ورق .

صبر تشكيل قابو قولو بما فيه الكفاية على البادشاه الذى حقرهم بصورة علنية . لكن إعلان البادشاه عزمه على مغادرة إستانبول بحجة ذهابه إلى الحج وزفضه بفظاظة كافة المحاولات لإثناؤه عن عزمه ، ونصبه سرادقه وفتح البيارق فى ضحية يوم ١٨ أيار فى صحراء أسكدار - سبب عصيان تشكيلات قابو قوله ، وبالأصح تشكيل الإنكشارية الذى صادف عصيانهم نفس ساعات خروج البادشاه . والمعروف أن خاقانات العثمانية اعتبارا من ياوز لا يذهبون إلى الحج ، رغم أنهم خلفاء ، لأن أداء مناسك الحج يستغرق وقتا طويلا ، الأمر الذى يؤدي إلى ابتعاد البادشاه عن أعمال الدولة مدة طويلة . وهنالك فتاوى لشيوخ الإسلام تفيد بأن اشتغال الخاقان بأمور الدولة والشعب عبادة تفوق عبادة الحج .

كان عصيان الإنكشارية واجتماعهم فى جامع السليمانية ، بعد ساعتين ونصف فقط من ركز البيارق فى أسكدار دليلا كافيا على مبلغ تيقظهم واستعدادهم . جاء الإنكشاريون إلى ساحة سلطان أحمد ، أى أمام سراى طوب قابو الذى يتواجد فيه البادشاه ، حاملين بأيديهم الفتوى التى حصلوا عليها من شيخ الإسلام خووجه - زاده أسعد أفندى والتى تقول « لالزوم لحج البادشاهات ، البقاء فى مكانهم والعدل أولى لهم . حتى لا تكون هناك فتنة » .

كان من الواضح تأييد العلماء للإنكشارية . إن أى عصيان عسكري فى التاريخ العثمانى لا يؤيده العلماء كان يخذله الخاقان ، ولم يحدث أن استطاع أى خاقان إخماد عصيان عسكري أبده العلماء .

كانت الإنكشارية تريد ألا يغادر البادشاه إستانبول . ولما مرق السلطان الفتوى وألقاها فى وجوههم وأصر على الذهاب إلى الحج انقلب الوضع إلى ثورة ؛ إذ إنه أصبح من المعروف أن البادشاه اتخذ بورصة عاصمة مؤقتة ، وأنه سيأتى إلى إستانبول مع الجنود الذين جمعهم من الأناضول ويلغى جنود القابو قولو ، وأنه أعطى الأوامر بهذا الشأن إلى الأسطول . وعند اقتراب مساء يوم ١٨ أيار ، اشتد تأزم الوضع .

ورغم إعلان السلطان عثمان عدم تركه إستانبول وقف الثوار أمام حاكم البلاد بطلبات جديدة ، لقد أيقنوا أنه لا خلاص لهم من شر هذا الخاقان وأنه سيبيض بهم في أول فرصة .

وفي اليوم التالى (١٩ أيار) من هذه الثورة التى سميت في تاريخ تركية « الهائلة العثمانية » ، والتى ليس لها شبيه توترت أعصاب كلا الطرفين . صلى الثوار صلاة الصبح ، مع جماعة كبيرة في جامع فاتح . هدد الإنكشارية أصناف الكابوكولو الآخرين والعلماء الذين لا يساندهم بالموت وقدموا إلى ساحة سلطان أحمد . وطلبوا من السلطان رعوس ٦ أشخاص ، أولهم حاجه سلطاني (أستاذ السلطان) عمر أفندى الذى يعتقدون أنه هو صاحب الفكرة الحقيقية للإصلاح ، وكان حينئذ تسلسله في بروتوكول العلماء الثانى بعد شيخ الإسلام . وعد بيان البادشاه - رغم إصرار المحيطين به - بأنه لن يعدم أحدا من الـ ٦ الذين يطلبون إعدامهم فإنه أخذ في تهديد الثوار علنا . فتح الثوار باب السراى التى تركت مفتوحة دون دفاع نتيجة للخيانة ، وتجمعوا في الرواق الأول . كان وراء الثوار السلطنة - والدة ، والدة السلطان مصطفى ، وكوسم مهيكر خاصكى والوالدة ولى عهد شهزادة مراد . وكاننا قد سخرتا الكثيرين من رجال السراى . ولما لم تكن فكرة احتمال إجلاس عمه المجنون السلطان مصطفى على العرش مرة ثانية ، قد خطرت على بال السلطان عثمان كما لم يخطر على باله أيضا احتمال إجلاس أخيه مراد الذى لم يكمل سن العاشرة ، فإنه لم يمسهما بسوء ، وقتل فقط كبير إخوته الصغار الشهزادة محمد .

وعند اقتراب المساء قتل الوزير الأعظم دولار باشا ، الذى لم يتخذ أى تدبير ضد الثورة . صدارته دامت ٨ أشهر و يومين . كان العلماء يعتقدون بإمكان ارتداد البادشاه وإجباره على الطريق الصواب ، فلم يطلبوا خلعه بشكل قطعى . لكن الإنكشارية شهروا السيوف . إن محاولة إجلاس البادشاه المجنون السلطان مصطفى وصرف النظر عن ولى العهد - شهزادة مراد الشرعى ، وخاصة عدم معرفة ماهية المؤامرة التى جرت بشكل لا يخطر على البال - أخافت العلماء ، واتضح أن الثورة قد فقدت منطلقها . ومن المحتمل أن تدبير الإنكشارية لهذه المؤامرة وهم يعلمون جيدا بأن شخصا مجنونا لا يمكن بقاءه على العرش إنما كان بغرض الحصول على إكرامية الجلوس عند جلوس السلطان مصطفى ، ثم الحصول على إكرامية أخرى

عند خلعه جبرا وجلس السلطان مراد . وقد ظهر نتيجة الحوادث الأخيرة ، أنهم ارتشوا وحصلوا على وعود كبيرة من السلطنة - والدة ، والدة السلطان مصطفى المرأة الغيبة ، ومن السلطنة أخت السلطان مصطفى ومن زوجها الوزير داود باشا .

بعد ظهر ١٩ أيار بايع العلماء السلطان مصطفى تحت ظل السيوف . ولأول مرة في التاريخ العثماني منذ الجلوس الأخير للسلطان محمد الفاتح في ١٤٥١ يجرى جلوس بادشاه قديم مجددا ، سوف لا يتكرر بعد ذلك مثل هذا الحادث . دامت سلطنة السلطان عثمان ٤ سنوات و شهرين و ٢١ يوما . وهو أحد البادشاهات النوادر الذين ولدوا وهم أولياء عهد . ظل ولى عهد لمدة ١٣ عاما و ٣ أشهر و ٢٣ يوما ، وفي هذا السن جلس على العرش . وبعد مقتل دولار باشا على يد العصاة عين أوهريلى حسين باشا وزيرا أعظم للمرة الثانية ، لكن حسين باشا قتله العصاة كذلك في اليوم التالى . فر السلطان عثمان في بداية الأمر إلى بورصة وأراد المقاومة ، ولكنه عندما شاهد قطع العصاة للطرق ، لجأ إلى باب الآغا ، مقر الإنكشارية والمحل الذى يتواجد فيه رئيس (آغا) الإنكشارية الكائن فى السليمانية وقضى تلك الليلة هناك .

وفي صبيحة اليوم الثالث والأخير لـ « هائلة عثمانية » ٢٠ أيار ١٦٢٢ خطب السلطان عثمان فى جماعة العصاة الإنكشاريين . قطع خطابه بين الحين والآخر ولم يحصل على نتيجة ، وقيل فى ذلك اليوم إن السلطان مصطفى وداماد قره مصطفى باشا الذى انتخبته الإنكشارية فى الحقيقة وزيرا أعظم قد تلقيا أمرا من أم زوجته السلطنة - والدة بالقضاء على السلطان عثمان . ولأن السلطان كان مجنونا ومصيره الخلع فإن خوف عثمان كان كبيرا جدا . كان رأى جنرالات الإنكشارية المحافظة على حياة عثمان ، إلا أنه بالرغم من النقاش الشديد لم يستطيعوا إملاء رأيهم هذا على تابعيه من الإنكشارية . أخذ العصاة عثمان الثانى من أورطة جامع فى السليمانية وتوجهوا به إلى يدى كولة . وهناك حمل عليه ١٠ جلادين . ورغم أنه كان أعزل قتل ٣ منهم ثم قتل خنقا بخيوط من حرير . وذلك مساء يوم ٢٢ أيار .

كان عثمان الثانى شخصية فذة جدا ، بأفكاره الابتكارية عن الإمبراطورية خلال إدارته لها . كان قد تجاوز سن ١٧ بـ ٦ أشهر و ١٧ يوما . كان متزوجا بعائشة خاتون ابنة المرحوم برتو باشا ، الوزير ٢ وبعقيلة خاتن ، ابنة شيخ الإسلام أسعد

أفندى . خلف ٢ شهزادة (أمير) وسلطانة (أميرة) واحدة ، توفوا في المهدي . منح بصورة استثنائية رئيس أساتذته خواجه سلطانى آماسيالى عمر أفندى (إستانبول ١٥٥٥ - مكة ، شباط ١٦٣٠) مرتبة المشيخة التى يحملها شيوخ الإسلام ، وهو أول من منحت له هذه المرتبة فى التاريخ العثمانى من بين منتسبى فقه العلماء الثلاثة الذين نالوا هذه الرتبة قبل أن يصيروا شيوخ إسلام فعلا . كان شيخه عزيز محمود خدائى أفندى وأحد أساتذته شيخ قره باشا عبد الرحمن أفندى ، ومستشاره الرئيسى فى دار السعادة أغاسى مصطفى أغا . وتحصيله العلمى ممتاز جدا ، قرأ كتباً أوروبية وأصبحت لديه فكرة عن أوروبا . كتب أشعارا جيدة . كان قوى الجسم جدا . مصارعا ماهرا ويستعمل السلاح بدراية . يسمى بأسماء كنج (شاب) ، غازى وشهيد ، ويسميه الشعب « كنج عثمان » . قلد السيف من قبل أسعد أفندى أحد أساتذته . أقام صلته الشاعر الأعظم شيخ الإسلام يحى أفندى .

(٤٤) السلطنة الثانية لمصطفى الأول (١٦٢٢/٥/١٩ - ١٦٢٣/٩/١٠)

طالت مدة سلطنة السلطان مصطفى الثانية بشكل غير متوقع أبدا سنة ، ٣ أشهر و ٢١ يوما . أمه السلطانة - الوالدة ، كانت نائبة السلطنة ، وزوج ابنها الوزير الأعظم قره داود باشا كان فى الظاهر رأس الثورة . كانت السلطة فى الحقيقة بيد جماعة الإنكشارية . مضت مدة سلطنة السلطان مصطفى كلها ، بردود فعل حادثة « هائلة عثمانية » وانتشار الثورة فى كافة أنحاء الإمبراطورية . فى صبيحة ٢٢ أيار وزع على جماعة القابو كولو ، مبلغ مليون ونصف سكة ذهبية ، إكرامية الجلوس .

بدأ شعب الإمبراطورية الذى لم يشعر بالهبة تجاه البادشاه فى حياته ، يذرف الدموع الغزيرة على استشهاد السلطان عثمان بشكل مفاجئ . إن الثورة المنفردة التى تعتبر كربلاء التاريخ العثمانى صارت وجها لوجه أمام ثورة معادية وضربة مضادة . انتهز الفرصة داود باشا أحد أنذل من شهداء التاريخ العثمانى ، ونهب سراى طوب قابو ، وسرق حتى السيوف والخيول والحاجيات الأثرية الخاصة بالسلطان عثمان (بستان - زاده يحى أفندى ، واقعة سلطان عثمان) ثم أراد قتل شهزادات السلطان أحمد ، ابتداء من ولى عهد - شهزاده مراد (نفس الأثر) ولما كان السلطان مصطفى

لا يقرب النساء فإن أحداً لم يكن يعلم كيف يفكر في استمرار السلالة . انتقلت الدولة إلى أذى أشخاص لا يشعرون بالمسؤولية على أى وجه ، وأتوا يفكرون فقط في قضاء يومهم . عين داود باشا أحد رجاله (آغا) للباب الهمايوني ووعده برتبة الوزارة وإيالة مصر إذا تمكن من القضاء على ولى العهد . تقدم نحو ولى العهد شاهرا السيف ، لكن أحد حراس ولى العهد الرماة رماه بالششبر (كرة ذات ٦ رعوس) فأصابه في رأسه فسقط على الأرض ، توالى عليه الحراس ضربا بالسيوف والخناجر وتمزق شر ممزق . وفي اليوم التالى صلب على شجرة في ميدان سلطان أحمد (نفس الأثر ، ٤٩ ب) . اقشعر الشعب مرة أخرى دهشة ونفورا . الشهادة الذى أريد قتله عمره ١٠ سنين . تكونت شخصيته وسط هذه الحوادث . لا يستطيع أحد آنذاك أن يتنبأ بأن ١٠ سنوات فقط ستكون كافية لسفك دماء هؤلاء الثوار وإفنائهم عن بكرة أبيهم .

لم يستطع داود باشا الحفاظ على وظيفته أكثر من ٢٤ يوما وساءت سمعته وأصبح يلقب بـ « قاتل البادشاه » (نعيما ، ٢ ، ٢٣٦) جرى بدلا منه بـ قره حسين باشا ، وهو من الوزراء المعزولين من بكلربك مصر والموجودين في إستانبول (١٦٢٢/٦/١٣) وقد كان أحد أجهل وأعجز وزراء العثمانية . عرنووطى (ألبانى) كان طباحا للقائد الوزير صاطرجى محمد باشا ، يتكلم التركية بصعوبة . كان قد لختلس ٣٠٠ . ٠٠٠ سكة ذهبية في مصر أثناء الاضطرابات في فترة الثورات (من المؤسف أن يتولى السلطة أمثال هؤلاء) . وفي اليوم الـ ٨ من صدارته ٢١ حزيران صعد أحد ضباط السباهيين الشباب على إحدى شرفات مآذن جامع السلطان أحمد وقتل رميا بالنبل ٨٠ جنديا هجموا عليه ، وهكذا ظهر أول طالبى دم السلطان عثمان . هيج هذا الحادث الشعب ، وقوبل بالرضا من جميع أفرادهم . لم يتمكن قره حسين من البقاء في السلطة أكثر من ٢٥ يوما . وأعطى المهر الهمايوني (الختم السلطاني) إلى لفكة لى مصطفى باشا (١٦٢٢/٧/٨) زوج مربية السلطان مصطفى . صار صدراً أعظم عندما كان بدرجة وزير ٤ . لم ترض الإنكشارية بهذا الصدر الأعظم الذى يبدى ليناكجه معارضى الثورة . عزلته السلطنة - الوالدة (١٦٢٢/٩/٢١) . ظل في السلطة شهرين و ١٤ يوما . جاء مكانه كرجى محمد باشا .

اضطربت في هذه الأثناء الأناضول بكاملها ، انتشر التذمر حتى وصل إلى سورية والعراق ، وفي كل إيالة ظهر من يطالب بدم السلطان عثمان ، كثيرون من البكرك بك والسنجق بك (أمراء الألوية) القضاة ، والشعب بالذات ، وأخذوا يقتلون الإنكشارية الذين يشاهدونهم في الخارج ، وإن لم يستطيعوا ذلك كانوا يحرقونهم .

دبر أول ثورة مضادة بكركبك أرضروم آبازا محمد باشا ، وجمع حوله عددا آخر من البكركبك (أمير الأمراء) وقتل من وجدهم من الإنكشارية بالسيف . لم يكن هذا البكركبك يبلغ الـ ٣٥ من عمره ، ومن المعروف أنه كان من ولاية الإيالات التي اتفقت مع السلطان عثمان مسبقا وبصورة سرية على الإصلاح العسكري ، وبينما كان الشعب يندب السلطان عثمان وينظم ويلحن المراثيات فيه ثار في إستانبول صنف السباهي . مرة ثانية (١٦٢٢/١٢/٣١) ، وطلبوا قتل المسؤولين عن مقتل السلطان ، وأعلنوا أن شرفهم العسكري قد ضاع (نعيما ، ٢ ، ٢٤٧) . أعلن فروخ جلبي (مشيخته ١٥٩١ - ١٦٣٠) رئيس طريقة المولوية الساكن في قونية أنه سوف يساند آبازا محمد باشا في المطالبة بدم السلطان عثمان . قام السباهيون في اليومين الأولين لعام ١٦٢٣ في ١ و ٢ ك في إستانبول بترتيب مظاهرات للمرتين : الثالثة والرابعة .

ساندت أكثرية الإنكشارية السباهيين ، وأعلنوا أنهم لاعلاقة لهم بمقتل البادشاه ، وأن هذا الجرم قد ارتكبه بعض الخونة من بينهم وأنهم يؤيدون معاقبتهم . الديوان المهابوي الواقع تحت تأثير نائبة السلطنة التي هي في نفس الوقت السلطنة - الوالدة ، انتابه القلق . العلماء يطالبون بمعاقة القتلة وخلع البادشاه . صمم الديوان في صبيحة يوم ٧ ك ٢ ، على قتل داود باشا . أعدم داود باشا وعدة أشخاص من القتلة في اليوم التالي ، وخلال ذلك أعدم دلاويش باشا بكركبك بودين ، عزلت السلطنة - الوالدة التي أيقنت أن عاقبة ابنها قد اقتربت كرجى محمد باشا الذي يقارب عمره الـ ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٤ يوما ، وعينت مكانه للمرة الثانية قره حسين باشا (١٦٢٣/٢/٥) .

خلال مدة ٦ أشهر ٢٣ يوما ظلم قره حسين باشا واختلس الكثير في سبيل إطالة سلطنة السلطان مصطفى (وفي الحقيقة سلطنة السلطنة - الوالدة) . جمع شيخ الإسلام يحيى أنندي العلماء في جامع فاتح وأقنعهم بعزل هذا الشخص الجاهل .

صار الوزير ٤ إسبارطة لى كآنكش قره على باشا صدرا أعظم (١٦٢٣/٨/٣٠) . كان قد عين بوظيفة وزير قبة بعد تواجده فى إياالات دياربكر وبغداد . ضغط خليل وكرجى محمد باشا من رؤساء الوزراء السابقين على على باشا لخلع السلطان مصطفى . كان على باشا بالذات يتفق معهما . كان قد اتفق مع كوسم مهيكر خاصكى والده ولى عهد - شهزادة مراد وأخذ منها مبلغا كبيرا من الدراهم لتوزيعها على الجهات اللازمة . وزع الدراهم على الجهات اللازمة كل من الوزير بابور محمد باشا بكربك مصر الذى قدم إلى إستانبول ، وأخيه قاضى إستانبول حسن أفندى . وتمكن الصدر الأعظم الجديد على باشا من الحصول على فتوى الخلع ، بعد هذه المساعى التى استمرت ١١ يوما أبدت جماعة القبو قولو ذلك ، لأنهم سيمنحون إكرامية الجلوس كما أنهم كانوا يفكرون فى ضرورة إزالة آثار عدم رضا الرأى العام .

خلع السلطان مصطفى للمرة الثانية فى ١٠ أيلول ١٦٢٣ . وفى الحقيقة فإنه لم يكن له علم لاهسلطنته ولابعزله عنها . وزع فى هذه المرة ٢ مليون سكة ذهبية لإكرامية الجلوس . وإكراميات الجلوس لاتسدد من خزينة الدولة ، بل من خزينة البادشاه المنفصلة عنها . ولعدم وجود هذا القدر فى خزينة السلطان جمعت أوافى وأطباق السراى وسكت منها عملات ذهبية . كان رصيد خزينة السلطان أحمد من المسكوكات الذهبية فقط ٥٠ مليون قطعة . وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ يملكه حاكم من حكام العالم كله (Pirene ، ٢ ، ٥٢٥) . لكن هذا المبلغ تم تبديده وإهداره خلال السنة والنصف التى استمرت فيها الثورة بشكل لايقره العقل والشرع . أرسلت أم السلطان مصطفى إلى شقتها فى السراى القديم . وحجر السلطان مصطفى ، فى شقته الموجودة فى سراى طوب قابو . ومجموع سلطنتيه سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما . عاش بعدها أكثر من ١٥ سنة . مات بأجله وعمره ٤٧ (١٦٣٩/١/٢٠) . وهو مدفون فى ضريحه الكائن فى أياصوفيا . كان ابن أخيه عثمان الثانى قد دفن فى مقبرة سلطان أحمد بجوار أبيه .

تم إجلاس ولى عهد - شهزادة مراد على العرش بلقب « مراد الرابع » . كان سنه يزيد على ١١ سنة ب شهر و ١٥ يوما . أمه كوسم مهيكر ، السلطانة - الوالدة ، صارت نائبة السلطنة . كانت فى سن ٣٤ عاما . وصار الشهزاده ييازيد الذى يصغره ب ٥ أشهر فقط ولى عهد (نعيما ، ٢ ، ٢٠٨ - ٦٣ ، فذلكة ،

٢ ، ٤ ومابعده ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٨٠ - ٩٨ ؛ صولاق - زاده ، ٧٠٣ - ٣٦ ؛
منجم باشى ، ٣ ، ٦٥٠ - ٧ روضة الأبرار ، ٥٣٥ - ٥٥ صولاق - زاده نوعى ،
سبب خلاص سلطان مصطفى ، يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان خان ،
Madame de Gomez, Histoire d'Osman مجلدين باريس ١٧٣٤ ، هامر ، ٨ ،
٢٨٤ - ٣٧٦ ؛ Lorga ، ٣ ، ٤٤٨ ومابعده ؛ دانشمند ، ٣ ، ٢٩٠ -
(٣٢٤) .

(٤٥) الدورة الأولى لسلطنة مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٣٢)

كان إسبارطة لى على باشا مغرورا بسبب إجلاسه ولى العهد المشروع السلطان مراد . أراد التخلص من الصدرين الأعظمين الأسبقين داماد خليل باشا وكرجى محمد باشا ، لاعتباره إياهما منافسين له ، واتهامهما بمناصرة الثورة المضادة . لم يحتمل ذلك لأكوسم والدته ولا تشكيلات القابوقولو التى تساندها ، قطع رأس على باشا بعد ٧ أشهر و٤ أيام (١٦٢٤/٤/٣) . كان من الممكن أن ينجو بعزله ، لكنه ارتكب جرم الكذب على البادشاه الذى يعتبر ذنبا عظيما فى النظام العثمانى . وضع السلطان موضع الطفل ولم يذكر الصدق وإنما تأول فى موضوع سقوط بغداد .

أعطت كوسم والدته الختم الممايوى لابنها إلى جركس محمد باشا الشخص المسن والمجرب الذى صار وزير قبة بعد أن كان بكربك على الشام ، ولغرض إخماد عصيان الأناضول واسترداد بغداد من الصفويين صار سردارا أكرم وغادر إستانبول (١٦٢٤/٦/١٧) . صار الصدر الأعظم السابق كرجى محمد باشا وكيل الصدارة . كان القسم الأعظم من الأناضول يتلقى أوامره من أباضه محمد باشا وليس من الديوان ، وكان لأباضه مؤيدون كثيرون بين رجال الدولة فى إستانبول . كانت خزينة السلطان التى سلبت فى واقعة السلطان عثمان وصرف منها ٤ إكراميات جلوس خلال ٦ سنوات فارغة تماما (هامر ، ٩ ، ٣ ، ٢٣) . تجاسر أباضه محمد باشا إلى حد محاصرة مدينة بورصة . استمرت حملة جركس باشا للأناضول حتى ٢٨/٢/١٦٢٥ ، لكنه اتفق مع أباضه محمد باشا ثم عاد . توفى الصدر الأعظم ، أثناء قضائه فصل الشتاء فى طوقات (١٦٢٥/١/٢٨) . كان يستعد للحملة على بغداد

في الربيع ، أصبح الوزير داماد حافظ أحمد باشا بكربك الذي كان حاضرا مع الجيش في طوقات صدرأ أعظم وسردارأ أكرم . تزوج من السلطانة عائشة الابنة الكبيرة للسلطانة كوسم . عاش أياما عصيبة أمام بغداد . كان رجل دولة جيدا وشريفا ، لكنه لم يكن قائدا قديرا . وعندما لم يتمكن من استرداد بغداد عزل بعد سنة و ١٠ أشهر و ٢١ يوما (١٦٢٦/١٢/١) . صار داماد خليل باشا ، صدرأ أعظم للمرة الثانية . غادر إستانبول في ٤ كانون ٢ (١٦٢٦) لحل مشكلة الأباضة . ظل في حلب ٣ أشهر و ١١ يوما ، وفي ٧ آب (١٦٢٧) جاء إلى عامد (دياربكر) . حاصر أرضروم مدة ٤١ يوما ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . ولأنه لم يستطع حل قضية الإباضة عزل بعد عودته لقضاء فصل الشتاء في طوقات ومكوته فيها مدة ٣ أشهر و ٢٧ يوما (١٦٢٨/٤/٦) . دامت صدارته سنة و ٤ أشهر و ٥ أيام ومجموع صدارتيه ثلاث سنوات و ٧ أشهر و ٧ أيام .

صادف مجيء تيمور أوغلو باي سنغر ميرزا إلى إستانبول في سنة ١٦٢٨ هذه جلوس ابن عمه شاه جهان على عرش الهند وقتله ٣ من إخوته . لجأ إلى تركية . أحسن السلطان مراد استقباله وإكرامه بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يحصل على المعونة العسكرية التي طلبها (هامر ، ٩ ، ٩٨) . وعاد إلى الهند .

صار داماد خسرو باشا ، الذي ارتقى من رتبة أغا للإنكشاريين إلى وزير قبة قبل سنة و ٤ أشهر فقط صدرأ أعظم . كان متزوجا من السلطانة عائشة ، إحدى بنات محمد الثالث وهو ابن أحد بكربك المسمى خضر باشا . كان ذكيا ، مأكرا ، قوى الشكيمة ، ظالما للغاية ، طموحا ، متآمرا أنانيا ، قائدا جيدا . جاء إلى طوقات بعد تعيينه واستلامه الصدارة بـ شهر و ٢٤ يوما . وتحرك بعد شهر و ٢١ يوما ، ووصل أرضروم بعد شهر و ٩ أيام وبدأ في الحصار بعد ٧ أيام ، وخلال ١٤ يوما أجبر أباظة محمد باشا على التسليم (١٦٢٨/٩/٢٢) . أغلقت مسألة أباظة التي استمرت ٦ سنوات ، سيق إلى إستانبول . تحرك خسرو باشا الذي ظل ٢٢ يوما آخر في أرضروم ووصل إستانبول خلال شهر و ٢٦ يوما (١٦٢٨/١٢/٩) . سرح الجيش الذي كان في حالة تأهب في الأناضول منذ ٤/٥ سنة . قابل مراد باشا ، أباظة محمد باشا عند حضوره ، وبعد توييخه بشكل صوري أرسله إلى بوسنة برتبة بكربكي . والحقيقة أن مقاومة الباشا مدة ٦ سنوات للمطالبة بدم أخيه الكبير عثمان كانت قد أضرته .

مكث خسرو باشا في إستانبول ٧ أشهر و يوما . تحرك لحملة إيران (١٦٢٩/٦/١٠) . قاد الحروب الإيرانية الشديدة خلال ١٦٢٩ - ٣١ ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على بغداد . عزل عندما كان في طوقات (١٦٣١/١٠/٢٥) . دامت صدارته ثلاث سنوات و ٦ أشهر و ١٩ يوما . جاء حافظ أحمد باشا إلى الصدارة مرة أخرى .

ظلم خسرو باشا الكثيرين وأعدم وبطش . تقمص شخصية الوزير الدكاتور بكل ما في الكلمة من معنى . كان يستند على جماعة الإنكشارية في إستانبول . كان يوجه تلك الجماعة في إستانبول بواسطة داماد رجب باشا . كان هذان الوزيران رغم أنهما يقومان بأعمال من شأنها إخافة السلطان مراد ، الذي أخذ يكبر كلما تقدم الوقت ، فإن وضعهما يدل على أنهما كانا على استعداد لإجراء حركات أكبر من ذلك . كانا يريدان سلطانا مطيعا لهما فاقد العزيمة . أنتج عزل خسرو باشا ونقل السلطة إلى حافظ أحمد باشا أحد رجال السراي الموالين للبادشاه ؛ أخافة هذه الزمرة . أحدث رجب باشا عصيانا في جماعتي الإنكشارية وسباهية قابوقولو وأضاف إليهما زمرة العاطلين عن العمل في إستانبول وأحدث ثورة ١٩ رجب (١٦٣٢/٢/١٠) . وتعتبر هذه الثورة التي حدثت في فصل الشتاء « هائلة عثمانية » على نطاق صغير . كان الهدف منها إسقاط حافظ أحمد باشا وتهديد البادشاه . استشهد حافظ أحمد باشا أمام أنظار البادشاه بشكل مفاجئ . استمرت الصدارة الثانية ٣ أشهر و ١٦ يوما فقط ، تحملتها طغمة الأشقياء بصعوبة . مجموع صدارتيه سنتين ، وشهرين و ١٨ يوما . وبضغط الجماعة وإرادة نائبة السلطنة التي تتحرك بموازرة الجماعة صار داماد رجب باشا الذي يسميه مراد الرابع « رئيس الأشقياء » صدرأ أعظم .

لكن السلطان مراد كان يعلم أن خسرو باشا المعزول الموجود في طوقات والأذكي منه والأكثر طموحا يقف وراءه ويسانده . أمر السلطان مرتضى باشا بالقبض على خسرو باشا . جاء مرتضى باشا إلى طوقات وعرض الخط الهمايوني للبادشاه . ولأول مرة في التاريخ العثماني يعترض وزير على فرمان (أمر سلطاني) الخاقان المقدس ولايسلم نفسه . قصف مرتضى باشا قصر خسرو باشا بالمدفع وقطع رأسه . شهر السلطان مراد الرأس المقطوع على شعب إستانبول بعد شهر بالضبط ، يوم ١١ آذار (١٦٣٢) . وفي اليوم التالي حدثت الثورة الثانية . وهذه ثورة ٢٠ شعبان .

وبتحرير من رجب باشا جمعت العصبة القابو قولو وجميع شذاذ الآفاق الموجودين في إستانبول وكدستهم أمام باب السراى . ولإفزاع البادشاه طلبت رعوس أقرب الناس إلى البادشاه . خرج مراد الرابع للمواجهة العلنية التى تسمى (آياق ديوانى) . حدثت حوادث قتل ونهب . طرحت فكرة إجلاس ولى عهد - شهزادة ييازيد على العرش ، لكن نائبة السلطنة كوسم مهيكر السلطنة - الوالدة عارضت ذلك ، لأنها لم تكن هى والدة السلطان ييازيد . فشل التمرد في إخضاع السلطان مراد في هذه المرة كذلك . أمر بإعدام زوج أخته داماد رجب باشا في ١٨ أيار (١٦٣٢) . مدة صدارة طوبال رجب باشا كانت عبارة عن ٣ أشهر و ٧ أيام . تجمع المتآمرون في ساحة سلطان أحمد في ٨ حزيران . دعا السلطان مراد ، الديوان والعلماء لعقد اجتماع . ألقى خطابا طويلا ذكر فيه أن الفوضى تغفلت في كيان الدولة ، وأن الجيش أصبح لا يحارب ، وأن الجندى أصبح لا يؤدى واجبه بسبب تدخله في السياسة وأنه غير مستعد لأن يقدم الدولة لقمة سائغة للأشقياء واللصوص ، وأنه سوف لا يتردد في البطش بمن لا يطيعه مهما كان ذلك الشخص . أحدثت الخطبة أثرها في الشعب فأخذوا يهتفون مؤيدين البادشاه ، ذلك أن تحكم الأشقياء كان قد أضر بالكثيرين من أفراد الشعب ورجال الدولة . مضى على « الهائلة العثمانية » ١٠ سنين و ١٩ يوما بالضبط . كانت واقعة كنج عثمان سببا في فتح الباب أمام فترة فوضى دامت هذا القدر الطويل من الزمن . انتهت فترة نيابة السلطنة كوسم التى دامت ٨ سنوات و ٨ أشهر و ١٣ يوما . سحبت السلطنة - الوالدة البالغ سنها ٤٣ عاما يدها من السياسة وهى رهينة الحزن والتأثر .

افتتحت الدورة الثانية لسلطنة السلطان مراد التى ستكون إرادته فقط هى الحاكمة في هذه الدورة ، ولن يسمح لأية قوة بالتدخل في إرادته .

(٤٦) الدورة الثانية لسلطنة مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠)

دامت هذه الدورة حتى وفاة البادشاه ٧ سنوات و ٨ أشهر ويوما . ألقى فضيل « أورطة » الذى ينتسب إليه الإنكشارية ال ١٠ قتلة عثمان . وكان الإنكشارية بالذات يلعنون هذا الفضيل بمراسم عسكرية كبيرة يرتبونها كل ٣ أشهر ، دامت لحين إلغاء صنف الإنكشارية في ١٨٢٦ .

هدد السلطان مراد الرابع والدته الحريصة جدا على السياسة ومنعها من التدخل فى شئون الدولة . بحث عن كل شخص له علاقة قريبة أو بعيدة بمقتل كنج عثمان وأمر بقتله . ثم انتقل إلى الأناضول وأمر بإعدام كل من ارتكب الشقاوة فى المنطقة أو تظاهر بها أو سرق أموال الدولة أو ظلم الشعب . منع استعمال التبغ فى ١٦ أيلول ١٦٣٣ . كانت القهوة تشرب فى إستانبول منذ عام ١٥٥٥ مدة ٧٨ سنة والتبغ يدخن منذ ١٦٠٥ مدة ٢٨ سنة . لم يكن التدخين متفشيا بكثرة فى حينه ، كان العلماء يناقشون شرعيته من عدمها (وفى النهاية قرروا أنه مضر ولكنه ليس حراما وسمح باستعماله) . هدمت كافة المقاهى لأنها كانت مركزا لتجمع أفراد الجيش والمداولة فى السياسة بدلا من قيامهم بالتدريب العسكرى فى ثكناتهم . الراغب يشرب القهوة فى داره . لكن التبغ كان ممنوعا تدخينه حتى فى الدار (رفع هذا الحظر فى عام ١٦٤٠) ؛ لأن حريق إستانبول الكبير فى ١٦٣٣/٩/٢ ، حدث بسبب النار التى ولدها تدخين التبغ واحترق ٢٠ . ٠٠٠ مسكن . كان ذلك فى الحقيقة مجرد وسيلة ، أما غرض السلطان الحقيقى ، فقد كان إحاطة الدولة بجو إرهابى بحجة تدخين التبغ . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعدم شيخ الإسلام أخو زاده حسين أفندى (١٦٣٤/١/٧) . لا يقر النظام العثمانى لإعدام أى فرد من أفراد طائفة العلماء ، حتى ولو كان فى أدنى المراتب ، ويمكن فقط عزله أو نفيه . والآن يقطع رأس الشخص الذى هو فى ذروة هذه الطائفة . كان السلطان مراد يريد أن يثبت بذلك أن ليس هنالك امتياز لأى صنف من الأصناف أمام سلطة الدولة . كان ذلك إخطارا للعلماء الذين أصبحوا آلات عمياء مسخرة فى أيدي الأتقياء فى واقعة « هائلة عثمانية » . وفى ١٦٣٤/٨/٥ منع شرب المشروبات الكحولية . أغلقت كافة أماكن الشرب ، حظر الشرب على المسلمين ، حتى فى بيوتهم ، لأن الشريعة منعت تغطى الخمر . كان حظر المشروبات الكحولية قد صدر قبل نصف قرن ولكن لم يكن مطبقا ، والآن أعدم فى محل الارتكاب كل من شرب الخمر أو دخن التبغ رغم المنع . كان البادشاه يعطى شعبه درسا فى إطاعة أوامر الدولة ، لكنه كان هو نفسه يتعاطى المشروب فى السراى .

وفى جو كهذا ، كادت تحدث حرب بولونية . البادشاه الذى قرر حملة همايونية بعد ١٣ سنة من حملة أخيه الكبير على بولونيا التى امتنعت عن دفع الضريبة وهدم

قلاع الحدود ، جاء في ٢٧ نيسان إلى أدرنة (١٦٣٤) . لكنه اتفق مع بولونيا وتحرك عائدا إلى إستانبول في ٢٧ تموز .

عندما كان مراد الرابع في حملة لـ إيران الأولى أرسل أمرا إلى إستانبول أعدهم بموجبه ولي عهد - شهزاده بيازيد الذي كان في ٢٣ من عمره وشهزاده سليمان في ٢٠ من عمره بحبل حريري . ولم يمضِ الشَّهْزَادَة قاسم الذي كان سنه متوسطا بين هذين السنين بسوء لكونه شقيقه من السلطنة كوسم ، وصار ولي عهد . الشَّهْزَادَتَيْن (الأميرين) المقتولين دفنا في مقبرة أبيهما السلطان أحمد . الشَّهْزَادَة بيازيد ، كان أميراً مقتدرا جدا ، وكان ولي عهد أخيه الكبير مراد الرابع منذ جلوسه قبل ١١ سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما . بدأت الألسن في آسيا وإفريقية تلوك هذا الحادث بشكل كبير . تعالج هذا الموضوع (مأساة) *Racine* ذات الـ ٥ فصول والتي تسمى تراجيديا *Bajazet* (١٦٧٢) وعندما كان البادشاه في حملة إيران الثانية أرسل أمرا إلى إستانبول بموجبه قتل خنقا أخوه قاسم المولود من نفس الأم البالغ سنه ٢٤ عاما والذي كان ولي عهد منذ سنتين و ٦ أشهر و ٢١ يوما . دفن الشَّهْزَاد في مقبرة مراد الثالث الكائنة في أياصوفيا . أصغر إخوة البادشاه إبراهيم المولود من السلطنة كوسم من أم وأب واحد صار ولي عهد ، كان سنه ٢٢ عاما ، ولم يبق عده من بني عثمان على قيد الحياة . شَهْزَادَات السلطان مراد كانوا يموتون بعد ولادتهم بعدة أشهر .

عندما تسلم السلطان مراد زمام السلطة بيده وأعدم رجب باشا عين طاباني ياصي محمد باشا صدراً أعظم . ساعد هذا الصدر الأعظم البادشاه متطوعا ، وعمل ما بوسعه لإعادة سلطنة الدولة مجددا . عزل بعد ٤ سنوات و ٨ أشهر و ١٥ يوما (١٦٣٧/٢/٢) . كان موجودا عند عزله في مقر الجيش في عامد (ديار بكر) ، أرسل إلى بودين (الحجر) وصار بكـلربك لها . عين مكانه صدر أعظم ووزير مقتدر مثله وهو داماد بايرام باشا . كان متزوجا بالسلطنة خان - زاده الأخت الكبيرة للبادشاه منذ ١٥ عاما . كان قائمقام الصدرة (وكيل رئيس الوزراء) في إستانبول أثناء السنوات التي كان فيها طاباني ياصي محمد باشا في الجبهة الإيرانية ، ونائب السلطنة عندما كان السلطان مراد في حملة إيران الأولى . صار بايرام باشا كذلك سردارا أكرم مثل محمد باشا .

حولت الفوضى التي استمرت ١٠ سنين كافة الأنظار إلى حوادث العصابة (Junto) في إستانبول ، حدث شغب كبير في الإيالات . ضعف نفوذ بكركبك الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، وزاد نفوذ جنرالات الإنكشارية الذين يسمون « دايى » . كان أيدين باشا يحافظ بصعوبة على أراضي الحبشة الواسعة ، وفي اليمن لم يتمكن قانصو باشا ، من الوقوف أمام الإمام الزيدى ، وانسحب تاركاً له كافة الأقسام الجبلية للقطر ، عدا الساحل (١٦ - ٣٣) . وحتى قوزاق أوكرانيا استولوا على قلعة آزاك (Rostov) (١٦٣٧/٧/٥) .

توفي الصدر الأعظم بايرام باشا ، عندما كان مع البادشاه قرب بيرة جك مع الجيش الهمايونى (١٦٣٨/٨/٢٦) . دامت صدارته سنة و ٦ أشهر و ٢٢ يوما . حل مكانه وزير مقتدر آخر هو طيار محمد باشا الذى كان - من قبيل الصدف - مثل بايرام باشا من أهالى لادك أيضا (بين صمصون وآماسيا) . كان الوزير موسى باشا في إستانبول يقوم بوظيفة محافظ العرش (نائب السلطنة) وفي نفس الوقت ، قائممقام الصدارة . لكن طيار محمد باشا سقط شهيدا أمام أسوار بغداد بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٦٣٨/١٢/٢٣) ، وبعد يومين فتحت بغداد . كان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد كذلك على يد الصفويين عندما كان بكركبك لبغداد . دفن محمد باشا في الأعظمية خارج بغداد وشيد له قبر فيها . صار « كانكش » مصطفى باشا صدىراً أعظم ، ولقب بهذا اللقب لأنه كان من أشهر رماة السهام في عصره ، ومنذ شبابه يلقب « كانكش » كان قبطان دريا برتبة وزير .

وبعد حملة إيران الثانية تفادت العثمانية بصعوبة نشوب حرب مع البندقية Venedik . ونشأ الخلاف من الوضع المتقابل للقلعة العثمانية في دالماجيا وقلعة البندقية تم تفادى الحرب أو على الأصح أجلت لمدة ٦ سنوات بمعاودة إستانبول (١٦٣٩/٧/١٦) . سددت البندقية غرامات قدرها ٢٥٠ . ٠٠٠ سكة ذهبية . ومع ذلك أمر السلطان مراد بتأهب الأسطول تجاه البندقية ، لكنه توفي قبل إعلانه حرباً مع البندقية ، بعد أن ترك فكرته هذه ميراثاً لأخيه السلطان إبراهيم .

ضعف نفوذ البكركبك الذين أرسلتهم إستانبول إلى الجزائر ، وأصبحوا يمثلون في البروتوكول فقط . وسيطر جنرالات الإنكشارية في الجزائر الذين يسمون « دايى » على الإيالات فعلا . اكتسب أسطول الجزائر قوة كبيرة ، إلا أن اهتمام أميرالات

الأسطول بشئون إدارة الدولة أصبح أقل بما كان عليه في السابق ، واتخذوا من الأسطول أداة للقرصنة . كانوا يقومون بتحركات معلومة عند تسلمهم الأوامر من إستانبول ، وبعدها كانوا ينضمون إلى الأسطول الهمايوني ، ويخرجون للقرصنة في فراغهم . كان مجاهم وسط وغرب البحر الأبيض والأطلسي . وكان الأسطول الجزائري المكون من ٢١٠ قطعة ، وكل قطعة مجهزة بـ ٢٥ - ٤٠ مدفعا أكبر قوة بحرية في العالم بعد الأسطول الهمايوني . ولد ضعف الأسطول والقدرة العسكرية الإسبانية فرصا كبيرة . جرت عدة حملات وغارات بحرية في هذه الفترة وهي (ستعالج الأحداث في المحيط الأطلسي في الصفحات التالية) : الاستيلاء على ٩٣٦ سفينة خلال ٨ أعوام وجلبت إلى الجزائر السفن التي نهبت في عرض البحر وأغرقت ، خارج هذا العدد . شرع بعد ذلك في التعرض للسفن الفرنسية ، ترك الديوان سياسة حماية فرنسا بمناسبة ضعف إسبانيا . وخلال ١٦٢٩ - ٣٤ تم في الأطلسي الاستيلاء على ٥٢ ، وفي البحر الأبيض على ٢٨ سفينة فرنسية وجلبت إلى الجزائر . كان الهدف هو السفن الإسبانية والإيطالية التابعة لإسبانيا لأن أمر الديوان كان ينص على ضربها أينما وجدت . كانت حالة الحرب مستمرة بين العثمانية وإسبانيا . وفي ١٦٣٦ أغار الأسطول الجزائري على ميناءى Reggio و Messina . تم تحقيق إنزال على كورسيكا ، وفي ربيع العام التالي ١٦٣٧ جرى إنزال على Sardunya . وفي الخريف تم إنزال الجيش في Gaeta بين نابولي وروما . وفي ١٦٣٩ عاد على رئيس من سواحل صقلية وكالابريا بغنائم كبيرة . كانت القطع البحرية لتونس وطرابلس أصغر . وكانوا يقلدون الجزائر ويحذون حذوها قدر طاقتهم . أسس آخر من نفى من العرب من الأندلس عام ١٦١٠ نوعا من الجمهورية في الأس البحرى Sale الكائن على المحيط الأطلسي في فاس على مقربة من شمال الرباط ، متخذين تشكيلات الأسطول التركي نموذجا لهم . كبدوا السفن الإسبانية في المحيط الأطلسي أضرارا فادحة ، ساندتهم الجزائر وتسلموا أوامر منها .

(٤٧) الصفحة الأولى للحرب التركية - الإيرانية الجديدة (١٦٢٤ - ١٦٣٥)

استولى الصفويون على بغداد بعد حصار دام ٣ أشهر (ليلة ١١ - ١٢/١/١٦٢٤) . فتح الباب للشاه ليلا - بصورة سرية - درويش محمد بك ،

ابن بكر باشا بكرك بك بغداد ، الذى كانت علاقته متوترة مع أبيه . منحه الشاه رتبة بكرك بلقب « خان » عذب الشاه عباس بكر باشا الذى رفض أن يكون شيعيا ، مدة ٧ أيام ثم أركب فى زورق ملىء بالنفط ، وأشعل فيه النار . قتل كل من قاضى بغداد عمر نوري أفندى خطيب أولو جامع محمد أفندى ومئات من ضباط وموظفى العثمانية ، أشرف السنة بنفس الطريقة . سبقت زوجاتهم وبناتهم إلى دور الزنى العامة فى إيران . تصادف هذه الفترة تماما فترة حروب الثلاثين سنة المدهشة التى ذبح فيها الكاثوليك والبروتستانت بعضهم البعض وهدم فيها أحدهم مدن وقرى الآخر وسحقها وجعلها مزارع . افتتحت سلطنة مراد الرابع بمثل هذه الفاجعة . أصبح صافى قولو خان تركمن بكرك بك بغداد للصفيوين . بدأت دورة حكم الصفيوين فى بغداد - لمدة ١٥ سنة - (التى قد فتحها من قبل السلطان سليمان القانونى جيث تسلمها من الشاه طحمسب قبل ٨٩ سنة وشهر و ٤ أيام) . حاصر بغداد الصدر الأعظم والسرदार الأكرم حافظ أحمد باشا (١٦٢٥/١١/١٣ - ١٦٢٦/٧/٣) . حضر الشاه فورا ، لكنه لم يجرؤ على مواجهة حرب ميدانية مع العثمانية ، وإن كان مجيئه قد ثبت عزم العثمانية على استرداد بغداد . عاد حافظ باشا . أهدر الحصار الذى دام ٧ أشهر و ٢٠ يوما دماء الكثير من الطرفين . انتقلت المدن المقدسة ككربلاء والنجف ليد إيران . لم تتمكن السياسة العثمانية فى هذه المرة كذلك من تشكيل استراتيجية موحدة مع الهند وتركستان ، اللتين هما فى حالة حرب وخلاف دائمين تقريبا مع إيران ، الأمر الذى يقتضى أن يكونا حلفاءها الطبيعيين . توالى ذهاب ومجيء السفراء من تركستان ومن الهند ، ولكن لم يسفر ذلك عن اتفاق جدى .

أحس الشاه عباس بأنه على وشك إكمال سلطته التى قضاه بالسطوة والقوة . كان أمله الوحيد هو إجبار العثمانية على الموافقة على بقاء العراق الوسطى لديها ، لكنه لم يتمكن من تأمين ذلك ، لأنه كان على درجة من بعد النظر ، بحيث يستطيع التنبؤ بأن العثمانية سوف تسترد بغداد بعده بصورة أكيدة . مات فى سن ٧١ وهو أعظم حاكم فى العالم بعد مراد الرابع (١٦٢٨/١/٢٧) . دامت سلطنته ٤٠ سنة و ٨ أشهر ، كان معاصرا لـ ٥ بادشاهات عثمانيين . كان قد أمر بقتل ابنه ولى العهد صافى ميرزا . جاء مكانه ابن صافى ميرزا هذا ، ولقب « الشاه صافى الأول » وجلس على عرش جده ، ولكن البيون كان شاسعا بين قدراته وقدرات جده . وخلال هذه

السنوات اكتسب بنو تيمور في الهند. مقدرة كبيرة جدا وازدهروا وصاروا أقوى دولة في العالم بعد العثمانية ودفعوا لـ إيران الصفوية من الدرجة الثانية التي حافظت عليها مدة أكثر من ١٢٠ سنة إلى الدرجة الثالثة . ظل الشاه صافي على العرش حتى عام ١٦٤٢ أى أكثر من ١٤ عاما .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم الجديد دماذ خسرو باشا من إستانبول (١٦٢٩/٧/١٠) للاستيلاء على بغداد التي لم يستطع حافظ باشا الاستيلاء عليها . لكنه بدلا من أن يتجه إلى بغداد قضى الشتاء في كركوك . انتقل ٣٩ سنجق (لواء) كردى وتركانى مع أكثر من ٢٠ عشيرة كردية - الذين كانوا في السابق تابعين للعثمانية - من الحكم الصفوى إلى الحكم العثمانى مرة أخرى . وجاء بكواتهم فردا فردا إلى السردار الأكرم وأعلنوا طاعتهم . استرجع بارمقسر مصطفى باشا بكهربك طرابلس الشام ، الحلة ، كربلاء ، النجف ، الكوفة وضواحيها من الإيرانيين . تراجع الصفويون إلى داخل أسوار بغداد . أعدم الشاه خان خانان (الصدر الأعظم) زينل خان بسبب هزيمته مع جيشه البالغ ٤٠ . ٠٠٠ شخص ، أمام العثمانية في المعركة الميدانية المسماة « مهربان » .

اجتاز خسرو باشا الأراضي التي يسكنها الأكراد ، ودخل الأراضي الإيرانية التي يسكنها الأتراك فتح همدان (١٦٣٠/٦/٩) ومع أنها كانت قد فتحت في عهد القانونى الا أن ذلك كان نصرا مهما ، حيث كانت مركزا للعراق العجمى ومدينة العرش لسلالة العراق (على مسافة ٤٠٠ كم (مسافة مستقيمة) عن شمال شرق بغداد ، و ٢٥٠ كم على الجنوب الغربى من طهران) . جاء الجيش الهمايونى إلى دركوزين على طريق همدان - قزوین في ١٨ حزيران . وتمكن من إفناء حسين خان بكهربك لورستان مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ خيالة و ٤٠٠٠ مشاة حاملى البنادق . وعلى هذا تكون كافة لـ إيران الغربية (العراق العجمى) ، وبتعبير أوضح لإيلات كرمشاه ، كردستان (أردلان) ، لورستان وخوزستان قد انتقلت إلى الحكم العثمانى . إلا أن الديوان الهمايونى اتهم خسرو باشا بمخالفة الأوامر وعدم استيلائه على بغداد وسوقه الجيش إلى داخل إيران على خلاف ما هو مخطط . وفى ٥ ت ١ حاصر بغداد راميا ٥٠٠ قذيفة مدفع يوميا (هامر ، ٩ ، ١٥١) رفع الحصار بعد ٣٩ يوما (١٦٠٣/١١/١٤) . كانت الأعظمية بيد العثمانية . استشهد الوزير

مرتضى باشا. رابط خليل باشا بكركك دياربكر في الحلة مع ١٠.٠٠٠ جندي . ولما انسحب خسرو باشا ، جاء الشاه صافي بنفسه واستولى على الحلة وكركوك . مكث خسرو باشا ٤١ يوما في الموصل و٤ أشهر في ماردين . وجاء إلى دياربكر ، وهنا انضم ٣٠.٠٠٠ خيال قرمى إلى الجيش الهمايوني . لكن خسرو باشا علم بعزله خلال تواجده في هذه المدينة . انسحب إلى طوقات . كان الجيش متعبا ، كما أنه تحمل خسائر كبيرة في حملة إيران ، ولم يسترح منذ مدة طويلة .

خرج الصدر الأعظم والسردار الأكرم طاباني ياصى محمد باشا من إستانبول إلى الجبهة (١٦٣٣/١٠/٢٢) . رافقه مراد الرابع لغاية أزميت . قضى الصدر الأعظم شتاء عام ١٦٣٣ - ٣٤ في حلب . ثم انتقل إلى دياربكر وانتظر قدوم البادشاه .

(٤٨) الحملة الهمايونية الإيرانية (روان) الأولى (١٦٣٥/٣/٢٨) -
(١٦٣٥/١٢/٢٧)

أثناء مغادرة مراد الرابع إستانبول ، لحملة إيران (٢٨ آذار) ، تحرك جيش آخر بقيادة طاباني ياصى محمد باشا من دياربكر (٦ نيسان) ووصل أرضروم (٥ حزيران) . سار البادشاه رويدا ، كان النظام والسكون المطلق مستبين في الجيش إلى درجة لم يشاهد عليها أبدا منذ عهد القانوني . قبض على العصاة وأعدموا في كل مكان يمر به الجيش . صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين (قدس الله سره) المعنوى في قونية . وفي ١٧ حزيران التقى في بايورت البادشاه مع الصدر الأعظم . وفي طريق إستانبول - بايورت أمر السلطان مراد بإعدام وزير (مارشال) و ٣ بكركك (فريق) ، سنجق بك (أمير لواء) قضاة قونية ، قيصرى ، ازميز ، قره أغاج وكثيرين من موظفى الدولة الأصغر رتبة وعدد كبير من الشعب الذين يهددون الناس . ظل ٩ أيام في أرضروم وتحرك في ١١ تموز . ترك ٥٠.٠٠٠ جندي في أرضروم . ولتسهيل إمداد المؤن تحرك مع ٢٠٠.٠٠٠ جندي و ١٣٠ مدفعا ثقيلًا فقط : روضة الأبرار ، ٥٨٥ - ٦) . وفي الاستعراض الذى نظمه خارج أرضروم ، أثبت وجود ضبط ونظام لامثيل لهما في الجيش الهمايوني . يسجل ذلك كاتب جليلي عالم عصره الكبير الموجود آنذاك في الجيش

في ال ٢٥ من عمره ، فيقول إنه لم يجتمع - في أى وقت من الأوقات - جيش ضخم كهذا .

بدأت محاصرة روان في ٢٧ تموز . كان يدافع عن القلعة طهماسب قولوخان ابن أمير كونة خان بكركيك الإيالة . وعندما علم بأن الهدف هو روان أدخل الشاه في آخر لحظة إلى القلعة ١٢٠٠٠ من المشاة حاملي بندقية ، وعزز دفاعه . ورغم وجود الجيش الإيراى الإمبراطورى بقيادة رسم خان في مكان قريب لم يفكر في حرب ميدانية مع العثمانيين . استسلمت روان بعد ١١ يوما (١٦٣٥/٨/٨) . وهكذا استرجعت القلعة التى بقيت لدى العثمانية خلال ١٥٨٣ - ١٦٠٤ بعد ٣١ سنة و شهرين . ولد فتح روان التى لم يقدر القانونى على فتحها في وقت قصير كهذا صدى كبيراً . أقام شيخ الإسلام يحيى أفندى صلاة الجمعة في ١٠ آب . تعقب السلطان مراد الذى ظل ١٢ يوما الجيش الصفوى وواصل النزول إلى الجنوب الشرقى على امتداد نهر آراس ؛ لكنه لم يتمكن من التوصل إلى العدو . لم يسر الصفويون دخول الجيش العثمانى إلى روان بنظام لامتثال له ودون سفك قطرة دم بل بالعكس ، أصابهم الدهشة . وأثناء اقتراب البادشاه إلى مدينة بيازيد رأى غرابا على مفذنة الجامع مضى بحصانة المسمى « نوكاى الجيسى » مسرعاً ومن مسافة مرمى السهم ، رمى الجريدة وأصاب الغراب . وضع نصبا تذكاريا من المرمر في مكان سقوط الغراب كتب عليه السلطان مراد الذى دخل خوى في ١ أيلول دخل تبريز في ١١ أيلول . هذا هو سادس فتح لتبريز على يد العثمانية . ويدون المؤرخون أن تعداد هذه المدينة كان في ذلك الحين ٥٥٠ . ٠٠٠ نسمة (Chardin ، ٢ ، ٣٢٨) بينما كانت مدينتان فقط من مدن المسيحيين هما لندن وباريس يبلغ تعدادهما هذا الرقم .

انتقلت تبريز مرة أخرى من العثمانيين إلى الصفويين قبل مايقارب ٣٢ سنة . ظل البادشاه ٤ أيام ثم تحرك . ولمرضه عدل عن خطة ذهابه إلى أصفهان . مكث في دياربكر وقدم الكثيرين من موظفى الدولة والمشبهين في كسبهم إلى الجلال . عاد إلى إستانبول بعد ٩ أشهر بالضبط . كانت سنة ٢٣/٥ عاما . وفور انسحاب العثمانيين جاء الصفويون إلى روان وعلى رأسهم الشاه صافى . وبعد حصار دام ٣ أشهر و ٧ أيام في وسط الشتاء واستشهاد الوزير مرتضى باشا استسلمت روان . استمر الحكم العثمانى في هذه المرة ٧ أشهر و ٢٤ يوما . واسترجع الصفويون تبريز

والقسم الأكبر من أذربيجان . ثم نزل الشاه إلى الجنوب . وفي معركة مهران الميدانية (١٦٣٦/٩/٢) قاوم الوزير كوجوك أحمد باشا بكرك بك الشام ، رغم مرضه ، لكنه غلب واستشهد . أعاد الشاه - الذى أعجب ببطولة هذا الباشا - جسده إلى العثمانيين . عاد الصدر الأعظم والسردار الأكرم طاباني ياصى محمد باشا الذى كان قد ذهب خلال الشتاء من دياربكر إلى قارص ولم يتمكن من إمداد الجيش في كلا المنطقتين . غضب عليه مراد الثالث وعزله ، لم يعدمه على خلاف عادته نظرا لخدماته الكثيرة وعينه بكرك بك على بودين .

٤٩) الحملة الهمايونية الإيرانية (بغداد) الثانية (١٦٣٨/٥/٨ - ١٦٣٩/٦/١٢)

غادر السلطان مراد إستانبول لحملة إيران الثانية مستصحبا معه شيخ الإسلام الشاعر الكبير يحيى أفندى الذى كان يكن له محبة كبيرة ويدعوه « بابا » البالغ سنه ٨٥/٥ سنة . طريق بغداد - إستانبول وهو مقسم إلى ١١٠ منازل وقد أنشئ . في كل منزل ، مراكز لتموين الجيش . وفي ١٧ حزيران صنع الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين المعنوى في قونية . ووصل في ٢٢ تموز حلب التى هى نصف مسافة طريق إستانبول - بغداد تماما . التقى في بيرة جك مع جيش الصدر الأعظم داماد بايرام باشا . لكن بايرام باشا توفى قرب أورفة في ٢٦ آب . صار طيار محمد باشا صدراً أعظم . جاء الخاقان الذى بقى ١٠ أيام في دياربكر إلى الموصل في ٧ ت ١ وافق على دخول رسل تيمور أوغلو شاه جهان إلى حضرته . قطع طريق إستانبول - بغداد خلال ٥ أشهر و ٨ أيام وشرع في محاصرة بغداد فور وصوله ليلة ١٥ ت ٢ .

كانت في المدينة حامية قوية جدا مؤلفة من ٤٠.٠٠٠ جندي تحت قيادة بكتاش خان تركمن . كان الشاه صافى في قصر شيرين مع جيشه السيار ، تابع الحصار العثماني يوما بيوم ، لكنه كان لا يستطيع الاقتراب من الجيش العثماني . ورغم دخول السلطان مع ١٢٠٠٠ سباهي داخل إيران وسحقه منطقة شهر بان لم يستطع إجبار الشاه على الدخول في معركة ميدانية . كان الشاه يعتمد على جيشه المرباط في بغداد وعلى أبراج قلعته ال ١٢ . ومثأت مدافعه . كان يؤمل انسحاب السلطان مراد بعد

أن يئس من الحصار . ولما وصلت المدافع الثقيلة إلى العثمانيين عن طريق دجلة اشتد الحصار . نصبت خيام الجرحى حول سرادق البادشاه . كان السلطان مراد يزور الخيام كل يوم ويقدم لكل غاز ٥٠ آقجة . كان شيخ الإسلام في المقدمة وفي أسفل السور يقوم بتشجيع الغزاة . بدأ قتال شديد بين كلا الجيشين التركيين . كان أحد الأطراف ينادى « شاه » والطرف الآخر ينادى « بادشاه » . وفي ٢٣ ك ١ استشهد طيار محمد باشا برصاصة أصابته في جبينه ، وكان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد أيضا برصاصة صفوية في بغداد سابقا .

طيار محمد باشا هو رابع صدر أعظم يسقط شهيدا في ساحة الحرب في التاريخ العثماني . لكنه كان قد استولى على عدة أبراج . وقبل مضي ٤٨ ساعة استسلمت بغداد (١٦٣٨/١٢/٢٤) . دام الحصار ٣٩ يوما . خلال هذه المدة استشهد ٥٠٠٠ جندي عثماني وجرح ما يقارب ١٠٠٠٠ . وقتل ما يقارب ١٠٠٠٠ جندي صفوي . تم تخليص المدينة التي بقيت تحت الاحتلال الصفوي ١٤ سنة و ١١ شهرا ، ١٣ يوما . بقيت بغداد في الإدارة العثمانية بعد فتح القانرني لها مدة ٨٩ سنة و شهرا و ٤ أيام . أما بعد أن فتحها مراد الرابع فقد ظلت ٢٧٨ سنة ، ٣ أشهر ، ويومين في الإدارة العثمانية . مجموع المدتين ٣٦٧ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام . بعد فتح بغداد صار يدعى السلطان مراد باسم « فاتح بغداد » .

أمكن استعادة بغداد بعد أدمى وأكبر حروب تركية - إيرانية استمرت ١٥ عاما . قدم الطرفان خسائر كبيرة . استشهد في هذا السبيل الكثيرون من ذوى الرتب العالية آلاى بك ، سنجق بك ، بكربك بمن فيهم الوزراء وصدور أعظم عثمانيون . يكفي أن نتذكر أن رئيس الكتاب (وزير الخارجية) إسماعيل أفندي استشهد مع طيار محمد باشا في نفس اليوم . كان هنالك شاب أكرمه السلطان مراد شخصيا ، استشهد أبوه وعمه واثنان من أخوته وعدة أشخاص من أقربائه في هذه الحرب . كانت حربا وحشية إلى حد بعيد . ومما زاد في وحشية الحرب إصرار ٢٠٠٠٠ جندي صفوي بقوا في القلعة الداخلية - على المقاومة ، وقد قتل جميعهم عدا ٣٠٠ بالسيوف . وقع عدة خانات للصفويين (بكربك) وكثير من سلاطين (سنجق بك) أسرى بيد العثمانيين وسيقوا إلى إستانبول . ولم تنته الفاجعة عند هذا الحد . قام قسم من الأهالي الشيعة بتفجير مخزن البارود ، وتسبب ذلك في قتل

٨٠٠ جندي عثماني . تم سجن وقتل ١٤٠٠ شيعي . أرسل أهالي المدينة الشيعة كلهم إلى أماكن مختلفة في وسط العراق وأسكنوا هناك . منع لمدة طويلة إقامة غير أهل السنة في المدينة . آلاف الأجساد تكدست في شوارع المدينة ، ثم ألقى بهم في نهر دجلة لعدم إمكان دفنهم . ولكون الموسم شتاء لم تحدث أمراض . جرى بعشرات الألوف من الأتراك من الأناضول وأسكنوا بغداد وضواحيها . إن الذين لا يزالون يتكلمون اللغة التركية في خانقين ، بعقوبة ، مندلي هم من نسل هؤلاء ، أما الذين في بغداد فإنهم نسوا التركية في النصف الأخير من القرن . إن مجرد قراءة الفذلكة لكتاب جلبي أكبر علماء عصره الذي اشترك في الفتح والحصار تكفى لمعرفة مبلغ شدة هذه الحروب الدموية .

وأثناء ذهاب السلطان مراد ، لم يعرج على الأعظمية قائلا : ليس لدى اللياقة للصعود إلى حضور الإمام الأعظم ! ، ولكنه زاره عند عودته . تم إصلاح وبناء قبر أبي حنيفة ووضعت فيه حاجيات ثمينة جدا . عين كوجوك حسين باشا بكربك (أمير الأمراء) لبغداد ووضع تحت إمرته ١٢٠٠٠ جندي ، ٨٠٠٠ منهم إنكشارية . وعندما شاهد الخاقان خلال عودته عدم كفاية هذه الحامية أرسل وحدات جديدة إلى المدينة ، تم إصلاح كافة الأسوار والقلعة ، وجددت المدافع . أصبحت المدينة في وضع لا يمكن الصفويين من اقتحامها . مكث البادشاه في بلدة الخلفاء ٢١ يوما وتحرك يوم ١٤ ك ٢ (١٦٣٩) . صلى الجمعة في الأعظمية . أبقى الصدر الأعظم والسردار الأكرم قره مصطفى باشا في بغداد ، لإجراء مفاوضات الصلح . وفي ١٨ ك ٢ ، علمت إستانبول خبر فتح بغداد ، كان اليوم ١٣ رمضان . قام شعب إستانبول الذي لاتفوته هذه الفرص خاصة وأنه ضاق كثيرا بإجراءات الإدارة العرفية للسلطان مراد التي لم يشاهد مثلها حتى ذلك التاريخ - بترتيب الأفراح ورفهوا عن أنفسهم مدة ٢٠ يوما حتى العيد بحجة الاحتفال بفتح بغداد .

تحرك البادشاه والجيش من الأعظمية في ١٧ ك ٢ ، ومن الموصل في ٢٨ ك ٢ . أراد السلطان مراد أن يقضى الشتاء في ديار بكر ويحمل في السنة القادمة على أصفهان ، إلا أن المرض اشتد عليه وأصابه ألم شديد . ويعتقد أنه كان يشكو من مرض « دمله » (بالفرنسية : Goutte) وسيروز (تشمع الكبد) . المرض الأول ورائي لدى بنى عثمان . اضطر إلى مغادرة الموصل والتوجه إلى ديار بكر خلال ٨

أيام . بقى هناك طريق الفراش مدة ٧٠ يوما . وهو على الفراش كان يصدر أوامره ويرسل أفراد الصاعقة إلى إيران ، كما أُملى تعليمات شروط الصلح وعالج أمور الدولة الأخرى والتعيينات . تحرك قرة مصطفى باشا نحو إيران في ٢٣ آذار بعد أن ترك في بغداد ٢٠٠٠ جندي . وأثناء تقدمه نحو الشمال الشرق في قزلباط جاء رسل الشاه وطلبوا الصلح . قال الصدر الأعظم ، إن لديه تعليمات بالدخول إلى أصفهان في حالة عدم عقد الصلح فوراً . ومن الناحية الأخرى تحسنت صحة السلطان مراد نسبياً وتمكن من الهجاء من ديار بكر إلى أنقرة خلال ٣٤ يوماً (١٦٣٩/٥/٢٠) . وكان يرافقه ركب القادمين مع البادشاه إلى إستانبول ٢٢ بـكلربك صفوى يحملون لقب « خان » في إيران ، مفات - أكثرهم تقريباً من أصل تركي - من رجال الصفويين ففهم علماء ، فنانون ، موسيقيون . كان شيخ الإسلام يحيى أفندي البالغ سنه ٨٦/٥ الذي يرافقه البادشاه ، - أبوه زكريا أفندي صار شيخ الإسلام كذلك - ينتسب إلى إحدى عائلات أنقرة ، الشهيرة استضاف البادشاه في داره الواسعة داخل مزرعة كروم الكائنة في أنقرة والتي ورثها عن أبيه . والطباخ الذي أعجب السلطان بأكلته المشهورة « أورمان كباب » عاش حتى عام ١٦٩٤ واضطر بهذه الحادثة أكثر من نصف قرن (نعيمان ، ٣ ، ٤١ ، ٤١٩) .

وقبل أن يستقبل شعب أنقرة بكامله السلطان مراد خارج المدينة وقع الصدر الأعظم مع إيران على معاهدة قصر شيرين (١٦٣٩/٥/١٧) . قصر شيرين التي عقدت فيه المعاهدة يقع على الجنوب - الشرق من كركوك ، على الحدود العراقية - الإيرانية ، وقع المعاهدة صاري خان توركمين نيابة عن الشاه ، ثم تبودلت وصدق عليها الشاه والبادشاه . وهكذا انتهت الحرب التركية - الإيرانية التي استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٧ أيام . المعاهدة التي وقع عليها على أساس بقاء الوضع على ما هو عليه تحدد تقريباً الحدود التركية - الإيرانية والتركية - العراقية الحالية . حتى إنها تحدد حدود تركية - جمهورية أرمنستان السوفيتية كذلك . وبعد ذلك وبين الحين والآخر قدم العثمانيون هذه الحدود داخل الأراضي الإيرانية نحو أقصى الشرق ، ولكن في النهاية ظلت حدود معاهدة قصر شيرين معتبرة حتى هذا اليوم . كان الشاه يخشى من استيلاء عثماني ولذلك فقد صدق على المعاهدة بعد ٣ أيام من التوقيع عليها . عاد السلطان مراد إلى إستانبول يوم ١٢ حزيران ١٦٣٩ من هذه الحملة الهمايونية

التي استغرقت سنة وشهرا و ٤ أيام . سحب السلطان من الأسطول الهمايوني في أزميت ٥٨ قادرغة (قطعة بحرية) أرسلت إلى إستانبول . جرت مراسم استقبال عظيمة . أعلنت الأفراح في كافة الإمبراطورية مدة أسبوع . عاش السلطان مدة ٨ أشهر و ٢٦ يوما بعد عودته إلى إستانبول . وفي هذه المرة صرف النظر عن الحملة التي كان يريد توجيهها إلى أوروبا . أمر بإنشاء كشك روان الظريف لإحياء ذكرى حملة روان . ثم أمر المعمار قاسم آغا بإنشاء كشك بغداد الذي يعتبر من بدائع الهندسة المعمارية التركية في ١٦٤٠/١/٥ ، أى قبل وفاة البادشاه بـ ٣٤ يوما ، ولقى من السلطان مراد تقديرا وبقي تأثير هذا التقدير ساريا بعد سنين طويلة من وفاة السلطان مراد ، لم يبدل خلفه وأخاه السلطان إبراهيم ، هذا الصدر الأعظم .

٥٠) وفاة السلطان مراد خان الرابع (١٦٤٠/٢/٨) وشخصيته

مراد خان الذي أصبح طريح الفراش في اليوم الثاني من عيد الأضحى توفي بعد أسبوعين في ٨ شباط ١٦٤٠ الساعة ٢٠ . كانت سنة قد تجاوزت الـ ٢٧ عاما بـ ٦ أشهر و ١٢ يوما . أغمض عينيه في غرفة منام أخيه من أمه وأبيه أولو شهزاده - سلطان قاسم . دامت سلطنته ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، وكان قبلها ولى عهد لمدة سنتين و ٧ أشهر ، ٢٩ يوما . أطلق عليه فاتح بغداد ، غازى ، صاحب قران . مولوى ، شاعر ، خطاط ، ملحن كبير . كان مرتبطا معنويا بالشيخ عزيز محمود خدائى أفندى . ظل ٩ سنوات تحت نياية والدته وهى سنين الفوضى ، ومارس السلطنة شخصيا مايقارب ٨ سنوات . كان شيخه فى المولوية أبا بكر جلبي (١٥٥٨ - ١٦٤٢) ، مشيخته ١٦٣١ - ١٦٤٢ . مجموع مدة حملتيه الهمايونيتين ١ سنة و ١١ شهراً و ٣ أيام . وعدا ذلك فله سفرات سياحية إلى أدرنة ، بورصة أزميت . فى أوروبا لم يتعد أكثر من أدرنة . مستشاروه السريون كوجى بك وروزنامه جى إبراهيم أفندى . سكن مدة طويلة فى سراى إسكدار . ولد له ١١ أبنا و ٤ بنات توفوا فى المهد وأكثرهم بعد الولادة مباشرة . بناته الآتية أسماؤهن ، وصلن سن الزواج : السلطانة رقية التى تزوجت مرتين (١٦٤٠ - ١٦٩٠/٢/ك) ، السلطانة قابا أسمهان التى تزوجت الصدر الأعظم

غازى ملك أحمد باشا (١٦٣٣ - ١٦٥٩/٢/٢٨) السلطنة خان - زاده (١٦٣١ - بعد ١٦٧٥) ، السلطنة كوهر - خان (الولادة شباط ١٦٣٠) والسلطنة صفية التى استمر نسلها حتى هذا الوقت . وبناء على ذلك فإن السلالة العثمانية استمرت إلى زمننا هذا من السلطان إبراهيم أصغر أبناء السلطان أحمد المقتدرين .

ومراد الرابع هو أكبر مستبد فى تاريخ تركية كلها . وفى الحقيقة فإن استبداده استمر ٨ سنوات . لكن اسمه حفظ النظام وأرجف القلوب لمدة طويلة حتى بعد موته . جلس على العرش كسلطان والدولة فى حالة فوضى ، لم يشهد التاريخ العثمانى مثيلا له . تعرض للاغتيالات وهو فى سن الطفولة . كان طفلا ترى على يد أم لاتردد فى عمل أى شئ فى سبيل السياسة والسلطة . كانت تلك الأم أداة شر بيد جنرالات العصبة الذين يطلق عليهم اسم تشكيلات الأغوات (أوجاق أغالرى) وكانت تقاسم مصالح الدولة معهم بشكل غير مشروع . مات فى سن مبكرة من الشباب تاركا سلطة قوية مستقرة للدولة ، ونظاما وطاعة فى الجيش لم يشاهد مثلها منذ عهد القانونى ، شهرة واسما كبيرين على سطح الكرة الأرضية .

تأثر الشعب كثيرا لوفاة السلطان مراد - الذى يقال إنه لتأمين النظام فى الدولة أمر بقتل ٢٠٠٠ شخص خلال فترة ما بين ٧ - ٨ سنين . جرت لمрад الرابع مراسم تشييع الجثمان على الطراز الذى كان يجرى لحاقانات الأتراك قبل الإسلام بشكل لا يكاد يتسجم مع الأعراف الإسلامية . وضعت السروج على العكس على ٣ من خيله التى ركبها فى غزواته ، وسيرت أمام الجثمان . وفى تشييع جثمان السلاطين الذين تلوه تركت هذه العادة القديمة . دفن السلطان مراد فى رواق جامع السلطان أحمد فى القبر المتواضع جنب أبيه أحمد الأول وأخيه الكبير عثمان الثانى . لأن العرف العثمانى على عكس الدول الأخرى ينظر إلى صنع القبور الفخمة على أنها خطيئة . إن مراد الرابع أكبر سلاطين العثمانية خلال ٢٤٢ سنة من وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٦٦) حتى جلوس محمود الثانى (١٨٠٨) وبالنسبة إلى هامر ، أطال حياة الدولة وعظمتها مدة نصف قرن ، ولو لم يأت هو لما بدأ الانحطاط فى ١٦٨٣ ، ولبدأ قبل نصف قرن . كان رجلا جميلا حسن المنظر . كان أمهر وأقدر محارب فى إمبراطوريته . كان طويل القامة متناسب البدن . تبع من وجهه آثار العظمة

والمهابة . وكانت له عيان زرقاوتان لماعتان ذواتا تأثير (Abregé des Vies des Empereurs Turcs ، أمستردام ، ١٦٦٥ ، ص ١٨٨) . داهية مثقف ، لكنه ظالم جدا (M.d'Ohsson ، ١ ، ٤١٢) .

إن نعيما الذى حرر تاريخ هذه الفترة يخصص ١/٥ مجلد من مصنفه المكون من ٦ مجلدات للسلطان مراد (٢ ، ٢٦٣ - ٤٥١ ؛ ٣ ، ٢ - ٤٣٥) . ويسرد مايلى : من ناحية الصفة والقدرة يشبه السلطان ياووز سليم جده فى البطن السادس . أجرى مثله حملتين فى آسيا . لكنه عند جلوسه لم يجد نظام الدولة الذى وجدته ياووز عند جلوسه . كان الجيش يفتقد الضبط ، والنظام مختل ، والمالية فى حالة يرثى لها . جلس على العرش وهو طفل ولم يجلس فى سن الكمال كما جلس ياووز (فى سن ٤٢) . كان فى الوقت الذى يتقف فيه علميا يتعلم كيفية إدارة الدولة . لذلك لم يقدر له أن يكون جهانكبر (فاتح عالمي) . لكنه أحرز توفيقا كبيرا فى المجالات العسكرية وإدارة الدولة . كان قائدا عظيما . أهدى صلابة إلى حد الظلم . لكنه لم يكن يبالي بقول الحق ، كان يستفيد من الآراء القيمة . ويمكن لإيراد أمثلة كثيرة فى هذا المجال . ولو عاش لكان أهلا لتحقيق نجاحات أعظم ، لأنه كان قد أسس سلطة تمكنه من تحقيق ماينطق به أو مايفكر فيه . كان يميل جدا إلى الهزل ، النكتة ، الطرب ومع الأسف إلى السفاهة ، لم تكن مثل هذه النقائص ، لدى جده ياووز . لم يكن رجال الدولة المحيطون به ذوى قيمة بدرجة رجال الماضى . ولو كان رجال الدولة القدامى على عهده لكان من المحتمل أن يسبق كافة سلاطين العثمانية الذين أتواقبله . هذه هى خلاصة آراء المؤرخ العثمانى الكلاسيكى الذى عالج هذا الدور بشكل موسع جدا .

فتن الجيش ، دهاؤه ، ذكاؤه المفرط ، بعده تماما عن الشعور بالخوف ، احتماله جميع أنواع المشقات ، ولادته وهو عسكري . ملأ الخزانة التى وجدها فارغة تمام الفراغ حتى نهايتها وسلمها إلى خلفه على هذا الوضع . إن السهم الذى يسحب قوسه يقع أبعد من مرمى البندقية ، ولاتوجد مادة لايمكن ثقبها بالجريدة التى يرمىها (هامر ، ٩ ، ٣٨٥) . كان باستطاعته رفع الكرز (كرة حديدية وزن ٢٠٠ أقة .) كان يستعمل كافة الأسلحة بنفس الدرجة من المهارة . تعلم رمى السهام سنين طويلة عن رماة عصره الكبار حسام - زاده عبد الرحمن أفندى وحاجى سليمان أغا

وصارى صولاق أغا (أولياء جلى ، ١ ، ٢٥٧) . تعلم الفروسية على يد أمير آخور جندى خليل باشا (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) وصار أمهر فرسان جيشه . كان ترسه من جلد الكركدان الذى جلبه ظريف بك سفير شاه جهان من بادشاه الهند على أساس أنه « لاتمضى فيه الرصاصة ولا السيف » ، ثقبه أمام أعين السفير ثقبين الأول بالحربة والثانى بالسهم . حفظ الترس للذكرى بين الحاجيات الأثرية (نعيما ، ٣ ، ٣٣٨) . إن الجريدة التى رماها من السراى القديم (البناء المركزى لجامعة إستانبول) ، أصابت هدفا موضوعا فى أسفل مقذنة جامع بيازيد . والرح الذى رماه من قلعة حلب أصاب الهدف الموضوع فى ميدان سراجخانه فى المدينة ، وفى أوق ميدانى أصاب هدفا على بعد ١٠٧٠/٥ ذراع وحصل على رقم قياسى وشيد نصبا تذكاريا فى محل سقوط السهم (أولياء ، ١ ، ٢٥٧ ؛ كافي ، تلخيص رسائل الرماة) . الـ ١٢ ترسا التى ثقبها بالجريدة علقت للذكرى على باب بيج (فينا) لبودابست ، والـ ١٢ درعا التى ثقبها بالسهم علقت على قلعة القاهرة (تاريخ غلماني ، ١٧) . كان يجب الخيل إلى درجة مرضية . كانت الخيول المسماة « طيار » ، داغر دليسى ، جلالى ياغيزى ، نوكاى الجيسى وخاصة آغا آلاجاسى .. خيولاً ليس لها مثيل على وجه الأرض (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) .

خلف نظاما واستقراراً فى الداخل، دولة تهاب شوكتها كل الدول ، وجيشا جعله أكبر قوة ضاربة فى العالم ، ومالية منتظمة . أصلح أجهزة المخابرات الموجودة فى أوروبا مجددا وجعلها كما كانت عليه فى عهد القانونى . وعند وفاته كانت خزينة البادشاه تحتوى على ١٥ مليون سكة ذهبية ، ونفس القدر من الدراهم الفضية التى تسمى (آقجة) والماس المنقطع النظير (Sagredo ، ٤ ، ٤٢١) . وعلى أيامه خاصة أمر بإجراء غارات مهمة على أوروبا ودرأ الخطر القادم من تلك الجهة . اجتاح جيش الصاعقة شبه جزيرة Stirya بكاملها واجتازوا النمسا ودخلوا بافيرا وحرقوا عاصمتها ريغنسبورغ (Ratisbon) . لم تحدث غارة كهذه منذ عهد القانونى . وينبغى ألا ننسى أن ريغنسبورغ تقع على بعد ٣٢٠ كم (مسافة مستقيمة) على الشمال - الغربى من فينا . وبالنسبة إلى Sagredo (١١ ، ١٣٨) ، قرأ ماكيافلى واستلهم عنه . باليوز (سفير) البندقية الذى قابله وهو لا يتجاوز الـ ١٧ عاما خشى من ذكائه وصلابته ، وأخبر مجلس الأعيان الجمهورى بأنه على وشك تحقيق أعمال

كبيرة (هامر ، ٩ ، ١٠٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٩٩ ؛ أولياء جلى ، ١ ، ٢٢٢) .
كان تأثيره كبيرا فى أوروبا ، رغم أنه لم يجر أية معركة مهمة . الأناضول مليئة
بذكرياته . كان قد شيد فى الجنوب الشرقى من الأناضول الخانات (المنازل)
ومحطات الاستراحة الكبيرة ، وطرقا وجسورا كبيرة . وأحد روافد الفرات لايزال
يحمل اسمه .

(٥١) عهد السلطان إبراهيم (١٦٤٠ - ١٦٤٨)

جلس السلطان إبراهيم على عرش أخيه ، وكان الوحيد من بنى عثمان الذين بقوا
على قيد الحياة ، ولم يسبق للسلالة أن تكون فى وضع كهذا فى أى وقت . ولو
مات السلطان لانقطع النسل من جهة الرجال . مرت الأشهر الأولى للسلطان الجديد
وهو فى هذا الوضع المقلق . كان الأمر يقتضى للعرش ورثة جددا .

كان سن إبراهيم خان عند وفاة أبيه السلطان أحمد ستين . قضى فترة إمارته
(شهباده) طيلة عهد أخويه الخيفين عثمان الثانى ومراد الرابع فى أحد شقق سراى
طوب قابو . شاهد إعدام إخوته الكبار الأربعة الآخرين الذين كانوا كالأبطال والذين
آخروهم الأمير قاسم المولود معه من نفس الأم بأمر أخويه السالف ذكرهما .
وبالسلطان إبراهيم يجلس أول شخص على العرش دون أن يكمل تحصيله العلمى أو
العسكرى ، جلس وهو يفتقر إلى كل هذا . وعلاوة على ذلك كان قد أمرضه الخوف
المستمر من الجلادين ، ويعتقد أنه مصاب بالشقيقة . وبسبب ذلك كان عصيبا
ومضطربا لا يقر على شئ . عند جلوسه حاول أن يقتل أخاه الكبير مراد الرابع ويسير
على نهجه . ولكن لم تكن له صفات أخيه .. عين للرئاسة قرة مصطفى باشا ،
وعندما شاهد هذا ضعف السلطان بعد قوة السلطان مراد ؛ زاد استبداده . كانت
كوسم مهيكر السلطانة - الوالدة هى والدة السلطان إبراهيم كما كانت والدة
السلطان مراد الرابع . حافظت على عرش السلطانة - الوالدة (مقام السلطانة -
الوالدة) حتى بعد الخاقان ، وفى البروتوكول العثمانى يعتبر المقام الثانى ، إن مكانها هذا ،
لم يتبدل فى أى وقت ، ويأتى تسلسل ولى عهد - أمير بموجب البروتوكول ، الثالث
بعد السلطانة - الوالدة ، إلا أنه فى حالة عدم وجود السلطانة الوالدة ، أى إذا كانت
متوفاة مسبقا يكون الثانى) .

كان السلطان إبراهيم ولى عهد. منذ إعدام أخيه الكبير قاسم ستين (إلا ١٠ أيام) . أراد السلطان مراد قتل إبراهيم أيضا . لكن والدته السلطانة كوسم التى سألتها عما إذا كان يريد انقراض سلالة منعه من ذلك بصعوبة . كان السلطان مراد ينتظر أن يكبر أولاده الشهبادات (الأمراء) ويصلون إلى سن معينة ، ليقتل أخاه الذى لايعمره أية أهمية ، ولكن لم يعيش أى أمير من أمرائه (أولاده) . وكان السلطان إبراهيم مريضا ، ولكنه لم يكن أحمق . كان يعلم حرص أمه على السياسة . ولذا أخذت علاقته تتأزم مع والدته ، وفى النهاية اضطرت إلى تهديدها بإبعادها من سراى طوب قابو ، فى حالة تدخلها فى شئون الدولة وإرسالها إلى قبرص . هذا هو وضع السلطان الذى جلس على العرش عن عمر يتجاوز الـ ٢٤ سنة بـ ٣ أشهر .

وفى ١٦٤٢/٢ ك ٢ ولد ولى عهد - شهباده (أمير) محمد وبعده عدة أمراء ، وانتهى بذلك كابوس احتمال انقراض السلالة العثمانية الذى استمر ستين . إن وحدة وقدرة الإمبراطورية تستند على بنى عثمان . والكل يعلم دون تردد ، بأنه فى حالة عدم وجود بنى عثمان فإنها تنقسم وتنفق . أبعد السلطان إبراهيم ندماء أخيه الكبير الذين سببوا انحرافه إلى حياة اللهو . لكنه انخرط هو بالتدريج فى نفس تلك الحياة . أفسدت أخلاقه المداواة التى جرت له لكى يحصل على ابن ، وتقديم جاريات عديدات . كانت الكتابات التى صدرت بشأنه عبارة عن مبالغات من تلفيقات المؤرخين الذين لا يلتزمون ، وأكثر ماكتبوه بعيد عن الحقيقة . لم يكن لمرضه علاقة بالجنون أبدا . أما عهده الذى استمر ٨ سنوات فقد سمي بـ « صامور دورى » ، وصامور نوع من الفرواى « دور الفرو » وهذا التعبير كناية عن الفخفة ، واللهو والسفاهة .

عين الوزير سمير محمد باشا قائدا عاما (١٦٤٢/٢/٣) وأرسل لاسترداد آزاك (Rostov) التى انتقلت ليد الروس فى ١٦٣٧/٧/٥ محمد باشا كان كبير السن نوعاً ما . هدم الروس القلعة وانسحبوا . شيد الباشا القلعة مجددا . فى صيف ١٦٤١ جرت غارة جديدة وكبيرة على Bavyera (هامر ، ١٠ ، ١٠) . وفى صيف عام ١٦٤٢ أحرق قبطان دريا (مشير البحر - أكبر رتبة بحرية) كوجوك بيالة باشا ، سواحل كالابريا Kalabriya الإيطالية التابعة لإسبانيا (هامر ، ١٠/٣٣) . وفى ١٦٤٢/٥/١٤ توفى الشاه صافى الأول بعد سلطنة دامت ١٤ سنة و ٣ أشهر و ١٨

يوما كئالت حاكم ذى قدرة فى العالم بعد بنى عثمان وبنى تيمور . وجلس بعد الشاه الصفوى الـ ٧ لمدة ٢٥ سنة ابنه البالغ ٩ سنين الشاه عباس الثانى . إن دور التوقف الذى بدأ بالشاه صافى الذى توفى فى سن ٣٤ ، وظهر بشكل واضح فى دور الشاه عباس الذى يكتب الشعر بالتركية والفارسية سبب تحول السياسة العثمانية نحو أوروبا .

أعدم كئانكش قره مصطفى باشا بالذى استمرت صدارته فى عهد السلطانين ، مدة ٥ سنوات و شهرا و ٨ أيام ولم تطل صدارة أى شخص منذ وفاة صوقوللو عام ١٥٨٩ كما طالت صدارته (١٦٤٤/١/٣١) . وأعطى السلطان قليل التجربة السلطة لوزراء لاقية لهم . وفى البداية صار محمد باشا الذى يسمى « سلطان - زاده ، جوان قابوجى باشى ، سمين ، صدرا أعظم ، وهذا ابن بنت بنت سليمان القانونى . كان شديد التعلق . وهو أحد الذين رغبوا إليه حياة السفاهة . وبوفاة شيخ الإسلام يحيى أفندى بعد سقوط قره مصطفى باشا بـ ٢٧ يوما (١٦٤٤/٢/٢٧) فقدت الدولة عنصرا آخر من عناصر التوازن الكبيرة . وأخذ يشغل فى بعض الأوقات مقام المشيخة (الوظيفة المهمة الثانية للدولة) أشخاص غير لائقين . كان يحيى أفندى عند وفاته فى سن ٩١ عاما وشهر ، شغل مقام المشيخة ٣ مرات لمدة ١٨ سنة ، وشهرين و ٢٤ يوما (وهو الخامس بين كافة شيوخ الإسلام فى طول مدة بقائه فى الوظيفة) . كان رجل دولة مثقفا سمحا ، مفرط الذكاء . من أكبر شعراء الغزل فى الشعر التركى . مئات الألوف اشتركوا فى تشييع جثمانه . أقيمت صلاته فى مسجد فاتح بزحام كبير ملا الشوارع .

وفى ١٦٤٥ ، أرسل Aleksiy الأول من عائلة رومانوف ، البالغ سنه ١٥ عاما إلى السلطان هدايا بالغة القيمة ، وأبلغه أنه جلس على العرش بقلب القيصر الثانى . هناك البادشاه قائلا: بأنه يعترف به على أساس أنه « ملك موسكو » Mosku وأخطره فى الكتاب المهابوتى « أرسلوا الضرائب التى كانت ترسل فى القديم إلى خان قرم كالمعتاد وفى موعدها ، وتحرك جيش قرمى ووصل إلى مكان قريب من جنوب روسيا ، لإخطار القيصر الجديد (هامر ، ١٠ ، ١٣٠) .

عزل سمين أحمد باشا ، ذليلاً بعد سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما (١٦٤٥/١٢/١٧) . وصار الباش دفتردار (وزير المالية) صالح باشا ، صدرا

أعظم . وبعد بقاءه في وظيفته مدة سنة و ٩ أشهر أعدم (١٦٤٧/٩/١٦) . صار
صدراً أعظم لمدة ٥ أيام فقط ، الوزير موسى باشا من مارشالية البحر السابقين ثم
عين مكانه هزار بارة أحمد باشا الذي صار وزيراً ثانياً قبل ٥ أيام
(١٦٤٧/٩/٢١) . وهو شاب ، مُراء ، متملق .

٥٢) حربا البندقية وكريت (١٦٤٥ - ١٦٤٨)

إنه مما يدعو إلى الدهشة أن ترضى دولة عالمية ، لها أسطول دائم في المحيط الأطلسي
الذي يمتد إلى إندونيسيا بأن تكون جزيرة كريت التي تقع في متناول يدها لدى
دولة مثل البندقية ، تبلغ مساحة كريت قدر قبرص ، لكنها جبلية أكثر منها بكثير ،
مما يجعلها ملائمة جداً للدفاع ، معظم سكانها يتجمعون في القسم الشمالي منها .
الجزر تعزل بحر (ليجة) عن البحر الأبيض ، ومن الجنوب تسد بحر جزر الأرخبيل .
تقترب حافتها الشمالية - الشرقية من الأناضول بمسافة ١٨٠ كم تقريباً . وتبعد عن
مورا ٩٥ كم . فتحها المسلمون العرب وأسسوا فيها إمارة عربية دامت ١/٥ قرن ،
وفي عام ٩٦١ استرجعها البيزنط من المسلمين . ولاختلاط الدم العربي ، فإن الشعب
المحلي يختلف عن بقية اليونانيين . وفي ١٢٠٢ انفصلت عن البيزنط وأصبحت
مستعمرة للبندقية . عامل البندقيون وهم كاثوليك إيطاليون الشعب الروم الأرثوذكس
(معاملة الكلاب) . وأصبح الرهبان الأرثوذكس في وضع لا يتمكنون معه من القيام
بشعائر مذهبهم ، فرضت ضرائب باهظة على الشعب ، كانت تطبق عليهم معاملة
استعمارية ظالمة (Hippolyte Noiret, Documents Inédits Pour Servir à l'Histoire
de la Domination Venitienne en Crète, Paris 1892, S.V, VI; Perrot, L'Ile de Crète .
Paris 1867, S. 151)

ثار الروم في الجزيرة ٢٠ مرة خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة . كانت كل ثوراتهم
تسفر عن مذابح جماعية . كانت البندقية تُبقي في الجزيرة في الأوقات الاعتيادية
٢٠ . . . جندي وأسطولا كافياً وتعزز قواتها هذه عندما تكون في حالة حرب مع
العثمانية . كان آيدن أوغلو عمر بك قد قصف كريت في حملته البحرية عام ١٣٤١ .

أما أول غارة للأسطول العثماني فكانت في ١٤٢٧ . واعتبارا من ١٤٥٣ أخذت البندقية في تحصين الجزيرة تجاه الخطر العثماني ، وسعت لأن تجعل من كاندية Kandiye ، خاصة قلعة لا يمكن إسقاطها . وكان بربروس خير الدين باشا قد حقق في السنتين المتعاقبتين ١٥٣٧ و ١٥٣٨ إنزالين كبيرين على الجزيرة وقصف كاندية ، وصعد إلى سواحل Resmo ودخل Suda وخرب خانيا Hanya . وفي ١٥٦٧ نفذ إنزالاً جديداً . كان السلطان مراد عازما على حل هذه المشكلة . وعند نشوب الحرب العثمانية - البندقية الجديدة كانت كريت (بالعربية اقريتش ، باليونانية : كريتى Kriti) قد بقيت تحت الحكم البندقى مدة ٤٤١ عاما .

قرر الديوان فتح كريت على أثر استيلاء قراصنة مالطيين على سفينة تركية في تموز عام ١٦٤٤ خارج جزيرة كارباتوس Kerpe في طريق إستانبول - إسكندرية وبيع قسم من الغنيمة - خلافا للمعاهدات المرعية - في ميناء خانيا في كريت ، وتحصيل البندقية ضريبة عن هذا البيع ، وإذاعتها هذا الخبر على أوروبا . أذاعت العثمانية بأن الحملة تقصد فتح مالطة . كانت جزيرة كريت هي الأراضي الوحيدة لجمهورية البندقية في البحار المفتوحة . ورغم تصديق البندقية هذه الرواية إلى حد ما ، أرسلت ٢٣ سفينة مليئة بالجنود والمهمات لتقوية الجزيرة .

كان السلطان إبراهيم يذهب يوميا إلى الترسانة (ميناء صنع السفن) ويشرف على الاستعدادات . وفي ١٦٤٥/٤/١٩ أعلن بصورة رسمية بأن الحملة ستكون على مالطة ، أعطيت القيادة العليا لمشير البحر (قبطان دريا) الوزير يوسف باشا ، ووزيرين مساعدين له . تحرك يوسف باشا من إستانبول في ٣٠ نيسان (١٦٤٥) مع ١٠٦ (قلدغة) سفينة و ٣٠٠ ناقة جنود و ٧١٠٠٠ جندي و ٥٠ مدفع حصار و ٣٠٠٠٠ فورس . مكث ٣١ يوما في نافارين منتظرا أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب . وفي ٢١ حزيران جمع الأميرالات على ظهر سفينة القائد وفتح كيس القذيفة المختوم وقرأ الخط الممايوفى للبادشاه ، عندها علم الأميرالات بأن الحملة التي كانوا يظنون أنها ستكون على مالطة ستجّه إلى كريت .

وخلال ٣ أيام وصلوا إلى كريت من نافارين وشرعوا فوراً في نثر الجنود على البر . استمر حصار خانيا ٥٥ يوما من ٢٧ حزيران إلى ٢٢ آب (١٦٤٥) . كان يحمى المدينة ٣٧٥ مدفعا (هافر ، ١٠ ، ٩٧ ، ١٠٠) . كانت الأسوار على

-رجة من السمك بحيث يمكن لـ ٥ خيالة من المسير عليها جنبا إلى جنب بكل راحة .
أما في المنحدر الواقع خلف الأسوار فبإمكان ٢٠ خيالا المسير جنبا إلى جنب فوقها .
عمق الخندق الملىء بالماء الذى يحيط بالقلعة ١٨ مترا وعرضه ٨٦ مترا . ذخائر القلعة
محفوظة فى مخزن محاط بالرصاص (هامر ، ١٠ ، ١٠٠) . كان يدافع عن خانيا
الجنرال نافاكيرو Navagiero .. ومع كل هذا استسلمت هذه القلعة أركب كافة
البندقين مع نسائهم وأطفالهم وحاجياتهم التى يمكنهم حملها على ظهر ٥ سفن تركية
وأرسلوا إلى كاندية مخترقين الجيش التركى . ولأن الروم المحليين ، وبقية اليونانيين
أجمعهم من التبعة العثمانية ؛ فقد استقبلوا الأتراك بسرور حقيقى كبير ، انتقلت كافة
مدافع البندقين ليد العثمانية . تم الاستيلاء على أهم قلعة ومدينة فى الجزيرة بعد
كاندية . لكن يوسف باشا كرر الخطأ الذى وقع فيه سفنديار أوغلو فى محاصرة
مالطة عام ١٥٦٥ ، فبدلا من ذهابه إلى القلعة الأولى للجزيرة أغار على القلعة الثانية .
وكانت فكرته أنه فى حالة سقوط هذه القلعة تضعف القوة المعنوية لكاندية مركز
الجزيرة ، وقد كان هذا حسابا خاطفا أدى إلى إطالة الحرب إلى ربع قرن .

تلقت أوروبا إنزال كريت بالدهشة . قدمت دول كثيرة مساعدات عسكرية إلى
البندقية ، وأخذت المساعدات فى الازدياد كلما مضى الوقت . كان Girolamo
Morosini ، ينتظر فى عرض البحر مع الأسطول البندقى مراعىا أن يكون بعيدا عن
الأسطول الهمايوى ، وكان يستعد للإنزال على الجزيرة ، فى حالة انسحاب الأتراك ،
وفى ٢١ ت ١ ، غادر الأسطول الهمايوى كريت التى ظل فيها مدة ٤ أشهر إلا ٤
أيام . وأبقى كوجوك حسن باشا بكربك روملى مع ١٢٠٠٠ جندى للمحافظة
على خانيا ، عادت أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس إلى أسسها . لم يتمكن يوسف
باشا من الاستيلاء على الأسطول البندقى الذى تسانده أساطيل الحلفاء ؛ رغم تتبعه
له حتى Cerigo (بالتركية جوها) ، ولو أمكن إفناء أسطول العدو لانتهدت الحرب
ولاستكمل فتح كريت . جاء يوسف باشا إلى إستانبول بعد شهر ١٦٤٥/١١/٢٠ .
إلا أنه أعدم بعد ٦٣ يوما نتيجة المؤامرات التى دبرها رجال الدولة الذين يحسدونه
(١٦٤٦/١/٢٢) .

صار الوزير الثانى حسين باشا محافظا لخانيا (١٦٤٦/٢/٢) ومن ثم قائدا أعلى
على كريت (١٦٤٦/٨/١٢) وهو أكبر عسكري فى هذا العصر من الذين كونهم

السلطان مراد الرابع . صار قائداً أعلى ، على أثر وفاة الصدر الأعظم السابق سمين محمد باشا الذى توفى نتيجة عدم تحمله ويلات الحرب فى الجزيرة . وبسبب بدء الفوضى فى إدارة الدولة فى إستانبول .

لم يعد الجيش العثمانى الموجود فى كريت يتسلم من المعونات إلا القليل . أما البندقيون فقد انهالت عليهم المساعدات من كافة أوروبا . وأصبحت كريت ساحة حرب بين شعوب أوروبا والعثمانية . فتحت Resmo المدينة الثالثة للجزيرة (١٦٤٦/١١/١٥) .

وفى السنة التالية بدأ حصار كاندية (١٦٤٧/٧/٧) . جاء المشير البحرى (قبطان دريا) فضلى باشا وحصل على إمدادات (١٦٤٧/٩/٢٨) ، وانتصر المشير البحرى الآخر عمار - زاده محمد باشا على الفينيقيين فى المعركة البحرية أيسارا Ipsara (١٦٤٨/٣/٩) غرقت ستة وعشرون سفينة (قدرغة) ومات الأدميرال الكبير Grimavy (هامر ، ١٠ ، ١٤١) لكن كاندية لم تسقط ، كما لم يتمكنوا من إزاحة الأسطول البندقى من بحر الأرخبيل ، بل إنه تجرأ على القدوم إلى مدخل مضيق جناق قلعة . أغلقت مرحلة حرب كريت التى جرت فى عهد السلطان إبراهيم . فتحت أواسط وغرب الجزيرة بإقامة دماء عثمانية غزيرة . كان القسم الشرقى لا يزال بيد البندقيين .

(٥٣) خلع السلطان إبراهيم (١٦٤٨/٨/٨)

بدأ أغواث التشكيلات فى التكتل ، وتشكيل عصبة مجددا ونهب الدولة حاول السلطان إبراهيم التخلص من الأغواث ، ولكنهم علموا بمقصده . حدثت ثورة . اضطر إلى عزل الصدر الأعظم هزار - بارة أحمد باشا (١٦٤٨/٨/٧) الذى مزقه العصاة إلى قطع . وصار الوزير الصوفى المولوى غير المناسب قليل العقل الظالم المسمى قوجا محمد باشا الكبير السن والمتآمر مع العصبة .. صدرأ أعظم . دامت صدارة أحمد باشا ١٠ أشهر و ١٦ يوما . كانت تقف وراء الثورة السلطنة كوسم ، التى ترغب فى أن تكون نائبة السلطنة . خلع السلطان إبراهيم ، وسقط حاكم غير قدير إلى حد كبير ، لكن وجوده كان سيمنع - على الأقل - الكثير من

سوء التصرف ، أصبحت الدولة عرضة لكل سوء تصرف وفوضى ؛ لجلوس طفل على العرش . لم يكن السلطان إبراهيم ظالما كالسلطان مراد الرابع ولأحق كالسلطان مصطفى الأول . ولإظهار قدرته الجنسية أنجب أكثر من ١٠٠ ولد كالسلطان مراد الثالث . كتب المؤرخون كثيرا عن سفاهته وفضائحه ، ولم يكن هذا صحيحا تماما ؛ فسفاهته كانت مقصورة على شخصه ، أما الدولة فلم تتأثر كثيرا بذلك ، كما أن الدولة لم تتعرض على أيامه إلى أى تأثير خطر .. لكن وقوعه تحت سيطرة النساء والخليلات وحياة السفه .. أدى إلى وصف معاصريه له بالسوء ، (فون هامر ، ١٠ ، ٢) .

كان عمر السلطان إبراهيم الذى قتل بعد ١٠ أيام من خلعه يتجاوز الـ ٣٢ بـ ٩ أشهر و ١٣ يوما . دفن في قبره الكائن في رواق جامع أباصوفيا ، إلى جانب عمه مصطفى الأول . ٣ من أولاده جلسوا على العرش الواحد تلو الآخر ، مجموع سلطنتهم ٤٦ سنة و ٥ أشهر و ٢٩ يوما : محمد الرابع (١٦٤٢/١/٢ - ١٦٩٣/١/٦) ، سليمان الثالث (١٦٤٢/٤/١٥ - ١٦٩١/٦/٢٢) وأحمد الثانى (١٦٤٣/٢/٢٥ - ١٦٩٥/٢/٦) ابنه الآخر الشهزاده سليم توفى بأجله وعمره ٢٥/٥ سنة . وتوفى له من ناحية أخرى ٨ أبناء و ٣ بنات عند بلوغهم سنة وستين . بناته البالغات هن : السلطانة أم كلثوم التى تزوجت بوزير واحد (١٦٤٢/٢/ك - ١٦٥٥) ، السلطانة فاطمة التى تزوجت بـ ٣ وزراء مختلفين (أيلول ١٦٤٢ - ١٦٨٢) ، السلطانة عاتكة التى تزوجت بوزيرين (١٦٤٦ - ١٦٨٦) ، السلطانة جوهر - خان التى تزوجت بـ ٣ وزراء (١٦٤٢ - ١٦٩٤/١٠/٢٧) ، السلطانة بكخان التى ولدت مع محمد الرابع من نفس الأم وتزوجت بـ ٣ وزراء اثنان منهم شغلوا وظيفة صدر أعظم (١٦٤٥ - ١٧٠١/٣/٤) ، السلطانة قاية التى تزوجت بوزير واحد (١٦٤٢) ، السلطانة عائشة التى لم تتزوج أبدا (١٦٤٢ - بعد ١٦٧٥) .

٥٤) سلطنة الأغوات (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣)

أجلس على العرش الابن الكبير للسلطان إبراهيم وولى عهده الذى تجاوز عمره الـ ٦ سنوات بـ ٧ أشهر و ٨ أيام ؛ السلطان محمد خان الرابع . أصبحت نائبة

السلطنة السلطنة - الجدة كوسم مهيكرو لم تصبح والدته الشابة السلطنة - الوالدة خديجة تارخان . وتسمى فترة نيابتها للسلطنة التي استمرت ٣ سنوات و ٢٦ يوما - وهي الدورة الأولى لعهد سلطنة محمد الرابع - « سلطنة الأغوات » فقد سيطر أغوات الإنكشارية وجنرالات العصبة *junto* على زمام الحكم كله متجاوزين بذلك الحكومة ومخالفين أحكام الدولة . كانت غايتهم أن يكونوا أغنياء بجمع المال ، أما غاية السلطنة كوسم فكانت بث سيطرتها وإعطاء الأوامر وإدارة الدولة . كانت تعشق السلطة والسياسة وأسيرة لها ، ولم تكتف بخلع ابنها من العرش ، بل سلمته بعد ١٠ أيام إلى الجلاء وقتلته (١٦٨٤/٨/١٨) لأنه كان متبهما بتهددها بإبعادها عن السياسة ونفها إلى رودس *Rodos* في حالة استمرارها في التدخل في شئون الدولة (نعما ، ٤ ، ٣١٧ ؛ هامر ، ١٠ ، ١٦٥ ، ١٧٧) . دبرت هذا الحادث بمهارة فائقة وسرية تامة ووجهت تشكيلات (أوجاق) الكابوكولو ، العلماء ، الوزراء بدرابة منقطعة النظر ، إلى حد أن الشعب أشفق عليها - مخدوعا - لما تعرضت له من مصائب بخلع ابنها وقتله . ولد خنق السلطان إبراهيم عنوة بحبل حريري ، شعور الحجة الفائقة تجاهه . ظهر المطالبون بدم السلطان إبراهيم ، وتضعضت مكانة العصبة وخاصة تشكيلات القابو قولو ؛ فقد ولد قتل سلطان ثان بعد مضي ٢٦ عاماً على قتل أخيه الكبير السلطان عثمان الشاب - النفور . ثار السباهيون ودرحتهم الإنكشارية بشكل دموي . تقاتل صنف الجيش الهمايوني الذي كان قدوة للعالم في نظامه في حرب ميدانية وفي ساحة السلطان أحمد وأمام سراي البادشاه وقد مات مئات القتلى .

عزل صوفي محمد باشا الذي يناهز عمره الـ ٨٠ عاماً ، بعد ٩ أشهر و ١٥ يوما (١٦٤٩/٥/٢١) وخنق بعد عدة أيام . عُيّن أحد أغوات الإنكشارية ، قره مراد أغا ، رغم أنه برتبة بككربك (فريق) ولم يحصل على رتبة وزير (مشير) صدراً أعظم خلافا للأصول المتبعة . كان هذا هو أقدر أفراد العصبة ، أشرفهم ، عسكريا جيدا ورجل دولة ذكيا . قدم الاستقالة إلى نائبة السلطنة فور تهديده بالقتل ، عند إصراره على عدم تحقيق رغبات أصدقائه غير المشروعة (١٦٥٠/٨/٥) . استمرت صدارته سنة وشهرين و ١٥ يوما . صار الصدر الأعظم داماد ملك أحمد باشا أحد الوزراء والذي نشأ على يد مراد الرابع وكان صهرا له . لم يتمكن أحمد باشا اللين

بعد مراد باشا الصلب من الوقوف أمام الفوضى . وبعد هذا ثار الشعب الذى نهته العصابة . استقال ملك باشا بعد صدارة دامت سنة و ١٧ يوما (١٦٥١/٨/٢١) . صار أباضة سياوش باشا وزيراً أعظم . لم ينجح هذا التدبير المسكن فى إطالة سلطة الأغوات والسلطانة كوسم أكثر من ١٣ يوما ؛ لأن ثورة الشعب لم تكن ضد ملك باشا ، بل كانت ضد جنرالات العصابة الذين لم تكن السلطانة كوسم تستطيع سجنهم من مسرح السياسة ، لأنها لاتملك القدرة على ذلك ، ولأن ذلك لم يكن يلائمها ، لأن سلطتها هى كذلك ستنتهى ، فهى شريكة مع العصابة فى جرائم عديدة ؛ ولأنه كانت وراء الثورة السلطانة - والدة خديجة تارخان أم البادشاه الطفل . فإن السلطانة كوسم (التى تعلم ذلك) أرادت لكى تكسر شوكة سلطة زوجة ابنها وتعزلها من عرش السلطانة - والدة (والده سلطان) - قتل حفيدها محمد الرابع الذى لم يكمل بعد سن الـ ١٠ سنوات ، وإجلاس ولى عهد - أمير سليمان الذى هو من أم أخرى . كشفت هذه الخطة القدرة . خنق رجال السلطان والسلطانة - والدة السلطانة كوسم ، حيث اقتحموا منزلها ليلة ٣/٢ أيلول (١٦٥١) .

كانت السلطانة - والدة الكبيرة (الجدة) كوسم مهيكر أشهر نساء التاريخ العثمانى بأجمعه ، فى الـ ٦٢ من عمرها . دفنت فى مقبرة السلطان أحمد ، إلى جانب زوجها أحمد الأول وابنها مراد الرابع . كان قد مضى ٤٧ عاما بالضبط على زواجها بأحمد الأول عام ١٦٠٤ . كانت السلطانة - والدة (والده سلطان) خلال مدة سلطنة ابنها مراد الرابع وإبراهيم خان مدة ١٧ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما و ٨ سنوات و ٥ أشهر و ٢٨ يوما = جمعا ٢٤ سنة و ١٠ شهر و ٢٨ يوما + ونائبة السلطنة خلال فترة سلطنة حفيدها محمد الرابع مدة ٣ سنوات و ٢٦ يوما . ولما كانت نائبة السلطنة كذلك خلال فترة طفولة ابنها مراد الرابع مدة ٨ سنوات ، ٨ أشهر و ٨ أيام ، فيكون مجموع رئاستها الدولة العالمية بصورة رسمية وبصفة نائبة ١١ سنة و ٩ أشهر و ٤ أيام . كانت ذكية إلى درجة استثنائية . ماهرة مراوغة ، أستاذة فى صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة فى كلامها . كانت تعنى بإرضاء الشعب ، لذا فقد تركت مؤسسات خيرية كثيرة العدد إلى درجة لا يستوعبها العقل . انتقلت ثروتها العظيمة إلى الخزينة .

كانت المعونات إلى كريت بدرجة غير كافية خلال فترة سوء التصرف فى شئون

إدارة الدولة بسبب الثورة الداخلية في إستانبول . القتال الدموى مستمر في الجزيرة ..
ولأول مرة منذ سنتين أخذ دلى حسين باشا معونة من قبطان دريا وزير داماد فوينوك
أحمد باشا . لكن القبودان دريا (مشير البحر) استشهد عندما كان يقصف قلعة
Suda من البحر (١٦٤٩/٧/٢٨) . شدد حسين باشا الضغط على كاندية . قتل
الكونت Colloredo والى كريت العام القائد العام أثناء خروجه من القلعة
(١٦٤٩/٨/٣٠) . حصل حسين باشا ، على شهرة واسعة في أوروبا . صنع
الرسامون له ولجساره المسمى قابتاس صورا كبيرة طبعت ثم بيعت . أصيب
برصاصتين الأولى ثقت واخترقت فمه وخرجت ، والأخرى بقيت في فمه . ربط
فمه بالمنديل واستمر في القتال .

٥٥ سنوات نيابة السلطنة - الوالدة تارخان (١٦٥١/٩/٣ - ١٦٥٦/٩/١٥)

كان سن نائبة السلطنة الجديدة السلطنة - الوالدة خديجة تارخان ٢٤ عاما ،
كانت جارية ، عنت بتريتها وتقيفها أخت زوجها السلطنة عاتكة ، إحدى بنات
أحمد الأول وقدمتها إلى أخيها إبراهيم . كانت من أصل أوكراني مثل السلطنة خرم
طويلة القامة ، لطيفة القوام ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، بيضاء صافية اللون
(Petit de la Croix ، ١ ، ٥٥٦) وبولادتها مولودها الأول السلطان محمد نجت
السلالة من الانقراض . لم يترك الشعب ميدان سلطان أحمد خاليا منذ ليلة فقدان
السلطنة كوسم حياتها . كانوا يطالبون برعوس أغوات العصابة . الذين اختفى كل
واحد منهم في مكان . كان يقبض كل يوم على واحد أو اثنين منهم ويعدمان . أعدم
٣٨ منهم وانتقلت ثرواتهم غير المشروعة إلى الخزينة (Ricaut ، ١ ، ٤٨ ، ٥٨ ،
٧٢) وجدوا لدى أحد جنرالات الإنكشارية الذى يسمى قول كاهيه سى ، من
الدراهم النقدية فقط خمسة ملايين سكة ذهبية وفضية ، ويين هذا مبلغ مانهب من
الإمبراطورية خلال ٣ سنين .

انتهت سلطة الأغوات ، لكن نظام الدولة خرج عن طوره . كانت النائبة الشابة
مهمته بالبحث عن الصدر الأعظم الذى يمكن أن تعتمد الدولة عليه ، لكنها لم تجد

ضالتها . أعدم سياوش باشا بعد ٩ أشهر . وأخرج درويش محمد باشا (١٦٥٣/٣/٢١) بعد سنة و ٧ أشهر و ٨ أيام بسبب إصابته بالفالج ، وعلى أثر ذلك جاء داماد أبشير باشا (١٦٥٣/١٠/٢٨) الذى أعدم بعد ستة أشهر و ١٤ يوما ثم جىء للمرة الثانية بقره مصطفى باشا (١٦٥٥/٥/١١) وباستقالته بعد ٣ أشهر ، ٩ أيام (مجموع صدارتيه ١ سنة و ٥ أشهر و ٢٤ يوما) جىء بداماد سليمان باشا (١٦٥٥/٨/١٩) وباستقالته بعد ٦ أشهر و ١٠ أيام جاء للصدارة الوزير الثانى القائد الأعلى دلى حسين باشا (١٦٥٦/٢/٢٨) ، وبعد ٦ أيام ، وقبل مجيئه من كريت إلى إستانبول وللضرورة ؛ أعطيت الصدارة إلى مصطفى باشا (١٦٥٦/٣/٥) . وبعد صدارته التى استمرت ٦ ساعات وهى أقصر مدة صدارة فى التاريخ العثمانى ، تصدر سياوش باشا للمرة الثانية وعلى أثر وفاته بعد شهر و ٢٢ يوما (مجموع صدارتية شهران و ٢٩ يوما) ، تصدر جانكلى (من صمصون) بوينو أكرى (مجروح الرقة) محمد باشا (١٦٥٦/٤/٢٦) ، كل هؤلاء أخذ نصيبه من السلطنة ، ولكن لم يستطع واحد منهم تأمين النظام الذى كانت تنشده نائبة السلطنة . عزل بوينو أكرى محمد باشا البالغ عمره ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٩ يوما لعدم تمكنه من إبعاد الأسطول البندقى من باب مضيق جنقلعة .

كانت حرب كريت مستمرة . اشتبك الأسطول الهمايونى الذى يقوده قيودان دربا الصدر الأعظم الأسبق مراد باشا مع الأسطول البندقى فى فتحة مضيق جنقلعة . وكانت قطع الأساطيل التى أرسلت من كل من الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ؛ منضمة إلى الأسطول الهمايونى . دام القتال مدة ٦ ساعات . غلب البنديقيون الذين خسروا سفينة الأميرالية الكبيرة وسفينة الأميرالية الثانية ، و ٤ سفن أخرى و ٣٠٠٠ وبضع مئات من الجرحى . تعقب الأسطول العثمانى البنديقين إلى جزر Kikland . أرسلت قطع أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الموجودة فى كريت إلى أقطارها . حمل الأسطول الهمايونى الذى قدم إلى إستانبول معه ٢٥٠٠ أسير بندقى . جرى القتال البحرى فى فتحة جنقلعة بتاريخ ١٦/٥/١٦٥٤ (هاجر ، ١٠ ، ٢٤٠ - ١ ، ٣٤٢) . لكن الأسطول البندقى تمكن من لم شعثه ، وبعد سنتين فى ٢٦/٦/١٦٥٦ جاء مرة أخرى إلى فتحة مضيق جنقلعة . تمكن البنديقيون من إنزال جنود فى جزر بوزجه آدا ، لمنى وسمندريك واحتلوها عندما تعرض الأسطول الهمايونى بقيادة قبطان

دريا (مشير البحر) داماد كنعان باشا لعاصفة جعلته يتفرق . كانت الخسارة البحرية هذه واستيلاء الجزر من الأسباب التى صاحبت سلطة كوبرولو والتى ولدت هياجا كبيرا .

تمكن نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) عادل كيراي من الوصول إلى ضواحي موسكو . سدد القيصر الروسى ١٠٠ ٠٠٠ سكة ذهبية وعقد صلحا مع قرم . زادت بولونيا ضريبتها السنوية إلى قرم إلى ٢٤٠ ٠٠٠ سكة ذهبية (حلیم كيراي ، قرم تاريخى ، ص ١٠) .

كانت الوالدة تارخان فى محاولة للبحث عن مخرج للدولة ، مع مستشاريها السريين أمثال سرمعمار قوجا قاسم آغا فوجى بك ، صولا قزاده ، شامى زاده محمد أفندى ، وكان قاسم آغا البالغ عمره ٨٠ عاما يلحق الوالدة ويوصيها بإصرار بالوزير المسن وغير المشهور كوبرولو محمد باشا منذ مدة طويلة . وفى النهاية رضيت نائبة السلطنة بمقابلة كوبرولو باشا بتأثير مستشاريها الذين يفوقون قاسم آغا علما وفنا . قابلته بشكل سرى وخاص . دهشت عندما وضع الوزير الكهل شروطا عديدة لقبوله الصدارة . لم يسبق فى النظام العثمانى أن يسرد الوزير شروطا لقبوله الصدارة . تمكن الوزير الكهل من إقناع نائبة السلطنة بأنه سوف لن يتمكن من أداء الخدمات المنتظرة للدولة إذا ماتصدر دون أن يعطى الصلاحيات المطلقة التى طلبها (١٦٥٦/٩/١٥) . بدأ دور كوبرولو (عائلة كوبرولو) الذى سيستمر مدة ٢٧ عاما حتى ١٦٨٣ . أعلن رشد محمد الرابع عند تجاوز سنه ال ١٤ ب ٨ أشهر و ١٦ يوما ، وانتهت فترة نيابة جدته (أم أبيه) وأمه التى استمرت ٨ سنين و شهرا ، ٨ أيام .

كانت نيابة الوالدة تارخان قد استمرت ٥ سنوات و ١٢ يوما . وعندما تركت السلطة كانت فى ال ٢٩ من عمرها . أما صفتها السلطانية - الوالدة فقد استمرت مدة ٣٤ سنة و ١٠ أشهر و ٢٨ يوما لغاية وفاتها وبلوغها ال ٥٦ من عمرها فى ١٦٨٣/٧/٥ . وهو أطول مدة لصفة السلطانية - الوالدة فى التاريخ العثمانى . تركت مؤسسات خيرية عظيمة جدا . لكن الخدمة التى أدتها إلى الدولة العثمانية قد سبقت بكثير حتى الآثار الخيرية التى تركتها . لم يكن لديها أى حرص شخصى . كانت تملك الشخصية والذكاء وحب الوطن ، والتضحية والشجاعة التى تؤهلها لحماية

هذه المصلحة بكفاءة . أعطت السلطة إلى كوبرولو . ولم تتدخل بعدها في السياسة ، ولكنها استمرت في تلقين دروس التضحية وحب الوطن إلى ابنها بصورة سرية حتى وفاتها . خلصت الدولة من فوضى مدهشة وفتحت دور « الكوبرولو » . أعدت لأبنها سلطنة ذات شوكة ، تشابه تلك التي في عهد القانوني . على درجة من الذكاء تماثل ذكاء أم زوجها السلطنة كوسم ، لكنها لم تصرف ذكاءها مثلها إلى الشر وإلى الأمور الشخصية ، بل صرفتها إلى الخير وإلى صالح الدولة . شخصت ماهية الأضرار التي تكبدتها الدولة بسبب تدخل أم زوجها في السياسة . عملت بكل مافي إمكانها لمنع تدخل نساء السراي في السياسة ، ولم يكن ذلك سهلاً أبداً ، بسبب كونها هي امرأة ، وعلى رأس جماعة النساء . وقد وفقت في هذا إلى الدرجة التي أغلقت نهائياً الدور المسمى في التاريخ العثماني « سلطنة النساء » ، والذي كان يظهر بين

الفترة والأخرى خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين عهد السلطنة خرم وعام ١٦٥٦ وهو تاريخ انسحابها من النيابة . لم يشاهد في التاريخ العثماني بعد ذلك أية امرأة والدة أو زوجة سلطان تتدخل في شؤون الدولة . اهتمت بتربية زوجة ابنها أمة الله كلنوش - التي ستكون السلطنة والدة لسلطانين - وربتها على هذه النشأة وزوجتها بابنها . علمتها ولقنتها واجبات الخاصكي (زوجة السلطان) السلطنة - والوالدة في الدولة العثمانية العالمية بدقة ، وليس من بين هذه الواجبات ما هو ذو علاقة بالسياسة . لم يهتم المؤرخون بذكر هذه الخدمة بالذات للسلطنة تارخان . ومن آثارها التي تذكرها الأجيال بالخير الجامع الفخم وسوق مصر المسمى « مصر جارشينسي » الذي شيده المعمار مصطفى أغا . دفنت في أحد زوايا هذا الجامع الذي هو عبارة عن كلية عظمى .

(٥٦) صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠)

أعطيت لكوبرولو القيادة العليا (سردار أكرم) . كانت الشخصية التي اقتدى بها كوبرولو ، هي شخصية مراد الرابع . لكنه لم يكن لديه الثقافة العالية التي كانت لدى مراد الرابع . تمكن فقط من تطبيق سياسة الشدة التي اشتهر بها مراد الرابع . اتخذ سياسة الترهيب وإراقة الدم (دون مبرر مرات كثيرة) لتأمين سلطة الدولة .

ومع ذلك فقد كان داهية حقا ، حيث أنقذ الدولة من شفا هاوية ، وأدخلها في الدور الذي يسمى في التاريخ بدور « كوبرولولر » الذي يشبه بعض المؤرخين بدور القانوني . جاء إلى جناق قلعة وفتح كلا ضفتي المضيق . كان الأسطول البندقى مقتربا جدا من المضيق . هدف شاب من جنود المدفعية على مخزن البارود في سفينة الأميرالية الكبرى فأصابها بقذيفة مدفعية . انفجرت سفينة الأميرالية الكبرى وتناثرت في الجو ، ونسف الأميرال الكبير Mocenigo الذي يسميه الأتراك « القبطان الأعور » . أكرم الصدر الأعظم ، المدفعي الشاب من الذهب ملء الحصن . انسحب أسطول العدو من أمام المضيق . اعتبر افتتاح دور سلطة الصدر الأعظم بمثل هذا الحادث فأل خير . تم في ١ أيلول تخليص جزيرة بوزجة إذا وفي ١٥ ت ٢ لمنى من الاستيلاء البندقى .

كان أكبر ظلم وجور ارتكبه كوبرولو هو إعدامه الغازى حسين باشا . الوزير الأعظم السابق ، الوزير ٢ ، القائد الأعلى لكريت منذ سنوات عديدة ، البطل الوطنى . دعاه كبير عساكر دوره إلى إستانبول بحجة تكليفه الصدارة (١٦٥٨/١٢/٢٩) . سبب هذا الحادث حزن الشعب العميق . وصار لكوبرولو صيت مفزع . تولى القيادة العليا وأخذ على عاتقه حل مسألة أردل Transilvanya (١٦٥٨/٦/٢٣) .

استولى أمير أردل György Rakoczi الثانى (١٦٤٨ - ١٦٦٠) (الولادة ١٦٢٠) ، فى آذار ١٦٥٧ - على Krakovi العاصمة السابقة التى أخذتها بولونيا من وارشو ، وفى أيار أخذ Brest-Litovsk (Brezese) الواقعة شرق وارشو . كان الديوان يرى أن هذه الانتصارات فى صالح الدولة . لكن بعد مقابلة كوبرولو لسفير بولونيا الذى جاء يشكو له من أمير أردل أمر الأمير بإيقافه حركات بولونيا ، وإخلائه الأراضي البولونية ، وقطع علاقته مع السويد . أرسل György الثانى رسله إلى إستانبول مستفسرا عن سبب تكديره ، فى الوقت الذى وسعت فيه العثمانية حدودها . غضب كوبرولو لهذا الاستفسار وأصر على تنفيذ أمره فوراً ، أمر محمد كيراي خان قرم بدخول أردل . تمكن محمد كيراي من العثور قرب سواحل Vistül على جيش أردل المجرى المفرور بفوزه المتعاقب على بولونيا ، وأفساه (١٦٥٨/٧/٣١) . إلا أن هذا الحادث بدلا من أن يسبب إطاعة جيورجى الثانى سبب عصيانه السافر للدولة العثمانية .

كان حساب جيورجى الثانى هو سقوط كوبرولو كأسلافه من الصدور خلال مدة قصيرة والاتفاق مع الصدر الأعظم الجديد . ولم يفكر قط فى بقاء كوبرولو . دخل كوبرولو إلى أردل مستصحبا معه أمراء أفلاق وبغدان . وجاء خان قرم كذلك . أعلم ملك بولونيا الصدر الأعظم بأنه صادق ومتمن للبادشاه وطلب حماية دولته من الأردلين . أخذ كوبرولو أردل الغرية بكاملها من الإمارة وألحقها بإيالة بودين (yanova, Arad, Sebes, Lugos) ظل كامل الإمارة تحت السيطرة العثمانية ، مدة سنين . لجأ جيورجى الثانى إلى ألمانيا ، وفى ١٦٦٠/٥/٢٢ مات (Makkai, Histoire de Tiansilvanie ، ص ٢٤١ - ٥) عين القبطان دريا (مشير البحر) الوزير كوسه على باشا سردار وصهر كوبرولو ، الوزير سيدى أحمد باشا ، مساعدين له وتمكننا من الاستيلاء على قلعة Varat (بالألمانية : Grosswardein بالرومانية : Dradea Mare بالجرية : Varad) المهمة جدا والتي كانت تحت السيطرة الألمانية ، خلال حصار دام ٤٥ يوما (١٦٦٠/٨/٢٧) . تم اغتنام ٧٠٠ مدفع فى القلعة . وجعلت القلعة مركزا لإيالة جديدة ، ومن أجل مراقبة الأفلاق بشكل أدق طلب كوبرولو أن يسكن الفوفيفودا فى بخارست ، وليس فى عاصمة الإمارة Targoviste ، وهكذا أصبحت بخارست عاصمة لرومانيا (١٦٥٩/١١/١٢) . قلص كوبرولو الذى جعل من يانوف (بالجرية : Jeno) لإيالة إمارة أردل ودفعها ضمن حدود ضيقة جدا . أخذ البروتستانت الموجودين فى الإمارة تحت حمايته ، كان هؤلاء البروتستانت من أصل كومان - قبيجاك الذين تنصروا سابقا ، أى أنهم من أصل تركى . توترت علاقات الباب العالى مع ألمانيا التى تساند عصيان أردل (نعيما ، ١٧ ، ٣٠٢ - ٥٩) ؛ سلاحدار ، ١ ، ١٩٣ - ٢٢٠ ؛ أولياء ، ٦ ، ١٧ ؛ Iorqa ، ٤ ، ٩٢ - ١٠٢ ؛ Makkai ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ - ٢٤٥ ، ٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣) . وفى هذه المرة أصبح كوبرولو « سردارا أكرم » فى مواجهة الجلالين (١٦٥٨/١١/١٣) . اتفق العديد من البكلربك والسنجق بك فى الأناضول ، الذين يخشون كوبرولو وقرروا إسقاط الصدر الأعظم . طلب ١٥ بكلربك و ٥٠ سنجق بك من السلطان عزل هذا الصدر الأعظم الظالم ؛ فصلوا فى عريضتهم المظالم التى ارتكبتها كوبرولو بالتسلسل واحدة بعد أخرى ، وأفادوا بأن غايته الوحيدة هى التخلص منهم وعدم إبقاء رجال دولة فى الدولة . ورشحوا للصدارة الوزير أحمد

باشا ، ابن طيار محمد باشا الصدر الأعظم لمراد الرابع الذى استشهد أمام أسوار بغداد . أعطى محمد الرابع هذه العريضة التى أرسلها الولاة العسكريون الذين يحكمون تقريبا كامل الأناضول وسورية ، إلى كوبرولو محمد باشا دون أن يبدى أية ملاحظة . تجمع العديد من البكلربك (فريق) والسنجق بك (أمير لواء) فى حلب . أعلن كوبرولو أن كافة الولاة الذين تركوا مراكز عملهم دون أخذ موافقة إستانبول وذهبوا إلى حلب .. عصاة . دعا الوزير مرتضى باشا ٣١ باشا إلى قصره فى حلب (القصر الحكومى) بحجة التفاهم فى مسألة كوبرولو خلال وليمة العشاء ، وقطع رءوسهم جميعا وسط الولاية .

خشى كوبرولو ، من رد فعل إعدام ٣١ باشا مرة واحدة . أرسل الوزير بوشناق إسماعيل باشا بوظيفة « مفتش الأناضول » . ويروى أن إسماعيل باشا أمر بقتل ١٠٠٠٠ شخص بتهمة الجلالية . ويمكننا أن نقول إن عهد الجلالية قد أغلق بعد هذا التاريخ .

بسبب تدخل روسيا المتزايد فى شئون أوكرانيا ، ولكون القسم الأكبر منها أراضى عثمانية تأزمت علاقة الدولتين . سار محمد كيراي بجيش قرمى - عثمانى . تمكن من العثور على الجيش الروسى فى Konotop فى نقطة عرض ٥٢ التى تتصل فيها حدود أوكرانيا - روسيا البيضاء - روسيا شرق مستنقعات Pripet ، على مسافة ١٥٠ كم غرب جرينيكوف . كان الروس الذين يقودهم الأمير Trubeckoy ، ٣٥٠٠٠ جندى ، هزم هذا الجيش الذى لم يدرّب أى تدريب عسكري جدى ، بسهولة ، قتل ١٢٠٠٠٠ روسى وأسر ٥٠٠٠٠ ، وكان القائد بين القتلى . قطع هذا النصر على روسيا طريق أوكرانيا لمدة نصف قرن (نعيما ، ٦ ، ٤٠٦ ومابعده ؛ هامر ، ١١ ، ٦٩ - ٧٣) . وفى ١٦٦١ ، تم فى أوكرانيا إنشاء القلعة المسماة سد الإسلام أو دوغان كجيدى وأريد بذلك منع دخول الروس إلى أوكرانيا والقفقاس الشمالية . أدت هذه القلعة - التى وصفها هامر تماش عظيمة الدور العثمانى وسط جرداء أوكرانيا وصحراء التترستان (١١ ، ٧٩) - واجبها مدة طويلة ، اتضح من الرسائل التى ضبطت أن البطريق العالمى الأرثوذكسى فى إستانبول Parthenios الثالث تراسل مع روسيا ضد تركية . أعدم البطريق ، وأبطل كوبرولو الفرمان الذى يعطى البطريق درجة وزير فى البروتوكول والذى منحه السلطان الفاتح

للبطريق عام ١٤٥٣ ، وأنزله إلى بروتوكول بكلربك . سوف تعاد للبطريق امتيازاته السابقة بعد التنظيمات (E.Pitzipios, L'Eglise Orientale ، روما ١٨٦٦) ، ٢٠ (٨٣) .

وفي ١٦٥٦ جاءت رسل شاه جهان . حمل هدايا شاه جهان ، بادشاه الهند . ٢٥٠ شخصا . كان شاه جهان ، يطلب بعض التسهيلات للحجاج القادمين من الهند ، والتضييق على إيران من الغرب ، وأحد معماري القبة العثمانية (قبل فترة وجيزة شيد تاج محل أحد طلاب المعمار سنان) . وفي ١٦٥٨ أرسل محمد الرابع ، معان - زاده حسين بك سفيرا للهند . وخلال نفس العام ، خلع شاه جهان عن العرش بعد سلطنة زفيعة دامت ٣١ عاما وعن عمر يناهز الـ ٦٥ عاما . جاء مكانه ابنه أورنكيرب عالمكير شاه وهو حفيد تيمور في البطن الـ ١٠ وبابور في البطن الـ ٥ . وهكذا افتتحت سلطنة عالمكير شاه من مواليد ١٦١٨ التي ستستمر ٤٩ عاما .

نشأ في أواخر أيام كوبرولو ، أكبر الحرائق ، البلية الكبرى لإستانبول ، أكثر بلدان العالم - ذات البيوت الخشبية - زحاما (١٦٦٠/٧/٢٤) . تلف ثلث إستانبول الأصلية الكائنة داخل الأسوار . احترق ٨٠٠٠٠ دار و ٣٠٠٠ سراي وقصر و ٣٦٠٠ مسجدا و ١٠٠٠ خان تجارى و ٤٠٠ حماما و ماشابه ذلك من الأبنية الكثيرة العدد . مات أو جرح ٤٠٠٠ شخص ، تلفت أو تضررت آثار تاريخية مهمة . استمر الحريق ٤٩ ساعة .

توفى كوبرولو بعد صدارة دامت ٥ سنوات وشهرا و ١٥ يوما (صباح ١٦٦١ / ١٠ / ٣٠) . توفى في أدرنة . نقل إلى إستانبول ودفن قرب مسجده . كان عمره ٨٣ عاما . وبناء على وصيته أعطى محمد الرابع الختم الهمايوني إلى كبير أبنائه كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا .

(٥٧) حرب ألمانيا (١٦٦١ - ١٦٦٤)

كان فاضل أحمد باشا أصغر رئيس وزراء في تاريخ تركية عمره ٢٦ سنة . عنى أبوه الجاهل بتحصيله عناية فائقة ، تخرج من القسم العالى لمدرسة إستانبول ، صار مدرسا ، بكلربك ووزيرا . كان قد سافر إلى الأناضول ، سورية ، روملى . قضى

عام ١٦٦٢ فى الانشغال بشئون الإمبراطورية الداخلية ، وسنة ونصفا فى إستانبول وأدرنه ، فى تفهم شئون الدولة المركزية . ومع مافيه فإنه سترك بعد الآن مهام مركزه إلى مرزيفونلى قرة مصطفى باشا بصورة دائمة ، ويكرس جهوده إلى الأمور الخارجية والحروب . مضى على عقد معاهدة سيتفاتوروك ٥٦ سنة و ٥ أشهر . حدث خلال هذه المدة مع ألمانيا خلافات ، مناوشات موضعية ، اشتباكات لكنها لم تنقلب إلى حرب شاملة . أعلنت الحرب على ألمانيا (١٦٦٣/٤/١٢) على أثر إنشاء الألمان خلفا لمعاهدة سيتفاتوروك قلعة Serinwar (بالتركية بنى قلعة) على الحدود ، مقابل قلعة العثمانية وعدم هدمهم لها رغم إخطار الديوان .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) فاضل أحمد باشا من أدرنة (١٢ نيسان) ووصل المجر . الجيش الهمايوى المؤلف من ١٢٠ ٠٠٠ جندى ، ١٠٠ ٠٠٠ خيال قرمى و ١٥٠٠٠ مشاة قرمى ، عدا ذلك ، وحدات الصاعقة ، ١٢٣ مدفع صحراء ، وذخائر محملة على ٦٠ ٠٠٠ جمل و ١٠ ٠٠٠ بغل ، دخل سلوفاكيا من إستركون مجتازا الدونة (٣ تموز) . ورغم أن الجنرال Forgacs ، حاول وقف الاجتياز لكنه خسر أكثر من ٥٠٠٠ قتيل وأسير . حوصرت قلعة أوففار فى ١٨ آب (بالألمانية : Neuhausel بالسلوفاكية : Nove Zamky بالجرية : Ujvar) . أوففار التى انتقلت إلى العثمانية مرات عديدة ، حصنها الألمان وجعلوها فائقة الاستحكام لكى تصبح أقوى قلاع أوروبا ، تقع شمال - غرب بودابست ، على الشرق من فينا بـ ١١٠ كم ، ومن براتسلافا بـ ٨٠ كم . كان خان قرم محمد كبرای الرابع ، وفوفودات (أمراء) أردل ، بغداد ، أفلاق ضمن الجيش العثمانى . سلم الجنرال Forgacs القلعة بعد ٣٧ يوما (١٦٦٣/٩/٢٤) . انسحب جند الألمان من بين صفوف الأتراك وهم يعزفون الموسيقى وذهبوا إلى النمسا . قلبت فرق الصاعقة رأسا على عقب كلا من سلوفاكيا ، النمسا ، بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، بولونيا وحرقوا براتسلافا ووصلوا أمام فينا . أحدثت هذه الحملة والتى تسمى حملة أوففار السرور العظيم فى الإمبراطورية وأدهشت أوروبا من الناحية الأخرى (راشد ، ١ ، ٤١ - ٨) ، وبعدها استسلمت حوالى ٣٠ قلعة ألمانية : أهمهن Nadvigrad (٤ ت ٢) و Nrutra (بالسلوفاكية : Nitra) فى شمال أوففار (١٨ ت ٢) . أسست إمالة أوففار فى جنوب سلوفاكيا التى تشكلها السهول . تم الاستيلاء على

سلوفاكيا حتى جبال تاترا . ازدادت الدهشة عندما دخلت فرق الصاعقة Olmütz (بالجيكية : Olomoue) ، قلب جيكوسلوفاكيا (٢ أيلول) .

قضى كوبرولو - زاده الشتاء في بلغراد : وتحرك في الربيع (١٦٦٤/٥/٧) . تعاطف كل حكام أوروبا مع الإمبراطور ، حتى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، أكبر أعداء ألمانيا ، أرسل لأمر الإمبراطور فرقة ممتازة مؤلفة من ٥٠٠٠ شخص . جاء كوبرولو - زاده إلى كانيجة واجتاز الحدود الألمانية وفتح بنى قلعة (Serinwar) (٦ حزيران) ، وهى القلعة التى شيدها الألمان حديثا وسببت نشوب الحرب . تقع القلعة في الموقع الذى يتعد فيه نهر مور عن درافا . أصيب القائد العام للإمبراطورية الكونت Von Strozzi ومات . جاء مكانه قائد عام للإمبراطورية ، المارشال كونت Montecueulli ، وهو من أشهر العسكريين في القرن ١٧ .

كان الجيش الألمانى في الغرب على الضفة الأخرى من نهر رعب (Raba) بينما كان كوبرولو - زاده أمام بنى قلعة .

وبعد أن اجتاز ١٠ ٠٠٠ جندى تركى إلى الطرف الآخر من الماء نسف Montecuculli الجسر بقذائف المدفعية .

جرت حرب الجيش الألمانى غير المتكافئ مع هؤلاء الـ ١٠ ٠٠٠ جندى أمام أعين الجيش العثمانى الكبير الموجود على الضفة الأخرى (١٦٦٤/٨/١) .

لم يستطع كوبرولو - زاده إلا أن يرسل مساعدات قليلة للطرف الآخر ، كما لم يسمح بإطلاق نيران المدافع والرصاص ؛ لأن الـ ١٠,٠٠٠ عثمانى كانوا مختلطين ومتداخلين مع الألمان إلى الدرجة التى لو فتح فيها النار من الجهة المقابلة لأثرت على الجند العثمانى بنفس الدرجة التى تؤثر فيها على الآخرين . استمر القتال بين ٦٠ ٠٠٠ ألمانى و ١٠ ٠٠٠ عثمانى مدة ٧ ساعات . وحاول كوبرولو - زاده خلال هذه المدة نصب جسر والعبور إلى الطرف الآخر ، إلا أن نار مدفعية العدو والمطر الغزير حالا دون ذلك . أفنى الـ ١٠ ٠٠٠ جندى عثمانى المتشككين من السباهية والإنكشارية على التساوى وعلى رأسهم إسماعيل باشا بكركيك بوسنة فرقة المقدمة للجيش الألمانى المكونة من ٣ أفواج مشاة وفوج خيالة ، واستولى على قرية

Mukkestrof وحاول الاحتواء باستحكامات مستعجلة ، لكن أمير Baden أسقط القرية وحاصر الأتراك وأنفاهم . تقدر خسائر العدو بـ ١٠.٠٠٠ (Ricaut ، ٢ ، ٥٩٦ - ٨) . قتل ٦٠ جنرالا وشرافاً من العدو . طلب الإمبراطور الصلح .

تم التوقيع على معاهدة فاشفار (بالجرية : Vasvar) بعد ٩ أيام (١٠/٨/١٦٦٤) . فاشفار (بالألمانية : Eisenburg) ، هي قصبة تقع بين كانيجة و Szombathly . عقد ممثلو الطرفين مؤتمرا فيها . كانت قصبة عثمانية تبعد عن حدود النمسا ٢٥ كم . وعند التوقيع على المعاهدة المكونة من ١٠ مواد بدأ الجيش الهامبوني بإطلاق المدافع والرصاص وترتيب الأفراح . بموجب هذه المعاهدة تبقى جميع مواد معاهدة سيتفاتوروك معتبرة ، وتلغى ألمانيا غرامات حرب رمزية قدرها ٢٠٠.٠٠٠ سكة ذهبية ، وتبقى كافة القلاع مثل أوففار ، نوفيكرا ، بنى قلعة التى فتحها الأتراك لدى العثمانية . وعلى هذا تكون الحرب قد انتهت خلال سنة ، و ٣ أشهر و ٢٨ يوما . تحرك الصدر الأعظم بعد أن اتخذ التدابير اللازمة على الحدود ، إلى أدرنة (١٧/٤/١٦٦٥) (سلاحدار ، ١ ، ٢٣٥ - ٣٧٤ ؛ راشد ، ١ ، ٢٥ - ٩٠) .

(٥٨) إكمال فتح كريت من البندقيين (١٦٦٤ - ١٦٧٠)

أرسل الإمبراطور ، بعد الصلح ، الكونت Leslie إلى محمد الرابع مع هدايا ثمينة . ورد عليه السلطان بإرسال محمد باشا إلى فينا بلقب بككربك (أمير الأمراء) وسفير فوق العادة . دخل الباشا مع معيته البالغة ٢٩٩ شخصا . تكدى الشعب الذى كان متلهفا على مشاهدة العثمانيين فى الشوارع . أجر لأشراف الأماكن فى محلات المرور بأهبط الأسعار . كانت فرقة موسيقى الجيش (مهتر طاقمى) تتقدم الوفد تسير بخطا هائلة عازفة لإحدى قطعها المتهترة التى ترتجف بصداها السماء والأرض (Takats ، Macaristan Türk Âleminde Cizqiler ، ٣١٥) . وفى ١٦٦٥/٦/١٨ استقبل الإمبراطور محمد باشا عند حضوره باحتفال لم يجر قبلا لأى سفير ، وخلافا للعادة كان أولياء جلبي أكبر كتاب العصر فى معية الباشا . نظم حكام أوروربا بعد هذا الحادث فرق موسيقاهم على غرار المهترخانة (مؤسسة

الموسيقى العسكرية) التركية . وافق الباشا على إجراء مقابلات عديدة مع الدوقات والماركيزات والكونتسات ، وكان يجيب بحرية على أسئلتهن عن تركية المرأة العثمانية . كان يصلى صلاته للأوقات الخمسة في حديقة السراى المخصص لإقامته ، وكان يحدث زحام كبير أمام الحديقة في أوقات الصلاة (هامر ، ١١ ، ١٥٥) .

من ناحية أخرى كانت العلاقات مع فرنسا تسير نحو التأزم . واعتبارا من ١٦٤٨ كانت أقدر دولة مسيحية هي فرنسا وليست إسبانيا . فرنسا وإنكلترا ، كانتا تنموان ، بينما كانت إسبانيا تسير نحو الانحطاط . كسر رئيس الوزراء الكاردينال ريشيليو سموخ ألمانيا ، قلل من شأن إسبانيا ، أخضع الإقطاعيين الأشراف في الداخل للملك وخلف دولة فرنسية ذات مكانة . بدأت اللغة الفرنسية وأدبها الرفع في الانتشار بين الشعوب المسيحية كافة . سبقت الفرنسية اللاتينية والإيطالية بمراحل ، وصارت في أوروبا Lingua Franca التي ستحافظ على وضعها هذا في العالم أجمع حتى ١٩٤٠ ، وسوف تترك في هذا التاريخ مكانها إلى اللغة الإنكليزية . كان الملك لويس ١٤ مسيحيا متعصبا ، ويلقب بـ « الكاثوليكي المركز » . كان يساند بصورة دائمة البندقية التي كانت في حالة حرب مع تركية ، ويرسل إلى كاندية في كريت وحدات ومساعدات كبيرة . حقر سفراء عديدين لهذا السبب ، لكنه لم يتمتع عن مساعدة البندقية . وافق كوبرولو - زاده على مقابلة الشاب السفير LaHaye ، وبعد أن هدده وحقره بوصفه « يهودي » وطرده من حضرته ، وعند خروجه صفعه على خده أحد مرافقي الصدارة (١٦٦٥/١٢/٧) (فون هامر ، ١١ ، ١٥٩ - ٦٠) . حرضت إستانبول أسطول الجزائر ، على ضرب فرنسا . أنزل الأسطول الفرنسى بقيادة دوق Beaufort ٨٠٠٠ جندي مشاة على Cicelli واستولى على هذا الميناء الجزائرى . أدركهم شعبان أغا قائد الإنكشارية في الجزائر وذبح بالسيف ٢٠٠٠ فرنسى ، وركب البقية سفنهم وهربوا إلى فرنسا . جرى هذا الحادث في ١٦٦٤ . وصار له صدى كبير بحيث لم يتمكن الفرنسيون من تحقيق إنزال آخر على الجزائر الا بعد ١٦٦ سنة في عام ١٨٣٠ (Watbled, Expédition du Duc de Beaufort Contre Gigelli, Revue Africaine, 1873; Montchicourt, L'Expédition de Djidjelli en 1664, Revue Maritime, 1898) .

أعطيت القيادة العليا لحرب كريت إلى كوبرولو - زاده (١٦٦٦/٥/١٥) . مضت ٢١ سنة على فتح حملة كريت . كانت كاندية وعدة قلاع صغيرة تقاوم حتى الآن . كانت أوروبا تمطرها بالمساعدات . الوحدات الفرنسية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، الألمانية ، البابوية جعلت من كريت الشرقية ساحة مناورات . أخذ الأمر شكل مسألة كرامة بالنسبة للمسيحيين تجاه الإسلام . تحرك البادشاه مع كوبرولو - زاده من أدرنة وشيخ السردار الأكرم لغاية ميناء Golos في Tesalya . صعد فاضل أحمد باشا إلى خانيا بـ ١٦٧ قطعة بحرية (١٦٦٦/١١/٣) . قضى فصل الشتاء هناك . اشتغل بتجهيز جيشه مدة ٦ أشهر و ١٣ يوماً . تحرك من خانيا في ١٦ أيار وشرع في حصار كاندية صباح يوم ٢٦ أيار ١٦٦٧ .

دام الحصار ٦ أشهر و ٢١ يوماً . لم تسقط القلعة . استشهد خلال هذه المدة ٨٠٠٠ جندي . انفجر ٨٠٠٠ لغم . استهلك ٢٠ ٠٠٠ قنطار من البارود . أمطرت القلعة بمعدل ٤٠٠ قذيفة يومياً . وفي ١٦ ت ١٦٦٧/١ رفع الصدر الأعظم الحصار لكنه لم يترك مواقعه أمام كاندية . قضى فصل الشتاء تحت الأرض في المدينة ، في الملجأ الذي حفره أمام كاندية ، كانت والدته عائشة خاتون وأخوه الصغير على بك يرافقانه . لأول مرة في التاريخ يدخل جيش كبير تحت الأرض ويمضي الشتاء .

وفي ٣٠ حزيران ١٦٦٨ بدأت حرب كاندية مجدداً بهجوم العثمانية . تحرك السلطان من أدرنة (١٦٦٨/٦/١٨) وجاء إلى Golos ، حتى إنه فكر في العبور إلى كريت . قضى الجيش الهمايوني والصدر الأعظم شتاء عام ١٦٦٨ - ٦٩ في مدينة تحت الأرض أمام كاندية . جاء في ذلك الشتاء من البندقية إلى أدرنة أحد السفراء فوق العادة . وبناء على طلبه سمح له بالثول أمام الوزير الثالث من زيفونلي قره مصطفى باشا ، قائم مقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . صرح بأنه مفوض للتفاهم حول أى طلب تطلبه العثمانية . لعقد الصلح ، شرط أن تبقى كاندية لدى البندقية . وأفاد بأن المسألة لو كانت في سلطة مجلس أعيان الجمهورية لترك كاندية منذ زمن بعيد ، فقد أصبحت هذه القضية بلية ، ولا تستأهل فقدان البندقيين هذا القدر من النفوس والأموال ، لكنه يخشى أن يحاسبهم حكام الدول الأوروبية العديدة

وعلى رأسهم البابا ولويس الرابع عشر على ماأرسلوه من مساعدات وجنود ونقود كثيرة إلى كاندية .

كان لويس ١٤ قد أرسل إلى Morosini ، الذى يدافع عن كاندية فرقة بقيادة دوق ومبالغ كبيرة من النقود (Bougeois ، ١ ، ٧١) ، ومن ناحية أخرى كان السفير التركى سليمان أغا المرسل إلى باريس ، يستقبله لويس ١٤ بمراسم فوق العادة . إن الذى عرف القهوة - التى يحب شربها الفرنسيون الآن - للفرنسيين وجعلهم يتذوقونها هو سليمان أغا هذا . وقد انتشرت فى فرنسا مع هذه البعثة عادات وأزياء ملابس الطراز التركى وأصبحت طرازا ونموجا عاما . إن مولير يستهزئ بهذا الطراز المسمى (Turquerie) فى كتابه Bourgeois Gentilhomme وينقد أشرف الفرنسيين الذين يقلدون الأتراك (هامر ، ١١ ، ١٩٥ ؛ Vandal, Marquis de Nointel ، ٢٢ ٣٤) . وقد لحن ملحن القرن ١٧ الفرنسى الكبير Lulli الأغاني على شرف السفير التركى .

وخلال المرحلة الأخيرة لحرب كاندية كان محمد الرابع يتجول فى Tesalya للعبور إلى كريت إذا اقتضت الضرورة . وذات مرة تسلق على ذروة جبل أوليمبوس الذى يعتبر ملتقى آلهة اليونان القدامى . وأثناء تسلقه سقط حصانه الذى كان يركبه إلى الهاوية ومات . ورغم أن البادشاه نجا من قبيل الصدف ، إلا أنه استمر على الصعود مشيا على الأقدام . والمشهور عنه أنه أثناء اقترابه من الذروة قفز بحصانه من حافة هاوية عريضة مما أدهش معيته الذين لم يجسروا على ذلك (هامر ، ٢٠٠/١١) .

بدأ الحصار النهائى لكاندية فى ١ حزيران ١٦٦٩ . وفى ٢٤ حزيران جاء الأسطول الفرنسى ودخل الميناء بقتة ، وأنزل ١٦ ٠٠٠ جندى فرنسى آخر إلى القلعة . كان هذا الجيش يضم عدة أمراء فرنسيين وأشرف . قتل فى ٢٥ حزيران دوق Vendôme الأمير François (١٦١٦ - ١٦٦٩) حفيد هنرى ٤ وابن أخ لويس ١٤ ، وفى ٢٩ حزيران قتل الدوق Beaufort أحد دوقات الإنكليز . خرج الإنكليز الموجودون فى القلعة ويدهم العلم الأبيض وأفادوا بأن الدوق هو ابن أخ الملك ، ورجوا تسليم اللجنة إليهم لإرسالها إلى إنكلترا ، ووصفوا الأمير بإسهاب .

أمر الصدر الأعظم بالبحث عن الجسد ، ولم يعثر عليه بين آلاف القتلى . وفى ٣ تموز ، نقلت ١٥ سفينة فرنسية و ٩ بابوية و ٧ مالطية و ٤ بندقية المعونات إلى كاندية . كان يدافع عن القلعة ١١٠٠ مدفع بندق ، عدا مدافع الأسطول الراسى فى الميناء . لم تكن السفن التركية تستطيع الدخول إلى الميناء ، إذ إن جهة القلعة التى تشرف على البحر كانت تحمى بمدافع جبارة . وفى ٩ آب ، أصيب كونت Waldeek أحد الحكام الألمان ومات .

كان Francesco Morosini يتولى الدفاع عن كاندية منذ ١٣ عاما ويعتبر من أكبر العسكريين فى عصره . جمع جنرالات وإميرالات الأقطار المختلفة فى مجلس عسكرى ، وأفاد بأنهم يملكون القسم السطحى فقط للقلعة وأن الأتراك أسسوا مدينة تحت القلعة وشقوا لها شوارع وأزقة ، وأنهم يفجرون الأنفاق عدة مرات يوميا . أفهمهم بأن ليس بالأمكان الدفاع عن هذه القلعة أكثر من ذلك ، وحتى لو أمكن استمرار الدفاع فإن القلعة لاتعادل حجم الخسائر فى الأرواح والأموال . راجع Moro Sini فى ٢٨ آب (١٦٦٩) فاضل أحمد باشا ، وطلب المفاوضة .

وأثناء استمرار المفاوضات يوم ٣١ آب جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها الأحياء والجرحى وتركت كاندية . وبخ البابا بعد ذلك ، أشد التوبيخ أميراله الذى ترك كاندية قبل انتهاء المفاوضات . ولم يوافق لويس ١٤ حتى نهاية حياته على مقابلة الدوق Noailles لهروبه من كاندية . لقد أفزعت دموية ووحشية الحرب الأوروبيين . والحقيقة هى أن القائد العام البندقى موروسينى لم يطلب المفاوضة وضمان الأمان من العثمانية ، إلا بعد تصريح دوق Noailles الذى حدث فى ٢٠ آب والذى ذكر فيه أنه سيسحب جنوده إلى فرنسا وأنه تكبد خسائر فادحة .

وقعت المعاهدة يوم ٥ أيلول وأوقفت الحرب . دام حصار كاندية النهائى هذا ٣ أشهر و ٤ أيام . تنص معاهدة كاندية المحتوية على ١٨ مادة والتى عقدت بعد مؤتمر دام ٨ أيام على مايلى :

تنتقل إلى العثمانية كاندية والـ ١١٠٠ مدفع الموجودة بداخلها وجميع المهمات العسكرية. تعود جزيرة كريت لتركية . تترك ٣ قلاع صغيرة للبندقية ، شرط عدم

استعمالها في غير المعاملات التجارية (ضمت هذه القلاع بعد مدة إلى العثمانية) .
يمكن لأفراد حامية كاندية الذهاب إلى البندقية سائمين حاملين معهم ما يستطيعون حمله
من المال والسلاح . لا يسمح بحمل الأموال بواسطة الدواب . تخلى المدنيون وتسلم
إلى الجيش العثماني خلال ١٢ يوما . لا يسمح خلال هذه المدة بإجراء أية معاملة
سيئة ، مهما كانت ، تجاه المسلمين الأسرى الموجودين داخل القلعة ، وأساسا فإنه
سيتم خلال هذه المدة مبادلة أسرى كلا الطرفين ، وفور التوقيع على المعاهدة ، ستعلن
الهدنة بإطلاق المدافع وسوف لا يطلق بعد ذلك أى سلاح .

وهكذا انتهت الحرب العثمانية - البندقية التي دامت ٢٤ سنة و ٤ أشهر و ١٦
يوما والتي كانت دموية حقا بمؤتمر صلح دام ٨ أيام فقط . مضى على الحصار الأول
لكاندية الذي أجراه فاضل أحمد باشا ستين و ٣ أشهر و ٢٠ يوما وخلال هذه
المدة فقط استشهد تقريبا ٣٠ . ٠٠٠ جندي عثماني ، استهلك ٧٣٠ . ٠٠٠ قنطار من
البارود ، فجر ٣٥٠٠ لغم (نفق أرضي) أما البندقيون فخلال نفس المدة خسروا
٢٠٠٨٨ قتيلًا ، حققوا ٨٠ خروجًا ، صدوا ٦٩ هجومًا عثماني وفجروا ١٣٦٩
لغما . ويروى أن ١٣٠ . ٠٠٠ عثماني قتلوا في كريت خلال ربع قرن . وبهذا فقط
أمكن إزاحة حكم الإيطاليين من الجزيرة الذي دام ٤/٥ قرن . كان عزم كوبرولو -
زاده هو الذي حقق فتح الجزيرة . ولولا وجود شخص يعتمد عليه تمام الاعتماد ،
في العاصمة مثل مرزيفونلي قره مصطفى باشا لما وجد أى صدر أعظم في نفسه
الجرأة الكافية للابتعاد عن المركز هذه المدة الطويلة . إذ إنه لم يخرج من كريت
أبدا طيلة ثلاث سنوات ونصف . وقد عمل ذلك ليكون قدوة للجيش .

وفي الساعة ٩ من صباح يوم ٢٧ أيلول (١٦٦٩) قدم البندقيون إلى السردار
الأكرم داخل صهنية فضية مفاتيح كاندية الـ ٩٣ . بدأت الوحدات التركية في دخول
المدينة . أخذ الروم المحليون يهتفون المتهافتات الموالية ؛ لأن آخر قطعة أرض يتكلم
ساكنوها اليونانية تنضم إلى الدولة العثمانية . و بعد ذلك ، استقبل كوبرولو - زادة
Moroxsini الذي دافع عن القلعة بشرف سنين طويلة . حادثه بكلمات رقيقة جدا
وقدم له الهدايا الثمينة . قام باشوات العثمانية بزيارات مجاملة للأشراف الإيطاليين ،
الفرنسيين ، الألمان ، الإسبان ، الإنكليز الذين كانوا يدافعون في الخنادق المقاتلة لهم
وكان بينهم أيضا Duc de la Feuillade من أكبر أشراف الفرنسيين . زار أغا

الإنكشارية (بنى جرى أغاسى) الجنرال Coigny السويسرى وأثنى على قدرته العسكرية وهنأه على ذلك . كان العدو ممتنا بقدر ما كان الأتراك كذلك عند إنزال الصليبان الموجودة على القلعة ورفع العلم التركى ذى الهلال مكانها . استقبل الكل بسرور انتهاء هذه الحرب الجنونية .

أنيرت الجزيرة بكاملها ٧ ليال وأطلقت القذائف الضوئية تعبيراً عن الفرح طيلة ٧ ليال . قبل كوبرولو - زاده يد والدته المسنة عائشة خاتون ، التى أصرت على عدم الذهاب إلى الحج قبل أن ترى فتح كاندية . عاشت مع ابنها تحت الأرض ، وتحركت الآن متوجهة إلى الحج مرتاحة الضمير . والمعلوم أن كوبرولو محمد باشا ، مدين برخائه لرؤة زوجته الكبيرة عائشة خاتون والكوبرولو الأصلى هو يوسف أغا والد عائشة خاتون الذى كان فوفودا (أمير) الجسر (كوبرى) لـ (وزير كوبرى) . كان محمد الرابع فى هذه الأثناء يذهب من بنى شهر إلى أغرى يوز ، كان فى Livadya (شمال - شرق أثينا) . عندما أيقظ مرزيفونلى قره مصطفى باشا قائمقام الصدارة السلطان من نومه ليلا وأعلمه بفتح كاندية ؛ أظهر الخاقان سروره بقوله « الحمد لله » . وبينما كان يريد التوجه إلى كريت قرر العودة إلى سلاتيك . أرسل إلى كوبرولو - زاده سيفاً مرصعاً وخطاً هاميونيا يبلغه فيه تبريكه .

قضى كوبرولو - زاده شتاء عام ١٦٦٩ - ٧٠ كذلك فى كريت وأشرف على إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وإنشائها مجدداً وجرى العمل على قدم وساق . غادر الجزيرة بعد فتح كاندية بـ ٧ أشهر و ٨ أيام (١٦٧٠/٥/٥) . قضى فى جزيرة كريت بصورة كاملة مدة ٣ سنوات و ٦ أشهر ، ٣ أيام يشاهد بهدشة عظيمة التغيرات والحفر الكبيرة والتلال الصناعية التى أحدثتها مدافع وألغام الطرفين فى طبرغرافية الجزيرة . صار الوزير عنكبوت أحمد باشا قائد كريت السابق بكلربك على كريت . نزل كوبرولو - زاده إلى البر فى تكرداغ وذهب إلى أدرنة لمقابلة البادشاه . وفى ١ تموز ١٦٧٠ استقبله محمد الرابع بتلطف لم يسبق له مثيل إلى ذلك الحين - خارج أدرنة وهو على ظهر جواده . كان البادشاه قد بلغ ٢٨/٥ عاماً والصدر الأعظم يكبره بـ ٦ أعوام فقط .

لم يسبق حتى ذلك اليوم وفى أى قطر من أقطار العالم أن يكرس جهد لقلعة واحدة كما كرس لكاندية ، ولم يسبق أن يصرف على أى موقع مستحكم هذا القدر

من الأنفس والأموال . حوصرت القلعة ٣ مرات خلال ٢٥ عاما . قصف كلا الطرفين الآخر بقذائف يزن بعضها ٥٠٠ ليبره . أطلق البندقيون ، للدفاع عن القلعة ما مجموعه ٢٧٦٧٤٣ فذيفة مدفعية و ٤٨١١٩ قبرة ، ١٠٠٩٧٠ قبرة يدوية ، ٤٨٧٤ قبرة كيماوية واستهلك لذلك ١٨٠٤٤٩ قنطارا من الرصاص ، ١٢٥ ، ١٣٠ فتيلة ، ٥٢٧٠ برميل بارود . أما الأتراك فاستهلكوا ٧٣٢٠٠٠ قنطارا من البارود (فون هامر ، ١١ ، ٢٢٧) .

قسمت لإالة كريت إلى سناجق (ألوية) خانيا ، كاندية ريسو وانتقل أحد المراكز البحرية من المراكز الثلاثة التى تركت للبنديقية Granbosa فى ١٦٩٢ و Suda و Spinalonga فى ١٧١٥ إلى العثمانية ، وهذه آخر بقايا حكم إيطاليا الكاثوليكية واللاتين الذى استمر عصورا طويلة - وكلها من نتائج الحروب الصليبية التى تم قلعها من أرخبيل الجزر وشرق البحر الأبيض .

٥٩) تشكيلات الإنكشارية فى المغرب (مغرب أوجاقلرى ، بحريات إيلات الجزائر ، تونس ، طرابلس ، ليبيا)

إن خدمات القطع البحرية للجزائر ، تونس ، طرابلس كانت خدمات كبيرة طيلة فترة استمرار حرب كريت وذلك إما بدخولها إلى مياه كريت واشتراكها فى القتال ، أو بقطع طرق المعونات الأوروبية . ومنها قوة جزائر البحرية . كانت أسطولا بالمعنى الصحيح . وفى ربيع عام ١٦٥٠ قصف الأسطول الجزائرى خليج ليون ، Côte d'Azur ، بحر ليكوريا ، كورسيكا وفى أيلول شوهه فى نابولى . وفى عام ١٦٥١ التالى حققوا إنزالا على Civitavecchia ووصلوا قرب روما . وفى ١٦٥٣ قصفوا Balearlar وخرجوا إلى المحيط الأطلسى ودخلوا بحر المانش وأحرقوا Saint Malo مركز قراصنة الفرنسيين مع السفن الراسية فى الميناء ، ثم دخلوا ميناء Plymouth وحرقوا السفن الإنكليزية . وبهذا يكونون قد انتقموا منهم لمساعدتهم التى قدموها لكريت .

وعند تثبيت نهر Tafna حدودا فى ١٦٤٩ انتقلت Vacda - وهى أهم مدن فاس القرية من الجزائر - إلى لإالة الجزائر . كانت تطوان مركز البحر الأبيض ،

وسالة مركز المحيط الأطلسى لقراصنة فاس . كان أكثرية الرهابة أتركا من الأناضول ، وأكثرية الملاحين من المهاجرين الأندلسيين . الأميرالان : رئيس القراصنة الأندلسى الأصل المسمى عياشى وخلفه غيلان كانا يتسلمان المعونات سواء من الجزائر أو من إستانبول رأسا ، وكانا يرسلان الهدايا إلى السلطان .

وفى عام ١٦٦١ سار أسطول الجزائر فى البحر الأدرياتيكي واليونانى واقتحم المدن التابعة للبندقية وإيطاليا . وعاد إلى الجزائر بغنائم تقدر بـ مليونين سكة ذهبية . وبعد ضرب إسبانيا و Balcarlar ، جرى إنزال على Livorno . وفى ١٦٦٣ اقتحم أحد الأساطيل نابولى ، واقتحم الآخر قادش Cadiz أكبر مركز بحرى لإسبانيا على المحيط الأطلسى . وحصل أسطول الجزائر (الذى اقترب حتى ميناء البندقية فى ١٦٦٤) ، فى السنة التالية فى المحيط الأطلسى بقطعه طريق السفن التى تنقل البضاعة من الهند - على غنائم تقدر بـ ٢ مليون سكة ذهبية . اقتحمت نابولى فى ١٦٦٦ ، وبعدها جرى إنزال على Otranto .

وفى ١٦٦٧ أوقف أحد الأساطيل فى الأطلسى السفن التى تنقل البضاعة من الهند ، وحقق أسطول آخر إنزالا على سواحل نابولى وجزيرة كاهرى . وفى ١٦٦٨ تم حرق السفن الراسية فى ميناء Genova ثم قصفت سواحل Pulya . وفى ١٦٦٩ قصفت Côte d'Azur وخلال ذلك تم قصف ميناءى Genova و Monaco . وفى العودة تم تحقيق إنزال على كورسيكا . وتم فى ١٦٧٠ تخريب موانئ خليج Man Fredonia فى الأدرياتيك . وفى ١٦٧١ تم قصف سواحل Kaliabria ، Pulya صقلية التابعة لإسبانيا . وتم فى ١٦٧٢ تخريب سواحل نابولى والأدرياتيك . وفى ١٦٧٥ تم قصف سواحل Latium التابعة للبابوية ، ومحيط روما وجنوب إيطاليا العائدة لإسبانيا وصقلية . وقصف ميناء Malaga العائد لإسبانيا وموانئ البرتغال الواقعة على الأطلسى (لخص عن Grammont) .

كان فى الأسطول الجزائرى ، عام ١٦٢٠ ، ٣٠٠ ربان (قبطان) تركى ماهر ، ٨٠ سفينة ومئات من السفن الصغيرة . كان قوام تشكيلات (أوجاق) الإنكشارية فى الجزائر ٢٢٠٠٠ شخص . أما صنف قول أوغوللرى ووحدات الخيالة من العرب البرابرة المحليين فكانوا يشكلون وحدات منفصلة . تغير هذا الوضع فى أواخر العصر ١٧ أخذ عدد الأتراك القادمين من الأناضول وروملى إلى الجزائر يقل جدا . وعدد

جنود البحارة الإنكشاريين (لوند) أخذ يقل هو الآخر بشكل خطر . عدد الإنكشارية هبط من ٥٠٠٠ في ١٧٦٩ ، إلى ٣٢٠٠ في ١٨١٧ . اضطر البكرليك (دايى) إلى تقديم رتب جماعة « القول أوغوللرى » وتشكيل الجيش من أفرادهم . إن « القول أوغوللرى » هم أتراك مولودين من النساء المحليات ولم يكن في استطاعتهم تنفيذ شئون البحارة (لوند) ، لكنهم كانوا عساكر بر قديرين . أخذت عناية إستانبول بالجزائر تقل على مر الزمن لانشغالها في مشاكلها . لم تكن المساعدات تصل كما كانت في السابق . هيأت هذه العوامل الجو الملائم لفرنسا للاستيلاء عليها عام ١٨٣٠ .

وفي ١٦٧٩ اقتحمت في الأطلسى جزر Asor التابعة للبرتغال ، وفي ١٦٨١ اقتحمت سواحل كورسيكا ، صقلية ، نابولي ، لاتيوم وتم الاستيلاء على ١٠ سفن بابوية راسية في Civitavecchia . وفي ١٦٧٩ أراد سلطان فاس لإسماعيل الكبير ، الاستيلاء على الجزائر لكنه هزم وانسحب . وفي ١٦٨٢ تم الاستيلاء على ٢٩ سفينة فرنسية ، و ٣٥٠ سفينة إنكليزية خلال ٤ سنوات . وقبل ٣ أيام من بدء مرزيفونلى قره مصطفى باشا محاصرة فينا صار ميزومورتا حسين رئيس « دايى » في الجزائر (١٦٨٣/٧/١١) ومنع رتبة الباشوية وبكرليك (فريق) . هذه الشخصية صارت بعد ذلك قبطان دريا (مشير بحرى) وهو آخر أمهرال داهية أنجبه الأتراك . وفي ١٦٩٠ استدعى ميزومورتا حسين باشا إلى إستانبول ، وترك شعبان دايى نائباً عنه في الجزائر . صار في البداية أمهرالا لأسطول السفن الحربية الشراعية (كالليون) ، وبعد مدة صار قبطان دريا . وفي ١٦٩٣ دخل مولاي لإسماعيل الكبير إلى الجزائر مع ١٤٠٠٠ مشاة و ٨٠٠٠ خيال ومدفعى ، واسترجع Vacda . أدركه شعبان دايى مع ١١٠٠٠ انكشارى و ٣٠٠٠ سباهى و ١٠٠٠ خيال عربى . رغم تكبد الجيش الفاسى ٥٠٠٠ قتيل ، ظلت Vacda لدى فاس . استاءت إستانبول من إدخال دولة إسلامية كفاس جنودها في إيالة الجزائر في الوقت الذى تخوض فيه العثمانية مع أوروبا معركة حياة أو موت . أرسلت إستانبول سفيرا إلى مكناسة . أراد سلطان فاس إرسال مولاي عبد الملك أحد أبنائه إلى الجزائر لحل مشاكل الحدود . إلا أنه لم يحصل اتفاق . غلب وجرح السلطان لإسماعيل الذى يقود ٥٠ ٠٠٠ جندى تجاه مصطفى دايى وقتل أكثر من ٣٠ ٠٠٠ فاسى في الحرب الميدانية جدوثة

(٢٨/٤/١٧٠٠) . وانتقل مزراق السلطان ليد الأتراك . ترك مولاي إسماعيل الذى عاشت فاس على عهده آخر أيام عظمتها التدخل فى شئون الجزائر .

وفى السنين ١٦٩٢ و ١٦٩٥ طلب الديوان انسحاب الأسطول الجزائرى إلى بحر الأرخيبيل ، كان أسطول الجزائر حتى ١٦٩٩ يشترك فى حروب العثمانية ضد الدول الأوروبية ، وضرب فى كل عام تقريبا إيطاليا وصقلية . إلا أنه فى هذا التاريخ عقد صلح بين العثمانية وأوروبا . وقلت الغنائم التى كانت ترد إلى الجزائر . وبسبب عدم مجيء (لوند) بحارة إنكشارية من الأناضول ، أخذ أسطول الجزائر يتقلص . ازدادت الحاجة إلى البحارة إلى درجة أن أسطولا جزائريا جاء فى عام ١٧٠٠ إلى ميناء فوجا فى أزمير وأخذ ماصادفه من الشباب بالقوة إلى الجزائر وسجلوهم بحارة . احتسبت هذه العملية ضد أسطول الجزائر ، حيث ألغى الديوان الهمايوى ، امتياز تسجيل الجزائر لشباب الأناضول الراغبين اختياريا الانخراط فى سلك البحرية والذى كانت الجزائر قد حصلت عليه منذ منح السلطان ياووز سليم هذا الامتياز إلى أخوة بارباروس ، لكنه أجاز ذهاب شباب الأناضول الراغبين إلى الجزائر وتسجيلهم بحارة (لوند) وقد بقى هذا السماح الأخير حبرا على ورق . إذ إن ذهاب شاب أناضولى فى ذلك العهد إلى الجزائر بإمكاناته الخاصة لم يكن بالأمر السهل (Mühimme ، ١١١ ، ٤٩٣) . وفى مستهل القرن ١٨ كانت بحرية بكربكية الجزائر العظمى فى قمة عظمتها ، ثم أخذت فى التدهور .

ونفس الحكم سار بالنسبة لبحريتى البكلربكوية الآخرين من بحريات البكلربكوية الثلاث التى يطلق عليها العثمانيون اسم « مغرب أو جاقلرى » وهى بحرية تونس وطرابلس (ليبيا) .

وفى تونس بقيت الإيالة تحت إدارة أغوات الإنكشارية فعلا والتى تسمى (دايلق دورى) فترة الدايات التى استمرت ٦٥ سنة من ١٦٤٠ إلى ١٧٠٥ .

وفى ١٧٠٥ عاد حكم البكلربك . صار حسين باشا ابن تورك على باشا بكربك (١٧٠٥/٧/٩) . بدأ بعد هذا التاريخ فى تونس تعيين البكوات من هذه العائلة ، تأسست السلالة التى تسمى الحسينيين ، والتى يطلق عليهم اسم « بكوات تونس » . أما فى طرابلس فقد بدا عهد « الداى » بعد أن خسر عثمان باشا الكفاح ضد

الإنكشارية (١٦٧٢/٤/٢٩) . ولكن كان بعض البكهربكات يملون رغباتهم على الداهات ويتحكمون في إدارة الإمالة .

٦٠) حرب بولونيا (١٦٧٠ - ١٦٧٦)

في هذه الفترة التي أخذ فيها نجم أوروبا الغربية كفرنسا ، إنكلترا ، هولندا ، السويد في التآلق دخلت بولونيا (بالتركية لهستان) في دور الانحطاط مثل إسبانيا والبندقية . ورغم أنها كانت آنذاك دولة أهم من روسيا إلا أنها استنفدت قوتها السابقة (في عام ١٧٠٠ تقريبا ، كان تعداد روسيا وبولونيا يساوى أحدهما الآخر وكل منهما ١٢ مليوناً) . عين سوياسكى Sobiesky في ١٦٥٦ سفيرا في إستانبول (هو الذي سينتخب ملكا في ١٦٧٤) . ويروى أن نفشى الطاعون عام ١٦٦٠ ، قضى على ثلث نفوس بولونيا (A. Jobert, Histoire de la Pologne ، ص ٢٩) (وبعدها طاعون عام ١٧١٠ - ٢٠ السارى ، أفنى الملايين من البولونيين ، نفس الكتاب ، ٣١) . ومع ذلك كانت بولونيا - ليتوانيا لازتزال الثالثة من جهة التعداد في قارة أوروبا بعد تركية ، فرنسا ، ألمانيا ، بينما كان تعداد الدول كروسيا ، إسبانيا ، إنكلترا في قارة أوروبا أقل من ذلك . ومع أن بولونيا دخلت في فترات مختلفة تحت النفوذ العثماني حتى إنها اعترفت بتبعيةها للسلطان ودفعت ضريبتها السنوية إلا أن خلافات تركية معها والتي كانت تتطور بين الحين والآخر إلى درجة القتال لم تحقق النفع للعثمانية ، وفيما لو أخذنا بعين الاعتبار التطورات التي حصلت بعد ذلك وأنها - لكونها كانت تؤمن النفع لروسيا - فإنها كانت مضرة للعثمانية ، إذ لم يكن بالإمكان في القرن ١٧ رؤية التطورات المقبلة حيث إن بولونيا كانت في البداية دولة أقوى وأكثر أوروبية من روسيا ، وكان من الطبيعي أن ترجع العثمانية الوقوف أمام الأقوى . ثم إن بولونيا كانت كاثوليكية . ولم تكن علاقات العثمانية حسنة مع العالم الكاثوليكي . ولم يتسن في أى وقت من الأوقات عقد صلح مع دولة البابوية ، أو التوقيع معها على معاهدة . لأنه لم يأت بابا على الإطلاق مستعد لترك فكرة إزاحة العثمانية من القارة الأوروبية . أما روسيا فكانت أرثوذكسية ، ولم يكن ارتباطها بالبابا بل بالطريق العالمى في إستانبول . إذ إن باتريك (بطريق) موسكو كان تابعا لبطريق

فتر Fener في إستانبول . أما البادشاه بصفته إمبراطور البيزنط (بالعثمانية قيصر الروم) فقد كان حاميا للأرثوذكسية والباتريك العالمى وفى نفس الوقت حاكمهم . كان عدم جعل الأرثوذكسية لقمة سائفة للكاتوليكية هو مبدأ سياسة العثمانية الذى لم يتغير لعدة عصور . إن تحركات روسيا كان فى الإمكان وقفها عند حدها بواسطة خان قرم . أما بولونيا فقد استوجبت تحركاتها إدخال الجيش فيها مرات عديدة حيث كان يسهل على بولونيا أكثر من روسيا الاتفاق مع الدول الأوروبية للوقوف ضد العثمانية .

كانت القضية الرئيسية .. أوكرانيا . كانت سواحل البحر الأسود لأوكرانيا الحالية مسكونة بالأتراك ، وتحت إدارة العثمانية - وكان يسكن بقية البلاد ، الأوكران (الأوكرانيون) وهم أرثوذكس ، والقسم الأكبر من اوكرانيا كان تحت إدارة قرم أو تحت نفوذها . أما القسم الشمالى - الغربى من البلاد ، فكان تحت حكم بولونيا الكاثوليكية . وكان احتمال تدخل الروس من الشمال يزداد يوميا . هتمان (أمير) أوكرانيا دوروشنكو ، صار تابعا للعثمانية ومنح رتبة صنجق بك بينما كان تابعا لبولونيا . وعندما عارضت بولونيا ذلك ، أرسل الديوان الهمايوى ٦٠٠٠ جندى لمساندة دوروشنكو ضد الإستيلاء البولوى ، سرت روسيا لتورط العثمانية وبولونيا بسبب أوكرانيا سرورا كبيرا . لم يفزع بولونيا ادعاء العثمانية حكم أوكرانيا بأجمعها ، ومساندة هذا الإدعاء بالسلاح والجيش ، ولم تتخل عن اوكرانيا . على أثر ذلك ، قررت الحملة الهمايونية (الحملة التى يقودها البادشاه بنفسه) . وكان قد مضى على الحملة الهمايونية لعثمان الثانى عم محمد الرابع - على بولونيا ، ٥١ عاما .

تحرك محمد الرابع للحملة الهمايونية مع الجيش من أدرنة (١٦٧٢/٦/٤) . كانت القيادة الفعلية للمصدر الأعظم كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا . نصب أحد ضباط الاستحكامات المسمى بلغرادلى زعيم يوسف أغا على نهر دجلة جسرا طوله ٥٦٥ مترا وعرضه ٧ أمتار واجتاز عليه الجيش إلى مولدافيا (سلاحدار ، ١ ، ٥٧٥) . كان فوفودا افلاق هتمان دوروشنكو ، خان قرم سليم كيراي ، ضمن الجيش العثمانى . جاؤا إلى قلعة كامانيجو (بالاوكرانية : Kamenec Podolsk ، بالبولونية : Kaminiec) وبعد حصار دام ٩ أيام ، فتحت القلعة (١٦٧٢/٨/٢٧) . تقابل هذه القلعة قلعة خوتين التى استولى عليها الأتراك على

عهد عثمان الثانى ، وتقع خوتين على الساحل الجنوبى من نهر Dnyestr (بالتركية تورلا) ، أما كانيجه فتقع على مسافة ٢٠ كم فى الشمال - الشرق وعلى الضفة الشمالية من النهر ، وتقع مدينة جرنوفيج على مسافة قريبة من جنوب - غرب خوتين .

كان يقدر للقلمة أن تقاوم مدة شهرين ، ولما سقطت خلال ٩ أيام ، ولد ذلك الذعر فى وارسو . كان القائد العام البولونى سوياسكى ، على رأس قواته ، وكان يراقب حركات الجيش العثمانى من مسافة معينة ، ويحرص على عدم الاقتراب . تقدم الوزير قبلان مصطفى باشا (الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا ، كما كان مرزيفونلى قره مصطفى باشا) ، نحو الشمال - الغربى مع عدة فرق ، وحاذى السواحل الشمالية لنهر Dnyestr حتى وصل مصبه . وخلال شهر أيلول استولى على بولونيا بأسرها وغاليجيا . وفى ٩ أيلول ، فتح Lwow (Lemberg / Leopold) بالتركية ايلباف) وهى من أكبر مدن بولونيا (حاليا فى اوكرانيا) وصار يذكر باسم « فاتح ايلباف » . استمر نحو الشمال - الغربى واستولى على مدينة Lublin ، والمناطق الواقعة على شرق نهري سان وفيستول . وصل نقطة عرض ٥٢ وعلى بعد ١٠٠ كم من وارشو . طلبت بولونيا الصلح ، فأوقفت العثمانية الحركات العسكرية .

وقع فى قصبة بوجاس (Buezacz) فى بولونيا على معاهدة ذات ٤ مواد (١٦٧٢/١٠/١٨) :

تبقى بولونيا لدى العثمانية وغاليجيا ، لدى بولونيا ، تقطع بولونيا كافة علاقاتها مع اوكرانيا ، وتعترف بالبادشاه متبوعا لها وتدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٢٠ . ٠٠٠ سكة ذهبية . تم تأسيس بكلربكوية (إمارة) Ilbav فى بلاد Padolya بين Dnyestr و Bug ، استمرت الحملة الهمايونية ٦ أشهر ، ٥ أيام وعاد محمد الرابع إلى أدرنة (١٦٧٢/١٢/٩) .

تحرك البادشاه والصدر الأعظم اللذان بقيا فى أدرنة ٨ أشهر ، لحملة بولونيا الثانية فى ١٦٧٣/٨/٧ . اعترض ديت بولونيا (مجلس الأشراف) على معاهدة بوجاس . كانت كل من اوكرانيا وبادوليا فعلا بيد العثمانية ، لكن عدم الاعتراف بمعاهدة موقعة ، أدى إلى الحرب . وكانت العثمانية ، قد أخلت بموجب معاهدة بوجاس ، غاليجيا والأراضى البولونية التى تقع على شمالها .

كذلك كانت بولونيا قد اعتمدت ، على وعود المانيا والبابا بالمساعدة . استعاد سوياسكى من العثمانية ، في فصل الشتاء لوبلين (على بعد ١٥٥ كم من جنوب - شرق وارشو) ، وحتى Lwow . ثم هزم بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى ، جيش صارى حسين باشا البالغ ٣٠٠٠٠ جندى في حرب ميدانية خلال ٣ ساعات واستعاد خوتين (١٦٧٣/١١/١٠) . أدى هذا الانتصار إلى انتخاب سوياسكى ملكا .

بقى الجيش الهمايوى مع البادشاه والصدر الأعظم ٦١ يوما في اساكجه على نهر الدونة ، وفي ٢٠ ت ٢ ، دخل المشتى في حاجى اوغالو بازارى . تحرك الجيش الهمايوى ، مع البادشاه والصدر الأعظم ، من حاجى اوغالو بازارى في ١٦/٦/١٦٧٤ . دخل اوكرانيا وبولونيا . طلب سوياسكى الصلح ، بقى محمد الرابع ٣٢ يوما في Ladjin (Ladyzyn) على نهر Bug بين بودوليا واوكرانيا ، وبعد تثبيت مواد الصلح ، تحرك في ١٨ أيلول وعاد إلى أدرنة (١٦٧٤/١١/٢١) . دامت حملة بولونيا الثانية سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، ووقعت معاهدة Zorawno (١٦٧٦/١٠/٢٧) على أن تبقى خوتين بادوليا ، Lwow (Ilbav) ، اوكرانيا لدى العثمانية ؛ غاليجيا ولوبلين لدى بولونيا . وهكذا انتهت الحرب التركية - البولونية التى استمرت ٤ سنوات ، ٤ أشهر ، ٢٣ يوما . أمنت هذه المعاهدة بين الدولتين صلحا لمدة ٧ سنوات . والفت المادة التى تنص على تبعية بولونيا للعثمانية في معاهدة بوجاش .

٦١ وفاة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا وصدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٧٦/١١/٣)

توفى فاضل أحمد باشا عن عمر يناهز ٤١ عاما ، بعد أن بقى في الصدارة بصورة مستمرة ١٥ سنة ، ٤ أشهر (تسلسله في طول المدة ، الخامس بين رؤساء وزراء تركية) . قضى القسم المهم من صدارته في جبهات المانيا ، البندقية (كريت) ، بولونيا . بقيت الإدارة الداخلية خلال هذه المدة بيد وكيله الوزير ٣ مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، بصفة وكيل رئيس الوزراء . ولم تكن صدارة الوزير ٢ ، داماد صاحب مصطفى باشا ، موضوع بحث ؛ بسبب كونه من المنتسبين إلى السراى .

كان فاضل أحمد باشا أحد أكبر رؤساء الوزارة في تاريخ تركية المملوكين ، لم يخلف ولدا . استمر نسل كوبرولو ، من أخيه فاضل مصطفى باشا . كان فاضل أحمد باشا ذا عينين كبيرتين فاتحتين ، أبيض البشرة ، طويل القامة ، ضعيفا ، ذا لحية صغيرة ، جذبا ، محبوبا ، جادا ، كريما ، وقورا ، مجتهدا . زاد بالمشروب اتلاف جسمه الرقيق ، وكان كلامه منسقا جدا ومؤثرا ينفر من الرشوة إلى حد أنه لا يقبل هدية . (يعيد الهدية ولا يحقق طلب مرسلها ، إن كان له طلب) . لم يرث عن أبيه ظلمه واستبداده ، بل ورث عنه عزمه ودهاءه . قوى الذاكرة ، واضح التفكير ، سريع البديهة ، حذرا ، حازما عند اللزوم . لا يعد بما لا يستطيع تنفيذه . ينفر من المرائين والثرثارين والمتعلقين . يتكلم باحترام مع الأشخاص الجادين والعلماء ، ويحاول تحقيق كل طلباتهم ، وعلاوة على ذلك ، كان يحميهم شخصيا . وكان غنيا جدا . خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية . كان عالما . بدأ حياته المسلكية كمساعد لشيخ الإسلام قره جلبي - زاده عبد العزيز أفندي . كان عالما في حقول الفقه ، الكلام ، التاريخ . كان من طلاب درويش على أفندي ، خطاطا جيدا وقوى النثر في الكتابة . مقتدرا على كتابة أعوص المسائل على شكل تقارير دولة ودون كتابة مسودة . كان الشاعر الكبير ناي ، يقوم بوظيفة سكرتاريته الخاصة . حصل على شهرة عالمية تملى الخشية والاحترام لفتوحاته اوفيار ، كانديه ، كامانيه ، حروبه في جبهات المانيا ، كريت ، بولونيا . جعل الدولة تحيا حياة الرفاهية والنظام والعظمة التي كانت في عهد القانوني ، مدة ١٥ عاما . وكانت السلطنة - والدة تارخان ، تلقن سرا ابنها محمد الرابع مساندة صدره الأعظم في كل الأمور . لم يكن اعتباره لدى الحكام الأجانب بأقل من البادشاه . حقيقة لقد سحق بولونيا ، مما سبب توسع روسيا وتوليد العداء تجاه العثمانية في بولونيا ، لكن بولونيا كذلك كانت مخططة بنفس الدرجة في عدم رؤيتها المستقبل البعيد .

ولد خلفه مرزيفونلي قره مصطفى باشا ، من عابده خاتون في قرية Marinca القرية جدا من مرزيفون ، في نفس العام الذي ولد فيه فاضل أحمد باشا من عائشة خاتون في قصبة وزير كوبري . أبوه اوروج أغا ، أحد ضباط السباهية الذين استشهدوا تحت أسوار بغداد في محاصرة مراد الرابع لبغداد عام ١٦٣٩ ، وفي هذا التاريخ كان قره مصطفى في الرابعة من عمره . كان اوروج ، في ذلك التاريخ برتبة

مقدم وكنن أقرب أصدقائه خلال ذلك ، هو سنجق بك (أمير اللواء) كوبرولو محمد بك (باشا) . وقد اعتنى كوبرولو بترية ابن صديقه مع أبنائه فاضل أحمد وفاضل مصطفى ، المتقاربة أعمارهم ، اصطحبه إلى استانبول واعتنى بتحصيله ، واعتبره ابنه المعنوى ، ثم زوجه بعد ذلك بابنته وجعله صهرًا له . كان الشعب يعتبر مرزيفونلى ، الابن الآخر لكوبرولو باشا . أدار الدولة العالمية ، مع أخى زوجته ، صديق طفولته وأخيه المعنوى فاضل أحمد باشا بتناسق تام . وخلال سنوات حملات فاضل أحمد باشا الطويلة ؛ أقام فى إستانبول وأدارنه وأدار دفة الإمبراطورية بجدارة وبصلاحيات غير محدوده . صار سنجق بك (أمير لواء) فى سن ٢٤ ، وبكلربك وتسنىم وظيفة قبطان دريا (مشير البحر) مدة ٤ سنوات ، شهر ، ١٤ يوما ووكيل رئيس الوزراء مدة طويلة . تنحدر عائلة مرزيفونلى - زاده - مثل عائلة كوبرولو - زاده - من ناحية الأم ، من صالحه خاتون بنت كوبرولو الذين أدركوا زماننا هذا وقدموا للدولة العثمانية العديد من رؤساء الوزراء ، وزراء ، بكلربك ورجال دولة . أهدى منجم باشى شيخ أحمد ده ده ، كتابه المسمى جامع الدول ، أهدع وأروع ماكتب فى التاريخ العثمانى باللغة العربية ؛ إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا .

٦٢) عهد مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، وحرب روسيا (١٦٧٦ - ١٦٨٣)

نشبت الحرب مع روسيا بسبب اوكرانيا ، عين فى أوائل عام ١٦٧٧ الوزير شيطان ابراهيم باشا سردارا ، وكان يرفقته سليم كيراي خان قرم . حضر ٤٠ . ٠٠٠ جندى عثمانى - قرمى أمام قلعة جهرين (Czehryn) فى اوكرانيا . أهدى الـ ٦٠ . ٠٠٠ جندى روسى واوكرانى الموجودين فى القلعة ، مقاومة مذهشة . رفع السردار الحصار (١٦٧٧/٨/١٤) ، عزل كل من السردار والخان . وهكذا عزل قره مصطفى باشا ، شخصا قديرا جدا ، آخر عسكري قرمى كبير مثل سليم كيراي ، وعين مكانه مراد كيراي وهو شخصية ضعيفة وجعله خانا .

غادر محمد الرابع والصدر الأعظم استانبول للحملة الهمايونية الروسية الأولى (١٦٧٨/٤/٣٠) . هذه هى الحملة الأولى لسلطان عثمانى على روسيا . كان يقوم بهذه المهمة فيما مضى - والى ذلك التاريخ - القائد الأعلى وخاصة خان قرم . جاء

الجيش أمام قلعة جهرين على ساحل نهر Tiasmin (بالتركية : تاسما) قرب الساحل الجنوبي لنهر Dnyepr ، ولهذا السبب تسمى هذه الحملة « حملة جهرين » أيضا . كانت قلعة جهرين تقع على مسافة ٤٠ كم في الجنوب - الغربى من مدينة Kremenchug ، وجنوب - شرقى كييف بمسافة ٢٣٠ كم . كانت مركزا لقوزاق اوكرائنا ودخلها الروس بموافقة القوزاق . كان تحصين القلعة جيدا لاحاطتها بالمستنقعات والصخور المرتفعة وكانت الأراضي ضيقة إلى درجة لاتسمح لجيش كبير بولوجها ومحاصرتها . كان الجيش الروسى البالغ ٢٠٠ ٠٠٠ شخصا والذي يقوده الأمير Romo danowsky ، مرابطا على الجهة الأخرى من المستنقعات ، أى أنه كان يتخذ المستنقع حاجزا بينه وبين العثمانية .

سقطت جهرين ، رغم ذلك ، بعد حصار دام ٣٢ يوما (١٦٧٨/٨/٢١) . قتل ٢٠ ٠٠٠ جندى معاد والقيت أجسادهم في نهر Tiasmin . لم يتقدم محمد الرابع إلى جهرين ، حيث كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية ، وبقي في سلستره ، ثم عاد إلى أدرنه ، وعاد مرزيفونلى كذلك إلى أدرنه في ١٦٧٨/١١/٢٠ .

غادر محمد الرابع استانبول للحملة الهمايونية الروسية الثانية (١٦٨٠/١٠/٢٩) . بعد مضى سنتين على الحملة الأولى ، وقضى فصل الشتاء في أدرنه ، لكنه عقد صلحا مع روسيا ولم تتحقق هذه الحملة .

بموجب معاهدة أدرنه (١٦٨١/٢/١١) : التى وقعت عليها العثمانية مع روسيا ، دون وساطة قرم ، ومدتها ٢٠ عاما ، تقسم اوكرائنا بين العثمانية وروسيا . تبقى ضفاف Dnyepr الشمالية التى تقع بعد كرمنجوغ لدى روسيا ، وضفافه الجنوبية لدى العثمانية ، تبقى مدينة كييف الارثوذكسية المقدسة التى تقع على ضفافها الغربية لدى روسيا ، وعلى هذا الأساس ، فان شريطا سميكيا شمال اوكرائنا ينتقل إلى روسيا . يستمر القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثمانى وقرم . تستمر روسيا في تقديم الضريبة السنوية إلى قرم وتدفع المتراكم خلال سنوات الحرب الثلاث ، دفعة واحدة . بعد عقد الصلح في استانبول استقبل محمد الرابع ، السفير الروسى (١٦٨١/٥/١٦) ، وقدم السفير هدية القيصر وهى ١١٩٤ قطعة فرو زبلن ، ١٠ مورس اثني ، ١٠ طيور صيد (هامر ، ١٢ ، ٥٥) . قال البادشاه للسفير : « قل

للمليك ، أن يراعى الصلح ، والا تعرض للعقاب ، (سلاحدار ، ١ ، ٧٥٣) .
تتضح من هذه الافادة ، ماهية روسيا ومنزلتها بالنسبة إلى العثمانية .

كان لنهيبية Côte d'Azur في ١٦٦٢ ودحر الأسطول الفرنسي في البحر الأبيض على يد الأسطول الجزائري واغتنامه ٢٩ سفينة حربية في ١٦٨١ ، وقع أليم على فرنسا . لم يتلق سفراء فرنسا الذين قدموا شكاوى عديدة لاستانبول ، اية اجابة ؛ لأن الباب العالي ، لم ينس تأييد فرنسا للسياسة الكاثوليكية للبندقيين والألمان اثناء ماكانت العثمانية في حرب . يقدر عدد السفن التي كان يستولى عليها شهرياً من فرنسا وتجلب إلى الجزائر خلال العصر ١٧ ، ب ٢٠ سفينة . كان لويس الرابع عشر ، يشعر بآثار الضرب والصفع على وجهه . لويس الرابع عشر هو الذي ضرب سفيره بالفلقة وصفح وحبس في يدى كوله - ولم تكن فرنسا لتجسر على مجابهة الإمبراطورية العثمانية بالحرب ، بسبب مصالحها التجارية الكبرى معها . ولكنها ساندت اعداءها جهرا في الحروب ضد العثمانية دون أن تدخل الحرب . وهكذا ، فانه في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في مستهل خلاف شديد جدا مع المانيا ، كانت علاقتها متوترة جدا مع فرنسا التي هي أقدر دولة مسيحية ، وكانت في حرب مستمرة مع أسبانيا ، علاقتها مع بولونيا سيئة جدا . البندقية وروسيا ، تمنيان النفس بالخلاص من صفع العثمانية . كان هنالك شيء واحد يريح النفس ، في هذا المشهد السياسي ، وهو أمانها في الشرق من إيران .

كانت وفاة الوزير قبلان مصطفى باشا في سفينة الإمبرالية (١٦٨٠/١٢/٥) في أزمير ، خسارة كبيرة للدولة . قبلان مصطفى باشا الذي كان صهرا لكوبرولو محمد باشا ، شغل وظيفة قبطان دريا ٧ سنوات ، ١١ شهرا ، ١٠ أيام . وخلال هذه الأيام كذلك ، منح فاضل مصطفى بك ، ابن كوبرولو فاضل محمد باشا المتوسط ، رتبة وزير (مشير) (١٦٨٠/٦/٢٩) .

كانت الدولة العثمانية العالمية في قمة اعتبارها . كان هذا الاعتبار ، على الأغلب ، يقوم على الخوف . كانت العثمانية ، قد افزعت أوروبا بدرجة كبيرة ، وكانت أوروبا تريد الخلاص من هذا الخوف ، وتبحث عن وسيلة لذلك ، ولكنها لاتبجها . أقلق فينا قلقا عظيما استيلاء القائد اوزون ابراهيم باشا على كامل سلوفاكيا من أولها إلى آخرها ، وإسقاطه قلعة Füleke بعد حصار دام ١٧ يوما (١٦٨٢/٩/٢٩) واستيلائه على ٢٨ قلعة في المنطقة ، ومنح Tökeli Lmre ، القومي المجري عدو

الألمان ، لقب « ملك المجر الوسطى » . كانت المانيا وراء سياسة استعادة سلوفاكيا وأخذ أردل (ترانسلفانيا) تحت نفوذها ، دون أن تدخل مع العثمانية فى حرب شاملة . وكانت هذه السياسة ، تغضب قره مصطفى باشا ، وأخذت تستحوذ عليه فكرة ضرب المانيا ضربة قوية لكف يدها عن التدخل فى شئون المجر ، وتمكن من إقناع البادشاه والديوان بذلك .

٦٣) الحرب مع المانيا

اتخذ الديوان الهمايوى قرار إعلان الحرب على المانيا (١٦٨٢/٨/٦) تحرك محمد الرابع على رأس الجيش الهمايوى من ادرنه (١٦٨٣/٤/١) ، كان قد مضى على مصالحة فاشفار ١٨ سنة ، ٧ أشهر ، ٢٢ يوما ، والسلطان وابناه الشهباده (ابن السلطان - امير) مصطفى (الثانى) والشهباده أحمد (الثالث) ظلوا فى بلغراد . تحرك الصدر الأعظم قره مصطفى باشا مع الجيش من بلغراد (١٦٨٣/٥/٢٤) . إن تحرك السردار الأكرم « للإستيلاء على النمسا بجيش لم تتمكن أية دولة حتى ذلك التاريخ من تأليفه وجمعه » (Fernard Grenad ص ٩٩) ، لم يقلق المانيا وحدها فقط ؛ بل أقام أوروبا وأقعدها .

عند أى حد سيقف هذا العثماني ؟ هل يريد الوصول إلى الراين ويجاور فرنسا ؟ . كان يحمى مقدمة الجيش الهمايوى بكهربك دياربكر الوزير قره محمد باشا والمؤخرة الوزير حسين باشا بكهربك الشام . وجاء كل من خان قرم ، وملك المجر الوسطى ، وفويغودات أردل وبغدان وافلاق وقبلوا رداء الصدر الأعظم فردا فردا وانضموا إلى الجيش الهمايوى . حضر بانات الخروات والسلوفينيا إلى الجيش واقروا للسلطان بأنهم أحقر التابعين له . كانت ١٥٠ قطعة من السفن غير العريضة فى الدونة تتقدم مؤخرة الجيش .

أبلغ لويس ١٤ ، الامبراطور بأنه يمكنه سحب جميع قواته الموجودة على الراين واستعمالها ضد الأتراك ، وقدم له تأكيدا بعدم حدوث أى ضرر من فرنسا وأنه سيرسل له فرقة أخرى . أخذت الحرب العثمانية - الألمانية ، طابع القتال بين

المسيحيين - الإسلام ، أوروبا - آسيا ، الصليب - الهلال . وبينما كان حزب Whig في انكلترا ، يؤيد العثمانية ، وحزب Tory يؤيد الألمان ، اتخذ حزب Whig في ١٦٨٣ قرارا بمساندة حزب Tory والتحرك ضد العثمانية . كانت هولندا ، تنفذ رغبات انكلترا ، وكانت إيطاليا وأسبانيا والبرتغال أيضا إلى جانب ألمانيا ، دعا البابا كافة المسيحيين إلى الجهاد المقدس . كانت بولونيا والبندقية مصممتين على التحامل على العثمانية وتعويض أضرارهما . كان القيصر بترو الكبير ، لا يزال مترددا ، فقد كان يخشى قرم وبولونيا والسويد ، كانت السويد ، تقف على الحياد ، وكان الدانمارك عدو السويد إلى جانب المانيا .

في ٢٧ حزيران (١٦٨٣) جمع الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، مجلس الحرب في Istolni - Belgrad (بالجرية : Székesféhervr بالألمانية : Stuhlweissenburg) . وأعلن أنه سيستولى على فينا ويملى على المانيا شروط الصلح هناك ، لأن مجرد الإستيلاء على يانق قلعه (بالجرية : Raba ، بالألمانية : Raab) ، لا يمكن أن يخضع المانيا ويجعلها تكف يدها عن شئون المجر . تخير الوزراء . وقال الوزير داماد إبراهيم باشا بأن إرادة البادشاه هي الاستيلاء خلال هذا العام على يانق و Komorn ومناوشة أوروبا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة ، ويحتمل أن تكون الحملة إلى فينا في العام المقبل . أجاب مصطفى باشا أنه في الوقت الذى يتجمع فيه جيش كهذا ، فإن الأمر يقتضى إنزال ضربة قاضية ، والا فستطول الحرب ، وأن المانيا عقدت الصلح مع فرنسا وبقيت حرة في الغرب وأن الملك سويساسكى ، اتفق مع الإمبراطور لاستعادة بادوليا ، ولابد من أن تكون البندقية كذلك ضمن هذا الاتفاق ، وأن روسيا ، في محاولة البحث عن السبل التى توقع بها العثمانية ، وأن الدول التى لم تعقد صلحا مع تركية كاسبانيا ، البابوية ، مالمطه ، فلورنسا من الطبيعى أن تكون بجانب المانيا ، إن هذا الاتفاق ، إما أن يكسر هذا العام ، أو أن الحرب ستطول كثيرا إلى زمن غير محدد . لم يبلغ السردار الأكرم ، البادشاه بتوجيه حملته نحو فينا ؛ إلا بعد بدء الحصار بـ ٦ أيام في ١٨ تموز وقال محمد الرابع مخاطبا وكيل رئيس الوزارة الوزير الثالث إبراهيم باشا : « لو كنت أعلم ذلك مقدما لما أذنت » (سلاحدار ، ٢ ، ٣٩) ؛ وعلى هذا فإن رجال العثمانية يكونون قد انقسموا إلى قسمين: فريق يرى

أن تهديد فينا عاصمة المانيا الإمبراطورية سيخيف كافة أوروبا ويحرضها على القيام ،
ويؤيد هذا الرأي قره مصطفى باشا ، وفريق يرى أن الاستيلاء على يانق قلعة ،
سيخيف المانيا ويحول دون حصول اتفاق كبير ضد العثمانية وهذا هو الذى يراه
الباشا .

(٦٤) بدء حصار فينا الثانى (١٦٨٣/٧/١٤)

وصل الجيش الهمايوى أسوار فينا (بالعثمانية بح) بعد ٣ أشهر ، ١٣ يوماً من
حركته من أدرنه (١٦٨٣/٧/١٤) . جاء السردار الأكرم إلى المحل الذى نصب
فيه السلطان سليمان القانونى سرادقه الهمايوى قبل ١٥٤ سنة . وخلال ذلك ، كانت
وحدات الصاعقة قد استولت بشكل تام على ابالات Burgenland Stirya وابالة النمسا
الشرقية النمساوية ، ووادى الدونه حتى Linz ، وكذلك دخلت بعض وحدات
الصاعقة إلى سويسرا . بدأ قره مصطفى باشا الحصار بـ ٦٠ ٠٠٠ جندي ووزع
جيشه على ساحة واسعة جدا كان قصده ، قطع طريق المساعدات القادمة ، لكن
ذلك كان فى الحقيقة خطأ عسكريا .

هزم دوق لورين (Lothringen) جارلس (الملك) الذى عين قائدا عاما لجيوش
الإمبراطورية أمام قره مصطفى باشا ، وبدأ فى جمع جيوشه فى شمال - غرب فينا
وأخذ ينتظر الجيوش التى ستأتى من أوروبا ، وترك الإمبراطور ليوبولد الأول فينا
وابتعد والشعب يصيح ويصرخ . نهب الشعب الغاضب ، سراى الإمبراطور وبقي
دفاع فينا على عاتق الكونت Ernest rüdger Von Starhem berg المسن . كانت المدينة
تعتمد على مدافعها التى تعد بالآلاف ، وأسوارها المتينة وخنادقها ، وقوات
الإمدادات التى ستصلها . فتح حسين باشا براتسلافا (بالألمانية : Pressburg)
واغتنم تاج امبراطور المانيا الموجود فيها (١٦٨٣/٦/١١) . وبعدها تم الاستيلاء
على كامل سلوفاكيا إلى حد مورافيا وغاليجيا - راتسلافا هى مركز سلوفاكيا الموجود
على حدود النمسا ، على مسافة ٣٠ كم عن شرق فينا - وصل الأتراك كذلك إلى
حد بافيرا . كان الامبراطور ليوبولد ، فى لينز ، أما القائد العام كارل فقد كان فى
ليوبولد ، على بعد ١٥ كم من فينا ، وأرسل مرزيفونلى محمد باشا ، بكلر بك أدنه

للحملة على كارل ، وقد كان لدى كارل دوق اللورين ، ٤ فرق المانية وفرقتان بولونيتان وبعد التحامه مع الأتراك الذى دام ساعتين ، هزم وطلب إلى جنرال شولتر نفس الجسر الموجود على الدونة وانسحب إلى الضفة الأخرى من النهر . ونفذ قراره القطعى والصائب بعدم دخول أية حركة مالم يتسلم الإمداد . دخل الأتراك مدينة ليوبولد وأحرقوا قصر الإمبراطور الصيفى (هامر ، ٩ ، ٩٨ - ٩) .

كان قره مصطفى باشا ينتظر وهو متأكد من سقوط المدينة ، وفى أواخر أيام الحصار استشهد ٢٠٠٠ سباهى خيال تقريبا ، ٢٠٠٠ خيال قرمى تقريبا ، ٢٥ يايا باشى (نقيب انكشارى) ، ١٦ شوربه جى (مقدم انكشارى) ٣ ، بكهربك (فريق) . وبالنسبة إلى هامر (١٢ ، ٥٠٨ - ١٠) كان الجيش الهمايونى يتكون من ١٦٢ ٠٠٠ جندى تقريبا ؛ حوالى مائة الف منهم منتشرون على ساحة واسعة ، ومايقارب ستين الفا يشتركون فى الحصار . كان مدافعو فينا ، فى بداية الحصار ١١٥٠٠ جندى ، انخفض عددهم إلى ٥٥٠٠ ، البقية ماتوا ، وقتل من أفراد الشعب ١٦٤٨ شخصا .

كان لدى دوق لورين ٨٥ ٠٠٠ جندى . أما الملك سوياسكى فكان فى الطريق مع ٣٥٠٠٠ جندى وعلى وشك الانضمام إلى جيش الألمان الإمبراطورى السيار . وكان ٤٠ ٠٠٠ من هذا الجيش البالغ ١٣٥ ٠٠٠ جندى ، خياله . اعتبارا من أول أيلول ، بدأت الجيوش فى الانضمام ، وبدأت المساعدات فى الوصول من جميع الأطراف . استحوذت جاذبية فينا على قره مصطفى باشا ، وشتت بصيرته . وبدلا من أن يفرق هذا الجيش ، كان ينتظر سقوط المدينة . والواقع أنه لو تمكن من إثناء جيش العدو أو على أقل تقدير ، لو كسره وشتته ، لسقطت المدينة لحالها . التأمت جيوش الأعداء بشكل كامل فى ٧ أيلول ، وترك دوق لورين القيادة العامة إلى سوياسكى الذى يفوقه منزلة فى السلطة ، لكن العسكرى الفعلى الكبير ، هو الملك دوق لورين . وبينما استكملت كافة استعدادات المتفقيين فى ١١ أيلول ؛ كان الكونت يشعر من فينا بأن سقوط القلعة رهين بأيام أو ساعات . وعلى هذا أقدموا على عمل ، كثيرا ماترددوا فى فعله ، وهو عبور جسر الدونه جبرا ، مع القبول بالخسائر الكبيرة التى ستحدث ، لأن الجسر بيد الأتراك .

لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فينا دون عبور الجسر . كلف قره مصطفى باشا ، خان قرم مراد كيراي بمهمة حراسة الجسر ، ونسفه عند الضرورة وعدم السماح للعدو بعبوره . كان مراد كيراي . يكره الصدر الأعظم الذى يعامله معاملة قائد صغير . كان يعتقد بأن فشل الصدر الأعظم فى فينا ، يسقطه من السلطة ، ولم يكن يخطر بباله بأن خسارة كهذه ، ستغير مجرى التاريخ العالمى . قرر حفيد جنكيز ، فى البطن ١٨ ، أن يظل متفرجا على عبور المتفقين الجسر بحرية وفكهم الحصار ، وتوضيحا لهذه النقطة ينبغى أن نذكر أنه كان بالجيش العثمانى وزراء وبكوات (بكهربك) عديدين يخشون جدا من أن يكون قره مصطفى باشا فاتحا لفينا ، التى لم يقدر السلطان سليمان القانونى على فتحها . ويذكر المؤرخ الكبير ، ومحافظ مخزن الأسلحة السلطانى مستقبلا فندقل محمد آغا ، الذى اشترك فى الحصار بالذات ، مسألة عبور المتفقين الجسر كما يلى بالضبط (٢ ، ٨٢) : « كان حضرة الخان مكلفا بحماية جسر اسكندر (Insburg) الحجري الكائن على نهر الدونه العلوى الذى يعد عن يمين (فينا) مسافة ٦ ساعات مع جنوده التتر منذ بدء الحصار . وبينما كان قادرا على منع مرور الجيشين التساوى والبولوى ، لم يصددهما وأخذوا بالمرور فوجا وفوجا وأغاروا على عساكر المسلمين . كان منذ يوم واحد يقف ممتطيا جواده على مكان عال مشرف على الجسر ويديه السوط ؛ ضاغطا على قبضته بكفه واضعا يده على خصره يتفرج على مرور الكفار (من الجسر) . وعندما اقترب إليه الإمام الموجود فى معيته قائلا « أيها الخان ألا يمكن ضرب هؤلاء الكفار الذين يمرون فوجا وفوجا وقطع مؤخرتهم ؟ » أجاب : « يا أفندى ، أنت لاتعلم مبلغ الظلم الذى لاقيناه من هؤلاء العثمانيين . قللوا من شأننا إلى درجة أن قيمتنا لديهم لم تعد بقدر قيمة كفرة افلاق وبغدان ؛ كتبت وأعلمت (السردار الأكرم) مرات عديدة ، عن تجمعات وحركات هذا العدو .. لم يرتد عن عناده ولم يعر كلامى أى اهتمام . وفى أجوبته العديدة المليئة بالعتاب التى أرسلها ، كتب يقول : إننا سوف نأكل لحم الحصان الجائف ، إن شاء الله تعالى ، إن دفع هذا العدو ، كان سهلا بالنسبة لى ، وأعلم أن ذلك خيانة ، لايسمح بها ديننا ، فليتر العثمانيون ماذا يعادل قدرهم (كم قرشا يعادل قدرهم) ، وليعلموا منزلة التتر . قال ذلك ولكز حصانه أخذوا جنوده التتر ، سائرا أمام الكفار ... متلكننا ، اليوم (١٩ رمضان = ١١ أيلول الجمعة) الوقت يقترب إلى العصر ،

جاء إلى الجيش الهمايوني الكائن أمام فينا متوجها إلى سرادق السردار الأعظم ونزل وسرد واقع حال العدو (عبوره الجسر) .

وبهذه المفاجئة التي حدثت في ١١ أيلول ، جرت خيانة من أكبر الخيانات التي شهدتها التاريخ التركي . وفي يوم السبت المصادف ٢٠ رمضان ١٠٩٤ من الهجرة و ١٢ أيلول ١٦٨٣ من الميلاد ، قبل العيد بـ ١١ يوما ، تقابل الجيشان أمام عاصمة إمبراطورية روما الغربية ليتجمد سير تاريخ المستقبل .

٦٥) معركة KAHLLENBERG 6 (بالعثمانية : المان داغى) الميدانية (١٦٨٣/٩/١٢)

كان ضمن جيش المتفقيين ، ملك بولونيا ، رئيس وزرائها ، وخمسة أمراء لواء بولوني ، ومن الألمان ٨ دوق ، ٢ Margrav (ماركيز) ، ٧ كونت ، ٤ أمراء ، (أكثر هؤلاء حكام المان) ، ٩ من هؤلاء برتبة مارشال (مشير) وكل واحد منهم على رأس فرقة من الجيش . ومن ناحية أخرى ، كان في جيش العثمانية ٩ مارشالية و ٨ برتبة فريق (للتعرف على أسمائهم : هامر ، ١٢ ، ١١٤) . يقول المؤرخ الكبير التمسواى البارون فون هامر : كان هذا جيشا جيدا ويوم ١٢ أيلول ١٦٨٢ ، كان يوما جيدا .

كان المتفقون مزهوين باجتيازهم الدونه دون أن تسكب قطرة دم واحدة ، ولكنهم كانوا مع ذلك حذرين . كان العثمانيون في حالة سأم ، لعدم تمكنهم من إسقاط فينا ومذهولين لاجتياز العدو الجسر . لم يتبلور الوضع بصورة تامة في الحرب الميدانية التي بدأت صباحا ، حتى وقت الظهر . لم يقاتل القرميون كما يجب بل كانوا مشغولين بحماية أنفسهم وغنائمهم ، ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على غنائم ثمينة جدا ولا يشغلهم إلا إيصال هذه الغنائم إلى بلادهم وهم أحياء . كانت علاقة الوزير قوجا إبراهيم باشا ، قائد الجناح الأيمن ، سيئة جدا مع الصدر الأعظم ، وبعد الظهر بقليل ، سحب الجناح الأيمن من ساحة الحرب وانفصل ، في الوقت الذي لم تكن هنالك أية علامة للهزيمة .. هذه الخيانة سببت الهزيمة . هجم العدو بكل قوته على مركز العثمانية ، وحوالى الساعة ٤ (١٦) ، أدرك المتفقون أنهم على وشك

الانتصار . لم يكن الجيش العثماني يحارب جيدا ؛ فقد شرب طيلة مدة الحصار آلاف البراميل من الشراب ، وعاشر آلاف النساء ، وحصل على غنائم ثمينة . وفي الساعة ٧ (١٩) مساء ، قطع السردار أملة في النصر ، ولكي ينقذ الجيش ، أعطى أمر الانسحاب . نجت فينا في الساعة الـ ٧ مساء (هامر ، ١٢ ، ١١٥) .

وقع في يد المتفقيين ، سراق السردار الأكرم الذي يقارب حجمه السراى الكبير ، ٥٠٠٠ خيمه ، ٣٠٠ مدفع ، أرشيف الجيش ومهمات كثيرة جدا . استشهد مايقارب ١٠٠٠٠ جندي عثماني ، وجرح آلاف . وكانت خسائر العدو بنفس الدرجة . لم يعد أمام قره مصطفى باشا مايفعله ، سوى تركه ساحة القتال وقد وفق في تحديد ساعة الانسحاب بشكل صائب جدا ؛ فقد كانت مقاومته أكثر من ذلك تولد فاجعة ، وانسحابه قبل ذلك ، كان من الممكن أن يسبب كارثة أيضا . فتح في السور ٦ فتحات ، كل فتحة بعرض مترين ولتوسيع هذه الفتحات ، وضعت الألغام وهى على وشك التفجير ، أدهش هذا المنظر ، قيادات المتفقيين . جرح الكونت Von Starhemberg وفقد ثلثى جنده ، قتل ٢ كونت ٣ بارون . أخذ الجيش التركى معه أثناء انسحابه ٨١٠٠٠ أسير ، أمكن إنقاذ البقية (هامر ، ١٢ ، ١١٩) . وفي اليوم التالى كان الملك سوياسكى ، يكتب إلى ملكته الحبيبة الفرنسية الأصل هذه الرسالة : « إننى عاجز عن تعريف العظمة والثراء والذوق الرفيع الذى شاهدته فى سراق مصطفى باشا . داخل السرداق ، توجد حمامات ، حدائق ، حنفيات وطيور ... إن أهم غنيمة حصلت عليها من بين حاجيات داخل السرداق ، نطاق ملء بالماس ، ساعتا جيب مرصعتان بالماس ، يواقيت لآلى ، يواقيت زرقاء ، أئمن أنواع السجاد وألف خارقة لم أستطع كتابتها . ولاننس أئمن أنواع الزبلن (الفرو) على وجه الأرض . لكننى لم أستطع أن أظفر بخزينة الجيش . يظهر أن الأتراك هربوها . إن الحاجيات التى ذكرتها أعلاه ، كلها حاجيات السردار الشخصية » .

٦٦) نهاية حملة فينا

وهكذا غادر الجيش الذى يقوده قره مصطفى باشا فينا ومعه ٨١٠٠٠ أسير والغنائم التى يمكن حملها ، وتركت المهمات الثقيلة للعدو .

وتؤكد وثائق الأرشيف البولوني التي نشرت ، أن خيانة مراد كيراي ، لم تكن بالشئ البسيط ، وإنما كانت خيانة كبيرة جدا ، اقررت عمدا ، فهو بصرح في رسالته التي كتبها لسوياسكى بأنه سينسحب دون قتال . ويظهر أن ذلك أعطى لسوياسكى الجرأة على عبوره الجسر دون خشية . ومن ناحية أخرى فإن أخطاء قره مصطفى باشا كانت كبيرة كذلك ، فمثلا أثناء احتفال المسيحيين بيوم خلاص فينا التي يقدسونها ، انسحب قره مصطفى باشا المغرور ، البخيل والحريص من التمسا إلى الجمر ، ولم يحاول إسقاط فينا بهجوم عام ؛ فقد أدى بخله المفرط إلى الحرص على ألا ينهب جيشه المدينة ، وانتظر استسلامها لحالها (فون هامر ، (١٢ ، ١٢١ - ٢) . حيث ينص القانون الدولي ، على ألا تنهب المدن التي تستسلم لحالها .

فقدت الدولة التركية ، بهزيمة فينا ، ديناميكية الهجوم والتوسع الذي بدأه السلطان الب ارسلان في ٢٦ آب ١٠٧١ . ينتظر تركية ، بعد هذا التاريخ التوقف ، الانسحاب ، الانفكاك ، السقوط . وسوف يصل هذا في ١٩٢١ إلى حد نهر صقارية .

جاء الجيش الهمايوني الذي حاصر فينا ٥٩ يوما أمام يانق قلعة في ١٤ أيلول وهو نصف طريق فينا - بشته . كان داماد إبراهيم باشا بككر بك بودين (الجمر) ينتظر قدوم الجيش هنا . جاء إبراهيم باشا الذي قيل إن تركه ساحة القتال لغرض شخصي وإقدامه على الفرار قبل الكل ، كان سببا للهزيمة (راشد ، ١ ، ٤٢٠) ، فقد قصد الإيقاع بقره مصطفى باشا ، لكي يعود ذليلاً . عزل إبراهيم باشا ، الذي ترك ساحة الشرف دون أن يكون هنالك أى سبب عسكري ودون أن يحصل على إذن من القائد الأعلى ، وسبب انكسار ثلث الجيش التركي والهزيمة النهائية في الحرب ، نزل أمام سرادق السردار وقبل رداء السردار (سلاحدار ، ٢ ، ٨٨) . وبخه مصطفى باشا قائلاً « أيها الشيخ الملعون ، فررت ، وبفرارك كنت السبب الكلي في هزيمة العساكر الإسلامية كافة » وأمر بقتله .

لم يكن إبراهيم باشا جبانا ، أو عسكريا غير قدير ، فحياته العسكرية الطويلة مليئة بالشرف ، ولكنه ارتكب هذه الخيانة التي لا يصدقها العقل ، لإسقاط مصطفى باشا لاغير هامر (١٢ ، ١٢٢ - ٣) . وقبل قطع رأسه ، قال للشاويش باشي

(رئيس مرافقى السلطان) هذه الجملة : « قل لبادشاهنا ، لا يستطيع أحد أن يتلافى مافات غير مصطفى باشا » . يقصد بذلك ، ألا يعزل البادشاه مصطفى باشا بسبب الهزيمة، وأن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يزيل آثار الهزيمة هو مصطفى باشا . يظهر أن ضميره أنه وأدرك إضراره بمستقبل الدولة التى منحته مؤخرًا رتبة الوزارة وبنت السلطان .

وفى هذه الأثناء ، كانت كنائس فينا كلها تدق أجراسها ، فتجاوبها كل الكنائس القرية التى تسمع صوت الأجراس . وهكذا وخلال عدة أيام ، بدأت كافة أجراس العالم المسيحى تدق - إلى أبعد الأماكن فى أوروبا - على شرف خلاصها من الخطر التركى .

سيطر مرزيفونلى ، الذى مكث ٣ أيام فى يانق قلعة على ضبط الجيش بشكل تام . لم يكن هنالك خسائر مهمة . كان الجيش الهمايونى ، يقدم عادة خسائر بنفس هذه الدرجة فى انتصاراته الكبيرة . كانت هنالك فى أيلتى Styrja و Burgenland التماسوية وحدات عثمانية تحت قيادة ٣ بكلربك . وعند سماع هذه الوحدات خبر الهزيمة ، التأمت أولاً ، قرب Graz ، ثم انسحبت إلى Kanije (هامر ، ١٢ ، ١٢٤ - ٥) . وفى ٢٢ أيلول ، قدم الجيش إلى بودين . ظل قره مصطفى باشا ، هنا ٢٤ يوما إلى ١٦ ت ١ . ولكى يعدم مراد كيراي فى أول فرصة ، عزله وعين مكانه ابن عمه حاجى كيراي ، خانا . عزز قلاع الحدود .

من ناحية أخرى ، تحرك جيش المتفقيين من فينا ، على أمل استقطاع بعض الشيء من العثمانية ، قبل فوات موسم القتال ، كان الملك Tökeli قد أدخل Bratslava وأنسحب إلى Kosice (بالعثمانية كاشا) . اجتاز المتفقون نهر Raba نحو الشرق ودخلوا الأراضي العثمانية . كانت هنالك ضاحية جكردلن (بالألمانية : Parkany) فى الساحل الشمالى من الدونة واستركون (حاليا جيكوسلوفاكيا) وكان يربطهما جسر (بقايا هذا الجسر الحجري العظيم المنهدم تشاهد على نهر الدونة فى الحدود المجرية - الجيكية ، كنموذج يظهر عظمة العثمانيين حتى يومنا هذا . كان بكلربك (فريق) بودين الوزير قره محمد باشا ، حديث السن ، جسورا ، عسكريا مقتدرا . جاء إلى هنا وأخذ ينتظر العدو ، تقابل هنا الملك سوياسكى بجيشه البالغ ٦٠ ٠٠٠ مع ٣٠ ٠٠٠ من جنود محمد باشا . قتل محمد باشا ، الذى خرج من بين الأدغال

بغته أمام الفرق البولونية في المعركة الميدانية جكردلن (١٦٨٣/١٠/٧)
 ١٠.٠٠٠ جندي معادى بخسائر طفيفة . تراجع سوياسكى الذى ظن أن قره
 مصطفى باشا باغته . وبعد يومين توحّد مع دوقين لورين ؛ فأصبح ١٥٠.٠٠٠
 جندي معاد أمام ٣٠.٠٠٠ من جنود محمد باشا ، وانسحب بعد أن خسر ٧٠٠٠
 شهيدا و ٣٠٠٠ جريح . وتسمى هذه الهزيمة معركة جكردلن الميدانية الثانية .
 استشهد بككربك بوسنه خضر باشا وأسر كل من خليل باشا بككربك سيواس
 ومصطفى باشا سنجق بك سلستره . كان Tökeli Imre مع ٣٠.٠٠٠ مجرى
 وحاجى كيراي مع ٣٠.٠٠٠ خيال قرمى على وشك اللحاق . وعندما علموا بهزيمة
 محمد باشا ، عادوا على أعقابهم . قاومت استكون تجاه المتفقين ٢٢ يوما وسقطت
 يوم ١ ت ١٦٨٣/٢ . كان المتفقون قد نسفوا جسر استركون - جكردلن الكبير
 على نهر الدونه ومنعوا وصول الإمدادات ؛ ومعنى ذلك أن محمد باشا لم يتمكن
 إلا من إدخال ٥٠٠ جندي فقط إلى استركون . انتقل في استركون إلى يد المتفقين
 ٥٠ مدفعا و ١٠٠٠ كنتال بارود . كانت كل من جكردلن واستركون مركزا هاما
 لكثائب الصاعقة ، وكتاهما من فتوحات السلطان سليمان القانوني ، وقد ظلت تحت
 الحكم العثماني ١٢٨ سنة (١٥٤٣ - ١٥٩٤ - ١٦٠٥ - ١٦٨٣) . فتح ، هذه
 القلعة التي كانت محل إقامة أسقف المجر والمركز الديني للبلاد ؛ القانوني تجاه
 ٥٠.٠٠٠ من جنود الأرشيدوق ماثياس Mathias وحكمها حكما عظيما جدا وفي
 اليوم التالي ، عاد سوياسكى ، مودعا دوق لورين إلى وارشو .

من ناحية أخرى ، أمر ، قره مصطفى باشا الذى جاء من بودين إلى بلغراد خلال
 ٣٣ يوما (١٨ ت ٢) خان قرم ، أن يقضى الشتاء في الحدود . وعندما علم مراد
 الرابع بالهزيمة ، تحرك في ١٢ ت ١ من بلغراد إلى أدرنة . حاجى كيراي البالغ عمره
 ٣٥ عاما ، اتخذ مدينة ياش مقرا لمشاته . وهكذا أغلق عام ١٦٨٣ المشوم . تسلمت
 العثمانية وآسيا إلى القمة ، ثم سقطت منها . شرح الفرنسي Fernard Grenard
 الاختصاص الكبير في تاريخ آسيا ، التوازن العالمي في تلك الحقبة في أثره الذى كتبه
 عام ١٩٣٨ كما يلي :

« نحن الآن في النصف الثاني من القرن ١٧ ، في عهد لويس ١٤ . آسيا في
 ذورة عظمتها ووسطوتها . هذه القارة ، تحت سيطرة ٤ دول كبرى - الثلاث الأول

تركية - الهند ، ايران - والصين . تضم بين جوانحها أقدم حضارات العالم وذكريات التاريخ البشرى التى تستحق أجل الاحترام . أما الشعوب الأوروبية ففى نزاع تنقسم قطع الإمبراطورية الوحيدة التى ورثوها ، روما الغربية ... تعداد آسيا فى ذلك التاريخ ، ٣ أضعاف تعداد أوروبا وهذه النسبة التى انخفضت اليوم (١٩٣٨) إلى نسبة ١/٨ ، تكون بالضبط بنسبة ٣/٤ . كانت تعيش بسعادة فى جو عظمة ورفاهية ، تنبع تربيتها عن عاداتها وأعرافها ، لها تاريخها البعيد الجذور فى الفن والأدب لقد وصلت المدى الذى لا يتصور أن تصل إلى أبعد منه . كان ثراء مواردها وخزائنها ، يهر العقول ويغذى الخيال . أما الغربيون ، فمجمعون حول بضعة ملايين من الذهب المتداولة فى أوروبا ، يولولون ويصرخون ولولة وصراخا عظيمين ، وبنو تيمور فى الهند مستغرقون فى رفاهية لامثيل لها . كأنهم فوق هاوية لا قدر لها مليئة بالذهب ، والفضة ، والماس . أما تركية فتمتاز فوق ذلك بأنها أقدر قوة عسكرية على وجه الأرض .. إن أباطرة الشرق هؤلاء ، حتى ولو أنهم اعترفوا بحكام أوروبا ، كحكام ، إلا أنهم ينظرون إليهم من علو شاهق . يقبلون السفير ، لكنهم يتعالون عن إرسال سفير دائم إلى أوروبا



البحث السادس

عصر التوقف (١٦٨٣ - ١٧٦٨)

عصر التوقف (١٦٨٣ - ١٧٦٨)

(١) سقوط مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٨٣/١٢/١٥)

انتهت الدولة العثمانية العالمية . كانت العثمانية لاتزال أيضا الدولة الأولى فى العالم ، لكن العصور التى كان فيها نفوذها يعبر القارات ويوجه سياسة وتاريخ العالم ، أصبحت فى ذمة الماضى . كانت قد بليت وانقرضت فيها قوة الاندفاع ، الفاعليه ، الجرأة ، دهاء التوسع . وفى العصر التالى ستكون غايتها الوحيدة هى الحفاظ قدر الإمكان ، على ماتملكه .

تلقى محمد الرابع خبر الهزيمة ، ولم يعره اهتماماً فى البداية ؛ فالأمر لايزيد على أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة !! وهكذا الحرب .. لانتهى ضرورة بالنصر !! . فتح كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا ، كاندية بعد جهود دامت سنوات طويلة . أرسل إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، عندما كان فى بودين ، سيفاً مرصعاً وكتاباً همايونياً يواسيه ويباركه لتمكنه من إعادة الجيش إلى بودين بخسائر قليلة .

كانت السلطانة - الوالدة الذكية التى تتبنى عائلة كوبرولو ، قد توفيت قبل هزيمة فينا بيضعة أشهر (١٦٨٣/٧/٥) . وقد عبر الشعب الذى يعلم دورها الكبير فى الدولة عن تأثره بهذه الجملة « ذهب ركن الدولة الأعظم » (راشد ، ١ ، ٤١٥) .

كان مرزيفونلى ، حديث السن ، ولم يكن معتل الصحة مثل فاضل أحمد باشا ، كان قوى البنية ، لايتعاطى المشروب ، ترى هل سيقبى صدره أعظم إلى نهاية حياته ويكون استمراراً لدور الباشوات كوبرولو محمد باشا وفاضل أحمد باشا ؟ .

كان كثير من الوزراء يتخرقون شوقا لمنصب الصدارة ، ولم يكن هنالك ذريعة ، أحسن من هزيمة فينا . في المرة القادمة وفي أول فرصة ، سيعدل مرزيفونلى الوضع بصورة أكيدة ، وسوف لايمكن إزاحته بعد ذلك عن منصبه مطلقا . أخذ العديد من رجال الدولة في التأثير على مراد الرابع لإسقاط صدره الأعظم . كان رائدهم الوزير الثالث وقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) قره مصطفى باشا . المعروف في استانبول عن صارى سليمان باشا ، أنه عندما سمع خبر هزيمة فينا ، أمسك المنديل بيده وأخذ يرقص . لأن مرزيفونلى ، كان وزيرا شديدا ومغرورا . فاضل أحمد باشا كذلك ، كان محسودا ، لكن الحملة ضده لم تكن قوية جدا . يمكن مغرورا ولامتكبرا ، وكان يعامل أصدقاءه من الوزراء معاملة الصديق لصديقة ولايتكبر عليهم .

ولما لم تجد اللزمات والايحاءات التى دبرتها أخت البادشاه (التى أمر مرزيفونلى بإعدام زوجها الخائن ابراهيم باشا) ، فى اقناع البادشاه ، عندئذ رتبوا رسائل مزيفة تفيد أن الجيش لايريد مرزيفونلى وأنه سوف يعلن عصيانه ، إذا بقى على رأسه صدرا أعظم مغلوبا .. تمكنوا من غش محمد الرابع . ولما كان الجيش هو درع الدولة الأول ، ولايمكن اللعب معه ، عزل محمد الرابع ، قره مصطفى باشا وعين مكانه الوزير الثالث قره إبراهيم باشا (١٦٨٣/١٢/١٥) . صدارة مرزيفونلى ، دامت ٧ سنوات ، وشهرا ، ١٠ أيام . وأعدم بعد ١٠ أيام (٢٥ ك ١) . قرأ قره مصطفى باشا الذى سعى ليلا ونهارا فى تجهيز الحملات والذى يملك مكانة ممتازة فى الجيش ، الخط الهمايونى الذى حملة له رئيس تشريفات السلطان ، كزار - زاده أحمد أغا بكل هدوء . صلى . ثم صاح بالجلاد بنفسه وطلب قطع رأسه . سودت هذه الفاجعة التى جرت فى بلغراد ، مستقبل الدولة وقضت على الشخص الوحيد الذى كان يملك القدرة لتعويض ماضع . كان فى سن ٤٨/٥ .

انتهى دور كوبرولولر (عائلة كوبرولو) . وبدأ « قحط الرجال » ، كما كان فى الأزمنة التى تسبق عهد كوبرولو محمد باشا قبل ٢٧ عاما . بدأ الأشخاص الذين لا يستطيعون تنفيذ واجباتهم التى تقتضيها مقاماتهم ، يتعاقبون الواحد تلو الآخر . قره مصطفى باشا ، الذى يقال عنه « من أعظم وزراء العثمانية ومن أعظمهم غرورا بنفس الدرجة » (هامر ، ١٢ ، ١٣٥) المكروه لدى العالم المسيحي آنذاك والآن أيضا .

كان قائمقام الصدارة في المركز لسنوات عديدة ، طيلة مدة بقاء قره مصطفى باشا في الحملات ، ببايوردلى قره مصطفى باشا ، في ٦١ من عمره وزيرا حريصا ، ولقيما ، وجبانا وغير كفاء . وقد حافظ داماد صاحب مصطفى باشا أحد رجال السراى الذى يحمل لقب الوزير الثانى منذ سنوات عديدة ؛ على مقامه . ينشغل بأعمال السراى والأمور العلمية والفنية ، ولايتدخل كثيرا بالسياسة ، ولايؤمل أن يكون صدرا أعظم . قره إبراهيم باشا ، هو الشخص الذى ساند مرزيفونلى وأعطاه الرتبة . وهذا يعنى أن مرزيفونلى ، لم يتمكن حتى من اختيار الوكيل الجديد له . كان هنالك وزير يمكنه صيانة الإمبراطورية من المصائب ، وهو كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، لكن قره إبراهيم باشا ، عين هذا الوزير الذى يصغر مرزيفونلى بستتين خارج استانبول فورا . كان كائنا هنالك اتفاق بين العديد من رجال الدولة على التخلص من (كوبرولولر) عائلة كوبرولو .

(٢) السنوات الأولى للحرب الكبرى (١٦٨٤ - ١٦٨٦)

تسمى فترة ال ١٥ سنة ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما التى مضت بين هزيمة فينا و صلح كارلوفجه في التاريخ العثمانى « سنوات المصيبة » . حرب العثمانية لوحدها أمام ائتلاف أوروى (١٦٧٣/٩/١٢ - ١٦٩٩/١/٢٦) أعلن الحرب على العثمانية كل من امبراطور المانيا ، ملكية بولونيا ، جمهورية البندقية ، البابوية ، ملكية اسبانيا ، دوقية توسكانا الكبرى ، فرسان مالطة ، وبعد مدة ، روسيا القيصرية . وكانت العثمانية في وضع صيانة حدودها الممتدة من قفقاسيا إلى فاس . لكن الحروب الكبرى جرت في المجر ، بولونيا ، اوكرانيا ، دالماجيا ، مورا . المفروض أن تبقى فرنسا على الحياد ، ولكنها ساندت المتفقين بإرسالها وحدات . إن الائتلاف المسمى « Sainte - Alliance » (الاتفاق المقدس) ، كان يحمل الروح الصليبية والنزعة الكاثوليكية . كانت الغاية منه إخراج المسلمين والأتراك من أوروبا إلى آسيا ، وتنحية تركيا ، وجعل آسيا بلا مدافع لوضع اليد على أكبر قارة في العالم .

الصدر الأعظم الذى سيدافع عن العثمانية تجاه هذا الائتلاف ، هو الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الذى يجزع من الخروج إلى الحملات . كان قره مصطفى باشا

يريد فقط أن يكون صدىراً أعظم ويتخلص من تحكم مرزيفونلى . أعطى قيادة الجبهة الألمانية إلى الوزير بكرى مصطفى باشا ، وجبهة بولونيا إلى الوزير الثالث صارى سليمان باشا . انضمت البندقية إلى الاتفاق ١٦٨٤/٤/٢٥ وأعلنت الحرب على تركيا . عين على جبهة البندقية من الوزراء الباشوات بالتسلسل كور شعبان ، شاهين مصطفى ، اسباناقجى اسماعيل ، خليل باشا . ومن بين هؤلاء القواد كان بكرى مصطفى باشا من القواد متوسطى الدرجة . صارى سليمان باشا تافه للغاية وعاجز ، والبقية عسكريون عديمو الكفاءة . كان هدف المانيا الحجر ، وهدف بولونيا Podolya ، وهدف البندقية مورا ، وإن أمكن هرسك ، وهدف روسيا ، الحصول على قطعة كبيرة من اوكرانيا . وأخطر هؤلاء ، كانت المانيا . كان القائد العام للإمبراطورية أحد حكام الألمان دوق لورين (V. Charles (Lothringen) (Karl) ، عسكرياً كبيراً .

كانت أكبر حروب عام ١٦٨٤ هى حرب حصار بودين الذى جرى من قبل الألمان واستمر ٣ أشهر ، ١٩ يوماً (١٥ تموز - ٣ ت ٢) . دافع عن بودين بكرى مصطفى باشا . معاوناه هما العسكريان الكبيران ، وكلاهما برتبة وزير ؛ ديوريكلى قره محمد باشا بكربك بودين الشاب ، وداماد شيطان إبراهيم باشا الكهل . كانت بودين تقصف يومياً بمعدل ١٠٠٠ - ١٥٠٠ قذيفة و ٧٠٠ - ٨٠٠ قبله ، هذا عدا فتح الألغام . وكان الأتراك يحققون تقدماً متواصلاً . حاول الألمان قطع مجارى المياه للمدينة ، لكنهم لم يوفقوا . تسمر الألمان أمام بودابست هذا العام ؛ كما تسمر العثمانيون أمام فينا فى العام الماضى . ترك بكرى مصطفى القلعة إلى قره محمد باشا بكربك بودين وانسحب . قطعت إحدى القذائف ، يد محمد باشا فى ٢٠ تموز . استمر فى الدفاع بعد سكب زيت زيتون حار على يده . وفى آب ، أصابت إحدى القذائف بطن الوزير الشاب . نادى محمد باشا ، الباشوات محاولاً جمع أمعائه بيده السائلة ، وأخبرهم بأنه عين مكانه داماد شيطان إبراهيم باشا ، وأمرهم بطاعته والدفاع عن بودين حتى آخر جندي ثم استشهد . جاء إلى بودين فى ٩ أيلول منتخب بافيرا ؛ أهم حاكم المانى بعد الإمبراطور ، حصل على امدادات وتسلم القيادة . وانتقلت الحرب إلى خارج القلعة .

خسر الألمان ثلاث حروب ميدانية : انهزم الألمان فى كرز الياس ، أمام قاضى

كويلى محمد باشا بكلكريك روملى (١٩ أيلول) ، وفى أوفى قابوسى ، أمام سياووش باشا بكلكريك دياربكر (٢٧ أيلول) ، وفى بشته ، أمام أحمد باشا بكلكريك أكرى (٢٤ ت ١) . انسحب الألمان فى ليلة ٢ - ٣ ت ٢ . وعلى أثر هذا النصر ، استبدل محمد الرابع لقب داماد إبراهيم باشا من « شيطان » إلى « ملك » . وعينه قائدا مكان بكرى مصطفى باشا ، وعين عبد الرحمن عبدى باشا أحد الوزراء المسنين ؛ بكلكريك على بودين (سلاحدار ، ٢ ، ١٤٠ - ٨٥) .

كان سليم كيراي الذى عاد وصار خانا لقرم ؛ عسكريا كبيرا . تمكن بمهارته من تعويض عجز سليمان باشا قائد عام جبهة بولونيا . هزم سليم كيراي ، الملك سوياسكى فى الحرب الميدانية كامانيجه (١٦٨٤/٩/٢٦) . فر غالب فينا ، تاركا وراءه ٢٧ مدفعا ثقيلًا للحصار وآلاف القتلى (سلاحدار ، ٢ ، ١٨٥ - ٨) . قدمت البندقية فى ١٥ تموز إلى الباب العالى ، مذكرة لإعلان الحرب . وحققت إنزالات عديدة على سواحل داماجيا ، هرسك ، البانيا ، مورا . كان قائد عام البندقيين موروسينى ، هو العسكري الكهل الذى سلم كانديه ، إلى كوبرولو - زاده . أطلق البابا بصورة رسمية ، على هذا الاتفاق المقدس الجديد اسم « الحملة الصليبية ١٤ ضد الأتراك » . وكما لاحظ هامر (١٦١/١٢) ، أن هذه الحرب هى الحرب الأولى والأخيرة فى تاريخ البندقية كلها التى أعلنت فيها البندقية الحرب على العثمانية ، أما فى بقية الحروب الأخرى ؛ فكانت تركية هى التى تعلن الحرب . احتلت البندقية جزيرة آيا مافرى خلال ٦ أيام (٨ آب) ، وسبيينيك (Sebenico) وأماكن عديدة فى داماجيا ، واحتلت Preveze فى ٧ أيام (٢٨ أيلول) وأغلقت عام ١٦٨٤ وهى رابحة (سلاحدار ، ٢ ، ١٩١ - ٢٠٠) . ولكن فندق مصطفى باشا بكلكريك بوسنه ، تمكن فى السنة التالية من هزيمة البندقيين فى الحرب الميدانية المسماة شين (بالإيطالية : Sign) (١٦٨٥/٤/٧) واغتنام ٩٠ راية . تمكن البندقيون الذين أنزلوا جيوشهم فى Koron جنوب مورا ، من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل وذبحوا كافة سكانها المسلمين .

استولى الألمان على Szolonk ، وهجم العثمانيون على يانق قلعة . حاصر ملك إبراهيم باشا استركون مدة ١٦ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . استسلمت اوفيفار إلى دوق لورين بعد حصار دام ٥٠ يوما (١٦٨٥/٨/١٩) (هامر ، ١٢ ،

١٨١ ؛ راشد ، ٤٧٤ - ٧ ؛ سلاحدار ، ٢ ، ٢١١ - ٤) . استمر آخر حكم للأتراك في اويغار ، منذ فتح كوبرولو - زاده الأخير لها ٢١ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٥ يوما . وهكذا زالت من الوجود ، إيالة عثمانية صغيرة . لكن جنوب - شرق سلوفاكيا ، مازال عثمانيا . كان الاستيلاء على اويغار ، سببا في إقامة الأفراح في العالم المسيحي كافة (هامر ، ١٢ ، ١٨٤) .

اجتاز الكلك سوبياسكى دنيستر نحو الجنوب ، معلقا آمالا كبيرة على النصر ، ولكن جيش سليم كيراي المؤلف من ٨٠.٠٠٠ شخص (٥٠.٠٠٠ قرمى) ، هزم الملك في الحرب الميدانية المسماة بويان (Bojan) (١٦٨٥/١٠/١٠) . انسحب سوبياسكى تاركا وراءه ٦٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠ أسير .

استمر قره إبراهيم باشا في أعماله الدينية وأعدم العسكرى الفذ والمسن ، داماد ملك إبراهيم باشا ، الذى اتهمه بمسؤوليته عن سقوط اويغار ، وقد كانت الحقيقة أنه كان يخشى أن يحتل مكانه . قطع رأس ملك إبراهيم باشا في بلغراد في ١٦٨٥/١٢/٣ (سلاحدار ، ٢ ، ٢١٥ - ٧) . لكن قره إبراهيم باشا ، لم يتمكن من الحفاظ على مقامه بعد منافسه ، سوى ١٥ يوما . عزل محمد الرابع ، الصدر الأعظم هذا ، لرفضه الخروج للحملات (١٦٨٥/١٢/١٨) ، ونفاه إلى جزيرة رودس وأمر في آيار ١٦٨٧ بإعدامه هناك . دامت صدارته سنتين ، ٤ أيام . جرى مكانه بالوزير الثالث يناجى صارى إبراهيم باشا ، وهو مثال النذالة والجبن وآخر من يصلح للصدارة بسبب كونه عديم الشأن محروما من الاخلاق ومن العلم العسكرى والشجاعة . تمكن من الحفاظ على السلطة وادعاء شرف النصر الذى احرزته سليم كيراي في معركتين ميدانيتين في سنتين متتاليتين تجاه سوبياسكى في جبهة بولونيا . جاء في ك ٢ من عام ١٦٨٦ إلى أدنة وتسلم الختم الهمايونى . ولم يكتف بذلك ، وإنما أصبح علاوة على ذلك سردارا أكرم (قائدا أعلى) على جبهة ألمانيا (سلاحدار ، ٢ ، ٢٢٥ - ٦ ، ٢٢٨ - ٣٠ ؛ راشد ، ٤٨٤ - ٦) .

كانت مورا ، لواء (سنجق) بحريا عثمانيا مقسما إلى ٢٣ قضاء . كان هذا اللواء ، هدف البندقية . وكان استيلاء البندقية عليها سيغطى على ضياع كريت بشكل واسع . استولى موروسينى على نافارين خلال ١٣ يوما (١٦٨٦/٦/١٥) (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤١ - ٢) . واسقط كورون بعد حصار دام ٣٠ يوما (١٢)

آب) . كانت هذه الأماكن كلها تعود إلى البندقيين وفتحت خلال عهدي فاتح وبيازيد الثاني . احتل مورويسيني ، عدا قطع البندقيين ، فرقة سكسونية وفرقة Braunschweig ، وفرقة من ميلانو بقيادة الأمير Visconti ، وفرسان مالطه واحد كبار عسكري العصر وهو الماريشال السويسري الكونت Königsmark . أكمل مورويسيني فتح مورا بعد أن استولى في تموز ١٦٨٧ على باتراس ، وبعدها على Korinthos . انسحب السردار أحمد باشا من مورا إلى أثينا . واجه المتفوقون العثمانية في جبهة مورا ، بقوات كبيرة ودهاة عسكريين مثل مورويسيني وكونيكسمارك . أما لإستانبول ، فلم تتمكن من إرسال قوات كافية ولاقادة ذوي مقدرة عسكرية . ورغم ذلك ، تمكن القبطان - دريا مصرلى أوغلو إبراهيم باشا من تشتيت الأسطول البندقى خارج ميدبلى ، في معركة بحرية استمرت ٣ ساعات (ت ١٦٨٦/١) . منح مجلس السناتو (الأعيان) الجمهورى البندقى ، مورويسيني أعلى رتبة للأفضالة ، وهى رتبة لم تمنح لغيره خلال الألف سنة من تاريخ البندقية ؛ الا لشخصين فقط (هامر ، ١٢ ، ٢٢٥) .

٣) سقوط بودين (١٦٨٦/٩/٢)

شرع المتفوقون الذين اتعظوا من هزيمة بودين في العام الماضى ، بمحاصرة المدينة بواسطة جيش كبير (١٦٨٦/٦/١٨) . كان البكلربك (الفريق) عبد الرحمن عبدى باشا ، الكبير السن ، يدافع عن المدينة . سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم آيناچى صارى سليمان باشا من بلغراد مع جيش عدده ٥٠ . ٠٠٠ جندى ووصل البحر . يشبه هامر ، جيش الاتفاق الذى جاء إلى بودين ، بجيش الصليبيين الذى خرج أمام ييلديرم بيازيد فى نغبولى قبل ٢٩٠ عاما ؛ من ناحية أنه كان ممثلا لكافة شعوب أوروبا تقريبا (١٢ ، ١٩٨) . كان عدد الجيش الألمانى ٨٠ . ٠٠٠ جندى وبقية الجيش من الشعوب الأخرى . أما عبدى باشا الذى يناهز عمره الـ ٧٠ عاما ، فكان لديه ١٦٠٠٠ جندى ممتاز ومدرّب وعتاد كاف ومهمات كثيرة .

أهم قواد الجيش الصليبي : من اسبانيا دوق Vexas ، دوق Escalona ، ١١ ماركيزا اسبانيا ، من فرنسا ٣ ماركيز و ١ كونتا ، من انكلترا الابن غير الشرعى

للملك جيمس الثانى ، أمير Ruppert ، ٤ لورد ، من ايطاليا ٥ كونت أحدهم ماريشال ، من المانيا منتخب بافيرا ، دوق لورين ، دوق كروى ، دوق Courland ، أمير Neuburg أمير Velden ، ماركيز Baden ، ٩ كونت ٢ منهم برتبة ماريشال ، ٢ بارون الخ . كان الجيش الألمانى يتألف من ٨٠٠٠ جندى أرسلوا من Brandenburg - Prusya ، ٥٠٠٠ من ساكسونيا ، ٨٠٠٠ تحت قيادة منتخبهم البافارى بنفسه ٦٠٠٠ من دوق Württemberg ، ٣٠٠٠ من دوق ساكسونيا ، وكان الجيش الشخصى للإمبراطور عبارة عن ٥٠ ٠٠٠ جندى (هامر ، ١٢ ، ١٩٨ - ٩) . ولو أن القائد العام ، كان منتخب بافيرا اسما ، باعتبار أنه كان أعلى حاكم ، لكن القيادة العسكرية الفعلية ، كانت بيد العسكرى الكبير جارلس ، دوق لورين .

كان الحصار ، شديدا جدا . سقط ٤ كونتات قتلى . وفى ١٦ تموز أصيب ميناء لإنشاء السفن النهري لبودين (ترسخانه) ، وأدى انفجار ٣٦٠٠٠ قطار من البارود إلى استشهاده ٤٠٠٠ جندى عثمانى . انفتحت فى الأسوار ثغرة بعرض ٦٠ قدما ، وحدد هذا الحادث مصير بودين . تغير مجرى نهر الطونه من شدة الانفجار (هامر ، ١٢ ، ٢٠١) . أعلم دوق لورين عبدى باشا ، بأنه ليس بإمكانه بعد الآن الدفاع عن القلعة التى دافع عنها حتى اللحظة الأخيرة ببطولة مكنته من إنقاذ شرف البادشاه ، وعرض عليه ترك بودين والذهاب مع جنده أحرارا . رفض الباشا . وفى ٢٧ تموز ، حدثت أمام باب بيج (فينا) للمدينة ، معركة دموية شديدة سقط على أثرها وخلال ساعات ٢٦٠٠ جندى نمساوى ، ٤٠٠ بروسى ، ٨٠٠ - منهم أكثر من ٢٠٠ ضابط - بافيرى . تمكن عبدى باشا ، من صد ودحر ١٨ هجوما عاما كما تمكن من تكبيد العدو عشرات الآلاف من الخسائر ، ولكن لو تمكن ذلك الشخص الجبان الذى يحمل رتبة السردار الأكرم عن غير جدارة ولياقة ، من التدخل من الخارج لأمكنه إنقاذ بودين . إلا أن سليمان باشا اقترب إلى حد حمزه بك ، ولكنه بعد أن خسر ٣٠٠٠ شهيد ، انسحب مذعورا تاركا بودين لقدرها ، انتشر خبر حصار بودين فى جميع أنحاء الإمبراطورية . كانت تجرى مراسم الدعاء فى كافة المساجد لأجل المدافعين عن بودين . كما كانت تجرى مراسم الدعاء فى كنائس أوروبا لفتح بودين ، وهكذا تطور القتال ، إلى صراع بين الهلال - الصليب .

في اليوم الـ ٧٤ لمحاصرة بودين (حصار فينا الثاني استغرق ٥٩ يوما) ، لم يبق لعبدى باشا إلا نفر قليل جدا . كان يحاول الدفاع عن باب بيج بالسيوف فقط ، كانت أكبر فتحة فتحتها مدافع العدو ، في تلك الناحية . قتل الدوق Asty الذى كلفه دوق لورين جارلس بالهجوم وقتل معه آلاف ، نتيجة قصف المدفعية التركية . دخل الصف الثانى من العدو إلى المدينة من باب بيج واستشهد الوزير عبدي باشا الذى كان أمام الباب ويده السيف ، وسحقته أقدام آلاف الجنود الذين مروا متجهين نحو ميدان بالى باشا . تجمع حفنة من الجنود الأتراك ، في الميدان الذى يحمل اسم الغازى بالى باشا ، ابن عمه السلطان سليمان وأول بكربك على بودين ، وهم يستعدون للدفاع الأخير . فضلو جميعهم الشهادة على التسليم واستشهدوا . وبينما حاول بضعة من الجنود الأتراك النجاة بإلقاء أنفسهم في الطونه ، عادوا وانضموا إلى الجيش ثانية عند مشاهدتهم شروع العدو في ذبح الأهالى المسلمين القاطنين في المدينة . ورغم إخلاء القسم الأعظم من الأهالى المدنيين من المدينة قبل بدء الحصار ؛ فإن عائلات تركية كثيرة لم ترض بالنزوح من بودين . تمكن بضع مئات من هؤلاء فقط من الهرب عن طريق الطونه . وعندما مل العدو من القتل العام للأهالى ؛ أسر عدة آلاف وهى البقية الباقية من الأتراك . حرق آلاف الآثار المعمارية التركية وفي مقدمتها ٨١ مسجداً ، بمثل هذه البربرية . هرع الكونت Marsigli وهو جنرال إيطالى من Bologna في خدمة الألمان مع بضعة من جنوده إلى القصور ، المكتبات ، المساجد وتمكن من إنقاذ الكثير من الكتب والآثار الفنية التركية التى أهدى فيما بعد قسما منها إلى المكتبة الإمبراطورية في فينا ، وقسما منها إلى المكتبة والمتحف الموجودين في Bologna . كان الكونت Marsigli الذى مكث مدة طويلة في استانبول ، يجيد التكلم باللغة التركية . وله مؤلف قيم جدا في التشكيلات العسكرية العثمانية .

لايستطيع أى مؤرخ أن يدعى أن العثمانية لم تدافع جيدا عن بودين . وهكذا انتهى الحكم الإسلامى التركى في المدينة التى فتحها فاتح المجر السلطان سليمان خان القانونى بنفسه قبل ١٦٠ عاما . عبدي باشا ، الذى عين قبل سنة واحدة و ١٠ أشهر على بودين ، كافى البكربك (الفريق) الـ ٨٦ على بودين وآخرهم (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٩ - ٥٣) . وبعد ٢٤ يوما (صباح ٢٦ أيلول) ارتجت استانبول لخبر سقوط بودين ، ارتجاجا لم يحدث من قبل عند سماع نصر أو هزيمة .

حدثت مظاهرات ضد الحكومة ، وتطاول البعض على السلطان علنا ، وكتبت المراثيات ولحنت .

استولى دوق لورين ، بعد انتصاره هذا ، الذى أقام أوروبا وأقعدها والذى كتب حوله مئآت من كتب الثناء والتبجيل ؛ على القسم الأكبر من المجر . بعد ضياع أكبر بلدة من بلدان الحدود ، التى لم يحرزها العدو فى أى وقت من الأوقات . تضعضعت معنويات الجيش التركى وأخذت القلاع الموجودة فى المجر فى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى . لم تكن المصيبة الحقيقية ، محاصرة فينا الفاشلة قبل ٣ أعوام ، بل كانت سقوط بودين .

سقطت شيموتورنا (Simotornia) فى (١٥ أيلول) ، شيكلوش (Siklos) ذات الـ ١٣ مسجداً (١٩ أيلول) ، بيج Peç (بالمجرية : Pécs ، بالألمانية : Funfkirchen) ذات الـ ١٧ مسجداً ، مركز لواء تركى مهم (١٠ ت ١) ، سكدين (Segedin) بعد دفاع دام ٢٤ يوما (١٢ ت ١) ، كابوشفار (Kaposwar) (٢٩ ت ١) . وعلى أثر انتقاد شيخ الإسلام جاتالجالى على أفندى للحكومة انتقادا شديدا للهجة ، عزله محمد الرابع بضغط من قائممقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) رجب باشا . كان يشغل مقام المشيخة الإسلامية منذ ١٢ سنة ، ٧ أشهر ، ٣ أيام (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٥ - ٨) .

توقفت الحركات العسكرية فى شتاء عام ١٦٨٦ - ٨٧ ولم يجرؤ العدو على اجتياز Drava كان الصدر الأعظم ، مع ٥٠.٠٠٠ جندى فى بلغراد وقالغاي قرم مع ٦٠.٠٠٠ خيال تقريبا فى تامشوار (راشد ، ١ ، ٤٩٠ ومابعده)

(٤) حركات عام ١٦٨٧

استغرق إعادة تجهيز جيش دوق لورين جارلس زمنا ، بسبب تكبده خسائر كبيرة فى بودين ، وهذا هو الذى أخر افتتاحه موسم الحرب . أما العثمانية فكان همها الدفاع وكانت فى وضع صعب . اقترب كونت Pallfy من Osiyek لكنه هزم وقتل (٢٠ تموز) . انسحب جيش الاتفاق على أثر ذلك ، إلى موهاج . جاء صارى سليمان

باشا ، الذى شعر بتردد دوق لورين بعد هزيمة Osiyek ، إلى موهاج . كان قد مضى على إثناء السلطان سليمان القانوني ، جيش الملكية لـ الجيرية الكبرى في صحراء موهاج (١٥٢٦/٨/٢٩) ١٦٠ سنة ، ١١ شهرا و ١٤ يوما بالضبط . كان جيش الاتفاق يفوق الجيش العثماني عددا ، وكان سليمان باشا ، على علم بذلك . ترك ساحة القتال بعد أن خسر ٢٠ ٠٠٠ شهيد . كانت خسارة المتففين ١٠٠٠ قتيل (١٦٨٧/٨/١٢) (هامر ، ١٢ ، ٢١٣) . العدو يستولى على سرادق صدر أعظم آخر قبل أن تمضى على هزيمة فينا ٤ سنوات ، وهذا السرادق عبارة عن سرائى سيار يحتوى على ١٤ شقة . أخذه منتخب بافيرا . « كان Karl-Ludwig دوق لورين على الجناح الأيمن ، ومنتخب بافيرا على الجناح الأيسر . كانت قيادة الأتراك غير جيدة ، وكانوا يحاربون بشكل جيد . اتخذ الأتراك من الأشجار سدا ودافعوا فترة من الزمن ، ثم تركوا لنا ساحة القتال وانسحبوا بشكل غير منتظم ، ولم يتمكنوا من أخذ معظم مدافعهم ومهماتهم وانتقلت إلينا . وقد حققت حرب موهاج هذه فوائد كبرى للعالم المسيحى والإمبراطورية . كانت السبب في جلب المصائب الكبرى للسلطان ، (كونت Marsigli ، ص ٢٣٥) .

لم يذق محمد الرابع الطعام مدة ثلاثة أيام . مرضت رابعة أمة الله كلنوش ، السلطانة - خاصكى (زوجة السلطان) (السلطانة - الوالدة بعد ذلك) . وصل الحزن والاستياء حده الأقصى في الإمبراطورية وخاصة في إستانبول . كان كامل نصف البحر تقريبا في هذه الأثناء بيد الألمان ، أما نصفه الشرق الأكبر فكان بيد العثمانية إلا أن الألمان أوقفوا حركاتهم في التقدم عند حلول فصل الخريف .

كانت جبهة بولونيا في غهدة السردار (القائد) العسكرية الجيد الوزير داماد بوزوكلو (من يوزغات) يبقلى مصطفى باشا . قوته تتألف من ٥٨٠٠٠ جندى (٢٠ ٠٠٠ منهم تمارلى (نوع من الخيالة) ، ٨٠٠٠ انكشارى ، ٣٠ ٠٠٠ قرمى) . أراد الملك سويساسكى أخذ كامانيجه لكنه دحر وتراجع (١٦٨٧/٩/٣) . دخلت روسيا كذلك الحرب في هذه الأثناء . أرسل مصطفى باشا ، بعد انتصار كامانيجه ؛ نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) على الجيش الروسى . تمكن نور الدين من العثور على الجيش الروسى الذى يقوده Prens Galitzyn قرب كييف Kiev وهزمه بسهولة .

تمكن الجيش البندقي الذى تسانده قطع اسبانيا ، توسكانيا ، ميلانو ، مالطه ، البابوية ، المانيا ، السويد من عبور برزخ Korinthos والدخول إلى شبه جزيرة Attika . استولى على أثينا (١٦٨٧/٩/٢٥) . خربوا ونهبوا المدينة بشكل فظيع . الألمان والبندقيون الذين هم أكثر همجية من الأتراك ، هدموا محافظ عليه الأتراك لعصور طويلة من الآيات الفنية الأثرية التى تعتبر رمز الآثار القديمة وجعلوها هباء منثورا ، وتحولت المدينة المعمورة ، خلال أيام معدودة ، إلى كتل من الحجارة وبقايا الحريق . سقطت إحدى القنابل التى أطلقت من سفينة بندقية فى وسط Parthemon ونسفت أجهل قسم من المعبد (فون هامر ، ١٢ ، ٢٢٧) ، كانت أثينا تحتوى على عدد قليل من الأتراك . ولأن الشعب كان أرثوذكسى المذهب ، فقد ذبحهم الكاثوليك بلا رحمة ؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأرثوذكس مسيحيين منحرفين .

كان الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) آيناچى صارى سليمان باشا ، الذى لعب أهم وأقبح دور فى إسقاط مرزيفونلى ، عديم الأخلاق والضمير ، ظلما ، عديم الكفاءة . أفسد النظام والضغط الصارم الذى أسسه الكوبرولولر (المنتسبين إلى عائلة كوبرولو) فى الجيش التركى بشق الأنفس . تمرد الجيش وأراد قتل الصدر الأعظم . فر صارى سليمان باشا إلى إستانبول ، واستقال (١٦٨٧/٩/١٩) . دامت صدارته سنة ، و ٩ أشهر ، ويومين . أمر محمد الرابع بإعدام صارى سليمان باشا ، وعين سياوش باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . كان سياوش باشا صهرا لكوبرولو محمد باشا . كان يحمل هذه الميزة ، لكنه شخصيا لم يكن شخصا ذا قيمة . تمرد الجيش ، بقيادة عصابة من ضباط الإنكشارية ذوى الرتب الصغيرة وطلب خلع البادشاه من عرشه ، كان يريد التحكم فى الدولة ونهبها كما حدث قبل ٣١ سنة فى العهد الذى يسبق كوبرولو . لم يعد مثل هذا الجيش يعبر شأنا للقتال . لم يكن شعب إستانبول يريد البادشاه ، فقد حدثت على عهده هزائم لم تحدث فى تاريخ الدولة . لكن الحقيقة أن عدم الرضا الذى يظهره شعب إستانبول ، كان بسبب مكوث البادشاه بصورة مستمرة فى أدرنة وقلة مجيئه إلى إستانبول ، واستفادة أدرنة من ميزات كونها مدينة العرش .

٥) خلع محمد الرابع (١٦٨٧/١١/٨) وشخصيته

يمكننا القول إن كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، هو الذى رتب هذا الأمر . اتخذ موقفاً مضاداً من البادشاه وشهزادته (أبناءه) الاثنين . كان فاضل مصطفى باشا يرى أن هذا البادشاه ، هو الذى سبب ضعف الدولة العالمية بإبعاده عائلة كوبرولو عن السلطة منذ هزيمة فينا . خلع كوبرولو - زاده ، الذى عينه محمد الرابع وكيلاً للصدارة ، البادشاه فى إستانبول ، عندما كان الجيش المتمرد فى ادرنه . كان السلطان مصطفى (الثانى) الأبن الكبير لمحمد الرابع ، هو ولى العهد الشرعى . لكن كوبرولو - زاده ، انتقاماً لأبيه ، أبعد كلا من ابنى مراد الرابع . وأجلس على عرش الشهزاده (الأمير) السلطان سليمان كبير أخوى محمد الرابع الذى على قيد الحياة . وبهذا شذ عن قاعدة الوراثة المتبعة للسلالة السلطانية .

كانت أكبر عيوب مراد الرابع ابتلاءه وشغفه بالصيد . إلى درجة مرضية . وصار لايمكنه العيش بدون الصيد . وفى الحقيقة ، كان مراد الرابع حاكماً من النوع الذى يفوض إدارة الدولة للوزراء ويقوم بواجب رئاسة الدولة بكل وقار . لكن المجتمع العثمانى ، لم يكن معتاداً على مثل هذا النوع من الحكام . كان يريد خاقاناً يجمع كامل السلطة فى يده ويعرف كيفية إدارة هذه السلطة .

ترك السلطان محمد خان الرابع العرش إلى أخيه الذى يصغره بـ ٣ أشهر ، ١٣ يوماً . استمع إلى قرار خلعه بكل هدوء . وسأل دون اهتمام ، فيما إذا كان قد صدر قرار بإعدامه أم لا . وعندما علم بعدم صدور قرار بقتله ، لم يظهر أدنى علامة للسرور . كان هادفاً إلى درجة لاتصدق . فارساً ممتازاً . وفى يوم شتاء ، امتطى الجواد من يان بولو إلى أدرنه طيلة ٢٠ ساعة دون أن يترجل من على الحصان إلا لتبديله فقط ودخل السراى دون أن تظهر عليه إمارات التعب ، أما معيته فمرضوا وأصبحوا طريحي الفراش لعدة أيام . قصد بإجراء سفره كهذه أن تكون عبرة لمعيته الذين أخطئوا بقولهم للسلطان أنه من غير الممكن السفر فى شتاء كهذا الشتاء . كان أحد أشهر رماة الجريدة من بين الرماة الذين أحرزوا أرقاماً قياسية فى الإمبراطورية . كتب عدة أشعار . وسار على التقليد المتبع فى رعاية الشعر والأدب والموسيقى والفن . لكنه بقى بعيداً عن التعمق فى ولوج هذه الحقول كما فعل

أجداده . جلس على العرش وعمره ٦ سنوات و ٧ أشهر و ٧ أيام ، ورغم أنه استمر على تحصیل العلم أثناء سلطنته مدة طويلة ؛ لكن تنقيفه لم يكن كأجداده . كان محظوظا جدا ، من جهة وجود أم له مثل السلطنة - والدة خديجه تارخان . ارتاح جدا في دور الكوبرولولر (عائلة كوبرولو) (١٦٥٦ - ١٦٨٣) ، وقضى سلطنة ذات شوكة عظمى تشبه تلك التي في عهد القانوني . وفي كل فرصة سنحت له ، ترك إستانبول التي تذكره بالثورات التي جرت في طفولته وسكن أدرنه ، ولم يكن هذا مناسبا من ناحية صيانة نظام الدولة . عاشت أدرنه في عهده المع وأعظم فترات تاريخها ودخلت ضمن أكبر بلدان العالم المعدودة . لم يكن مغرما بالنساء أو المشروب . ولدت الباشخاصكى (زوجته المفضلة) السلطنة رابعة أمة الله كلنوش ، التي عنيت بتربيتها والدة زوجته ، له ابنه ، ولو أنها لم تكن الزوجة الوحيدة له ، إلا أنها احتلت مكانها المرموق كزوجه المفضلة بين الحرم الهمايونى . أعدامه ، قره مصطفى باشا ، وتعيينه بدلا منه باشوات غير جديرين ، أحدهم أسوأ من الآخر مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا ؛ وضع السد المانع ضد سلطنته ، وأولاده وضد استمرار الدولة العالمية . أكمل بقية حياته سعيدا في سرايات إستانبول وأدرنه . لم يعيش طويلا لتأثره من حرمانه من الخروج للصيد .

دامت سلطنته ٣٩ سنة ، ٣ أشهر ، ويوما . كان عمره عند خلعه يتجاوز الـ ٤٥ عاما بـ ١٠ أشهر و ٧ أيام . هذه المدة ، هي أطول مدة لرئيس دولة في تركيا بعد عام ١٥٦٦ . مدة هذه السلطنة هي الرابعة في التاريخ العثماني بعد مدة سلطنات ارطغرل غازى والقانونى وعثمان غازى . كان من السلاطين النوادى الذين أصبحوا « ولى عهد » فور ولادتهم . عاش بعد خلعه ٥ سنوات ، وشهرا ، ٢٨ يوما . مات في سارى أدرنه وعمره يتجاوز الـ ٥١ بـ ٥ أيام (١٦٩٣/١/٦) . نقل جثثانه إلى إستانبول ودفن جوار والدته السلطنة تارخان . ورغم مناداته سنجق بك (أمير لواء) على ساروخان (مانيسا) في أواخر ولايته للعهد (ك ١٦٤٦/٢) ، فإنه لصغر سنه ، لم يلتحق باللواء . زار فى الأناضول ، الأماكن القريبة مثل جناقلعه ، أزميت ، بورصه . أما ناحية روملى فشاهدها كما زار تلك المناطق بشكل موسع حتى داخل بولونيا . توجب علينا الحقيقة أن نذكر مسيرته إلى عدة حملات همايونية ، ولو أنه لم يكن هو قائدها بنفسه .

جرت عملية ختانه بعد جلوسه على العرش بسنة واحدة وشهرين ونصف ، مع إخوته الثلاثة ، رئيس أساتذته (باش معلم) خواجه سلطاني والى محمد أفندى . ومن بين أساتذته الذين يستحقون الذكر ، كل من المؤرخ الشهير والشاعر الوزير الثاني عبد الرحمن عبدى باشا ، شيخ الإسلام منقارى - زاده يحيى أفندى ، عمته السلطانه عاتكه . أستاذه فى التاريخ ، هو المؤرخ المشهور جدا والطبيب هزار فن حسين أفندى (وفاته ١٦٩١) . لم يفارقه بعد خلعه ابنه الإثنان . عاش مع ابنه وأمه السلطانه رابعة فى قصر طوب قابو حتى ربيع عام ١٦٨٩ ، ثم فى السراى الهمايونى فى أدرنه . يلقبه العثمانيون « آوجى » (صياد) و « غازى » ، ويلقبه الأوربيون بـ « الكبير » .

أولاده : السلطان مصطفى الثانى (١٦٦٤/٦/٥ - ١٧٠٣/١٢/٣٠) ، السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣/١٢/٣١ - ١٧٣٦/٧/١) ، السلطانه خديجة (١٦٦٢ - ١٧٤٣/٥/٩) ، السلطانه فاطمة (١٦٨١ - ١٧٠٠/١٢/٦) ، السلطانه أمة الله « آمى » « كوجوك » (١٦٧٠ - ١٧٠٠/١٢/١٣) . توفى له ٣ شهباده (أمير) و سلطانه (أميره) وهم أطفال ، استمرت السلالة إلى زماننا هذا عن طريق أحمد الثالث ، لكن ابنى مصطفى الثانى كذلك جلسا على العرش . السلطانه خديجه ، تزوجت أولا بالوزير الثانى داماد صاحب مصطفى باشا (وفاته ت ١٦٨٦/١) ، ثم بالصدر الأعظم مورالى سلاحدار أنشته حسن باشا (١٦٥٦ - أيار ١٧١٣) ، وأنجبت من الأول ٤ ومن الثانى ولدين . إن والدته السلطانه خديجه ، هى كذلك السلطانه رابعة كلنوش والدته كل من مصطفى الثانى وأحمد الثالث . تزوجت السلطانه فاطمه بداماد طرناقجى جركس إبراهيم باشا (وفاته شباط ١٦٩٧) ، وبداماد طوبال يوسف (وفاته ت ١٧١٦/٢) ، وخلال الفترة بين زواجها أنفى الذكر ، تزوجت بالداماد مصرلى محمد باشا ، ورزقت بنت من كل من ابراهيم باشا ويوسف باشا . جرى نكاح السلطانه أمة الله وهى طفلة إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ولكن لم يجر الزفاف ، ثم تزوجت بالداماد سلاحدار جركس كوجوك عثمان باشا (وفاته ١٧٢٧/١/٨) وأنجبت منه ٣ خاتم سلطان (سلطانه) .

تنقسم سلطنة محمد الرابع إلى هذه الأدوار : (١) دور النياية (١٦٤٨/٨/٨ -

١٥/٩/١٦٥٦ = ٨،١،٨) : أ- نيابة أم أبيه السلطنة - الوالدة الكبرى كوسم مهبيكر (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣ - ١٦٥٦/٩/١٥ = ١٢، -، ٥) (٢ دور الكوبرولولر (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٢٧، ٣، -) : أ- صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠ = ١٥، ١، ٥) ،
 ب - صدارة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا (١٦٦١/١٠/٣٠ - ١٦٧٦/١١/٣ = ١٥، -، ٤) ،
 ج - صدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٧٦/١١/٣ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٧، -، ١، ١٢، ٣) الدور الأول من سنى المصائب (١٦٨٣/٢/١٥ - ١٦٨٧/١١/٨ = ٣، ١٠، ٢٤) : أ- دور الحرب التوازنية إلى سقوط بودين (١٦٨٣/١٢/١٥ - ١٦٨٦/٩/٢ = ٢، ٨، ١٨) و ب - دور الهزيمة التامة (١٦٨٦/٩/٢ - ١٦٨٧/١١/٨ = ١، ٢، ٦) .

كانت الدولة في تاريخ خلع محمد الرابع ، قد فقدت ٢٨ ٠٠٠ كم^٢ تقريبا من أراضيها للبندقين و ١٠٠ ٠٠٠ كم^٢ تقريبا لألمانيا وكلها كانت أقطارا مهمة للغاية : القسم الأعظم من البحر الوسطى والغربية ، قسم من سلوفاكيا ، سلوفينيا ، خرواتيا ، مورا ، جزيرة آيا مافرى Aya Mavri ، أثينا وجوارها ، Preveze و Inebahti ، دالماسيا التركية . وخلال ذلك ، سقطت بكلربك (إمارة) بودين (بودابست) الإيالة الثانية بعد مصر وإيالة اويفار الصغيرة وذهبت في ذمة الماضى .

٦) الدور الأول لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٧/١١/٨ - ١٦٨٩/١٠/٢٥)

سليمان الثالث ، هو الابن الثانى للسلطان إبراهيم . أمه السلطنة - الوالدة صالحة دلاشوب (١٦٢٧ - ١٦٨٩/١٢/٥ ، فى سراى أدرنه) . سُمى المؤرخون العثمانيون ، سليمان ١ « أمير سليمان » وطفروا وسموا القانونى « سليمان ١ » وسليمان ٣ هذا ، سموه « سليمان ٢ » . استعمل الأوروبيون تعابير سليمان ١ ، ٢ ، ٣ - كما استعملناها نحن فى كتابنا هذا - على شكله الصحيح .

أساتذته ، حاجه سلطانى عرب - زاده عبد الوهاب أفندى ، شيخ الجلوتية أطبازارلى عثمان فضلى أفندى (وفاته ١٦٩١) . وبسبب منع الشهزادات (الأمراء

أبناء السلاطين) من إنجاب الأولاد في العشرين ١٧ و ١٨ ، لم يرزق خلال فترة سلطنته بأولاد ، رغم أنه كان متزوجا بـ ٦ زوجات . كان سليمان ٣ المسمى « غازى » ولى عهد لمدة ١٦ سنة تقريبا ، خلال الفترة من جلوس أخيه الكبير محمد الرابع (١٦٤٨/٧/٨) إلى تاريخ ولادة مصطفى ٢ الابن الأول لأخيه الكبير (١٦٦٤/٦/٥) . (حتى أنه توجد محاولة انقلابية في ١٦٥١/٩/٣ لخلع محمد الرابع وإجلاس الشهزادة الكبير سليمان) . وفي آذار ١٦٨١ ، عين الوزير السابع كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، مرافقا لحماية كل من سليمان ٣ وأخيه أحمد ٢ ، خلال سفرتهما من إستانبول إلى أدرنه ، وبذا سنحت له الفرصة للتعرف على هذين الشهزادتين عن كثب ، أحبهما وصار مؤثرا فيما بعد لجلوس كليهما على العرش . عاش مدة طويلة في أدرنه عندما كان أميرا . انشغل كثيرا بالخط . وحصل على أجازتين في خط الثلث والنسخ من طوqاتلى أحمد أفندى .

سقط سياووش باشا ، صهر كوبرولو من الصدارة بعد ٥ أشهر و ٩ أيام (١٦٨٨/٣/٢) ، صار ، آياشلى نيشانجى اسماعيل باشا ، صدراً أعظم . سببت ثورة ٢٨ ربيع الأول ، سقوط سياووش باشا ، وهذه الثورة من أقذر ثورات التاريخ العثمانى ، فلقد قتل الثوار العصاة الذين اقتحموا سراى سياووش باشا ، الباشا مع ١٥٠ من رجاله (هامر ، ١٢ ، ٢٥٠) .

وبينا أصبح السفلة أصحاب النفوذ في إستانبول ، كان يجرى في المجر قتال دموى عنيف . استولى الجنرال Caraffa ، على مركز الإيالة اكرى (بالجرية : Eger بالألمانية : Erlau) مع Vire (١٦٨٧/١٢/١٤) . وهكذا خرج شمال المجر من الحكم العثمانى . كان محمد الثالث قد فتح أكرى قبل ٩١ سنة ، وشهرين ، ٣ أيام . سبب استسلام القلعة لحاها بعد سقوط البكلربك حسن باشا شهيدا ، هو كثرة نفوس المسلمين في المدينة . خرج هؤلاء بأمان . لكن الألمان نسفوا كافة الآثار المعمارية العثمانية في المدينة ومن بينها ٤١ مسجدا ، جعلوها قاعا صفيصفا . إلى حد أنه لا يمكن لأحد أن يقول بأن هذه البلدة ، شهدت حكما عثمانيا . وتوجد الآن في أكرى ، مأذنة واحدة - لأحد يعلم كيف سلمت - كأنها تشهد على الماضى . تقع أكرى على بعد ٩٥ كم في شمال - شرق بودابست . اغتتم الألمان الـ ١١٣ مدفا الموجودة في القلعة . اولو جامع (المسجد الكبير) صار كنيسة القديس ليوبولد . الذى احتل أكرى ، هو المؤرخ الشهير الكونت ماسيكل مساعد Caraffa .

انتخب موروسيني الذى فتح كامل مورا ١١/٨/١٦٨٧ ، دوج على البندقين (رئيس جمهور) . انتقلت إلى يد البندقين ، كامل دالماجيا تقريبا ، كان يسكن اثينا ٣٥٠٠ تركى ، جاءوا إلى أزمير .

لم يتمكن اياشلى اسماعيل باشا من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين . وأصبح تكدراغلى بكرى مصطفى باشا ، صدراً أعظم (١٦٨٨/٥/٢) .

انهارت كامل جبهة المانيا تقريبا ، فى صيف عام ١٦٨٨ . وصل منتخب بافيرا إلى القرب من بلغراد . سقطت قلعة Golumbacz ، وهى القلعة التى فتحها بيلديرم بيازيد . كانت هنالك عائلات تركية تسكن منذ ٢٩٠ عاما . نصروا ٣٠٠ امرأة مسلمة وزوجوهن بالجنود الألمان . سقطت أستولنى - بلغراد (بالجرية : Székesfé hervar) ، مركز لواء مهم على بعد ٥٠ كم فى جنوب - غرب بودابست ، رغم دفاعها الشديد (١٦٨٨/٩/٦) . قتل خلال هذا الدفاع أمير Liechtenstein و ٤ حكام ألمان يحملون لقب كونت . جرح دوق Mantova ، أمير Savoie المشهور Eugen ، كان القائد العام منتخب بافيرا بين الجرحى . استشهدت كامل الحامية العثمانية لاستولنى - بلغراد البالغة ٧٠٠٠ شخص وذبح كافة المسلمين الموجودين فى المدينة . انتقل ليد العدو ٧٩ مدفعا عثمانيا ، وقد دهش الألمان عند مشاهدتهم أحدها الذى كان يقذف قذيفة بحجم ٤٤٠ « ليفره » . أهدى المنتخب ماكسيميليان Maximilian الراية العثمانية التى اغتنمت ، إلى البابا Innocentius الحادى عشر . علق البابا هذه الراية إلى جانب راية مرزيفونلى قره مصطفى باشا التى سبق أن أرسلها إليه سويساسكى .

سقطت قلعة بلغراد بعد سقوط استولنى - بلغراد بيومين وبعد قتال شديد جدا (١٦٨٨/٩/٨) . استمر الحصار ٢٩ يوما . كان قد تم إجلاء الشعب المسلم وإرسالهم إلى الداخل عن طريق الطونه . ذبح الذين لم يرغبوا فى الذهاب ، بالسيوف مع بقية الحامية التركية . حول أكثر من ١٠٠ مسجد ، إلى كنيسة .

دخل والى بادن Ludwig ، آيالة بوسنه واحتل Banyaluka و Zvornik (١٦٨٨/٩/٤ ، ١٦٨٨/١٠/٤) . أزعج الأتراك بصورة كاملة من درافا التى كانوا قد وصولها فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) . لكن البكلربك

الوزير محمد باشا ، هزم العدو في بيهاج وتمكن من الحفاظ على خط الطونه .

كان النصر ، في جبهتي بولونيا وروسيا ، يلزم الطرف العثماني . وفي شتاء عام ١٦٨٨ في المعركة الميدانية Sireth . اقترب الجيش الروسى الذى يقوده الأمير Vassili Galitzyn لأول مرة في التاريخ إلى اورقابو ، وهى باب قرم . لكن الجيش المؤلف من ٣٠٠ ٠٠٠ شخص انهزم بشكل قطعى في الحرب الميدانية أمام سبيم كيراي (١٦٨٩/٥/٣٠) .

جاء موروسينى ، في عام ١٦٨٨ إلى أثينا . كان يريد الاستيلاء على آغريوز . سلم القيادة العامة إلى العسكرى السويدى الكبير الماريشال الكونت Königsmark . كان مساعده ، أميرا Wütem berg و Braunschweig ، وأمير d'Harcourt الفرنسى . كان جيشا إيطاليا - ألمانيا كبيرين . جاء أسطول الاتفاق المؤلف من أساطيل البندقية - البابوية - مالطه - توسكانا ، إلى بيره Pire . كان الأسطول مكونا من ١٣٤ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة نقل . كان يدافع عن آغرى بوز ، جلبى إبراهيم باشا . تحرك أسطول الاتفاق من بيره (١٦٨٨/٧/١١) ودخل ميناء آغرى بوز ، مركز جزيرة آغرى بوز (باليونانية : Chalkis ، بالإيطالية : Egripo) . هذه القلعة ، قرية جدا من شبه جزيرة Attika وتقع على مضيق آغرى بوز الذى يفصل الجزيرة عن شبه الجزيرة . تمكن جلبى إبراهيم باشا من الدفاع عن الجزيرة أمام العدو الذى يفوقه عسكريا وبحريا بدرجة لاتقبل القياس ؛ مدة ١٠٦ أيام . أصيب القائد العام الماريشال الكونت Königsmark ومات ، احتل مكانه ، أحد الحكام الألمان أمير Barunschweig . جرح أمير Württemberg (٢٠ آب) بلغ القتال الذى يجرى وجهه لوجه فوق الأسوار ، والصدام الذى يجرى تحت الأرض بحفر الانفاق ، درجة مخيفة . أمر موروسينى ، برفع الحصار وإخلاء الجزيرة (١٦٨٨/١٠/٣٠) . قتل ٢٣٠٠٠ جندى من الأعداء وجرح عشرات الألوف منهم . لم تجد نفعا ال ١٨٢٠٠٠ قذيفه و ٣٦٠٠٠ قنطار من البارود التى قذفت القلعة العثمانية . كان نصرا عظيما لجلبى إبراهيم باشا الذى قصفه العدو بمعدل ١٨٠٠ قنبلة يوميا . شُخص موروسينى المحرب ، خور قواته البندقية . اكتفى بـ Mora . وأيقن عدم إمكان تقدمه أكثر من ذلك . أراد أن يرسل الأسطول إلى سواحل الأناضول لاستعراض قوته وإخطار العثمانية ، لكن القبطان دريا (مشير البحر ، أكبر رتبة بحرية) مصرى

أوغلو إبراهيم باشا ، هزم الأسطول البندقى بعد إغراقه ٨ سفن معادية ، وفقد البندقيون فى السنة التالية كذلك ٩ سفن . أما قلعة العثمانية الأخيرة فى مورا ، بنفسه (Malvasia) فقد استسلمت بعد نفاذ قنابل الـ ٧٨ مدفعا الموجودة فيها وبعد مقاومتها مدة ١٤ شهرا (١٦٩٠/٨/١٠) .

جاء سليمان الثالث إلى أدرنه ، على أثر سقوط بلغراد . وبتحركه منها ، وصل صوفيا خلال ١٩ يوما (١٦٨٩/٦/٢٥) . انتهت هنا الحملة الهمايونية الألمانية التى أعلنت فى ٦ حزيران (١٦٨٩) . لأن الوزراء لم يجرؤا على إرسال البادشاه إلى أبعد من ذلك .

كان البادشاه مريضا . وكان سردار (قائد) جبهة ألمانيا ، عرب رجب باشا ، عديم الكفاءة بشكل كبير . انهزم فى المعركتين الميدانيتين Batucina (٣٠ آب) وبعدها نيش (٢٤ أيلول ١٦٨٩) . استولى ماركيز بادن الذى اغتتم ٢٠٣ مدافع عثمانية ، على نيش . نقل الوزراء الذين ارتأوا خطورة بقاء البادشاه حتى فى صوفيا ، سليمان الثالث الذى كان يسكنها منذ ٥ أشهر ، إلى أدرنه . أعدم رجب باشا . أسقط الألمان الذين استولوا على صربيا ، Vidin ، ودخلوا بلغاريا ، وأخذوا يقترحون إلى اسكب ، مكدونيا والبانيا . ثم وقف البندقيين ، وتم دحر البولونيين والروس باستمرار . ولكن ، كأنما لاتوجد هنالك أية قوة لوقف الألمان . قرر شورى السلطنة فى أدرنه بالإجماع أن الحل الوحيد هو تعيين كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم وعرض ذلك على البادشاه ، وقد صوت تكرداغلى مصطفى باشا ، الذى يشغل منصب الصدارة منذ سنة ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما (والذى عمل مابوسعه دون حصوله على نتيجة) ، مؤيدا ذلك (١٦٨٩/١٠/٢٥) . كان فاضل مصطفى باشا البالغ عمره ٥١/٥ عاما ، محافظا لجزيرة ساقز ، استدعى إلى أدرنه . كان حاصلا على رتبة وزير قبل ٩ سنين وعمره ٤٢ عاما . بينا أخاه ، كان قد حصل على رتبة الوزير وعمره ٢٤ عاما وصدرا أعظم وعمره ٢٦ عاما .

(٧) الدور الأخير لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٩/١٠/٢٥ - ١٦٩١/٦/٢٢)

يعود شرف طرح فكرة تكليف كوبرولو - زاده في شورى السلطنة لأول مرة والتذاكر في هذا الموضوع ، إلى شيخ الإسلام دباغ - زاده محمد أفندى . أما البادشاه ، فكان يضم الامتنان نحو كوبرولو - حيث أن هو الذى نحى ولى العهد السلطان مصطفى وأجلسه على العرش ، إلا أن رجال الدولة ، كانوا على درجة من ضعف السجية والأخلاق ، وكأنهم عقدوا اتفاقا سرى بينهم لإبعاد عائلة كوبرولو من السلطة ، وذلك خوفا من مجيء صدر أعظم قوى على رأسهم ، يقف أمام مطامعهم في سلب الدولة كيفما يشاءون . لم يكن سليمان الثالث بالشخصية التى تستطيع أن تقف أمام النظام العثمانى الصارم ذى القدرة المدهشة . لكن دخول العدو إلى الأقطار التى فتحت في عهد مراد خداوندكار ، كان السبب في إذعان الجميع أمام كوبرولو - زاده .

كان فاضل مصطفى باشا ، أحد أكبر دهاة الإداريين في التاريخ العثمانى . كان يعلم عدم إمكانه دخول الحرب بجيش لا يتردد جنوده في نهب مهمات جيشهم في ساحة القتال ويعتبرونها كأنها غنائم حرب سلبت من العدو . وكان يعلم كذلك بأن أمامه شتاء واحد فقط ، لإصلاح مثل هذا الجيش ، حيث أن الألمان سوف لن يمهلوه عند افتتاح موسم القتال في الربيع القادم ، ولأحد يعلم عندئذ ، إلى أى مدى سيتقدمون .

عندما أعلم سليمان الثالث ، بأن كوبرولو - زاده ، حمل الختم الهمايونى ، بنفس الصلاحيات التى حملها أبوه محمد باشا ، أخيه الكبير أحمد باشا وزوج أخته قره مصطفى باشا ، جزع المتمردون ، إن المتمردين في هذا الدور ، هم الضباط صغار الرتبة ، أما عدد الجنرالات المشاركين معهم ، فقد كان قليلا جدا . كان الجنرالات قد سثموا من تحكم هؤلاء ، وكانوا مستعدين وراغبين باسم الدولة في مساندة صدر أعظم كهذا . وينبغى أن نذكر أن المتمردين الذين سبقوا كوبرولو محمد باشا ، لم يكونوا من الضباط صغار الرتبة ، بل كانوا من الجنرالات .

كانت المشكلة الخارجية الوحيدة لكوبرولو محمد باشا ، هى دفع الأسطول البندقى

الذى اقترب إلى فتحة مضيق جناق قلعة ، كما أنه يمكن القول بأن أدرنه ، لم تكن سالمة من الخطر ، عند مجيء فاضل مصطفى باشا إلى السلطة . كان لدى كوبرولو الوقت الكافى لتصفية المتمردين ، وإن كان الوقت بشكل عام ضيقا جدا ، ورغم ذلك ، فقد وفق توفيقا خارقا للعادة ، من ت ١٦٨٩/٢ حتى تموز ١٦٩٠ (مدة ٨ أشهر) ، لم ينفذ ليلا ولا نهارا ، وعاد بنظام الدولة إلى مستوى نظام عام ١٦٨٣ تقريبا .

أحدث إصلاحات جذرية فى مجالات المالية والزراعة وأنظمة الدولة ترتقى إلى درجة إصلاحاته فى الجيش . انشغل بالسياسة الخارجية . استحوذ جنون لذة الفتوحات على الألمان ، ودخلوا إلى عمق الأراضى العثمانية وسط الشتاء . ذبح سليم كيراي بالسيف فى صحراء Kosova ٢٠.٠٠٠ جندى ألماني واغتنم ٣٢ مدفعا . المشهور عن هذه المعركة الميدانية ، أنه لم يتمكن سوى جنديين المانيين فقط من الهرب والنجاة (سلاحدار ، ٢ ، ٤٩٤) ، لأنهم كانوا قد ابتعدوا جدا عن مراكزهم . ظفر قالغاي دولت كيراي مع حسن بك - زاده محمد باشا بجيش ألماني آخر فى Prizrin وتمكنوا من إفناؤه . كان منقوشا على صدور جنود هذا الجيش المؤلف من ٨٠٠٠ شخص - كما فى الحروب الصليبية - صلبان كبيرة . طارد سليم كيراي العدو حتى صربيا وجاء إلى أدرنه ، أخبر السلطان كوبرولو - زاده بأنه تعب جدا وعرض عليه قبول تنازله عن العرش (١٦٩٠/٢/٢٣) . رفض كوبرولو - زاده طلبه مخبرا إياه بأن الزمن ، زمن جد . وقع خبر مجيء كوبرولو - زاده إلى السلطة فى أوروبا ، وقع القنبلة . لأن الألمان كانوا قد تذوقوا طعم إسقاط السردارات (القواد) الذين كان كل منهم أتفه من الآخر .

سقطت قلعة Kanije ، قبل خروج كوبرولو - زاده من أدرنه إلى الحملة ، بيومين (١٦٩٠/٧/١١) . كانت القلعة مركزا للإيالة بين سلوفينيا فى البحر وحدود النمسا . استمر حكم العثمانية فى كانيجه ١٥٨ عاما ، إلا ١٨ يوما . لم يتمكن كوبرولو - زاده من مغادرة أدرنه ، إلا فى ١٣ تموز (١٦٩٠) . وخلال تقدم ميزمورتا حسين باشا ، أميرال أسطول القطع النهرية (القليلة العرض) للطونة ، نحو بلغراد ، تحرك هو من أدرنه ووصل شهر كوى (Piro) واستعاد هذه القلعة من الألمان ، وأجبر جيش الإمبراطورية الذى يقوده Von Schenkendorf على التراجع

مغلوبا على أمره . واستولى على قلعة موسى باشا (١٢ آب) ، وعلى نيش التي يحميها ١٠ ٠٠٠ جندي الماني بواسطة ٩٠ مدفعا ، بعد حصار ٢٣ يوما (٩ أيلول) ، وخلال يومين استولى على سمندره (٢٧ أيلول) ، Vidin ، اورشوا وفتح الإسلام ووصل بلغراد .

عنى العثمانيون بصيانته قلعة بلغراد وتحصينها تحصيناً جيداً ، وكان الألمان قد أصلحوها بشكل فائق . كانت القلعة مكونة من ٩ طوابق ، ١١٦ برجاً ، وأسوار متتالية يمكنها مقاومة أضخم الجيوش بكل سهولة لمدة شهرين أو ثلاثة . هذه القلعة استولى عليها كوبرولو - زاده بعد قصفها مدة ٧ أيام ليلاً ونهاراً بواسطة ٤٩ مدفعا ضخماً (١٦٩٠/١٠/٨) . استشهد ٥٠٠٠ جندي تقريبا . استشهد بكلربك روملى مصطفى باشا برصاصة أصابت رأسه . صلى عليه ، فاضل مصطفى باشا بنفسه وقام بمهمة الإمام . خسر الألمان ١٥ ٠٠٠ قتيل و ٣٩٦ مدفعا المانيا ، تم الاستيلاء على ١٢ سفينة حربية على الطونة (هامر ، ١٢ ، ٣١٤) . أسر آلاف الألمان . كانت بلغراد قد بقيت تحت حكم الألمان مدة سنتين ، وهكذا بدأ دور حكم العثمانية الجديد فى بلغراد لمدة ١٨٨ عاما . عاد القليل من الأتراك الذين تركوا المدينة قبل عامين . خرجت بلغراد ، عن كونها مدينة تركية . وفقدت كذلك هويتها كمدينة مجرية . وأخذت تزدهر كمدينة صربية . استعادت الأراضى الممتدة من Vardar إلى Darva التى تزيد على ٢٦٠ ٠٠٠ كم٢ . استعادت كامل صربيا . تم طرد العدو من بوسنه وبلغاريا بشكل تام . اقتحم فرسان قرم Esklavonya ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على Osiyek . كان الصربيون يتعاونون مع الألمان . عفا كوبرولو - زاده عن الصربيين ووزع البذور والحيوانات والحبوب مجانا على مناطق القحط . تم إرضاء الصربيين وكسب ودهم بشكل حال بينهم وبين التفكير فى العصيان ضد الدولة العثمانية طيلة عصر واحد .

قدم البادشاه من أدرنه إلى إستانبول ، على أثر سماعه بخبر الانتصار . استقبل الشعب كوبرولو - زاده بمظاهرات ترحيب عظيمة . خلع ، سليمان الثالث فى السراى ، البردة الموجودة على ظهره والبسها لفاضل مصطفى باشا . ودعا له باكيا . استعد فاتح نيش ، فيدين ، سمندره وبلغراد ؛ لاسترداد المجر فى العام المقبل . زاد الخوف فى المانيا ، جددت تحصينات قلعة فينا ، كما أعيد تحصين بودابست .

ورغم استشهاد جركس أحمد باشا برصاصة مسدس معاد ، تمكن من هزيمة جيش الجنرال Caraffa البالغ ٢٦٠٠٠ جندي في معركة Zernest الميدانية (١٦٩٠/٨/٢١) . نجح ٢٠٠ جندي معاد فقط ، وقتل ١٢ وأسر ١٨ جنرالا من الأعداء . اغتسم العثمانيون ٣٠ مدفعاً ، ٧ رايات ، ١٥ علماً . كان عدد شهداء الأتراك قليلاً جداً وجرح ٣٠٠ منهم . على أثر ذلك جاء ماركراف (ماركيز) بادن Ludwig في السنة التالية بجيش أضخم ، بقصد الاستيلاء على أردل (Transilvanaya) أيضاً واستولى على هذه البلاد المجرية . ألغيت الإمارة المجرية في أردل وضمت إلى الإمبراطورية الألمانية كمقاطعة (١٦٩١/١٢/٤) . وانتهى الحكم العثماني الذي استمر ١٦٥ سنة (Makkai, Histoire de Tansylvanie) ، ٢٥٣ - ٤) .

سار كوبرولو - زاده من أدرنه لحملة المائة ثانية (١٦٩١/٦/١٤) . توفي سليمان الثالث الذي كان مريضاً منذ زمن طويل ، بعد ٨ أيام (١٦٩١/٦/٢٢) . دامت سلطته ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بشهرين و ٧ أيام . نقل جثمانه من أدرنه إلى إستانبول ، ودفن في مقبرة جده السلطان سليمان الثاني القانوني .

غادر كوبرولو - زاده أدرنه ، وهو يعلم أن البادشاه على فراش الموت ، لكنه لم يرغب في تأجيل تاريخ مسيرته وتغويت الموسم . كان قبل ذهابه ، قد هدد كافة رجال الدولة لإجلاس أخ البادشاه ، السلطان أحمد على العرش ، حيث كانت الأكثرية تريد إعادة إجلاس محمد الرابع على العرش ، وكان قسم آخر ، يريد إجلاس ولي عهد - سلطان مصطفى ، الابن الكبير لمحمد الرابع ، وقليل أولئك الذين كانوا يريدون إجلاس السلطان أحمد . وعلى الرغم من هذا الوضع ، فقد تم إجلاس السلطان أحمد على العرش خوفاً من كوبرولو .

٨) دور السلطان أحمد الثاني (١٦٩١/٦/٢٢ - ١٦٩٥/٢/٦)

أحمد الثاني ، هو الابن الثالث للسلطان إبراهيم . وهو أصغر من أخيه الأكبر محمد ٤ بسنة ، أشهر ، ٢٤ يوماً ، وأصغر من أخيه الكبير الآخر سليمان الثالث بـ ١٠ أشهر ، ١٠ أيام . أمه خديجة معزز الخاصكي (زوجة السلطان) الثانية ، كانت

قد توفيت قبل ٤ سنين (١٦٢٧ - ١٦٨٧/٩/١٢) . صار ولى عهد ، طيلة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ، بضغط من كوبرولو ، ولكن بعد سليمان الثالث ؛ كان عدد الذين يريدون إجلاس محمد الرابع مرة أخرى أو إجلاس ابنه السلطان مصطفى ، أكثر . جلس على العرش وعمره ٤٨ عاما و ٣ أشهر و ٢٥ يوما وهو أكبر من جلس على العرش عمرا حتى ذلك التاريخ . كان مولويا ، شاعرا ، خطاطا ، ملحنا ومؤلفا وكان مستوى تحصيله أعلى من كل من أخويه الكبيرين . ولده الوحيد عدا ٣ سلطانات (أميرات) و شهزاده (أمير) توفوا في سن صغيرة جدا هو الشهزاده - سلطان إبراهيم (١٦٩٢/١٠/٦ - ١٧١٤/٥/٤) الذى ولد توأما ، وصار ولى عهد لابن عمه أحمد ٣ . مدة ١٠ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٢ يوما وتوفى وعمره يتجاوز ال ٢١ عاما بـ ٧ أشهر ، دفن في مقبرة جده السلطان إبراهيم . وفي ١٧٠٣ حدثت محاولة لإجلاسه محل أحمد ٣ ، إلا أن مؤيدو أحمد ٣ ، انتصروا . زوجة أحمد الثانى ووالدة ولى عهد - شهزاده سلطان إبراهيم ، هى رابعة خاصكى - سلطان (زوجة السلطان) (وفاتها ١٧١٢/١/١٤) ، مدفونة في مقبرة القانونى .

كان الجيش الإمبراطورى ، تحت قيادة ماركيز بادن Salankamen على بعد ٥٠ كم (مسافة مستقيمة) من شمال - غرب بلغراد . كان جيشا كبيرا مؤلفا من ٥٠ . ٠٠٠ مشاة و ٥٠ . ٠٠٠ خيال ووحدات أخرى . قضى الألمان الشتاء في الاستعداد بشكل جيد وحصلوا على امدادات . انضم الملك Tököli مع ٨٠٠٠ مجرى إلى الجيش العثمانى ، أما خان قرم فكان في الطريق . أخذ قائد أسطول الطونه مصطفى باشا يتقدم بأسطوله النهري صاعدا إلى مابعد بلغراد . وعلى مقربة من Salankamen في الموقع الذى يصب فيه Tisa على الدونه ، تقابل مع ٨٠٠ سفينة نقل نهريه المانية تحمل العتاد والمهمات . أغرق القسم الأكبر منها وأسر قسما آخر . كان الألمان مترددين ، بسبب هزيمة العام الماضى واسم كوبرولو . كانوا يدافعون عن الحجر ويعلمون أنهم سيفقدونها نتيجة لإحدى الهزائم . حفز وضع الألمان المتردد هذا ، أركان العثمانية ، وكوبرولو الذى ينتظر الجيش القرمى الذى يبعد مسافة ٧ ساعات ، على الهجوم قبل وصول القرميين . بدأت المعركة الميدانية عصرا باطلاقات المدافع المتبادلة بين الطرفين (١٦٩١/٨/١٩) . وخلال ساعات ، أخذت صفوف الألمان

في الانحلال والتراجع . شهر فاضل مصطفى باشا سيفه وتقدم في الصف الأول لتشجيع جيشه وتحقيق نتيجة حاسمة . وفي تلك اللحظة ، أصابت جبينه إحدى الرصاصات . صاح شخص أو شخصان من عديمي الأخلاق الموجودين حوله منادين باستشهاد السردار بشكل كأنما يراد به إسماع كافة الجيش ، فانغلت الصفوف . جمع الماركيز Ludwig الذي شاهد تغير الوضع ، فرقه المبعثرة وشرع في الهجوم . لم تقدم الأفواج التركية على القتال وبدأت في الانسحاب . وهكذا تسلم الألمان الذين تكبدوا خسائر جسيمة ، ساحة القتال من العثمانية التي كانت أضرارها طفيفة . لم يتمكن الماركيز الذي خسر ٤٠ ٠٠٠ جندي من مطاردة الأتراك . كان عدد شهداء الأتراك ٥٠٠٠ تقريبا . غير أن القسم الكبير من المدافع والمهمات العثمانية انتقلت ليد الألمان . سادت كيراي خان الذي جاء إلى بلغراد مع جيشه بعد يومين ، شاهد باكيا ، دخول الأفواج العثمانية إلى المدينة . الحقيقة أنه تأخر ، لأنه لم يكن يملك سطوة سليم كيراي ، ولم يتمكن من جمع جيشه في الوقت المحدد . وتمكن فقط من مطاردة العدو . جاء أولا إلى صحراء Salankamen . شاهد القتل الألمان الذين يبلغ عددهم أضعاف الشهداء الأتراك ، متروكين دون دفن وشاهد حرق قسم من المهمات العثمانية التي لم يتمكن العدو من نقلها بكاملها . طارد الألمان حتى Petervaradin . قتل في هذه المعركة دوق هولشتاين Christian أحد الحكام الألمان مع ٣ كونت من الحكام أيضا . كان رئيس أركان الماركيز ، هو المارشال الكونت Von Caprara . كانت الخسارة الكبيرة التي تفوق خسارة الحرب والتي لايمكن تعويضها ؛ هي استشهاد فاضل مصطفى باشا . دامت صدارته ١٢ سنة ، ٩ أشهر ، ٢٥ يوما . كان عمره ٥٣ عاما . استمرت عائلة كوبرولو ، من أبنائه الصدر الأعظم نعمان باشا ، السردار الوزير عبد الله باشا ، الوزير أسعد باشا .

صار قائمقام الصدارة ، عربيه جى خوجه قوجا قاضى على باشا ، صدراً أعظم (١٦٩١/٨/٣٠) . كان شيخا حريصا وظالما . كان من غير الممكن أن يسد الفراغ الذي تركه كوبرولو - زاده . والحقيقة أنه لم يكن هنالك من يستطيع سد هذا الفراغ . جىء بقوجا خليل باشا بكلكريك حلب ؛ قائدا عاما لجهة المانيا .

استمر القتال في خريف عام ١٦٩١ . انهزم الملك سوياسكى في كامانيجه أمام قهرمان باشا ، انهزم الألمان أمام Lippa تجاه طوبال حسين باشا بكلكريك (أمير

الأمرء) تامشوار . أعدم على باشا ، ٣ من منافسيه مدعيا أنهم السبب في هزيمة Salankamen . عزل سعادت كيراي الذى لم يتمكن من اللحاق بالجيش في الوقت المحدد ونفاه إلى رودس حيث توفى هناك بعد مدة وجيزة . انشغل مدة ٦ أشهر و ٢٩ يوما باجراءات كهذه . نفى إلى رودس وأعدم فيها ، وصار الصدر الأعظم البكلربك على دياربكر الوزير مرزيفونلى جالك حاجى على باشا (١٦٩٢/٣/٢٧) . كان وزيرا قديرا . أرسل الإمبراطور ، الكونت Marsigli الذى اشترك في كافة المعارك في الجبهة الألمانية منذ حصار فينا في سنة ١٦٨٣ والذى يجيد اللغة التركية ، لغرض عقد صلح . استقبله أحمد الثانى مرتين في إستانبول وفي أدرنه ، لم تؤد المفاوضات إلى أية نتيجة . خرب القرميون في ١٦٩٢ غليجيا وشمالها الأقصى وخلال ذلك مدينة Lwow استسلمت Varat (بالرومانية : Oradea Mare ، بالجرية : Warasdin بالألمانية : Grosswardein) إلى الألمان مع ٩١ مدعما ، ٢٠٠ كتال قذائف ، ٧٠٠ كتال بارود التى كانت موجودة فيها (١٦٩٢/٦/١٢) .

جاءت أساطيل البندقية - مالطه - البابوية - فلورنسا إلى كريت تحت قيادة الأميرال الكبير موروسينى وانسحبت بعد محاصرتها خانيا مدة ٤١ يوما وخسارتها ٤٠٠٠ جندي (١٦٩٢/٨/٢٨) . دافع عن خانيا ، الوزير اسباناقجى لإسماعيل باشا . دخلت جيوش البندقية ، دالماجيا من ناحية ، ودخلت الجيوش الألمانية من ناحية أخرى ، خرواتيا ، ولكن دحر كلاهما .

منح جالك على باشا ، القيادة العليا . سار من أدرنه بعد ٥ أشهر ، ١٢ يوما (١٦٩٢/١٢/١٢) . عين سليم كيراي - كان عمره ٥٨ عاما - خاناً على قرم للمرة الثالثة (١٦٩٢/١١/٦) . كان جالك على باشا وزيرا ذا أخلاق عالية كما كان اداريا قديرا . لكنه لم يكن رجل الأزمات الكبرى . تمكن من حمل عبء الصدارة مدة سنة ، ويوما ثم استقال (١٦٩٣/٣/٢٧) . توفى في كاندية عندما كان واليا على كريت عام ١٧٠٠ عن عمر يناهز الـ ٦٠ عاما (سلاحدار ٢ ، ٦٩٥ ومابعده) . عين مكانه بوزوقولو (من أهالى يوزغات) بيقلى مصطفى باشا ، وهو أيضا من ذوى الأخلاق العالية ومن الأشخاص الذين دربهم مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، وأعطيت له القيادة العليا (سردار أكرم) كذلك .

سار بوزوقلى بيقلى مصطفى باشا من أدرنة (١٦٩٣/٧/٦) . اجتاز فى ٢٧ تموز الطونه من Tutrakan . كان يريد استعادة أردل . لكنه غير اتجاه مسيرته ، عندما علم بأن الألمان توجهوا نحو بلغراد . حاصر الجيش الألمانى الذى يقوده دوق Croy ، بلغراد فى ٢٩ تموز . رفع الحصار فى ١٢ أيلول . قتل ١٠ ٠٠٠ ألمانى ، ٤٤٠٠ شهيد تركى . دافع عن القلعة ، جعفر باشا ، طارد الصدر الأعظم مصطفى باشا ، العدو المنهزم حتى Petervaradin ، وكبده خسائر جسيمة وعاد إلى بلغراد (١٧ أيلول) . دخل سليم كيراي كذلك أردل ، أسر ٢٠ ٠٠٠ جندى . عاد مصطفى باشا ، إلى أدرنة بعد ٤ أشهر ، ٢٤ يوما (١٦٩٣/١١/٢٩) . عزل بعد أن قضى فى الصدارة ١١ شهراً ، ١٨ يوما ، (١٦٩٤/٣/١٤) .

أرسل الختم الهمايونى إلى الوزير ديمه تو كالى سورمه لى على باشا بكربك (فريق) طرابلس الشام . جاء إلى أدرنة خلال ٣٠ يوما . ومنح القيادة العليا وسار من أدرنة لحملة Varadin (١٦٩٤/٦/٢٨) . حاصر فارداين مدة ٢٣ يوما ، ولم يتمكن من فتحها (٢ ت) . عاد إلى أدرنة من حملته التى استغرقت ٥ أشهر ، ١٠ أيام (١٦٩٤/١٢/٨) .

تحرك أسطول البندقية - البابوية - التوسكانية - المالطية المشترك من البندقية ، بقيادة الدوج (رئيس جمهور) فرانسيسكو مورو سيني وجاءوا إلى مورا . مات هنا العسكرى الكبير Morosini ، احتل مكانه Antonio . نشر ١١٥ سفينة حربية بحرية ، ١٢٠٠٠ جندى فى ميناء ساقيز أمام جشمه واحتل القلعة والجزيرة بقصفها من البحر (١٦٩٤/٩/٢١) . استمر الحصار ١٥ يوما ، ولأن القلعة استسلمت لحالها ، تمكن الأتراك من الذهاب أحراراً إلى جشمه . لكن سقوط ساقيز ، التى هى جزء من الأناضول قلبت إستانبول رأساً على عقب . قال البادشاه « ساقيز ، أحرقت قلبى ، لو رأيت استعادة ساقيز ، ومت ، لما اكترثت » لكنه مات متأثراً ولم يشهد استعادة ساقيز (١٦٩٥/٢/٦) . سبب ضياع ساقيز ، المصائب للعديد من رجال الدولة .

نقل السلطان أحمد خان الثانى الذى توفى فى أدرنة ، إلى إستانبول ودفن فى مقبرة سليمانية . كان عمره يتجاوز الـ ٥١ عاماً بـ ١١ شهراً و ٩ أيام . عاش أكثر بقليل من سلفيه وهما أخواه الكبيران . ومن أغرب الصدف ، أن مدة سلطنته

دامت بالضبط ، (بحساب الأيام) بقدر مدة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . خطأ ، عندما كان شهزاده (أمير) قرائن جميلة جدا . كانت لديه خبرة باللغات الشرقية . في حوزتنا دفتر مذكراته اليومية عندما كان شهزاده ، لا يوجد لأى بادشاه مثل هذه المذكرات . فاق اهتمامه بأمور الدولة ، اهتمام أخويه الكبيرين .

٩) المعارك البحرية مع البندقين (١٦٩٥)

خرج ولى عهد - شهزاده سلطان مصطفى خان ، الذى علم بوفاة عمه بعد دقائق - دون دعوة من أحد - من جناح ولى العهد فى السراى المملوكى فى أدرنة وجاء إلى جناح المنكار (السلطان) وجلس على العرش ونادى رجال الدولة لمبايعته . كان عمره يقرب من الـ ٣١ عاما . هو كبير ابنى محمد الرابع . أمه السلطانة - والدة رابعة أمة الله كلنوش (١٦٥٢ - ١٧١٥/١١/٦) ، سمراء ذات عينين سوداوين وشعر مسترسل أسود ، كانت امرأة جميلة جدا ، عنيت بها أم زوجها السلطانة تارخان ، طيلة مدة كونها السلطانة - خاصكى (زوجة السلطان المفضلة) وجهازها بعناية فائقة بما تحتاج إليه من الخصال لتكون أهلا لمنصب السلطانة - والدة (والدة السلطان) شغلت عرش السلطانة والدة ، خلال فترة حكم ابنها الاثني عشر سنة ٢٠ عاما و ٩ أشهر بلياقة كبيرة جداً . وبموجب التربية التى حصلت بها ، لم تزج نفسها فى أعمال الدولة أو الأمور السياسية . شيدت آثار خيرية كبيرة واشتهرت بكرمها الواسع .

جدد العرش ، شبابه . كان مصطفى الثانى ، الذى احتل مكان عمه ، يصغره بـ ٢٠ عاما . أسقط كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا حقه فى ولاية العرش ، حيث أجلس على العرش مكان أبيه الذى خلع ، عميه الاثني عشر الواحد تلو الآخر . وعلى هذا يكون مصطفى الثانى قد حرم من إمكان جلوسه قبل ٧ سنوات ، ٣ أشهر عندما كان فى الـ ٢٣ من عمره . اشترك فى عهد أبيه فى الحملات الأوروبية ، وعاش فى عهد أعمامه حرا فى إستانبول وأدرنة . جلس على العرش وهو السلطان الأكثر فعالية وثقافة والأكثر مقدرة من جميع السلاطين الذين حكموا بعد مراد الرابع . والحقيقة ، أن تحصيله كان عاليا .

كان أحمد الثانى ، قد اهتم قبل وفاته بتجهيز الجيش والبحرية لاسترداد ساقيز . صار السردار الأكرم (القائد الأعلى) الوزير مصرلى اوغلو ابراهيم باشا . القبطان دريا (مشير البحر) السابق وبكلربك طرابلس الغرب السابق ، عزل ميزومورتا حسين باشا بكلربك الجزائر السابق من منصب قبطان دريا وصار قبطان الكاليونات قائد « فريق البحر » أسطول المراكب الشراعية الحربية) .

تمكن ميزومورتا بالأسطول الهمايوى البالغ ٤٨ قطعة من العثور على الأسطول البندقى المكون من ٦٥ قطعة . جرت معركة مضيق ساقيز البحرية ، فى المجال البحرى الكائن فى شمال - شرق الجزيرة . كان الأسطول البندقى المعزز بأساطيل البابوية ، مالطه ، وتوسكانا ، بقيادة الأدميرال الكبير (مشير البحر) Benedetto Pisani أصيبت سفينة الأميرالية المسماة Vittorio (الظفر) ، ومات ، وعندما شاهد مساعده الأدميرال Contarini الذى احتل مكانه ، غرق ٦ من سفنه وإصابة الكثير منها ، وغرق سفينتين فقط للعثمانية ؛ انسحب إلى ميناء ساقيز (١٦٩٥/٢/٩) .

بعد ٩ أيام ، ظفر ميزومورتا فى هذه المرة بالأسطول البندقى ، على مقربة من جنوب جزر قويون (صباح ١٨ شباط) الذى يقرب من موقع المعركة السابقة . ورغم غرق ٩ سفن من سفن الأدميرال الكبير لم يتمكن من إغراق سفينة عثمانية واحدة . ترك ساقيز وهرب إلى مورا . وبهذا اتضح مصير ساقيز (راشد ، ٢ ، ٣٠٥ - ١٠ ؛ نصرت - نامه ، ١ ، ١٠ - ١٦ ؛ Rycault, History of The Turks ٥١٨ - ٢٦ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٧٧ - ٨ ؛ ف . قوردوغلو ، Mezomorta Hüseyn Pasa ، ٥٩ - ٦٢ ؛ وثائق ارشيفيه : صفوة بك ، Koyunadalari Deniz Harbi ، ٣ ، ١٥٠ - ٧٧) .

تم استرداد ساقيز (١٦٩٥/٢/٢٢) . كانت مدة الحكم البندقى فى الجزيرة عبارة عن ٥ أشهر ، ويوم فقط . انتقلت ليد العثمانية ٨ سفن بندقية راسية فى الميناء ، وفى القلعة ١١٢ مدفعا ، ٥٠٠ بندقية ، ٣٥٠٠٠ قذيفة ، ٢٠٠ قنطار بارود ، ٢٥٠٠ قنطار رصاص ، ٨٠٠ قنطار فتيل ، ٦٠٠٠ كيله حنطه ، ٥٠٠٠ كيله ذره (لم يتمكن العدو من نقلها معه) ، و ٧٨٠ جنديا بندقيا (نصرت - نامه ، ١ ، ١٦) . رفع ميزومورتا حسين باشا ، الذى حقق استعادة ساقيز ، إلى رتبة قبطان دريا (أميرال كبير ، مشير البحر) مع منحه لقب وزير .

تجمع البندقيون ، في مورا ، ودخلوا مرة أخرى ، ارخبيل الجزر (ايجيه) مع اسطول مكون من ٧٧ قطعة بحرية . وبعد أن أعجز ميزومورتا حسين باشا ، العدو خارج مياه جزيرة Sisam (١٧ أيلول) ، طاردهم مدة يومين وظفر بهم في هذه المرة في Yera خارج مياه جزيرة ميديلي (١٩/٩/١٦٩٥) . غرقت سفيتان بندقيتان وأصيب ١٠ سفن باصابات بليغة ، فتحولت إلى قطع يمكن سحبها فقط كسفن احتياطية . قتل ٥٠٠٠ بندق . لم يقع أى ضرر على السفن العثمانية وكان مجموع الشهداء مع الجرحى ، عبارة عن ٣٠٠ .

وفي بداية عام ١٦٩٥ ، اجتاحت شهباز كيراي ، ابن سليم كيراي خان ، مع ٧٠ ٠٠٠ خيال ، غاليجيا ووصل حتى Lwow ، خرب ١٠ ٠٠٠ قرية وقصبة ، عاد ومعه ٣٠ ٠٠٠ أسير .

عندما علم مصطفى الثانى بخبر استرداد ساقيز ، عزل رجل الدولة السيىء سورمه لى على باشا بعد صدارة دامت سنة ، شهرا ، ١٩ يوما (١٦٩٥/٥/٢) ، وعين مكانه الماس محمد باشا ، الذى كان قد حقره سلفه تحقيرا شديدا (عمره ٣٣ عاما) . لكن هذا التعيين ، أثار الغيرة الشديدة بين رجال الدولة . وفي ٢٥ أيار ، أمر باستقدام أستاذه شيخ الإسلام السالف فيض الله أفندى من أرضروم وجعله شيخ الإسلام مرة ثانية . سيحتفظ فيض الله أفندى بمقامه هذا إلى نهاية سلطنة البادشاه .

١٠ الحملتان الهمايونيتان ، الأولى والثانية على ألمانيا (١٦٩٥ ، ١٦٩٦)

سار السلطان مصطفى مع الصدر الأعظم ، من أدرنة للحملة الهمايونية الأولى على ألمانيا (١٦٩٥/٦/٣) . اشترك شيخ الإسلام حاجه سلطاني أرضروملى سيد فيض الله أفندى فى الحملة . ولدت الانتصارات على البندقية وبولونيا ، جوا من التفاؤل . استولى على Lwow ، وأفنى جيشا بولونيا عدده ١٢٠٠٠ جندى (نصرت - نامه ، ١ ، ٢٣) .

مكث البادشاه أسبوعين فى صوفيا واستقبل فى ٢ آب فى بلغراد بـ ٤٠٠ إطلاقه مدفعية . كان الجيش الهمايونى ١٥٣ ٠٠٠ جندى ، ومن ناحية أخرى ، كانوا فى

انتظار الجيش القرمى . حضر كذلك ملك المجر الوسطى Tökeli Imre . جاء البادشاه إلى Tamesvar مركز الإيالة . يسجل فندقلى لى محمد آغا ، خازن الأسلحة الشهرىارى (السلطانى) الموجود فى معية البادشاه فى الحملة ، بأن مصطفى الثانى هو البادشاه الأول الذى يصل إلى تامشوار (نصرت - نامه ، ١ ، ٧٢) . استولى على Lippa مع الـ ٤٣ مدفعاً الموجودة فيها خلال ساعة ونصف (٩ أيلول) . أسر الماريشال Marquis de Mirmillis الفرنسى الأصل والذى كان فى خدمة الإمبراطور . كان جيش الإمبراطورية الألمانى فى صحراء Lugos . جرت هنا حرب ميدانية (١٦٩٥/٩/٢٢) سقط آلاف الألمان قتلى ، أسر ٥٠٠٠ . كان القائد العام Frederico Veterani ورئيس أركان جيشه أمير Liechtenstein بين القتلى . استسلمت قلعة Lugos . ينوف عدد الشهداء على الـ ٧٠٠ ويقارب عدد الجرحى الـ ١٠٠٠ . كان بين الشهداء وزير (شاهين محمد باشا) ، بكهربك ، اسنچق بك (أمير لواء) . دفنوا بملابسهم المملوكة بالدماء فى صحراء النصر . أما جراح محمود باشا بكهربك روملى ، فكانت بليغة ، ولانه مات بعد مدة ، فقد جرت مراسم دفنه حسب الأصول . جرح بكهربك واحد وسنچق بك واحد (نصرت - نامه ، ٩٥) .

تم الاستيلاء على قلعة شبش (بالجرية : Sebes) ، وهكذا اكتسب الحكم العثمانى الصفة القطعية فى Banat وادج جنوب - غرب أردل فى إيالة تامشوار . كانت أردل مفتوحة للاستيلاء العثمانى بعد انتصار Lugos . لكن روح الفتح والدولة العالمية كانت قد ماتت لدى العثمانية . اقنعوا البادشاه بالعودة بحجة حلول الخريف . عاد مصطفى الثانى إلى إستانبول بعد ٤ أشهر ، ١٨ يوما (١٦٩٥/١١/١٨) . عين الوزير جلبى ابراهيم باشا ، قائدا عاما على المجر والوزير مصرلى أوغلو ابراهيم باشا قائدا عاما على مورا تجاه البندقيين . وأحال إلى التقاعد وزيرا واحدا و ٦ بكهربك وهم الذين لم ترقه خدماتهم فى هذه الحملة ، وخصص لكل منهم راتبا تقاعديا قدره ٣٠٠ أقجه (عملة فضية) يوميا .

كان معروفا ، أن هدف القيصر بطرس الكبير هو الوصول إلى البحار المفتوحة ، خاصة البحار المفتوحة الدافئة . البحر الدافئ المفتوح ، هو البحر الأسود . فى الوقت الذى كانت فيه السويد تسد البلطيق ، والعثمانية تسد البحر الأسود عن روسيا ؛ كانت

روسيا تعيش كأية دولة برية ، تتحسر على حرمانها من نعم البحار . ورغم محاولاتها ، لم تتمكن من النهوض والدخول في عداد الدول الأوروبية . جاء جيش بطرس الشاب مع ٣٠٠ ٠٠٠ جندي أمام آزاك (Rostov) . ولو تمكن من الإستيلاء عليها لأمكنه الوصول إلى البحر الأسود من أقصى حافته . دافع عن القلعة ، مرتضى باشا بكهربك كفه Kefe مدة ٣ أشهر ، ٤ أيام . جرى قتال عنيف جدا . تسجل المصادر الروسية أنه ، قتل مايقارب ٣٠ ٠٠٠ وبالنسبة للمصادر العثمانية ٦٠ ٠٠٠ جندي روسي . طارد ٥٠٠٠ جندي عثماني ، القيصر أثناء انسحابه وقتلوا ٤٠٠٠ جندي روسي آخر تقريبا (نصرت - نامه ، ١ ، ١٢١ - ٩ ، هامر ، ١٢ ، ٣٩٥ - ٦) . درس بطرس أسباب هذه الهزيمة بدقة ، وتوصل إلى نتيجة مؤداها أنه لايمكن محاصرة قلعة دون حيازة المعلومات التكنولوجية ، وأن الجيوش الكثيفة بدون ضبط وتعليم ، هي قطعان لافائدة فيها . وفي ١٣ ت ١٦٩٥ وقبل مضي سنة واحدة على الهزيمة ، جاء إلى آزاك ١٦٩٦/٦/٣ . شيد مصنعا للسفن الخفيفة (النهرية) في Voronej على الدون ، وأخذ في انتاج السفن ، وعلاوة على ذلك ، أعطى قيادة الجيش الروسي إلى الجنرال الاسكتلندي Gordon وإلى الفرنسي السويسري Lefort . جاء مع ١٠٠ ٠٠٠ جندي . لم يكن الجيش العثماني قد أصلح بعد قلعة آزاك ولم يعزز الحامية . حفر المهندسون البنديقيون والسويديون ، والدانماركيون والهولنديون والانكليز الأنفاق المؤدية إلى قلعة آزاك . لم يتمكن ٥٠٠ جندي عثماني وهم الموجودون في القلعة من المقاومة أكثر من ٦٣ يوما واستسلمت في ٦ آب . أعدم ٣ بكهربك الذين لم يتمكنوا من إمداد القلعة في حينه . حكم بطرس قلعة آزاك واحتفل بنصره هذا في موسكو بإقامة الأفراح . ومن ناحية أخرى ، أستولى على القرية التركية الواقعة على الساحل الشمال - الشرق من بحر آزاك المسماة Taygan وسمها Taganrog وجعلها مركزا بحريا . حكم العثمانيون ضفتي مضيق Kereç وكذلك عززوا Karasnodar الواقعة على نهر Kuban . وقبل ضياع آزاك باستيلاء في إستانبول ، (نصرت - نامه ، ١٥١) ، ورغم أن آزاك سوف تسترجع بعد ١٥ سنة ، فإن روسيا كانت قد تذوقت طعم البحر الأسود .

سار القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا مع ٦٦ قطعة بحرية إلى الحملة (١٦٩٦/٥/١٣) ، انضم إليها في فوجا Foça ١٠ سفن حربية جزائرية

و ٥ تونسية و ٣ طرابلسية . ظفر بالأسطول البندقى فى ١٨ أيلول فى المياه المفتوحة لجزيرة Andros من جزر Kikland . غرقت ١٣ سفينة بندقية ، و ٦ عثمانية . قتل ٥٠٠٠ بندقى واستشهد ٣٠٠ تركى . قتل ٢ أميرال بندقيان وقطعت اليد اليسرى لآخر .

سار السلطان مصطفى الثانى من إستانبول للحملة الهمايونية الثانية (١٦٩٦/٤/٢٠) . ظل شهرا ، ٢٠ يوما فى أدرنة . جاء إلى بلغراد فى ٣ آب . كان الملك Tökeli Imre ضمن الجيش العثمانى .

كان الجيش الألمانى يتكون من ٤٥٠٠٠ خيال ، ٤٠٠٠٠ مشاة ، ووحدات إضافية ، و ١١١ مدفعا . القائد العام للإمبراطورية ، هو منتخب ساكسونيا Friedrich - August الذى يسميه الأتراك - بسبب كونه عسكريا فظاً - « نالقيران » (كاسر النعل) وهو الذى انتخب كذلك ملكا على بولونيا بعد وفاة سويساسكى فى هذه الأثناء كان رئيس أركانه الماريشال الكونت Von Caprara ، قائد الجناح الأيمن الماريشال Von Taafe ، قائد الجناح الأيسر الماريشال Von Haeusler . كان السلطان مصطفى ، على وشك دخوله المجر ، عندما علم بمحاصرة الملك - المنتخب ، لتامشوار ، فغير اتجاهه إلى تلك الناحية . أما الملك فإنه عندما علم بقدوم البادشاه نحوه ، رفع الحصار وجاء إلى الصحراء .

أصدر الملك المنتخب ، أمر التراجع عند خسارته ١٦٠٠٠ قتيل فى الحرب الميدانية Olas (١٦٩٦/٨/٢٧) ، كان بين القتلى Von Haeusler و ٣ كونت من حكام الألمان . كانت خسارة الأتراك مايقارب ١٥٠٠ شهيد و ٢٠٣٢ جريحا . انتشهد وزير واحد وبكلربك واحد ، وقطعت إحدى القذائف اليد اليسرى للوزير مصطفى باشا ، أخ الصدر الأعظم الماس محمد باشا ، لكنه نجا من الموت . اغتتم العثمانيون ٢٢ مدفعا و ٩ رايات ومهمات على نطاق واسع . وبعد هذا الانتصار كذلك ، لم يفكرون فى استعادة أردل . جاء الجيش الهمايونى إلى تامشوار فى ٣١ آب . شيخ الإسلام وحاجه سلطانى (أستاذ السلطان) فيض الله أفندى الذى اشترك فى هذه الحملة ذبح القرابين ؛ لأن ٩ قذائف ألمانية مرت من فوق رأس البادشاه وارتكزت فى الأرض . استمرت الحملة مدة ٦ أشهر و ٥ أيام . عاد مصطفى الثانى إلى أدرنه (١٦٩٦/١٠/٢٥) .

وفى ١٦٩٦ ، اجتاحت سعادت كيراي غاليجيا أيضا إلى Lwow وعاد ومعه ١٠.٠٠٠ أسير (نصرت - نامه ، ٢١٧) . ظفر ميزومورتا حسين باشا فى ١٦٩٧ بأسطول البندقية وحلفائها ، خارج مياه جزيرة Andros وهزمه (٢ أيلول) . حاصر البندقيون قلعة أولكون (بالصربية : Ujcin ، بالإيطالية : Duleigno) على ساحل قره داغ ، تسجل المصادر الأوربية أنهم خسروا ٥٠٠٠ ، وتسجل المصادر العثمانية أنهم خسروا ١٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . وفى ١٦٩٧ اجتاحت القرميون دلتا الفولغا حتى استرخان . ساند القالموقيون البوذيون هنا (إحدى العشائر المغولية) الروس ، ولم يساندوا الأتراك . وفى السنة التالية ، ظفر ميزومورتا حسين باشا بالأسطول البندقى فى المياه الخارجية لزيتون بورى جنوب ميدبلى (١٦٩٨/٩/٢٣) . غرقت سفينتان للبندقيين ، أصيب أكثرها ، وسقط ١٢٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ جريح تقريبا . خسائر العثمانية ٣٠٠ شهيد و ٥٠٠ جريح تقريبا . جرح الأميرال الكبير Cornaro فى يده اليمنى .

(١١) الحملة الهمايونية الثالثة ، هزيمة Zenta (١٦٩٧/٩/١١)

سار مصطفى الثانى من أدرنه للحملة الهمايونية الثالثة (١٦٩٧/٦/١٧) . جاء إلى بلغراد فى ١٠ آب . كان فى انتظار البادشاه فى هذه المرة ، أحد أكبر العسكريين فى العصر وهو أمير Savoie. الماريشال Eugen بصفته قائد الإمبراطورية . الأمير الذى ولد فى باريس عام ١٦٦٣ ، يكبر السلطان مصطفى بسنة واحدة . كان قد طلب من لويس ١٤ قيادة فوج ، وعلى أثر إفادة الملك بأنه حديث السن ، غادر فرنسا ، وحصل من الإمبراطور على قيادة فوج ، اشترك فى القتال بصفته هذه وهو فى سن الـ ٢٠ أمام مرزيفونلى قره مصطفى باشا فى معركة Kahlenberg الميدانية (بالعثمانية المان داغى) ، وتمكن بدهائه الخاص من التعمق فى فهم أصول القتال التركى وتشكيلاته العسكرية . حارب الأتراك بصفة قائد فوج ، لواء ، فرقة ، جيش . عين فى ١٦٩٧ قائدا عاما على القوات البرية للإمبراطورية الألمانية وعمره ٣٤ عاما . سيحارب الأتراك بصفته هذه للمرة الأولى وأمامه الخاقان - الخليفة العثمانى بنفسه وليس سردارا اعتياديا .

اجتاز الجيش الهمايوني ٩ جسور ووصل Zenta . وهى قرية تقع فى جنوب
الجسر ، وتبعد ٤٠ كم عن جنوب Srgedin و ٣٥ كم عن جنوب - شرق Subotica .
ونهرها هو Tisa . الأراضي المجرية ، تأتى بعد عبور الجسر . أسر الألمان فى هذه
الأثناء ، أحد البكلربك الخونة المسمى كوجوك جعفر باشا . قابل هذا الشخص
الأمير أوجين . يقول الكونت Marsigli الذى اشترك فى هذه الحرب (ص
٢١٤) : « علم الأمير من الباشا التركى بأن السلطان اجتاز Tisa مع الخيالة ، وأن
المشاة والمهمات جاهزة للعبور وأن الجيش بكامله سوف يعبر خلال أيام . جاء إلى
Zenta ، وشاهد صحة ماقاله الباشا التركى ، وأدرك أن الفرصة سنحت له » .

قصف الأمير أوجين بنار المدفعية ، الجسر الذى يجتازه الجيش الهمايوني . سقط فى النهر
آلاف الجنود العثمانيين من الجسر الذى انهار من ناحيتين . والأنكى من ذلك ، أن
الجيش انقسم إلى شطرين ، وظل على ضفتى النهر . كان الوزير بيوك جعفر باشا ،
بكلربك روملى فى الجناح الأيمن ، والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا بكلربك
الأناضول فى الجناح الأيسر . وكان الملك Tökeli Imre وشهباز كيراي أمير قرم
كذلك موجودين ضمن الجيش . جرت المصيبة المسماة معركة زنتا Zenta الميدانية
بين الألمان وشرط الجيش الذى تمكن من العبور . بقيت الوحدات العثمانية التى لم
تتمكن من العبور متفرجة فقط ، ولم تتمكن حتى من فتح النار . لأن النار التى
ستفتح يمكن أن تصيب الطرفين ، بسبب تشابهكما .

تقول المصادر الألمانية أن حوالى ٢٠ . ٠٠٠ عثماني استشهدوا ، و ١٠ . ٠٠٠ تقريبا
غرقوا فى النهر (فون هامر ، ١٢ ، ٤٢٣) . أما بالنسبة لراشد (٢ ، ٤١٤)
فمجموع شهداء الأتراك ١٣ . ٠٠٠ تقريبا . استشهد كل من الصدر الأعظم الماس
محمد باشا بكلربك الأناضول وأميرال عصره الشهير مصرلى أوغلو الوزير إبراهيم
باشا ، بكلربك تامشوار الوزير قوجا جعفر باشا ، بكلربك روملى الوزير بلطه جى
أوغلو محمود باشا . انتقل إلى حوزة الألمان الختم الهمايوني الذى يتأبطه الصدر
الأعظم ، مدافع كثيرة ، ٩٠٠٠ عجلة ، ٦٠ . ٠٠٠ جمل ، ١٥٠٠ ثور ، ٧٠٠
حصان ، ٢٦٠٠٠ اطلاقه مدفعية ، ٥٥٣ قذيفة ، ٥٠٠ طبل ، ٨٨ جرسا ،
٤٠ . ٠٠٠ سكة ذهبية نقدية ، عربة البادشاه التى تسحبها ٨ خيول . وانتقل إلى
حوزة الألمان كذلك التاج الملكى المجرى الذى كان لدى Tökeli Imre . عندما

قدمت الغنائم إلى الإمبراطور ، أبدى سروره بهذا التاج والختم الهمايوني .

كان انتصار الأمير أوجين كبيراً؛ حيث أنه لم يصغ لأمر الإمبراطور ببقائه في حالة الدفاع وعدم دخوله حرب ميدانية بسبب عدم خسارة أى بادشاه ، في حرب ميدانية حتى ذلك التاريخ ؛ ولم يفوت الفرصة عندما ظفر بالجيش الهمايوني على الجسر . والحقيقة ، أنه حتى ذلك التاريخ ، - عدا معركة انقره - لم يهزم أى بادشاه في حرب ميدانية ، في أية حملة همايونية . ولأن معركة انقره خسرت تجاه حاكم مسلم ، فيكون الأمير أوجين ، قد أظهر فعلاً ، إمكان انتصار جيش مسيحي على خاقان عثماني في حرب ميدانية . إذ لم يكن البادشاه ، قائداً عاماً في أية معركة سابقة انتصر فيها المسيحيون .

كان البادشاه وكذلك الصدر الأعظم في شطر الجيش الذي اجتاز إلى الضفة الثانية . وبتضحيات كبيرة ، أمكن إنقاذ حياة البادشاه وإعادته إلى الخلف . لكن الجنود ، لم يعاملوا الصدر الأعظم بنفس المعاملة . بل بالعكس ، شهر الانكشاريون الخناجر على الماس محمد باشا ، استشهد الصدر الأعظم وجرح أخوه الوزير مصطفى باشا (الذي كان ذا ذراع واحدة) بجراح بليغة . ألقى الجند مسئولية سف الجسر على عاتق الصدر الأعظم . والذي ألقى هذه الفكرة في أذهان الجنود ، هم منافسو الماس باشا الذين يريدون التخلص منه . وبطبيعة الحال فإنه ليس من السهل ، الحرب بجيش بهذا الوضع . أدرك مصطفى الثاني ذلك . « وأثناء انسحاب البادشاه بسكون مع سباهيته الخيالة إلى تامشوار ، لم يستصحب معه أية وحدة من وحدات الانكشارية التي يكرها . لم يتمكن الأمير أوجين من مطاردة الأتراك ، بسبب وجود النهر الذي يفصل بين الفريقين . وبعد انتصارنا انتقلت إلى حوزتنا كافة القلاع التي كانت باقية لدى الأتراك . أكثرها استسلمت بسبب الجوع وانسحبت وحداتها وذهبت بحرية . لم يبق بعد الآن علاقة للأتراك بالجزر . والأهم من ذلك ، انقطع أملهم في استعادة الجزر » (Kont Marsigli ص ٢١٥ ، ٢٦٠) .

هكذا انتهت صدارة الماس باشا التي دامت سنتين و ٤ أشهر و ١٠ أيام صار عموجه - زاده حسين باشا ، صدرأ أعظم . كان أعظم وزراء عصره . كان عمره ٤٩ عاماً . وهو ابن عم لكل من كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا وفاضل مصطفى باشا . كان حسين باشا ، الذي يسمى كذلك باسماء « كوبرولو - زاده ، يكن

(ابن عم) ، مولوى ، سرخوش (سكران) ؛ يريد توجيه الدولة نحو الصلح .
أما مصطفى الثانى ، فكان يزعم أنه سوف يسترجع المجر ويعتبر هزيمة زننا ، صدفة سيئة
نعيمًا ، كتب تاريخه المشهور الذى اسمه الأصل روضة الحسين ، على اسم حسين
باشا هذا .

وبهجوم مفاجئ ، دخل الأمير أوجين ، بوسنة سراى بعد زننا بشهر واحد
(١٧ / ١٠ / ١٦٩٧) . لا توجد قلعة فى بوسنة سراى . إذ إنها كانت تعتبر مدينة
داخلية . ولم يكن فى المدينة جنود ، فكلهم ذهبوا إلى الحملة . ولم يكن بكربك
بوسنة كذلك موجودا فى المدينة . كانت بلدة ثقافية عثمانية كبيرة يبلغ عدد نفوسها
١٢٥ ٠٠٠ نسمة ، تحوى ١٧٧ مسجداً ، ١٨٠ مدرسة ، ٤٧ تكية ، ٧٣
خان ، ٣ كروان سراى (منزل) ٧ عمارات (مراكز توزيع الطعام للفقراء) .
بقى الأمير ٢٤ ساعة فى البلدة وحرق ١٢٠ مسجداً (هامر ، ١٢ ، ٤٢٧ - ٨) ؛
راشد ، ٢ ، ٤٢٢ - ٣) ولأنه حقق هذه الغارة الجريئة بقوة بسيطة قوامها
٤٠٠٠ خيال ، ٢٥٠٠ مشاة ، ١٤ مدفعا ، فقد انسحب فى الحال عندما علم
بقدوم وحدة عثمانية نحوه .

(١٢) معاهدة - كارلوفجه (٢٦ / ١ / ١٦٩٩)

كانت كل من المانيا وفرنسا ، تستعدان فى هذه الأثناء لحرب تراث فيها إسبانيا .
أخذت كل من انكلترا وهولندا ، مكانها بجانب المانيا وكانتا عازمتين على سحق فرنسا
فى هذه الحرب . دولتان بحريتان كبيرتان كانكلترا وهولندا ، اتحدتا تحت إدارة وليم
٣ William (بالفلامانية : Willem) وكان لويس ١٤ ملك فرنسا عازما على
تفريق هذا الاتحاد . وفى إستانبول ، كان لورد Lord Paget سفير انكلترا و
Collyer سفير هولندا يمثلان أصلاً ، نفس الحاكم (رئيس الدولة) . وليم ، الحاكم الهولندى
الأصل الذى صار - فى نفس الوقت - ملكا على انكلترا بلقب « وليم ٣ » . إن
قوة انكلترا - هولندا معا ، تقل عن قوة فرنسا . إلا أنه ، لو أمكن إدخال ألمانيا
كذلك فى هذا الاتفاق ، لأمكن التفوق على القوة العسكرية الفرنسية . لذا شرع
السفيران فى إستانبول فى الدعاية الكبيرة لأقناع رجال الدولة بمصالحة ألمانيا وقدموا
رشاوى كبيرة . ولو تقدمت المانيا بالصلح ، فسوف تلهف على الدخول فيه بطبيعة

الحال البندقية ، بولونيا وروسيا لأنهم سيكونون لقما سائغة للعثمانية بدون ألمانيا .

كان الصدر الأعظم عموجه - زاده حسين باشا ، يريد إنهاء هذه الحرب وتضميد جراحات الدولة . رجال الدولة الآخرين كانوا يؤيدون الصدر الأعظم ، سواء لأنهم كانوا يؤيدون الصلح باخلاص ويرون أن سلامة الدولة في هذا الاتجاه ، أو لأنه غرر بهم سفيرا انكلترا وهولندا الموجودان في إستانبول . لم يجد مصطفى الثاني حوله من يؤيده في الحرب إلا القليل جدا . كان قبول الصلح ، يعنى ترك المجر ومورا . جهز مصطفى الثاني جيشا عظيما وسط الشتاء لاستعادة المجر . لكن الوزراء مانعوا في مسيرة البادشاه إلى الحملة عام ١٦٩٨ . ومرت السنة بكاملها في مفاوضات الصلح ومحاولات السفيرين - لصالح العثمانية كما يزعمون - للوساطة في الصلح . فرنسا التي شعرت بالإحاطة بها كانت ترغب وتستحث العثمانية على الاستمرار في الحرب . لكن الباب العالي ، كان قد سئم من تقلب لويس ١٤ . كان يعلم أنه عدو الإسلام والأتراك ، ولا يعتمد عليه إطلاقا . وفي الواقع فإن فرنسا ، كانت تزين فقط ، ولا تقترح دخول الحرب بجانب العثمانية . ومن جهة أخرى ، فإن السفيرين كانا محابدين في الظاهر ، ولكنهما في الحقيقة ، كانا يخدمان مصالح ألمانيا حليفة رئيسي دولتهما ، ويسعيان في تحقيق صلح لصالح ألمانيا على قدر الإمكان . Collyer الذي يمثل هولندا في إستانبول منذ ٢١ عاما ، يتكلم التركية ، ويذهب إلى بيوت الوزراء ويأكل الطعام متربعا على الطريقة العثمانية ، ويشرب القهوة والجبك (نوع من الغليون طويل الأنبوب) . وبناء على ذلك فإنه كان بالنسبة للكثيرين من رجال الدولة العثمانية السذج كافراً يحب العثمانيين . كان عموجه - زاده الذي كان إداريا جيدا ولكنه لم يكن عسكريا يخشى من خروج البادشاه بحملة جديدة . ويريد التعجيل بالصلح . وفي جو كهذا ، لم تحدث أية حركة عسكرية مهمة في الجبهات خلال عام ١٦٩٨ .

كانت البندقية ، تغرى فيينا بعقد الصلح خشية احتمال فقدانها مورا في حالة استمرار الحرب وتيقنها كذلك من عدم قدرتها على استقطاع شيء جديد من العثمانية ، بسياستها الواقعية . بولونيا عاجزة أمام القرميين الذين يجتاحون غاليجيا ويدمرونها كل عام ، وتطلب الصلح . والقصر بطرس فقط ، اقتناعاً بأنه لم يتمكن من استقطاع شيء من العثمانية ، واعتماداً على حصانته الجغرافية ، ولأنه ، لا يزال بعدد الجنود الذين يفقدهم في الحرب ؛ كان يعارض الصلح مع فيينا .

كان العالم الإسلامى ، متأثرا من تكبد العثمانية خسائر كبيرة فى هذه الحرب . قدم الشاه إلى العثمانية فى إيران ضمانات أكيدة لأمن الحدود من جهة إيران وأنه يمكنها سحب جنودها الزائدة من الحدود الشرقية لاستعمالهم فى الحرب فى أوروبا ، وقد بر بوعده ، أرسل مصطفى الثانى رئيس الكتاب السابق (وزير الخارجية) محمد باشا إلى أصفهان وشكر الشاه حسين . ويبدو أنه قد انتهت الفترة التى كان لا يمكن لأوروبا فيها - مقاتلة العثمانية ، إلا بمساعدة إيران ، والآن ، أصبحت أوروبا ، مقتنعة بأنها تستطيع تحقيق ذلك بمفردها ، إذا ما اتفقت فيما بينها . أما تيمور أوغلو أفرنكزيب علمكير شاه ، الذى وفق للمرة الثانية فى الترويج - بعد السلطان علاء الدين محمد - فى توحيد الهند تحت ظل دولة موحدة واحدة والحاكم المقتدر الباقى على وجه الأرض بعد البادشاه ، فإنه لم يظهر أية إشارة تدل على ميله نحو العثمانية . كان من الواضح أنه يحسد البادشاه على حيازته صفة الخلافة . وبسبب كثرة عدد حجاجه ، ووجود تجارة عثمانية - هندية واسعة النطاق ، لم يظهر كذلك أى عداوة تجاه العثمانية . وكان وجود إيران ، بين الدولتين ، يمنع ذلك . إن خانات تركستان وخاصة سبخان قولوخان ، الذى هو أعظمهم اقتدارا (١٦٨٠ - ١٧٠٢) ، ساند العثمانية فى هذه الحرب مساندة علنية . أفاد خطيبا بأن البادشاه العثماني ، كما أنه خليفة له بالذات ، فهو كذلك خليفة المسلمين كافة وأخ كبير له (سلاحدار ، ٢ ، ٤١٨) . ولكن لم يكن باستطاعته عمل الكثير . ساق جيشا ، وعزل روسيا عن قرم ، وهذه ليست بالخدمة اليسيرة ؛ إذ يسر بذلك للجيش القرمى أن يحارب فى جبهات بولونيا وألمانيا وهو فى أمان من ناحية روسيا . سلطان فاس اسماعيل ، ولو أنه يعتبر حاكما أقل شأنًا بالنسبة لبادشاهاة الأتراك فى الهند وإيران ، لكنه على كل حال ، حاكم دولة كبيرة وأكبر شأنًا من خانات تركستان وقرم ، لم يكن وضعه مواليا تجاه العثمانية . أزعج إيالة الجزائر بصورة مستمرة ، حيث كانت الجزائر مضطرة لإرسال أسطولها سنويا إلى مجالات الحرب العثمانية ، لكنه لم يحصل على شئ سوى الخسارة . وهكذا ، فإنه بينما لم يكن هنالك اتحاد فى العالم المسيحى ، كذلك لم يكن هنالك اتحاد فى العالم الإسلامى .

منح حسين باشا ، فى ٣ أيار (١٦٩٨) رتبة السردار الأكرم (القائد الأعلى) وسار من أدرنه ، جاء إلى صوفيا . أرسل رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى

محمد أفندى إلى بلغراد من أجل مؤتمر الصلح الذى سيجتمع فى كارلوفجه . وسافر مفوضا انكلترا وهولندا ، فى المؤتمر بصفة وسيطين ، وحصل هذان الوسيطان فى ٢٢ تموز من الصدر الأعظم على وثيقة تقرر بقبول أساس الـ Statu quo (على حاله) فى المفاوضات ، أى قبول بقاء الأماكن الموجودة الآن لدى أية دولة ، على وضعها الحالى . هذه الوثيقة ، حددت مهمة رامى أفندى الدبلوماسية بشكل كبير . وسببت له المضاعف الكبيرة . ولا يعلم أحد ماهية سلسلة الخيانات التى تمخضت عنها تقديم هذه الوثيقة إلى السفراء .

وإزاء احتمال فشل المفاوضات ، تجمع فى بلغراد ١٠٠ ٠٠٠ جندى عثمانى و ٣٠ ٠٠٠ قرمى . بقى عموجه - زاده ستة أشهر و ١٥ يوما فى بلغراد وعاد إلى أدرنة فى ١٤ ك (١٦٩٨) . كان بزوقلو مضطفى باشا ، خلال هذه المدة ، قائم مقام الصدارة فى أدرنة . وكانت ٢٠٠ قطعة من الأسطول الخفيف (النهري) تنتظر فى بلغراد . كان سليم كيراي خان فى البداية ، فى بلغراد ثم انسحب إلى تامشوار لقضاء الشتاء . أخذت ٤٥ قطعة من الأسطول تجوب فى شمال البحر الأسود . جاء القيصر إلى فيينا وتكلم مع الإمبراطور شخصيا لإقناعه بترك الصلح . أفاد الإمبراطور بعد أن شرح وضع الأتراك العسكرى ، أن كافة الدول أصبحت تريد الصلح مع العثمانية . غادر القيصر فيينا غاضبا . كانت روسيا ، قد أصبحت على قدم المساواة مع بولونيا من حيث القدرة .

تقع كارلوفجه ، التى عقد فيها المؤتمر على بعد ٦٥ كم عن شمال - غرب بلغراد ، قرية من Petervaradin . كان ممثلو ألمانيا هم المارشال كونت Wolfgang Von Ottingen المارشال Von Schlink ، الفريق الكونت Marsigli الذى يجيد التركية . لم يتمكن الممثلون البولونيون والبندقيون والروس والعثمانيون من الحضور قبل ٢٤ ت ١ وأفتتحت الجلسة الأولى للمؤتمر فى ١٣ ت ٢ (١٦٩٨) .

يقول الكونت Marsigli الذى اشترك كممثل ألمانى ثالث (ص ٥٢) « لا يمكن تصور عمل أصعب من عقد صلح مع الأتراك ، من شأنه أن يجلب لهم المصائب والشقاء أو أن يكون سببا فى تركهم مدينة ... أما المعاهدة التى أبرمت فى كارلوفجه فهى أكثر المعاهدات إضرارا بالأتراك من بين المعاهدات التى وقعوا عليها حتى الآن . إن الحرب بالنسبة للأتراك عمل أسهل وأخف من عقد صلح . عند جلوسهم على

مائدة الصلح ، يغطون في نقاش لانهاية له ويخلقون كل المصاعب للطرف المقابل . وعند البحث على مائدة الصلح عن كلمة حدود ، تسليم مدينة ، تخريب أو إنشاء قلعة أو كلمة لاتعجبهم في متن المعاهدة ، يعملون كل ماينخطر أو لاينخطر على البال من فنون الخداع والحيل . يطيلون المفاوضات ويوقعون الطرف المقابل في الضجر والملل ، وكأنهم يبحثون عن ذريعة لرفض الصلح والقتال مجددا . ولذا فان الممثلين المسيحيين ، أصبحوا بين الحين والآخر ، في حالة يرثى لها أمام الأتراك . يدو أن الكونت شرح نسبيا وضعه الشخصى أمام رامى أفندى في كارلوفجه .

وفي ٢٤ ك ٢٤ ، وقع المثلون الروس على صلح لمدة سنتين . وتقرر عقد مؤتمر في إستانبول لمفاوضات الصلح النهائية . (أى أن روسيا ، لم توقع على معاهدة كارلوفجه) . وقع على المعاهدة ، قبل الظهر بقليل في الساعة ١١/٤٥ باجراء المراسم بعد افتتاح الجلسة الأخيرة في الساعة ١٠ من صباح يوم ٢٦ ك ١٦٩٩ . وبعد تبادل التوقيعات ، خرج حشد المراسلين من باب الصالة وتحركوا فورا إلى إستانبول ، أدرنة ، فيينا ، البندقية ، وارشو ، لندن لاعلان انتهاء المؤتمر والتوقيع على المعاهدة . طلقات الفرح التى أطلقت من المدافع في كارلوفجه ، أجابت عليها في مساء نفس اليوم ، مدافع الألمان التى أطلقوها في يترفارادين والأتراك في بلغراد . لم يلق الصلح استحسانا في فيينا ، وارشو والبندقية وأعتبر أن السياسيين الأتراك غرروا بالطرف الآخر . انتقدت بشدة ، المواد التى تعطى للعثمانية لإنه باختى (Lepanto) و Preveze من البندقية ، والتى تنص على إخلاء القلاع الألمانية الأقل أهمية الموجودة في الحدود المجرية وإعطائها إلى العثمانية ، رغم أن المؤتمر افتتح على أساس ال Statu quo . لكن معاهدة كارلوفجه ، كانت تلغى الضرائب السنوية المخلة بالكرامة التى كان يسدها الإمبراطور والبندقية إلى تركية ، وكذلك الضرائب التى تسدها بولونيا إلى خان قرم الذى يعتبر تابعا بسيطا للبادشاه . وتعيد لهذه الدول كرامتها . كانت تبعد الأتراك وتخرجهم من بولونيا والمجر بصورة أبدية . تمحى من مخيلة أوروبا التفوق العسكرى المدهش الذى كانوا يصفون به الأتراك . توضح إمكان هزيمة الأتراك واستقطاع أقطار منهم . الانحطاط التركى ، كان أعظم مما يتصور ، وتدل الاصطلاحات والنجاحات التى حققها مراد الرابع وعائلة كوبرولو ، أنها كانت مؤقتة وغير كافية لتضميد الجراح ، (فون هامر ، ١٢ ، ٤٧٣ - ٤) .

وحتى البادشاه ، وافق على مخاطبة حكام أوروبا في مكاتباته بخطاب « أنتم » ، بينما كان يخاطبهم في السابق بخطاب « أنت » . كانت أول اتفاقية في صالح أوروبا وضد تركية . « إن عام ١٦٩٩ من أهم أعوام التاريخ . كان يظهر انتقال التفوق الآسيوى إلى أوروبا » (Grenard) . كانت الاتفاقية ، تنهى حالة الحرب بين العثمانية وكل من ألمانيا التى استمرت ١٥ سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما ، بولونيا ، التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٩ أيام ، البندقية التى استمرت ١٤ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما ، روسيا ، التى استمرت ٩ سنوات و ٧ أشهر و ٢٧ يوما . وتغلق فترة الـ ١٥ سنة التى تسمى « سنين المصائب » فى التاريخ العثمانى . إن حالة الحرب ، كانت مستمرة رسميا مع دول البابوية ، مالطة ، توسكانا وأسبانيا ولكنها فعلا ، أخذت تنقلب إلى حالة هدنة .

تركزت أراض مجموع مساحتها ٣٤٦٠٠٠ كم^٢ تقريبا ، منها ٢٤٩٠٠٠ كم^٢ إلى ألمانيا ، و ٣٢٠٠٠ كم^٢ إلى البندقية ، و ٤٥٠٠٠ كم^٢ إلى بولونيا ، و ٢٠ ٠٠٠ كم^٢ إلى روسيا . ورغم أن بولونيا هزمت ، فقد تخلت العثمانية عن إمالة بولونيا ومنحتها لتلك الدولة .

بالنسبة للمعاهدة الموقعة مع ألمانيا (عشرون مادة) : تنتقل كامل المجر ، سلوفاكيا ، خرواتيا ، أسكلافونيا ، سلوفينيا وترانسلفانيا من العثمانية ، إلى ألمانيا . هذه خسائر هائلة ، فقد كانت المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا (بالتركية أردل) لدى العثمانية منذ ١٥٢٦ ، ولأن نهر ماروش ، يشكل خط الحدود ، فقد ظلت قطعة صغيرة ، تدخل ضمن المجر الحالية ، بيد العثمانية (جنوب سكدين = Szegedin) . كانت بانات وتامشوار بكاملها لدى العثمانية . تشكل جبال الالب الترانسلفانية فى الجنوب ، والكاربات الشرقية فى الشرق ، الحدود التركية - الألمانية . مولداfia وعلى شمالها Bukovina (جرنوفيج وخوتين ، حاليا لدى السوفيت) كانتا لدى العثمانية . ولأن البلاد التى كانت تسمى فى حينه ، المجر واليوم ، خروات والتى تسمى « Esklavonya » الواقعة بين Sava و Drava ، تركت لألمانيا القديمة ، ظلت بلغراد ، على الحدود ولدى تركية . وعلى ذلك ، تكون حدود العثمانية التى انحدرت فى الغرب إلى أقصى الجنوب ، كانت فى الشرق ، لاتزال فى أقصى الشمال . بقى فى حوزة الأتراك ، لواء سمندره (بلغراد) فقط من إمالة بودين .

أما إيلالات بودين ، كانيجه ، أوفار فأصبحت بعد الآن في حوزة ألمانيا . كان نهر Una يشكل الحدود الشمالية - الغربية . وعلى هذا الأساس ، تبقى خرواتيا ، لدى ألمانيا وبوسنة ، لدى العثمانية (بضع مئات ألوف من المجرين القاطنين في Banat لا يزالون يحملون الجنسية العثمانية) . أما الكتلة المجرية الكبيرة التي تعيش في المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا ، فقد كانت المعاهدة بالنسبة لهم ، بداية لأيام تعسة ، لأن الألمان سوف يعاملون المجرين ، بدون رحمة .

تتكون المعاهدة التي عقدت مع البندقية من ١٦ مادة : ترك مورا ، وعلى جنوبها Cerigo (بالتركية : جوها) و Hydra و Cerigotte و Salamin الواقعة على الشمال - الشرق منها ، وجزر آيا مافرى (باليونانية : Leukas) ودالماجيا التركية ، إلى البندقية . ونظرا لبقاء مدينة Korinthos (بالتركية : Cörces) لدى العثمانية ، تكون السيطرة على برزخ كورينثوس ، لدى العثمانية ، وتعاد إلى العثمانية ، الأماكن الكائنة في ATTika في شمال خليج كورينثوس والموجودة في حوزة البندقيين (أثينا ، كان قد استرجعها العثمانيون خلال الحرب) .

وتتكون المعاهدة التي عقدت مع بولونيا من ١١ مادة : تعطى قلعة كامانيجة ومعها Podolya ، غاليجيا التركية وبعض الأراضي في أوكرانيا ، إلى بولونيا ، كان نهر Dnyestr (بالتركية : TURLA) يشكل الحدود . كانت Bukovina ، خوتين ، بيسارابيا لدى العثمانية . جبال الكاربات تخط الحدود البولونية - الألمانية . تبقى لدى ألمانيا ، كاربات أوكرانيا التي يسكنها المجر (حاليا لدى السوفييتية ، Munkač ومحيطها) .

سوف تركز السياسة العثمانية هدفها بعد الآن على استعادة مورا من البندقية وآزاك من روسيا وستحقق هذان الهدفان . ولكن ، ورغم كل الجهود ، سوف لا يمكن استعادة ولو قسم من الأماكن التي ظفر بها الألمان . سوف لا تطبق سياسة الاسترجاع تجاه بولونيا بعد الآن ، وسوف لا تحدث حرب تركية - بولونية بعد الآن ، سوف تتكثف الجهود السياسية التركية المقبلة ، في الحيلولة دون إبتلاع ألمانيا وخاصة روسيا لبولونيا .

عقد الصلح مع روسيا بمعاهدة استانبول (١٧٠٠/٧/١٤) . وبالنسبة لهذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة والتي وقع عليها نتيجة مفاوضات استمرت ٥ أشهر :

ترك Azak (روستوف ومحيطها) إلى روسيا ، تعاد إلى العثمانية الـ ٤ قلاع التي استولى عليها في هذه المنطقة بعد هدمها . يوافق الباب العالي على أن روسيا « دولة مستقلة » ويلغى الضريبة التي كانت تدفعها إلى خان قرم . وقع على هذه المعاهدة ، رامى أفندى (راشد ، ٢ ، ٥٠٠ - ٣) . وأغرب مادة تستلفت النظر في هذه المعاهدة هي (المادة ١٤) التي تنص على أن ذهاب وإياب السفير الروسى إلى إستانبول ، يكون عن طريق البر ولا يكون مروزه عن طريق البحر الأسود . حيث أن البحر الأسود ، بحر عثمانى مغلق لاتطأه قدم روسى . أجاب مصطفى الثانى ، عندما اتهم منه القيصر الروسى السماح للسفن التجارية الروسية بالملاحة في بحر آزك : « أسمح للروس أن يدخلوا سرائى الهمايونى ، أما جولانهم في البحر الأسود ، فان سماحى الشاهانى ، لن يشمل ذلك أصلا » .

اقتسمت السلطة ، بعد الصلح - بتسلسل النفوذ بعد السلطان - بين شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، الصدر الأعظم حسين باشا ، رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى أفندى . لكن نفوذ شيخ الإسلام ، كان أقوى وفي ازدياد على مر الزمن . لم يحصل أى شيخ إسلام في الدولة العثمانية ، على مثل هذا النفوذ لاقبله ولابعده .

جاء إلى إستانبول ، في ٢٦ أيلول ١٦٩٩ ، وفد سفارة إمبراطور ألمانيا برئاسة كونت Ottingen ومعه دوق هولشتاين Adolf-August و ١٥ حاكما ألمانيا بدرجة كونت وأمير واحد . وكما أشار إلى ذلك هامر (١٣ ، ٢٤ - ٥) لم يسبق أن اجتمع في أية هيئة سفارة ، جماعة من الأشراف على هذه الدرجة من الكثرة . اهتمدى إلى الإسلام من بين هذه الهيئة ، عام ١٧٢٠ تقريبا ، الأمير Ernst Schmid Von Anhalt - Zerbst وهو العم الأصيل للأميرة التى ستكون امبراطورة لروسيا باسم . Ekaterina الثانية .

قابل مصطفى الثانى ، ذلك بالمثل ، وأرسل الأميرال إبراهيم باشا الذى اشترك في حملة فيينا عام ١٦٨٣ ، مع وفده البالغ ٥٧١ شخصا والذى يحوى ٤٢٢ حصان ركوب ، ١٠١ حمار ، ١٨١ جملا ، ٢١٥ عربة حاجيات ، مئات الخيول والبغال . كانت حادثة فوق العادة ، إلى درجة أن الإمبراطورة ، كانت على فراش النفاس ؛ لكنها أرادت بإصرار مشاهدة دخول العثمانيين إلى فيينا . طلبت تكريم الوفد في يانق

قلعة لعدة أيام ولحين الولادة . نفذ طلبها . حيث استقبل الوفد عندما كان لايزال في Osiyek الكونت الماريشال Guido Von Starhemberg . كانت المهترخانة (الموسيقى العسكرية العثمانية) تتقدم الوفد . ثم نشر بعدها علم تركى حريرى أحمر واسع جدا . ومن بين الملابس الرسمية لجنود حرس الباشا السفير ، فراء الثمور والفهود الملقاة على أكتافهم . صرفت ألمانيا لتكريم وفد السفارة هذا مبلغ ٤٥٠ . ٠٠٠ عملة ذهبية لكيلا تكون مقصرة وبصبيها الخجل . أخبر وزير المالية ، الإمبراطور بأن مالية البلاد لا تتحمل صرف هذا المبلغ لمثل هذه المظاهر . لكن الإمبراطور ، أجاب بأن صرف مبلغ كهذا ، فى عمله وهو لا يختلف عن صرفه فى الحرب ، وذلك لكى تثبت ألمانيا لجارتها تركيا أن حاكم ألمانيا ، ليس حاكما أقل شأنًا من البادشاه وملوك فرنسا وأسبانيا . لم يستوعب الوفد التركى سراى واحد ، وخصص له ثلاث سرايات (Takatsa, Macaristan Türk Aleminden, Cizqiler ، ٣١٩ - ٢١٠ ، ٣٢٣) .

أرسلت بولونيا إلى إستانبول ، هيئة سفارتها المكونة من ٥٠٠ شخص تقريبا وصانت بذلك شرفها الوطنى . كان سفير بولونيا فى إستانبول Winiawa Leszcynsky ، جداً لأب لزوجـة لويس ١٥ وجداً لأب كذلك لام أب لويس ١٦ . أول سفير قديم إلى إستانبول ، كان سفير البندقية الذى دخل إلى الميناء على ظهر مركب جدافى عظيم (قادـرغـة) .

اتخذت الدولة ، تدابير واسعة على الحدود الجديدة . أرسلت وحدات عسكرية إلى ما بين نهري دون وكوبان . مضيق كرج ، خوتين ، السواحل الجنوبية لنهر دنيستر ، أجريت فيها استحكامات مهمة . أخذت تشكيلات الإنكشارية التى قلص البادشاه عددها من ٧٠ . ٠٠٠ إلى ٣٤٠٠٠ تستعد للإيقاع به . كان القبطان دربا ميزمورتا حسين باشا ، يؤمن بفوات دور المراكب الجدافية (القادرغـة) وأنها صارت ملكا للتاريخ ولا تنفى بالمرام . استبدل بالمراكب التى تسير بالجذف ، السفن الشراعية (القاليون) وخلال عدة أعوام ، فاق عدد القاليونات ، عدد المراكب الجدافية (القادرغـة) وتوقف بعد مدة ، صنع المراكب الحربية الجدافية . أعفى الأهالى فى الحدود الذين تضرروا .. من الضرائب ، وأرسلت المعونات إلى المحتاجين منهم . سمح لروسيا فى ١٧٠٢ بتمثيلها بسفير دائم فى إستانبول . منح هذا السماح ، لها بعد السماح الممنوح لكل من البندقية بـ ٢٤٩ ، وفرنسا بـ ١٦٠ ، ولانكلترا

وهولندا بأكثر من ١١٠ ، ولألمانيا وبولونيا بأكثر من ١٠٠ سنة . لم يتوقف مولاي اسماعيل الكبير عن استقطاع الأراضي من الجزائر . وسار نحو الجزائر بجيش كبير ، هزم وانسحب إلى فاس (J-L. Miegé, Le Maroc ، ٣٦) . آخر ملك لمجر الوسطى للأتراك Emerik Thököly (وفاته ١٧٠٥/٩/١٣) والملكة Ilona توفيا في أزميت نقلت عظامهما في ١٩٠٦ في احتفال مهيب من أزميت إلى المجر . كان صديقا كبيرا للعثمانية وعدوا لألمانيا . ترأس حركة التحرير المجرية Ferenc Rakoczy ، صهر الملك ، الذي سيسعى طيلة مدة حياته لتحرير المجر من ألمانيا بمساندة تركية وفرنسا (Lavissee-Rimbaud ، ٦ ، ٥٩٧ - ٨) . نقل نصف مليون مجري من اسكلافونيا إلى المجر . وهكذا أصبحت حدود المجر في الجنوب ، نهر درافا Drava بينما كان سافا Sava . وأصبحت البلاد المجرية الواقعة بين النهرين ، أقطارا خرواوية وسلافية .

توفى في ١٧٠١/٧/٢١ خارج مياه جزيرة Paros من جزر Kiklad في غرفة النوم في سفينة الإمبرالية وهو على رأس الأسطول الهمايوني ، ميزومورتا حسين باشا ، البحار الأخير الذي أنجبته تركية على نطاق عالمي والذي سن قوانين جديدة وحقق إصلاحات أساسية في القوات البحرية . حقق عندما كان مشيرا للقوات البحرية ٨ معارك بحرية انتصر فيها جميعا ، هذا عدا انتصاراته عندما كان بكلربك في الجزائر . كان عدد القطع البحرية في الأسطول البندقي - البابوي - المالطي - التوسكاني في المعارك الـ ٨ ، أكثر من عدد القطع العثمانية (فوزي قورد أوغلو ، ميزومورتا حسين باشا ، ص ٩٢) . دامت قيادته العامة للقوات البحرية ٦ سنوات و ٣ أشهر و ١٦ يوما . منح خلال الفترة بين قيامه بوظيفة بكلربك في الجزائر وتعيينه مشيرا للقوات البحرية ، منح رتبة قيادة كالينونات (السفن الشراعية الحربية) الأسطول الهمايوني . وفي عهده جددت كافة قطع الأسطول وإضافة إلى ذلك أصلح جميع مصانع السفن وأكسبها حيوية جديدة . نص في أنظمتها الجديدة بصورة صريحة ، على عدم إمكان حصول أى شخص على رتبة الضابط البحري العثماني ، ما لم يكن أبوه ضابطا أو جنديا حائزا على سجل مشرف في الأسطول الهمايوني . هذه المادة ، كانت تطبق سابقا ، في تركية - كما كانت تطبق في انكلترا - لكنها لم تكن مادة مكتوبة . نقل جثمان ميزومورتا حسين باشا ، بمراسم عسكرية كبرى أجرتها البحرية الهمايونية ، من Kiklad إلى جزيرة ساقيز ودفن في الجامع الموجود فيها .

استقال عموجه - زاده حسين باشا من الصدارة في ٤ أيلول ١٧٠٢ . استمرت صدارته مدة ٥ سنوات إلا أسبوعين . سبب الاستقالة ، تدخل شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، بصورة غير قانونية في جميع أمور الدولة ، تدخله في التعيينات ، تعيين أقاربه في مناصب عالية وتدخله في صلاحيات الصدر الأعظم وعرقلة نظام الدولة . السبب الآخر ، كان الادعاء القائل بأن ابن عمته قبله لى - زاده على بك ، أصبحت له علاقة سرية مع إحدى السلطنات (أميرات الإمبراطورية العثمانية) ، أمر الهادشاه باعدام الشاب ، رغم توسلات حسين باشا . كان على بك قائدا للاستبالات الهمايونية (أمير آخور أول شهرنارى) وبرتبة بكلكربك .

كان السلطان مصطفى ناقما على عموجه - زاده لإجباره على توقيع معاهدة كارلوفجه وينتظر الفرصة لعزله وكذلك ، كان شيخ الإسلام لايرغب في بقاء هذا الكوبرولو - زاده القوى السلطة ، في مقام الصدارة . لذا نرى أن الختم الهمايونى ، أعطى إلى مناصطرى مصطفى باشا ، الوزير التافه الجاهل . جاء مصطفى باشا ، من بغداد الذى كان بكلكربك عليها ، إلى أدرنة (٢٧ أيلول) وتسلم الختم الهمايونى ، وجد أمامه في الديوان ، رامى أفندى القوى السلطة . منح في عهد عموجه - زاده رتبة وزير (مارشال) إلى ٣ من عائلة كوبرولو : نعمان باشا ، الأبن الكبير للصدر الأعظم الشهيد فاضل مصطفى باشا (الذى صار فيما بعد داماد (صهر) وصندراً أعظم في تموز عام ١٧٠٠ ، وعبد الله باشا ، الابن المتوسط له وصهر شيخ الإسلام فيض الله أفندى (صار قائم مقام الصدارة في بداية عام ١٧٠٣) ، على باشا الابن الوحيد لمرزيفونلى قره مصطفى باشا عمره ٢١ عاما ، رجل دولة قدير جدا ، في آذار ١٧٠١ (زوج بنت مصطفى الثانى السلطنة صفية) (راشد ، ١١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٢٨) .

أصبح رامى أفندى الشاعر والكاتب الذى اشتهر في أوروبا بأنه دبلوماسى كارلوفجه القدير ، وزير قبه ، بينما كان رئيسا للكتاب (وزير الخارجية) (١٧٠٢/١٢/٢١) (راشد ، ٢ ، ٥٦٤ - ٥) . اتفق مع شيخ الإسلام على عزل مصطفى باشا ، الذى تجرأ على مخالفة شيخ الإسلام (١٧٠٣/١/٢٤) دامت صدارة مصطفى باشا ٤ أشهر و ٢٠ يوما ، أعدم بعد ٣ أيام (راشد ، ٢ ، ٥٦٥ - ٧٦) . صار رامى باشا صدرا

أعظم قبل مضي شهر واحد من - حصوله على رتبة الوزير . كان دبلوماسيا لامعا في الـ ٤٩ من عمره ، وكان مثقفا جدا . حاول ان تكون علاقته جيدة مع حميد فيض الله أفندي ، لكنه لم يوفق . قرر اسقاط شيخ الإسلام ، حفاظا على نظام الدولة . لم يكن بالإمكان إقناع البادشاه بذلك ؛ إذ إن هذا يعنى عزل السلطان ، في الحال . حاول تحقيق ذلك بتحريك الجيش ، هذا علاوة على أنه سعى للحصول على تأييد العلماء الذين كانوا في حالة عدم رضا . وفي النظام العثماني ؛ اتفاق الجيش + العلماء = يعني الثورة .

فيض الله أفندي ، عالم قدير فقيه ، متدين لكنه حريص وشديد التحيز لأقاربه . وزع أعلى المناصب العلمية بين أبنائه وأقاربه ، بحيث لم يكديق للعلماء الآخرين منصب يرقون إليه . منح أبنه الكبير درجة المشخة للمرة الثالثة والأخيرة في التاريخ العثماني والتي تعادل درجة الصدارة . ولكونه كبير السن ، فكأنه أعلن ولي العهد لمنصب شيخ الإسلام ، صار كل من فتح الله أفندي نقيبا للأشراف ، أخيه مصطفى أفندي قاضيا عسكريا على الأناضول ، ابن عمه محمد أفندي قاضيا عسكريا على روملي . الأفندية القضاة العسكريون على روملي والأناضول الذين تأتى درجتهم بعد درجة شيخ الإسلام ، يصيرون أعضاء في الديوان الهمايوني (الحكومة) . وهكذا وزعت المناصب بين فيض الله - زاده لر (عائلة فيض الله) .

السبب الآخر للانقلاب ، هو أن أدرنة صارت مركزا للعرش (العاصمة) بصورة فعلية منذ نصف قرن . وكان مصطفى الثاني ، كأسلافه ، يصر على السكنى في أدرنة ، الأمر الذي كان يسبب حرمان شعب إستانبول وتشكيلات القابوقولو الموجودة مقارهم في إستانبول ، من منافع عديدة . بدأت الثورة في إستانبول (١٧٠٣/٧/١٨) . أشعل نار العصيان ٢٠٠ جيه جي (فرق الاعاشة في الجيش) الذين حرضوا على ذلك وانضم إليهم الإنكشارية . انضم العاطلون والرعاع إلى الجيش البالغ عدده ٢٢٠٠٠ جندي ، فتشكل زحام بشري قوامه ٥٠ . ٠٠٠ شخص . تحرك هذا القطيع في ٩ آب ، من إستانبول إلى أدرنة . كان في أدرنة ٨٠ . ٠٠٠ جندي . ورغم أنه من المؤكد ، أنه كان باستطاعة هؤلاء تفريق هذا الحشد القادم بكل سهولة ، فإن كل الجهات وكل شخص ، ومن بينهم البادشاه ، خشوا اندلاع حرب داخلية . خلع البادشاه من العرش (١٧٠٣/٨/٢٢) . لكن المعارضة أو بالأحرى التردد ، كان كبيرا نحو ولي العهد - شهزاده أحمد الذي كان

أخا من نفس الأم والأب لمصطفى الثاني . وفي الوقت الذي كان فيه ، من المعهود في النظام العثماني ، أن يكون هنالك خلاف - في أغلب الأحيان - بين البادشاهات وولاة العهد ؛ إلا أن علاقة هذين الأخوين كانت ممتازة . كان العصاة يخشون انتقام السلطان أحمد . وطالبوا باجلاس ابن عمه ، أي ابن السلطان أحمد الثاني ولي العهد الثاني الشهزادة (الأمير) السلطان إبراهيم الذي لم يكمل الـ ١١ من عمره ، ليعيشوا كيفما يشاءون تحت ظل سلطان طفل . لكن طلبهم هذا ، لم يتحقق ، وأجلس ولي عهد - شهزاده على العرش في أدرنة بعنوان « أحمد الثالث » .

(١٤) شخصية مصطفى الثاني

دامت سلطنة مصطفى الثاني الذي ولد ، جلس على العرش ، وخلع من العرش في أدرنة ، مدة ٨ سنوات و٦ أشهر و١٦ يوما . هو من الشهزادات النوادر الذين ولدوا وهم « ولي عهد » . مات بسبب تأثره بعد خلعه بـ ٤ أشهر ، ٩ أيام (نصرت - نامه ، ٢ ، ٢٠٩) . كان عمره يتجاوز الـ ٣٩ بـ ٦ أشهر ، ٢٥ يوما . والواقع أنه بعد « مصالحة كارلوفجه » ، أصبح لايمال بشيء . دفن في مقبرة بنى جامع جوار أبيه . شاعر ، موسيقى ، خطاط ماهر ، ذو ثقافة عالية . أساتذته في الخط ، الحافظ عثمانه أفندي (١٦٤٢ - ١٦٩٨) وخواجه - زاده محمد أفندي ، أساتذته الآخرون القضعسكر (القاضي العسكري) أدرنة لى إبراهيم أفندي ، سيد محمد أفندي (وفاته ١٦٧٠) ، بورصه لى شيخ محمد أفندي ، وانى محمد أفندي وصهر هذا ، هو رئيس أساتذته شيخ الإسلام حاجه - سلطانى شهيد سيد قيص الله أفندي . مجموع مدة حملاته الهمايونية الثلاث سنة ، شهر ، ٢٩ يوما . أشترك في الحروب في عهد أبيه ، مطلع بصورة جيدة على منطقة روملى ، لكنه لم يطلع على الأناضول . دامت سلطنته حتى مصالحة كارلوفجه ، ٣ سنوات ، ١١ ، شهرا ، ٢١ يوما ، المدة بين المصالحة وواقعة أدرنة هي ٤ سنوات ، ٦ أشهر ، ١٩ يوما .

أبناء مصطفى الثاني : محمود الأول (١٦٩٦ / ٨ / ٢ - ١٧٥٤ / ١٢ / ١٣) ، عثمان الثالث (١٦٩٩ / ١ / ٣ - ١٧٥٧ / ١ / ٣٠) ، ٩ شهزادات (أمراء) توفوا وهم صغار السن جدا وأطول من عاش من بينهم هما شهزادة سليمان (١٧٠٣ -

١٧١٠) وشهزادة محمد (١٦٩٨/١١/٢٢ - ١٧٠٣/٦/٥) ؛ وشهزادة السلطان حسن (١٦٩٩/٣/٢٧ - ١٧٣٣) . ولأن أيا من هؤلاء لم يخلف ولدا ، فقد استمرت السلالة عن طريق أخيه أحمد الثالث وليس من مصطفى الثانى .

بنات مصطفى الثانى : السلطانة أمة الله (١٧٠١/٦/٢٢ - ١٧٢٧/٤/١٢) ، تزوجت بوزير واحد ورزقت بابنة واحدة ، السلطانة عائشة (١٦٩٦/٤/٣٠ - ١٧٥٢/٩/٢٦) ، تزوجت أولا بكوبرولو - زاده داماد نعمان باشا ، وعلى أثر وفاته (١٧١٩/١/٢٨) تزوجت بـ ٣ وزراء آخرين ، لم تنجب ولدا ، السلطانة أمينة (١٦٩٦/٩/١ - ١٧٣٩) ، تزوجت بـ ٤ وزراء أشهرهم الصدر الأعظم داماد سلاحدار جورولوا على باشا (وفاته ١٧١١/١٢/٢٧) ، لها ابن واحد ، السلطانة صفية (١٦٩٦/١٢/١٣ - ١٧٧٨/٥/١٥) ، تزوجت بمرزيفونلى قره مصطفى باشا - زاده داماد كنج على باشا وبعد وفاته (ت ١٧٢٢/٢) ، تزوجت بوزيرين ، رزقت من زيجاتها الثلاث بـ ٤ أبناء وابنة .

ترك العرش بعد أن نصحه أخوه . تأثرت السلطانة - الوالدة رابعة أمة الله كلنوش ، لخلع ابنها لكن وضعها لم يتبدل . لأنها كانت والدة أحمد الثالث كذلك . استمرت صفة السلطانة - الوالدة التى تحدثنا عنها .

مصطفى الثانى هو آخر خاقان تركى سار إلى الحرب . لم يصبح أى أحد من الباشاهاات الذين تلوه ، قادة فعليين . كان أحمد الثالث الذى احتل مكانه ، يصغره بـ ٩ سنوات ، ٦ أشهر ، ٥ أيام . وهنالك فى التاريخ العثمانى سلطانان آخران ولدا من أم واحدة ، هما مراد الرابع - إبراهيم خان .

واقعة أدرنة ، هى إحدى الثورات المشفومة والدموية فى التاريخ العثمانى . والحقيقة أنه لا يوجد انقلاب فى التاريخ العثمانى لم يأت بالضرر الكثير . مرق العصاة ، فيض الله أفندى وابنه الكبير فتح الله أفندى (راشد ، ٣ ، ٧٧) وأعلن العلماء أنهمباً شهداء ، وهو شيخ الإسلام الثالث والأخير فى التاريخ العثمانى الذى قتل . تمكن أبناؤه الآخرون من النجاة من القتل . إثنان منهم صاروا بعد شيوخ إسلام . استمررت عائلة فيض الله (فيض الله زاده لر) كأشهر عائلة من العائلات العلمية ، إلا أن أحمد الثالث لم يوظف أحدا من هذه العائلة حتى ١٧٣٠ . قضت واقعة أدرنة ،

على الحياة السياسية لرامى باشا . صار واليا على رودس ومصر وتوفى فى ١٧٠٨ عن عمر يناهز الـ ٥٤ . وقضت كذلك واقعة أدرنة على بقاء أدرنة عاصمة فعلية . لم يجرؤ بعدها أى بادشاه على ترك إستانبول والسكنى فى أدرنة لمدة طويلة . استصحب أحمد الثالث ، أخاه الكبير مصطفى الثانى ، والدته ، والسلطان ابراهيم الذى هو ولى عهد - شهزادة وذهب إلى إستانبول مع الجيش ورجال الدولة .

(١٥) الدول العالمية خلال تلك السنين

كان وضع الدول العالمية فى سنة ١٧٠٠ كما يلى : تركية ١٥٩٢٤٦٠٦ كم^٢ ، والنفوس ٧٨ ٢٨٥٠٠٠ نسمة (فى أوروبا ١١٦٧٣٩٤ كم^٢ و ٢٤٨٣٠٠٠٠ نسمة فى آسيا ٤٠٩٦٦٧١ كم^٢ و ٢٧٨٥٠٠٠٠ نسمة فى افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم^٢ و ٢٥٧٤٥٠٠٠ نسمة) ، نفوس أكبر المدن الأوربية والأفريقية (مع ضواحيها بصورة تقديرية) إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٦٥٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٥٠ ٠٠٠ ، اسكندرية ١٣٠ ٠٠٠ ، تونس ١٢٥٠٠٠ ، بخارست ١٠٠ ٠٠٠ (عدا المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

امبراطورية بنى تيمور الهندية ، كانت الدولة العالمية الثانية : ٤٦٢٢٨٨٥٠٠٠ كم^٢ و ١٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة . وتليها الإمبراطورية الصفوية الايرانية : ١٩٥٦٧٩١ كم^٢ و ١٨٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ويقتضى بعدها ، وضع الإمبراطورية الصينية فى التسلسل : ١٢٢٦٨٢٠٨ كم^٢ و ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

ملكية فرنسا ، كانت أقدر دولة مسيحية (مع مستعمراتها) : ٤ ٤٩٤ ٣٦٤ كم^٢ و ٢١٤٠٦٠٠٠ نسمة (باريس ٧٣٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ٩٠ ٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٣٣٤٧٨ كم^٢ و ٩٠١١٠٠٠ نسمة (لندن ٦٧٤ ٠٠٠) . هولندا ١٠٢١٢٧٤ كم^٢ و ٧٥٣٠٠٠٠ نسمة = ٢٨٥٤٧٥٢ و ١٦٥٤١٠٠٠ نسمة (امستردام ١٨٠ ٠٠٠) ، كانت هاتان الدولتان قد اتحدتا تحت ادارة حاكم واحد بصورة مؤقتة .

الإمبراطورية الألمانية ٨٠٣٨٢١ كم^٢ و ٢٢ ٤٧٩ ٠٠٠ نسمة (فيينا ١٥٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ٩٥٠٠٠) . ملكية اسبانيا التي لاتزال تحت إدارة عائلة هابسبورغ ١٥٠٨٦٠٠٣ كم^٢ و ٣٠ ٤٠٥ ٠٠٠ نسمة (نابولي ٢٨٠ ٠٠٠ ، ميلانو ١٣٠ ٠٠٠ ، مدريد ١٢٥ ٠٠٠ ، المكسيك ٩٠ ٠٠٠) .

ملكية السويد ١٢٧٨٠٢٣ كم^٢ و ٤٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (ستوكهولم ١٠٠ ٠٠٠) ؛ جمهورية البندقية ٦٢٦٨٣ كم^٢ و ٤٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (البندقية ٢٤٠ ٠٠٠) ، امبراطورية روسيا ١٤٥٦٨٥٤٠ كم^٢ و ١٢٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (موسكو ١٢٠ ٠٠٠) ، ملكية بولونيا ٧٦٠٤٠٧ و ١٢٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم^٢ و ٨٠٠٠ ٠٠٠ (فاس ٢٥٠٠٠٠ ، مكناس ١٠٠ ٠٠٠ ، مراكش ١٠٠٠٠٠) . مجموع الخانات التركية في تركستان ٥٥١٢٨٠٠ كم^٢ و ١١٥٠٠ ٠٠٠ نسمة . امبراطورية اليابان ٣٧٣٥١٢ كم^٢ و ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ . ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم^٢ و ٥٩٠٠ ٠٠٠ نسمة (لشبونة ٢٢٠ ٠٠٠) . ملكية الدانمارك ٥٣٨٩٥٧ كم^٢ و ١٤٠٨٠٠٠ نسمة . جمهورية سويسرا ٤٠٠٣١ كم^٢ و ١٦٠٠ ٠٠٠ نسمة . البابوية ٤٧ ٤٣٣ كم^٢ و ٢٢٠٠ ٠٠٠ نسمة (روما ١٦٠ ٠٠٠) .

دوقية توسكانا الكبرى ٢١ ٤٨٩ كم^٢ و ١٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت هنالك أقطارا مازالت مجهولة ، وتقديراتها كالتالى : مناطق الزنوج المجهولة في افريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم^٢ و ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة . المناطق الشمالية من أمريكا الشمالية التي يسيطر عليها البيض ١١٣٠٢٧٦٠ كم^٢ و ١٦٠٠ ٠٠٠ نسمة . قارة اوقيانيا (عدا جزر هاواي) ٩ ٢٣٦ ١٦٢ كم^٢ و ٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

(١٦) السنوات الأولى لدور أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧١١)

أحمد الثالث الذى شغل منصب ولى العهد مدة ثمانى سنوات ونصف ، فى عهد أخيه الكبير الذى كان منسجما معه تمام الانسجام ؛ لم يكن عسكريا ، قائدا ، مغرورا ، جسورا كأخيه . ولد فى حاجى اوغلو بازارى فى دوبروجه عندما كان

أبوه في الحرب . كان عمره ، في فاجعة فيينا ١٠ أعوام ، وعند خلع أبيه ١٤ عاما . لذا كان يحب السلم ، لكنه لا يتورع عن دخول الحرب إذا اقتضى الحال . لم تكن درجة ثقافته بقدر أخيه . لكنه كان شاعرا ، موسيقارا ، وبوجه خاص كان خطاطا كبيرا . كان من أبطال رماة السهم في عصره . حصل على أجازة في خط الثلث والنسخ من الحافظ عثمان أفندي . ومن بين أساتذته يمكن ذكر شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، شيخ الإسلام بورصة لي محمد أفندي (وفاته ١٧٢٩) ، سيد محمد أفندي ، قاضى عسكر (القاضى العسكرى) والامام السلطانى إبراهيم أفندي . كان هو كذلك كأخيه الكبير ، مطلعا على منطقة روملى ولو أنه لم يكن بدرجة ، كان قد زار مورا لكنه لم تسنح له فرصة الذهاب إلى الأناضول . كان عمره عند جلوسه يقارب الـ ٣٠ عاما . كان ولوعا بالنساء والأنس والملذات . كان يملك وقار الحاكم . أول عمل قام به ، هو اعتقال فاعلى واقعة أدرنة المفجعة ، أمر بقتل كافة الذين خانوا أخيه . لم يعد أحدا من منصبه مالم يرتكب خطأ جوهريا . كان يحمل فكرة الإصلاح . يؤمن بتجديد المؤسسات . عمل مابوسعه لأجل ذلك . هذه الإصلاحات ، لا يمكن أن ينتظر منها أن تكون إصلاحات جذرية ، وإنما حركة تجديد فقط . لا يقدم على الإصلاح الجذرى إلا عندما تكون الدولة في خطر .

كان أحمد الثالث يحاول العثور على صدر أعظم قدير . لأن الصدر الأعظم ، في النظام العثمانى ، هو الوكيل المطلق للخاقان ، المشغول عن كافة القضايا العسكرية والمدنية والمالية . عزل قاوانوز نيشانجى أحمد باشا ، الذى جىء به مكان رامى باشا ، بعد شهرين ، ٢٦ يوما (١٧٠٣/١١/١٧) . أما داماد أنشته حسن باشا ، فلم يتمكن من البقاء في السلطة أكثر من ١٠ أشهر ، ١١ يوما (١٧٠٤/٩/٢٨) . عزل قيصرلى قالاىلى فوز أحمد باشا بعد شهرين ، ٢٧ يوما (١٧٠٤/١٢/٢٥) . وصار ، قبطان دريا (مشير البحر) محمد باشا ، صدراً أعظم . رجل السراى الصادق الذى ضحى بكل ثروته في واقعة أدرنة في سبيل تأمين إجلال أحمد الثالث وليس الشهادة إبراهيم ، عزل بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٩ أيام (١٧٠٦/٥/٣) . لم يكن أى أحد من هؤلاء رجل منصبه . وفي النهاية ، جاء إلى السلطة رجل الدولة المهم سلاحدار داماد جورلولو على باشا .

كان على باشا وزيرا شابا في الـ ٣٠ من عمره . قام بإدارة الدولة مدة ٤ سنوات ،

وشهرو ١٤ يوما . لم يتدخل البادشاه كثيرا فى أعماله . فتح وهران فى الجزائر من أيدى الأسبان . وقدمت مفاتيح المدينة إلى السلطان أحمد بتاريخ ١٤ ك ١٧٠٨ .
رغبة الصدر الأعظم جورولولو ، فى إعلان الحرب على روسيا ومعارضة البادشاه له ، كانت سببا فى عزله (١٧١٠/٦/١٦) واعدامه بعد سنة ونصف . استمرت عائلة جورولولو ، إلى يومنا هذا . جاء مكانه كوبرولو - زاده داماد نعمان باشا .
لم يتمكن من شغل المنصب أكثر من شهرين ويومين ، لم يعط الوقت الكافى لىتمكن من انجاز عمل ، وبعد ٤ سنوات جاء بلطجى محمد باشا من حلب ، صار صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧١٠/٨/١٨) .

(١٧) الحرب مع روسيا (١٧١١)

كان إعلان العثمانية الحرب على روسيا قبل مضى ١١ سنة ، نتيجة لحرب الشمال . ملك السويد كارل ١٢ ، انتصر على الدنمارك ، بولونيا ، روسيا واستولى على بولونيا ودخل إلى أعماق روسيا . لكن عدم إدخال جورولولو ، العثمانية فى الحرب فى تلك الأثناء ، أعطى الفرصة للقيصر . تمكن القيصر بطرس من لم شعته وأنتصر على ملك السويد فى Poltava . اجتاز الملك الحدود العثمانية ولجأ إلى تركية . وأثناء مطاردة القيصر للملك ، دخل إلى قسم من الأراضى العثمانية . اعتبر الباب العالى ذلك ، سببا للحرب . أما السبب الحقيقى فهو فكرة استرداد آزاك - التى تركت فى معاهدة كارلوفجه إلى روسيا - وقد كانت هذه الفكرة بمثابة خط سياسى لايتبدل لدى الكثيرين من رجال الدولة العثمانية . اضطر البادشاه الذى لايرغب فى الحرب إلى إعلان الحرب على روسيا . أعطيت القيادة العليا إلى بلطجى محمد باشا .

سار بلطجى من إستانبول (١٧١١/٤/٩) مع ١٤٠ ٠٠٠ جندى وتمكن من العثور على جيش القيصر البالغ ٦٠ ٠٠٠ جندى فى موقع فالجى (بالرومانية : Falciu) على نهر بروت وحاصره . لذا اشتهرت هذه الحرب بحرب بروت . وهذا الموقع هو موقع عثمانى يقع متوسطا بين مدينتى كلاس وياش . حاول القيصر منع الجيش العثمانى من عبور نهر بروت . لكن عثمان باشا ، تمكن تحت نيران قصف العدو من نصب ٤ جسور والعبور بجيشه بسرعة إلى الضفة الشمالية من بروت . ولذا ، فإن بطرس الكبير الذى تحاشى الدخول فى حرب ميدانية ، اختبأ فى الخنادق التى حفرها على عجل . أجرى بلطجى عدة هجمات ، لكنه لم يوفق فى اختراق الخنادق

الروسية بسبب عدم حماس الإنكشارية لذلك . أرسل القيصر ، رئيس الوزراء البارون شافيروف إلى بلطجى وطلب منه أن يسمح له بالانسحاب مع جيشه وأنه سوف يعيد آراك وكافة الأماكن التى أخذت فى معاهدة كارلوفجه . مشاوروا بلطجى الصدر الأعظم الثلاثة الذين رشاهم البارون بمجوهرات بالغة القيمة ، تمكنوا من إقناع بلطجى بقبول هذا العرض . هذا هو الوجه الأول من المسألة ، أما الوجه الثانى ، فهو اعتقاد بلطجى المحق فى عدم إمكانه اجتياز الخنادق والتحكيكات الروسية جبرا . كان لا يعتمد على جيشه ولديه المبررات لذلك . وكان ملك السويد وخان قرم أعدى أعداء الروس ، على وشك الوصول إلى مقر السردار الأكرم ، وكان مجيئهم سوف يضطر بصورة مؤكدة بلطجى إلى الاستمرار فى القتال ؛ لذلك كله .. عقد الباشا الصلح على عجل . لكن الحقيقة أن وعود القيصر ، كانت حبرا على ورق ، كان همه الوحيد ، هو التخلص من الحصار العثماني . كانت الأمنية الكبرى للقيصر ، التى توجه كل تصرفاته ، هى الهبوط إلى البحر الأسود ، وسوف لا يتمكن من تحقيق هذه الأمنية فى حياته .

كانت العثمانية ، حتى ذلك اليوم ، قد أفنت جيوشا روسية كثيرة جدا ، ولكن روسيا مازالت حية . إن الحكاية التى رويت فيما بعد ، حول مقابلة بلطجى لعشيقه القيصر وامبراطورة المستقبل Ekaterina واستغفالها له ، ليس لها أى أساس صحيح ، فبلطجى لم يقابل ، لا القيصر ولا الإمبراطورة ابدا .

وأثناء التوقيع على مصالحة بروت فى ٢١ تموز باتفاق كافة الوزراء الموجودين فى الجيش ، قام بلطجى بهجوم أخير ، أخذ الجيش الذى لم يقاوم نيران أكثر من ١٢٠ مدفعا روسيا ، بالانسحاب بصورة غير منتظمة ، ولاشتداد الظلام ، لم يشاهد الروس ذلك . المادة المهمة فى المصالحة هى ، إعادة آراك أى روستوف التى هى فتحة نهر الدون إلى العثمانية . المواد الأخرى التى كانت تبدو كأنها فى صالح العثمانية وتشدد على روسيا ، كانت افلاطونية وبشك فى إمكان تطبيقها . بعد فترة وجيزة من التوقيع ، حضر ملك السويد أكبر عسكري فى عصره إلى مقر العثمانية وترجل عن حصانه الذى يرغبو شذقه زبدا . وبعد نقاشه مع الصدر الأعظم نقاشا شديدا ، عاد غاضبا قائلا بأنه سوف يشكوه إلى البادشاه . وحقق ماقاله . أحمد الثالث الذى أمر باقامة حفلات الفرح فى البداية ، عزل الصدر الأعظم عند عودته إلى أدرنة من

الحملة التي دامت ٧ أشهر و ١١ يوما (١٧١١/١١/٢٠) . دامت صدارته سنة ، ٣ أشهر و ٣ أيام ومجموع مدة صدارته سنتان و ٧ أشهر ١٢ يوما . كان عمره يتجاوز قليلا الـ ٥٠ . مات في السنة التالية .

أصبح أغا يوسف باشا ، ثم نيشانجي سلاحدار سليمان باشا صدرأ أعظم لمدة ١١ شهرا و ٢٢ يوما (١٧١٢/١١/١٢) . وعندما لم يرض القيصر باعادة آراك ، جاء البادشاه إلى أدرنة بنفسه للخروج إلى الحرب .

طلب القيصر الأمان . وقعت معاهدة أدرنة (١٧١٣/٦/٢٤) . استعيدت آراك . انسحب الروس من بولونيا ، حافظ البحر الأسود على وضعه كبهيرة تركية لمدة ٦٠ عاما أخرى . لم يتمكن القيصر من المهبوط إلى المياه الدافئة . كارل ١٢ (بالعثمانية ديمر باش شارل) الذي ظل في تركية خمس سنوات ونصف ، قطع أمله في زج تركية في حرب ضد روسيا ، على أثر مصالحة أدرنة ، وغادر تركية (١٧١٤/٩/١٩) . غادر Dimetoka مع ٢٥٠٠ جندي سويدي و ٦٠٠ جندي عثماني يرافقونه وذهب عن طريق افلاق إلى أردل عائدا إلى السويد .

وكنتيجة حرب الشمال ، لم يتمكن القيصر من المهبوط إلى البحار الدافئة ، إلى الجنوب ، لكنه تمكن تماما من الصعود إلى البحار الباردة أى البلطيق . الروس الذين احتلوا مصب Neva (١٧٠٣/٥/١٣) ، أسسوا قواعد مدينة Sankt Petersburg (لنيغراد حاليا) . اضطرت السويد ، إلى ترك ساحل مهم في البلطيق إلى روسيا . وصلت روسيا إلى البحار المفتوحة . حصل بطرس في السنوات الأخيرة من حياته على لقب « إمبراطور » . اما « جار » الذي كان لقبه السابق ، فمعناها إمبراطور صغير أو ملك كبير . اما لقب إمبراطور ، فيدل على ان « الجار » صار يملك صفة حاكم روما الشرقية أى حاكم البيزنط . لم تقبل هذا اللقب الدول الأوروبية ، وخاصة الدولة العثمانية التي حافظت فعلا على عنوان إمبراطور روما الشرقية . ادعى إيفان الرابع منذ أواسط القرن ١٦ بأنه هو « جار » أى إنه صغير امبراطور روما الكبير الذي هو البادشاه . والآن ، يدعى بطرس أنه الإمبراطور الكبير لروما الشرقية . وعلى هذا يكون تاج روما الشرقية مقسما بين البادشاه والجار . كان أمنية وأمل الروس أن يكون الجار ، إمبراطور روما الشرقية الوحيد ، لكن هذا الخيال لم يتحقق في أي وقت من الأوقات .

بعد عزل سليمان باشا بعد ٤ أشهر و ٢٥ يوما ، صار القبطان دريا (الأميرال الكبير) خوجه ابراهيم باشا ، صدرا أعظم (١٧١٣/٤/٦) . أعدم أولالى إبراهيم باشا ، بعد ٢١ يوما . كان أميرالا عظيما . عين مكانه ، ايزنيكلى داماد شديد سلاحدار على باشا ، صدر أعظم . سمى « داماد » (صهر) بسبب نكاحه - دون حدوث الزفاف مطلقا - فاطمة الطفلة ، ابنة أحمد الثالث الكبيرة . كان مثقفا بدرجة كبيرة ، له نفوذ لدى البادشاه ، فى سن ناضجة ، ذا مقدرة ، اداريا .

١٨) الحرب مع البندقية والمانيا (١٧١٥ - ١٧١٨) ، معاهدة باساروفجه (١٧١٨/٧/٢١)

استرد ، ما أعطى إلى روسيا فى معاهدة كارلوفجه . وبالنسبة إلى على باشا ، جاء دور استرداد ما أعطى إلى البندقية وألمانيا . أعلنت الحرب أولا على الأضعف ، البندقية (١٧١٤/١٢/٨) . مضت على كارلوفجه ١٥ سنة و ١٠ أشهر و ١٣ يوما سار الصدر الأعظم على باشا - الذى صار سردار أكرم (قائدا أعلى) - من إستانبول على رأس الجيش الهمايونى (١٧١٥/٤/١) . شيعه البادشاه حتى أدرنة . تبع القبطان دريا (مشير البحر = الأميرال الكبير) جانم خوجه محمد باشا ، السردار الأكرم بالأسطول الهمايونى وأستولى على جزيرة ثينوس (بالتركية استنديل) من جزر كيكلاد التى كانت بحوزة البندقيين (١٧١٥/٦/٧) . دخل على باشا فى ٢٧ حزيران إلى مورا (وهى اراض بندقية) ، عن طريق كورينثوس .

كان فى مورا فى هذه الأيام ، أكثر من الفى قرية ، قصبة ، مدينة . جعل البندقيون مدينة Nauplion (بالتركية : Anabolu) مركزا . كانوا يذيقون الأهالى الروم الوانا من الظلم . استقبل الروم ، العثمانيين بسرور صادق وحقيقى . وقد ساعد هذا على فتح الجزيرة وسهل عملية الفتح خلال ٥٥ يوما . احتل على باشا كورينثوس (١٧١٥/٧/٤) ، Nauplion (٧/١٩) ، وخلال ٨ أيام Modon (٨/٢١) . ثم ميناء Monemvasia (بالتركية بنفشه) (٩/٤) ، جزر Egin و Salamin (٧/٦) ، جزيرة آيامافرى (بالايطالية : Santa Maura) فى البحر اليونانى (١٠/٥) ، وخلال ذلك ، تم احتلال موانئ البندقية (٩/٢٤) الموجودة فى

كريت . سقطت نافارين وكورون في ١٣ آب . هرب الأسطول البندقى ، من الأسطول العثمانى . حتى ذلك التاريخ ، كان ترتيب الأسطول البندقى ، الثانى بعد العثمانية فى البحر الأبيض . خرجت البندقية من صفوف الدول الكبرى فى عام ١٧١٥ ، بعد فقدانها مورا وانقطاع علاقتها ببحر إيجه . وفى ١٧٩٩ أمحيت من الوجود بشكل تام .

قضى على باشا ، شتاء عام ١٧١٥ - ١٦ فى إستانبول . كان يريد فى هذه المرة ، فتح جزيرة كورفو (التى لم يتسن الاستيلاء عليها حتى فى عهد القانونى) ، وتنحية البندقية بشكل تام . أعلنت ألمانيا التى أقيمت فوراً أن الدور لحقها ، الحرب (١٧١٦/٤/٢٤) . كان على باشا قد غادر إستانبول فى ١١ نيسان ونظم جيشه لحرب البندقية . كان يلزم لمجابهة ألمانيا ، جيش أكبر ، ورغم ذلك ، غير طريقه وتوجه إلى المجر . جاء إلى بلغراد (١٧١٦/٧/٢٢) ، ولم يستمع للذين أشاروا عليه بقضاء الشتاء فيها والاستعداد لفتح المجر بقوات أكبر فى الربيع ، وقال أنه سينهى قضية المجر هذا العام ويصل إلى الحدود التى كانت فى عهد عائلة كوبرولو . ولأن المجرين يتنون تحت نير ظلم الألمان الشديد ، فقد كان يرى أنه من الممكن فتح المجر بتشتيت الجيش الإمبراطورى فى معركة ميدانية . لعب الوزير بوشناق صارى أحمد باشا بكربك روملى ، دورا مشثوما فى هذا القرار وخدع الصدر الأعظم باقاعه بهذا الرأى وتنصر بعد مدة ودخل فى خدمة ألمانيا . مثل هذا يعتبر حادثة من اندر الحوادث الاستثنائية التى وقعت فى العثمانية .

تقابل الجيشان فى بترفارادين . فى ٢ آب شنت مقدمة الجيش العثمانى البالغة ١٥٠٠ شخص ، مقدمة جيش الأمير اوجين البالغة ٨٠٠٠ شخص فى Karlofca وبدلا من أن يواصل الهجوم فوراً - بينا العدو فى حيرة من أمره - تأخر على باشا ٣ أيام بناء على مشورة صارى أحمد باشا . بدأت معركة Petervaradin الميدانية فى الساعة ٧ من صباح يوم ٥ آب (١٧١٦) بهجوم الجناح العثمانى الأيسر الذى يشكله سباهية روملى « تمارلى » (نوع من الخيالة) وشروعه فى تشتيت الجيش الألمانى . ولكن الجناح الأيمن تشتت ، فور سقوط الوزير تورك أحمد باشا بكربك الأناضول شهيدا . وعندما أراد على باشا تدارك الأمر فتقدم دون احتياط إلى الأمام ، سقط شهيدا برصاصة أصابت جبينه . تركت الوحدات التركية التى علمت بموت

السردار ساحة الحرب وبدأت فى الانسحاب إلى بلغراد . سببت عادة ترك ساحة القتال عند وفاة السردار - وهى عادة سيئة وقديمة لدى الجيش العثماني - إحراز الأمير اوجين نصرا كبيرا . بعد ١٩ عاما من انتصاره على مصطفى الثانى فى معركة Zenta الميدانية ، ينتصر على أحد سردارات (قائد أعلى) العثمانيين كذلك . كان عمره فى هذه الاثناء ٥٣ عاما واشتهر بأنه عسكري العالم المسيحي الذى لا يقهر ، بطل ألمانيا الوطنى . غنم الأمير ، سرادق على باشا وعدة آلاف من كتبه ذات القيمة الفائقة المخطوطة بثلاث لغات شرقية والتي اعتاد استصحابها معه فى الحملات .

وبذلك تكون صدارة شهيد على باشا قد دامت مدة ٣ سنوات ، ٣ أشهر ، ٨ أيام . حقق خلال هذه المدة أعمالا كبيرة . لكن الفشل فى حملة ألمانيا ، جلب على الدولة مصيبة كبيرة . صار الوزير حاجى خليل باشا محافظ بلغراد ، صدراً أعظم وموشقارالى ابراهيم أفندى (نوشهرلى داماد ابراهيم باشا) الموجود فى الجيش ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . كان ابراهيم باشا ، فى خدمة أحمد منذ كان شهزادة وكان مقربا إليه . صارى أحمد باشا الذى لم ترقه هذه التعيينات ، تنصر ولجأ إلى الألمان ، قبض عليه الجند الأتراك خارج بلغراد ومزقوه .

سار الأمير اوجين فور انتصار بترفارادين مع ١٨٠.٠٠٠ جندي نحو تامشوار . وبعد حصار دام ٤٤ يوما ، استولى على قلعة تامشوار المهمة جدا وهى مركز الإيالة ومدينة مجرية حتى ذلك التاريخ (١٧١٦/١٠/٢٠) . استولى الألمان على Banata . انقطعت علاقة العثمانية بالبحر بصورة تامة . حاصر الأمير اوجين بلغراد (١٧٦٧/٧/٦) . اتحد جيش الصدر الأعظم والسردار الأكرم البستانلى حاجى خليل باشا ، مع ٧٠.٠٠٠ من خيالة قرم الذين يقودهم سعادت كيراي خان وهجم من الخارج بغرض فك الحصار عن بلغراد ، لكنه انسحب بعد أن فقد ٢٠.٠٠٠ شهيد ، وجريح واسير . دخل الأمير اوجين بلغراد (١٧١٧/٨/١٨) . عرض الألمان الذين احتلوا بلغراد خلال ٤٢ يوما الصلح وهم فى مركز قوة . كان أحمد الثالث وإبراهيم باشا قد قدما إلى صوفيا . تزوج قائمقام الصدارة ابراهيم باشا ، ابنة أحمد الثالث الكبيرة السلطانة فاطمة البالغ عمرها ١٣ عاما وأصبح صهرا له (داماد) . السلطانة فاطمة التى استشهد زوجها شهيد داماد على باشا ، قبل زفافها ، بقيت أرملة . عزل خليل باشا بعد صدارة دامت سنة ، ٢٢ يوما

(١٧١٧/٨/٢٦) . صار قيصريلى نيشانجى محمد باشا ، صدرا أعظم لمدة ١٤ يوما . احتل مكانه داماد ابراهيم باشا (١٧١٨/٥/٩) . أدى عدم حنكة وبصيرة خليل باشا ، إلى احتلال ألماني لبلغراد دام ٢٢ عاما ، علاوة على عدم إمكان استعادة تامشوار فى أى وقت من الأوقات . ولأن بلغراد استسلمت لحالها ، غادرها المسلمون على شكل قوافل كبيرة . لم تعد بعد ذلك بلغراد ، مدينة تركية . هاجر المجرىون إلى الشمال . وبعد ٢٢ عاما انتقلت إلى العثمانية مجددا على شكل مدينة صربية . استسلمت تامشوار كذلك لحالها ونزح منها الأهالى المسلمون . أخذ الرومانيون فى الاستيطان هناك ، وفى الأماكن التى أخلاها الأتراك ، وفقدت تامشوار هويتها كمدينة مجرية .

كان داماد إبراهيم باشا الذى أصبح صدراً أعظم بعد ماكان قائمقام الصدارة لمدة سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام من مؤيدى الصلح كأبى زوجته البادشاه . كلاهما كان مقتنعاً بعدم إمكان الحرب بمثل هذا الجيش . كانت تقوية الجيش تستوجب إضافة معدات تكنولوجية جديدة ، ولتحقيق ذلك ، كانت الدولة تحتاج إلى فترة صلح طويلة الأمد . بعد ١٢ يوما من صدارة ابراهيم باشا ، وقعت العثمانية مع ألمانيا والبندقية معاهدة Pasarofca (١٧١٨/٧/٢١) وهى الاتفاقية المفجعة التى وقعت عليها العثمانية بعد كارولوفجه .

تنهى المعاهدة المكونة من ٢٠ مادة مع ألمانيا ، و ٢٦ مادة مع البندقية ، حالة الحرب مع البندقية التى استمرت منذ ٣ سنوات و ٧ أشهر و ١٤ يوما ، ومع ألمانيا التى استمرت منذ سنتين و شهرين ، ٢٧ يوما . ترك Banat مع مركزها Tamesvar إلى ألمانيا ، نهر Sava يشكل الحدود ، غير أن مدينتى بلغراد وسمنديره اللتين تقعان فى جنوب سافا ، تبقيان لدى ألمانيا . لا يبقى تقريبا للعثمانية أية رعايا من المجرىين ، ومقابل ذلك تحوز ألمانيا ، على قسم من الرعايا الصرب . كان المسلمون القاطنون فى بلغراد وسمنديره ، (اللتان كانتا مدينتين إسلاميتين حتى ذلك التاريخ) ، ينسحبون إلى الأراضى العثمانية . لم تكن الفتوحات التى أحرزت من البندقية بالأهمية التى يمكن معها تعويض ما أعطى لألمانيا . تبقى مورا ، جزيرة آيامافرى والجزر الأخرى ، لدى العثمانية ، لكن الجزيرة الصغيرة التى تقع بين كريت ومورا تبقى لدى البندقية .

أغلق الدور الأول لسلطنة أحمد الثالث الذى دام ١٤ سنة و ١١ شهرا و يومين بمعاهدة باساروفجه . ويطلق على الدور الثانى لسلطته « لاله دورى » (دور السنبل) وهو الذى يصادف داماد إبراهيم باشا والذى استمر ١٢ سنة ، وشهرين ، ١١ يوما . وفى نهاية هذا الدور حدثت حرب إيران التى كانت أحد أسباب اغلاق هذا الدور .

يمكن تعريف « دور لاله » ، بأنه يتمثل فى رغبة إستانبول والمدن التى تقلدها والتى ملت ويلات الحرب والانقلابات ، فى الاستفادة من نعم الحياة المادية بقيادة إبراهيم باشا . تم إعمار إستانبول والمدن الأخرى ؛ فمثلا ، شيدت القرية التى ولد فيها الصدر الأعظم المسماة موشقاره ، على شكل مدينة وأصبح اسمها نوشهر . ولأول مرة ، يركز الاهتمام على الإعمار المدنى بدلا من الإعمار الدينى ، أستعمل فى البناء الأسلوب الذى يعكس المرح والجانب المشرق للحياة ، تطورت هندسة الحدائق بشكل فائق . أصبحت هواية تربية الأزهار وخاصة « اللاله » (السنبل) الشغل الشاغل للناس ، ابتداء من البادشاه إلى الفقير المعدم . انعكست هذه الروح المرحية المرتبطة بالحياة ، على الشعر والموسيقى . بزغ فى هذا المجال أفذاذ كثيرون . وخاصة نديم الذى تغنى فى اشعاره جو « دور لاله » ، وخاطب فيها القلب بأسلوب وجدانى سلس ، وحتى التصوف الكثير الرواج فى المجتمع العثمانى ، وحياة التكايا والطرق الصوفية ، زادت انفتاحا على الحياة ، وصارت تنظر إلى الحياة بكثير من المحبة والسرور والشكر لنعم الخالق عز وجل . أصبحت كل واحدة من تكايا الطرق الصوفية لدى العثمانية (والتى يطلق على صغيرها زاوية ، وعلى المتوسطة تكية ، وعلى الكبيرة دركاه وعلى الكبيرة جدا آستانة) ، أكاديمية للفنون الجميلة وناديا يجتمع فيه أهل القلوب . أخذت العلوم العملية حصتها من هذا الجو . بدأ توجيه الاهتمام نحو العلوم العملية ذات العلاقة بالعلوم العسكرية ، دور لاله ، هو بداية حركة التجدد . انفتحت الحركة الأولى على الاقتباس من الثقافة الأوروبية . ثم تلا ذلك التحرى والانتقاء . أخذ المثقفون من العثمانيين يشعرون برغبة ملحة لكشف وتفهم مايجرى واقتباس مايتفقونه ويعجبون به من الحياة الأوروبية . افتتحت مطبعة الدولة فى عام

١٧٢٧ . كان سبب تأخر تأسيس مطبعة وطنية ، إلى درجة أن الإمبراطورية كانت تطبع كتبها لدى المطابع الخاصة ، وتجلب الكتب المطبوعة من أوروبا ، هو الخوف من البطالة التي ستصيب جيش الخطاطين . تم تأمين معيشة الخطاطين بمنع طبع الكتب الدينية في المطابع (كتب الكونت Marsigli أنه كان في عام ١٧٠٠ ، ٩٠.٠٠٠ شخص يتعيشون بواسطة الخط ، الأرجح إن هذا الرقم مبالغ فيه) .

لم يحقق إبراهيم باشا ، هذا الجو بإصلاحات جبرية وفورية ، بل بلين وبإجراءات نموذجية . ومع ذلك ، فإن جماعة المتعصين المتشددين الذين لم ترقهم هذه التجديدات ، أخذت في الازدياد .

(٢٠) الحرب مع إيران (١٧٢٣ - ١٧٣٠)

جاءت خلال هذه السنوات سلالة أويسى من الأفغان واحتلت إيران بما فيها اصفهان . خربت مدينة الصفويين العريقة . استفاد القيصر بطرس من قتال الصفويين مع الأويسين ، ودخل إيران . اضطرت العثمانية لذلك بشدة . خرجت داغستان السنية في ١٧٢٢ من تبعية إيران وأُعلنت بالعثمانية متبوعا لها مجددا . ورغم نفور إبراهيم باشا من الحرب ، اضطر إلى التدخل في إيران . بدأت الحرب بدخول الجيش العثماني في تموز عام ١٧٢٣ إلى القسم التابع إلى إيران من كرجستان . احتل بكلكربك أرضروم الوزير سلاحدار إبراهيم باشا ، تفليس وغوري وضم شرق البلاد كذلك إلى العثمانية . دخل بكلكربك وان الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا ، إلى اذربيجان . وفي الجنوب قام بكلكربك بغداد الوزير ايوبلى حسن باشا باحتلال ايلات لورستان ، اردلان ، كرمنشاه ، وهدان . وهكذا انتقلت ايلات إيران الخمس (١٦٤٠٠٠ كم^٢) إلى حوزة العثمانية . أما في الشمال فتم الاستيلاء على ايلات روان وتبريز (كرمنشاه ١٥/١٠/١٧٢٣ ، سينه ١٠/١١/١٧٢٣ ، خوى ٦/٥/١٧٢٤ ، همدان ٣١/٨/١٧٢٤ ، تبريز ٣/٨/١٧٢٥ ، روان ٣/١٠/١٧٢٤ ، كنجه ٤/٩/١٧٢٥ ، خرم آباد ٦/٩/١٧٢٤) . وبهذا يكون قد تم فصل غرب وشمال - غرب إيران وقفقاسيا الجنوبية عن إيران لصالح العثمانية، وتم الاستيلاء على المدن الكبيرة المذكورة أعلاه الواحدة تلو الأخرى . أحرز كوبرولو -

زاده عبد الله باشا ، شهرة كبيرة بفتح تبريز (هو الأبن الكبير للصدر الأعظم داماد كوبرولو - زاده نعمان باشا) . وهكذا تم فتح ١٢٦.٠٠٠ كم^٢ من الأراضي في الشمال (جمعا ٢٩٠.٠٠٠ كم^٢) . تم التوصل إلى حدود عهد مراد الرابع مجددا ، وتم التوصل إلى الخزر من جديد . أعترف بكل هذه الفتوحات أشرف شاه أويسی بمعاهدة همدان (١٧٢٧/١٠/٤) .

ظهر بعد ذلك فوراً نادر خان اوشار . أعلن هذا البك التركمانى أن الأويسين مغتصبون وغير شرعيين . أجلس على العرش طفلاً ، أخذ يسعى في تطهير إيران باسم الشاهات الصفويين من الاحتلال الأفغانى من ناحية ، والعثماني من الغرب من ناحية أخرى . احتل نهاوند من العثمانيين (١٧٣٠/٧/٢) ، اختطف بككربك همدان عبد الرحمن باشا ، وبككربك كرمنشاه بجوى باشا واستولى على كلتا المدينتين ، وخلال شهر تموز (١٧٣٠) ، استرجع إيلالتى همدان وكرمنشاه (٨٥٠٠٠ كم^٢) بحملة واحدة . عند ذلك ، ركزت أعلام الحرب للبادشاه في صحراء اسكدار في ٣ آب . لكن البادشاه وصهره الصدر الأعظم أرادا تأجيل الحملة إلى ربيع عام ١٧٣١ على أساس انتهاء موسم القتال . كثف المعارضون الدعاية ضد الصدر الأعظم بحجة أن نادر خان يذبح السنة في إيران (كانت سلالة أويسی الأفغانية سنية - حنفية) .

(٢١) ثورة باترونا (٢٨ أيلول - ١ ت ١٧٣٠)

حدثت بعد ٢٧ عاما من واقعة أدرنه ، ثورة اتعس وأكثر شؤما منها . إبنار إبراهيم باشا ، أقاربه بالمناصب العالية ، وسلطته التى بدا وكأنه لانهاية لعهداها ، والخشية من انتقال السلطة إلى أحد أقاربه في حالة وفاته .. كل هذه الأمور استعملت كأدوات إثارة ضده . زج أحمد الثالث في هذه البلية ، وكذلك كان قد أبتلى ، قبل ٢٧ عاما أخوه الكبير مصطفى الثانى بسبب توزيع شيخ الإسلام فيض الله أفندى مقامات المشيخة والمناصب العالية بين أقاربه بشكل غير مألوف .

كان إبراهيم باشا . رجل دولة حر الفكر جدا ، وعادلا ورحيما . لم يكن معارضوه كثيرين ، لكن عدم اعتماده على تشكيلات صنف القابوقولو بسبب الحرب

الألمانية الأخيرة ، وعزمه على تجهيز الجيش باصناف تكنولوجيا جديدة ، وإظهاره عدم الاعتماد على الجيش في حرب إيرانية ، أثار الانكشارية .

حدثت الثورة في هذه المرة بين أفراد جنود الانكشارية ولم يشترك فيها إلا عدد قليل من الضباط وبسبب عصيان باترونالى (من أهالى بأترونا) خليل . وهو جندى من صنف البحرية ورفاقه ، اشتهرت هذه الثورة التى أنهت دور لاله ، باسم « ثورة باترونا » وهى إحدى أكبر وأعنف وأشهر الثورات في التاريخ العثمانى . اعتبر الصدر الأعظم مسئولاً عن هروب بكركبك تبريز الوزير جاووش باشى قره مصطفى باشا من تبريز دون أن يطلق طلقة واحدة ، مما يسر لنادرخان اح لاله وقيامه بقطع أفواه وأنوف الشعب السنى .

بدأ العصاة في التجمع في ٢٨ أيلول . أهمل أمرهم في بداية الأمر بشكل لا يصدق ، وازداد عددهم ، وبينما كان تشتيتهم من أسهل الأعمال ، لعدم وجود أى رجل دولة على رأسهم أو حتى ضابط . ولعدم تصدى أى شخص في العاصمة لتحمل المسؤولية ، وترك الأمر في بدايته دون مواجهة بل بتراخى وعدم اكتراث ، انقلب الأمر إلى اقتحام السجون وإخراج المسجونين وتسليحهم ونهب البيوت . وفي ٣٠ أيلول ، طلب العصاة من أحمد الثالث قطع رأس ٣٧ شخصا .

أعدم في ١ ت ١ الصدر الأعظم نوشهرلى داماد إبراهيم باشا مع صهره قبطان دريا الوزير قايماق مصطفى باشا (حفيد مرزيفونلى قره مصطفى باشا من ابنته) وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الوزير محمد باشا . هكذا كانت نهاية أقدر صدر أعظم في القرن ١٨ دون منازع ، طلب الثوار استقالة البادشاه ، لعلمهم بأنه سوف ينتقم . دعا أحمد الثالث ابن أخيه ولى عهد - شهزاده السلطان محمود في الساعة ٩/٣٠ (٢١/٣٠) من مساء يوم ١ ت ١ ، وجعله يقبل يده وقدم له النصيح وأعلمه بأنه تخلى عن السلطنة لصالحه .

دامت صدارة داماد إبراهيم باشا ١٢ سنة و ٤ أشهر و ٢٢ يوما . هو رئيس الوزراء الثانى عشر في تسلسل مدة البقاء في الوزارة بين رؤساء وزراء تركية ، وهو الثانى في التسلسل بعد رعوف باشا ، من بين الصدور الأعظم الذين تصدروا بعد وفاة فاضل أحمد باشا في ١٦٧٦ حتى نهاية السلطنة ، إلا أن صدارة رعوف باشا

في النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن على فترة واحدة وإنما هي مجموع مدة بقاءه لـ ٥ مرات . ابراهيم باشا الشاعر ، الملحن كان راعيا للعلوم والفنون والأدب والشعر والموسيقى وكان من كبار مشجعي حركة الأعمار .

كان عمر أحمد الثاني يتجاوز الـ ٥٦ عاما بـ ٩ أشهر ويومين . عاش بعدها في شقته الكائنة في سراي طوب قابو مع شهبزاداته ونسائه مدة ٥ سنوات و ٩ أشهر ، يوم وتوفي وعمره يتجاوز الـ ٦٢ بـ ٦ أشهر ويوم (١٧٣٦/٧/١) . دور لاله ، كان دور استقرار كبير . شيخ إسلام هذا الدور هو بنى شهرلى عبد الله أفندى بقى في مقامه مدة ١٢ سنة و ٢٤ يوما (١٧١٨/٥/٦ - ١٧٣٠/٩/٣٠) . وهو التاسع في تسلسل المدة بين شيوخ الإسلام .

يندر من وصل من بين أولاده الذين يبلغ عددهم ١٢ شهبزاده (أميرا) و ٢٢ سلطانة (أميرة) سن الستين ، كلهم ماتوا اطفالا . الذين توفوا وهم أطفال ولم يصلوا سن البلوغ هم : السلطانة رابعة (١٧٢٢ - ١٧٢٩) ، السلطانة أم سلمه (١٧٢٥ - ١٧٣٢) ، السلطانة عاقلة (١٧٣٠ - ١٧٣٧) ، السلطانة نائلة (١٧٢٢ - ١٧٢٦/١٢/١٠) ، السلطانة أمينة (١٧١٠ - ١٧٢٠) .

أبناءؤه : مصطفى الثالث (١٧١٧/١/١٨ - ١٧٢٤/١/٢١) ، عبد الحميد الأول (١٧٢٥/٣/٢٠ - ١٧٨٩/٤/٧) ، السلطان سليمان وهو شهبزاده عظيم جدا (١٧١٠/٨/٢٥ - ١٧٣٢/١٢/١١) ، الشهبزادة السلطان محمد (١٧١٧/١/١ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) الذى صار وليا للعهد لمدة سنتين و ٩ أيام (١٧٥٤/١٢/١٣ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) ، الشهبزادة السلطان بيازيد الذى صار وليا للعهد لمدة ١٣ سنة و ١١ شهرا و ٦ أيام (١٧١٨/١٠/٤ - ١٧٧١/١/٢٥) ، شهبزاده نعمان (١٧٢٣/٢/٢٢ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) ، شهبزادة سيف الدين (١٧٢٤ - ١٧٣٢) . والذين جلسوا على العرش من بين هؤلاء هم مصطفى ٣ وعبد الحميد ١ ، صار لهما أولاد ، لكن السلالة استمرت إلى يومنا هذا عن طريق عبد الحميد ١ فقط .

بناته : ١) السلطانة فاطمة (فاطمة الزهراء) (١٧٠٤/١٠/٢٢ - ١٧٣٣/١/٣) ، جرى نكاحها للصدر الأعظم داماد شهيد سديد سلاحدار ازينكلى فاضل على باشا ، ولم يحدث الزفاف (١٦٦٧ - ١٧١٦/٨/٥) ، وتزوجت بعده

بالصدر الأعظم داماد نوشهرلى إبراهيم باشا (١٦٧٠ - ١٠/١/١٧٣٠) وانجبت ابناً واحداً . ٢) السلطانة أم كلثوم (١٧٠٨/٢/٧ - ت ١٧٣٢/٢) ، تزوجت بابن أخ إبراهيم باشا ، الوزير داماد نوشهرلى كنج على باشا (١٦٩٨ - ١٧٣٢) ، أنجبت ٤ أبناء وابنة واحدة . ٣) السلطانة عائكة (١٧١٢/٢/٢٨ - ١٧٣٧) ، تزوجت بابن إبراهيم باشا ، داماد نوشهرلى كنج محمد باشا (١٧٠٢ - ١٧٦٨/٦/١٦) وانجبت ابناً واحداً هو نوشهرلى - زاده سلطان - زاده حاجى إبراهيم بك (١٧٣٠ - ١٨١٩) وهو الذى استمرت عائلة نوشهرلى إلى يومنا هذا عن طريقه . ٤) السلطانة صالحة (١٧١٥/٤/٢٠ - ١٧٧٨/١٠/١١) ، تزوجت ٥ مرات وأشهرهم رابعهم الصدر الأعظم داماد قوجا محمد راغب باشا (١٦٩٩ - ١٧٦٣/٤/٨) ، ورزقت من زوجها الأول (وزير داماد صارى مصطفى باشا ابن الصدر الأعظم غازى دلى حسين باشا) ٣ بنات وابن واحد . ٥) السلطانة عائشة (١٧١٥/١٠/١١ - ١٧٧٥/٧/٩) ، تزوجت ٣ مرات ورزقت بنتين وولدين ، زوجها الثانى هو داماد وزير أحمد راتب باشا ، ابن الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ، أما زوجها الثالث فهو الصدر الأعظم داماد سلاحدار محمد باشا . ٦) السلطانة خديجة (١٧١٩/١١/٢٠ - ١٧٣٨) ، تزوجت بالداماد حافظ أحمد باشا ابن الوزير داماد كوجوك جركس عثمان باشا . ٧) السلطانة أسماء (١٧٢٦/٣/١٤ - ١٧٨٨/٨/١٣) ، تزوجت ٣ مرات وآخرهم هو الصدر الأعظم داماد محسن - زاده محمد باشا (١٧٠٦ - ١٧٧٤/٨/٤) ، ورزقت منه بابنة واحدة . ٨) السلطانة نظيفة (أيار ١٧٢٥ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) لم تتزوج . ٩) السلطانة زبيده (١٧٢٨/٣/٢٩ - ١٧٥٦/٥/٦) ، تزوجت بوزيرين . ١٠) السلطانة زينب (١٧١٤/٤/٨ - ١٧٧٤/٣/٢٥) ، تزوجت أولاً بداماد نوشهرلى سنك كوجوك مصطفى باشا ابن أخ إبراهيم باشا (١٧٠٩ - ١٧٦٤/٢/١١) ورزقت منه بابن واحد ، ثم تزوجت بالصدر الأعظم داماد ملك محمد باشا (١٧٢٠ - ١٨٠٢/٢/٢٢) .

٢٢) دور السلطان محمود خان الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤)

السلطان محمود الأول الذى جلس على العرش ، هو الابن الكبير لمصطفى الثانى . يعرف بلقب « غازى » . أمه السلطانة - الوالدة صالحة سبقتى (١٦٨٠ -

١٧٣٩/٩/٢١) . وبعد وفاة الشهزادة ابراهيم ابن عمه أحمد الثاني ، صار مكانه وليا للعهد (١٧١٤/٥/٤) . وبعد بقاءه في منصب ولاية العهد مدة ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، جلس على العرش مكان عمه أحمد الثالث وعمره يتجاوز الـ ٣٤ شهريين ويوم . شاعر ، وحفار أختام وملحن كبير للأغاني الموسيقية التركية (الساز) . تزوج من ١١ زوجة لكنه لم يرزق باولاد ابدا . من بين اساتذته يمكن ذكر قضيبي (قاضي عسكري) روملي فيض الله - زاده ابراهيم أفندي نذير آغا ، عثمان باشا وأول أستاذ له هو شيخ الإسلام ارضروملي فيض الله أفندي . أول من بايعه عند جلوسه ، شهزادات (أمراء ، أولاد السلاطين) عمه أحمد الثالث الـ ٧ (أحمد الثالث ، مدفون في مقبرة بني جامع بجوار أبيه وأخيه الكبير) .

كان محمود الأول ، عاقلا ، دقيقا ، حذرا ، وقورا ، ذا ثقافة عالية ، وعلى خلق . قتل بعد مدة وجيزة جميع مدبري ثورة باترونا خليل وأنهى الثورة القصيرة وحكم القرد ، ثم استمر على السير على نمط تراث دور لاله . اتعظ بعاقبة أبيه وعمه وبدل رؤساء الوزراء بصورة مستمرة ، ولم يبق أى صدر أعظم ، مدة طويلة في السلطة . عين في مقام المشيخة ، ابني شيخ الإسلام ارضروملي شهيد حاجه سلطاني فيض الله أفندي (فيض الله - زاده مصطفى أفندي ١٧٣٦/٤/١٣ - ١٧٥٤/٣/٤) وفيض الله - زاده مرتضى أفندي ١٧٥٠/٦/٢ - ١٧٥٥/١/١٢) .

الذين شغلوا منصب الصدر الأعظم خلال دور السلطان محمود ، بعد نوشهري ابراهيم باشا هم : سلاحدار داماد محمد باشا ٣ أشهر و ٢١ يوما ، قاره حصارلى قاهاقولاقي ابراهيم باشا (١٧٣١/١/٢٢) ٧ أشهر و ١٩ يوما ، طوبال عثمان باشا (١٧٣١/٩/١٠) ٦ أشهر ويومين حكيم أوغلو على باشا (١٧٣٢/٣/١٢) ٣ سنوات و ٤ أشهر و يوم ، اسماعيل باشا (١٧٣٥/٧/١٢) ٥ أشهر ، ١٣ يوما ، ديمه توكلالى سلاحدار محمد باشا (١٧٣٥/١٢/٢٤) سنة ، ٧ أشهر و ١٦ يوما . (١٧٣٧/٨/٦) ٤ أشهر و ١٤ يوما ، علائيلى باشا (١٧٣٧/١٢/١٩) سنة و ٣ أشهر و ٤ أيام ، حاجي عوض باشا (١٧٣٩/٣/٢٢) سنة و ٣ أشهر ، ويومين ، انطاليلى باشا (١٧٤٠/٦/٢٣) سنة و ٩ أشهر و ٢٨ يوما ، حكيم أوغلو على باشا للمرة الثانية (١٧٤٢/٤/٢١) سنة و ٥ أشهر ويومين و شين قره حصارلى سيد حسن

باشا (١٧٤٣/٩/٢٣) ستان و ١٠ أشهر ، ١٦ يوما ، ترياكى حاجى محمد باشا (١٧٤٦/٨/٩) سنة و ١٦ يوما و كركوكلى حسن باشا - زاده بوينو أكرى عبد الله باشا (١٧٤٧/٨/٢٤) ستان و ٤ أشهر و ١٠ أيام ، محمد أمين باشا (١٧٥٠/١/٣) ستان و ٥ أشهر ، ٢٩ يوما ، صوفو عبد الرحمن باشا - زاده باهر مصطفى باشا (١٧٥٢/٧/١) . توفى محمود الأول على عهد هذا . كان عمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٤ أشهر ، ١٢ يوما . العسكرى الكبير ورجل الدولة الممتاز بين هؤلاء الصدور الأعظم ، هو حكيم الوغلو على باشا . هو أعظم رئيس وزراء فى العصر ١٨ بعد نوشهرلى . أيضا كان طوبال أحمد باشا ، عسكرىا كبيرا .

٢٣) الحرب مع ألمانيا وروسيا (١٧٣٦ - ١٧٣٩) ، معاهدة بلغراد

سألت العلاقات مجددا مع روسيا . ساندت روسيا ، نادرشاه فى حرب العثمانية مع إيران . أزعج إستانبول ازدياد تدخلها فى شئون بولونيا على مر الأيام ، وإرسالها الجنود إلى بولونيا باستمرار ، وبهجوم مفاجئ غير متوقع ، استولى الروس على قلعة آزاك بعد حصار دام ٣٤ يوما (١٧٣٦/٥/٣) . استنادا على ذلك ، أعلن الباب العالى الحرب على روسيا (١٧٣٦/٦/١٦) . وبهجوم مفاجئ كذلك وبقيادة المارشال München الألمانى الأصل ، اجتاز الروس لأول مرة فى التاريخ اورقابو ودخلوا قرم وقاموا خلال شهر ، بتخريب كبير (١٧٣٦/٥/٢٨) . هزم فاتح كيراي الثانى الروس وأخرجهم من قرم ، وطاردهم إلى أعماق أوكرانيا وعاد إلى قرم مع مائة ألف أسير .

على أثر هزيمة الروس ، أعلنت ألمانيا حليفة روسيا التى خططت تقسيم بولونيا معها بصورة مشتركة ، الحرب على العثمانية (١٧٣٧/٧/١٢) . اجتاز الألمان الحدود العثمانية من ثلاث نقاط وبثلاثة جيوش مختلفة ودخلوا افلاق (رومانيا) وبوسنه وصربيا . سقطت نيش (١٧٣٧/٧/٢٧) . لكنهم هزموا أمام بككربك بوشنه - الصدر الأعظم السابق - فى المعركة الميدانية بانياقولو (١٧٣٧/٨/٤) . وفى جبهة صربيا ، استرجع كوبرولو - زاده أحمد باشا ، نيش (١٧٣٧/١٠/٢٠) . وفى المعركة الميدانية Vidin هزموا أمام الوزير عوض محمد باشا (١٧٣٧/٩/٩) ولم يكن حظ الألمان حسنا فى افلاق وبغدان كذلك ؛ حيث

هزموا في تلك المناطق واخرجوا ودفعوا إلى ماوراء الحدود . هزم الروس كذلك أمام آزاك . جاء الماريشال كونت Von Münich (١٦٨٣ - ١٧٦٧) مع ١٨٠.٠٠٠ جندي و ٩٠ مدفعا أمام القلعة التركية المهمة Özü (بالروسية : Oczakov) بجوار Odesa . وعند تسلم Münich القلعة بعد أن ضحى بـ ٣٠.٠٠٠ جندي روسي ، دهش عند مشاهدته ٧٠ جنديا بقوا على قيد الحياة من مجموع ٦٠٠٠ من جنود يحيى باشا وهنا الباشا على ذلك (Mür'ü't-Tevarih) ، ورق ٣٧٢ آ - ب) .

أدخل الألمان إلى بوسنة فقط ١٥٠.٠٠٠ جندي ، كانوا قد فقدوا في حرب بانيا لوكا Banyaluka الميدانية ٦٠.٠٠٠ جندي من مجموع ٨٠.٠٠٠ جندي الذين اشتركوا في المعركة ، وفقدوا في معركة Vidin الميدانية ٦٠٠٠ جندي . عند بدء الحرب مع روسيا ، كانت الدولة في حرب مع إيران . وعلى أثر دخول ألمانيا الحرب ، عقد الباب العالي الصلح مع إيران بصورة مستعجلة ، لتأمين جهه الشرق . لم تكن العثمانية تثق في نادر شاه . ولذلك فقد حاربت ثلاث امبراطوريات ، الايرانية ، الألمانية والروسية .

صعد عوض محمد باشا ، إلى الشمال واسترجع من الألمان فتح الإسلام ، آداقلعة وسمنديره . أما نعمان باشا فاسترجع من الروس قلعتي Özü وقيلبورنو . وهب الباب العالي السويد ١٥٠ مليون آقجه وحصل على وعد منها بفتح الحرب من الشمال ضد روسيا ، ولكن على أثر انضمام الدانمارك للجانب الروسي - الألماني ، لم تتمكن السويد من دخول الحرب واستمرت تركية لوحدها . كانت السويد تحت الباب العالي على سحق روسيا ، أما بروسية فكانت تحته على سحق ألمانيا (النمسا) وكلاهما تحشان الباب العالي بالقول ، دون أن تقدم أية مساعدة فعلية . أما انكلترا وهولندا وفرنسا فكانوا يغرون تركية بالصلح . أعلم ، يكن محمد باشا الديوان بأن الجيوش الألمانية سحقت في كافة الجبهات ، وأنه ليس هنالك أسهل من إستعادة تامشوار والمجر وطلب الأذن للهجوم على المجر . لكن الديوان الذي فقد القدرة على إصدار القرارات الصائبة ، لم يسمح بذلك .

سار عوض محمد باشا متجها نحو بلغراد . وصول حكيم أوغلو على باشا ، من بوسنة أعاد الحياة للجيش الهمايوني . بقي ٤٢٠٠٠ جندي ألماني الذين يغفون الدفاع

عن بلغراد ، في ساحة الحرب . طلبت ألمانيا الصلح (١٧٣٩/٨/١٣) ، وأعقبها روسيا في طلب الصلح . كانت العثمانية تحاصر بلغراد منذ ٢٦ تموز . دخل حكيم أوغلو إلى خرواتيا ودمر Kulpa و Una . بدأت أزمة سياسية في فيينا وقامت مظاهرات ضد الامبراطور . ولكن ، في الجبهة الروسية ، استولى الماريشال فون مونيخ على خوتين (١٧٣٩/٨/١٩) . ثم استولى على ياش مركز Bukovina وبلغدان . أوقف صاري أحمد باشا الروس عند نهر بروت . لم تكن هذه الانتصارات مفيدة للروس . لأن المفاوضات كانت قد تقدمت في هذه الأثناء وكان قد تم التفاهم على أسس المصالحة العثمانية - الروسية .

طلبت ألمانيا ، وساطة فرنسا وانكلترا وهولندا وإيران لعقد الصلح في غضون عام ١٧٣٩ ؛ ذلك أن ألمانيا كانت قد قطعت الأمل في بلغراد ، وأدركت أنها سوف لا تتمكن من الدفاع كذلك عن تامشوار إذا استمرت الحرب إلى السنة التالية . أجرى الوساطة الحقيقية ماركيز Villeneuve سفير فرنسا في إستانبول ؛ وبهذا تكون دبلوماسية لويس ١٥ قد وصلت الذروة في أوروبا . تولى المفاوضات الصدر الأعظم والسردار الأكرم حاجي عوض محمد باشا بنفسه . وقع في ١٨ أيلول ١٧٣٩ على معاهدة بلغراد المكونة من ٢٣ مادة مع ألمانيا ، ١٥ مادة مع روسيا . أخلت بلغراد في ٤ أيلول وسلمت إلى الأتراك . دام الاحتلال الألماني للمدينة مدة ٢٢ سنة ، و١٧ يوما . تنتقل سمنديره ، بوغوردلن (Czabacz) ، آدا قلعة إلى العثمانية وكذلك الأراضي التي أعطيت إلى ألمانيا في معاهدة باسا روفجة ١٧١٨ عدا بانات وتامشوار . تهدم قلعة آزاك وتعطى أراضيها إلى العثمانية ، ويتعهد الروس والعثمانيون كذلك بعدم انشاء قلعة فيها (كانت هذه هي عاقبة قلعة آزاك التي قال عنها السلطان محمد الفاتح « قلعة آزاك ، مفتاح إستانبول ») Mür'üt-Tevarih ورق ٣٧٩ ب - (٨ ب) . لاتبهر أية سفينة روسية في بحر آزاك والبحر الأسود . سيحافظ البحر على وضعه كبخيرة عثمانية . يخاطب الباب العالي ، بعد الآن ، الحاكم الروسي في المكاتبات بـ « امبراطور » أو « امبراطورة » (وهكذا تمت الموافقة بصورة رسمية على أن روسيا امبراطورية) . تعيد روسيا بشكل كامل خوتين وياش اللتين احتلتهما في الأونة الأخيرة . بدأت كافة الدول تعتبر وجود خوتين لدى العثمانية ، ضمانا لاستقلال بولونيا . أكرمت فرنسا بمنحها المزيد من الحقوق التجارية المسماة

Capitulation . طبقت جميع بنود المعاهدة ، إلا أن الباب العالى ظل مصرا لسنوات طويلة ، على عدم استعمال لقب « امبراطور وامبراطورة لحكام روسيا ، واعتبر فقط ، سفراء روسيا ، معادلين لبقية السفراء .

معاهدة بلغراد ، وثيقه تثبت أن العثمانية ، هى الدولة العالمية الأولى ، بشكل لايقبل الجدل ؛ حيث أنها حاربت امبراطوريات روسيا ، ألمانيا ، إيران ، انتصرت وحصلت على أراض . تمكنت تركية ، فى أوروبا ، من تأمين فترة سلم ورفاهية استمرت مدة ٢٨ سنة . أثبتت هذه الحرب كذلك ، أن روسيا ، اكتسبت قوة بعد بطرس الكبير وبإصلاحاته التى وضعها ، وأن قوتها العسكرية اقتربت من القوة العسكرية الألمانية .

(٢٤) الحرب مع إيران (١٧٣٠ - ١٧٤٦)

استمرت الحرب التى بدأت مع إيران ، على عهد أحمد الثالث ، إلى عهد محمود الأول كذلك . استرجع السردار (القائد) الوزير أحمد باشا بكرك (فريق) بغداد ، كرمشاه (١٧٣١/٧/٣٠) ، واسترجع همدان كذلك فى معركة كوريجان الميدانية بعد إفناء ثلاثة أرباع الجيش الصفوى المؤلف من ٤٠ . ٠٠٠ شخص (١٧٣٠/٩/١٦) ، أما السردار الوزير حكيم الوغلو على باشا فاحتل فى الجبهة الشمالية مدينة أورمية (١٧٣١/١٠/١١) واسترد مدينة تبريز (١٧٣١/١٢/٤) . وفى ١٠ ك ١٧٣٢ ، وقع أحمد باشا على معاهدة الصلح . أعيدت كامل إيران الغربية إلى إيران (بضمنها تبريز ، أذربيجان الجنوبية ، همدان ، كرمشاه ، لورستان ، اردلان ، خوزستان) . نهر آراس ، يحدد الحدود . أما روان التى كانت تعود فى السابق إلى الصفويين ، نهجوان ، شيروان ، أران أى أذربيجان الشمالية ، كرجستان الشرقية وداغستان فبقيت لدى العثمانية . ورغم تضحية تركية بإيران الغربية بغرض إمكان حفاظها على قفقاسيا الجنوبية وحلود بحر الخزر ؛ فإن ذلك لم يكن كافيا لتطمين نادر خان . دام الصلح سنة واحدة وبدأت الحرب بهجوم نادرخان فى ١٧٣٣ ؛ وبعد أن احتل أربيل ، جاء أمام بغداد (١٧٣٣/١/١٢) . كان أحمد باشا يدافع عن المدينة ، لكنه لم يكن بإمكانه الخروج من القلعة بسبب محاصرة الجيش الصفوى الكبير لها . عند قدوم الوزير طوبال أحمد باشا ، إلى بغداد مع ٨٠ . ٠٠٠ جندي ، كانت المدينة تحت الحصار منذ ٧ أشهر ، ٨ أيام . هزم عثمان باشا نادرخان ، أكبر عسكري فى القرن

١٨ في العالم أجمع والفتاح العالمي الأخير الذي أنجبه القوم التركي ، بشكل حاسم في الحرب الميدانية الكبرى التي أستمريت ٩ ساعات (١٧٣٣/٧/١٩) . جرح نادر ، قتل ٣٠ . ٠٠٠ من جنده ، ترك مدافعه وسراجه لى العثمانية وانسحب . تم الاحتفال بالنصر في إستانبول مدة ٣ أيام مع لياها ومنح السلطان محمود لقب « غازى » .

وفي السنة التالية ، اقتحم نادرشاه بصورة مفاجئة مقر عثمان باشا الصدر الأعظم السابق والباشا السردار المريض جدا الذى كان يقضى الشتاء فى كركوك وقتله شهيدا ودخل كركوك . أعلن نفسه شاها وأنهى بذلك السلالة الصفوية ، وهى من أكبر سلالات التاريخ ، وبدأت فى إيران سلالة آشار (١٧٣٦/١/٢٧) . انتصر على الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا الذى صار سردارا (قائدا) مكان عثمان باشا فى معركة باجاي وقتله شهيدا . استولى على روان ، كنج ، قفليس . واسترجع كافة الاقطار التى حصلت عليها العثمانية منذ ١٧٢٣ . وفى وضعه هذا المتمكن ، طلب الصلح . كان يعلم بأن العثمانية ستقبل الصلح ، لأنها دخلت فى حرب مع ألمانيا وروسيا ، وكان هو (نادرشاه) قد قرر فتح الهند . وافق الطرفان على أسس معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩ ووقعت معاهدة إستانبول (١٧٣٦/١٠/١٧) . لم تحصل العثمانية التى سالت دماؤها مدة ١٣ سنة ، من إيران على شىء . كان نادرشاه التركمانى الخالص الدم والمصطبغ بالصبغة الإيرانية ، كما هو الحال فى شاهات الصفويين الآخرين ، سنيا - حنفيا فى الباطن . أراد إعلان المذهب بصورة رسمية ، إلا أنه خشى من ظهور الاضطرابات . وبناء على ذلك ، أدخل المرونة على مذاهب الإثنى عشرية المفرط للشاه إسماعيل وأعلن مذهب الجعفرية الأكثر اعتدالا ، وأصبح هذا المذهب هو مذهب الشيعة الرسمى والذى هو مذهب إيران منذ ذلك التاريخ وحتى الآن . راجع الخاقان العثماني ، (الذى هو الخليفة) ، لفرض الاعتراف بالجعفرية مذهبا شرعيا خامسا ، أحال السلطان محمود الموضوع إلى هيئة العلماء برئاسة شيخ الإسلام ، حيث إن الخليفة لا يصدر الفتاوى شخصيا ، رفض المجلس بالاجماع الاعتراف بالمذهب الجعفرى كمذهب خامس . لكنه سمح للشيعة بالذهاب إلى الحج فى الأراضى العثمانية ، وزيارة المدن المقدسة فى العراق بحرية كما كان الحال سابقا . كانت هنالك فى النجف ، مدرسة شيعية عالية . وكانت الإدارة العثمانية تتغاضى عن تدريسها العلوم الدينية على الأصول الشيعية ، منذ القدم .

دام الصلح مع إيران مدة ٦ سنوات و ٧ أشهر و ١٣ يوما . بدأ مجددا في ٢٩ أيار ١٧٤٣ ، وفي هذه المرة استمر لمدة ٣ سنوات و ٣ أشهر و ٦ أيام . أنزل نادر خلال هذه المدة ، ضربة كبرى ببني تيمور الهند ، وصار سببا لأحد التحولات التاريخية المضرة جدا بالتاريخين التركي والإسلامي . وبهذه الضربة تقوضت سلطة بني تيمور - الفريدة في نوعها - في القارة الهندية وتبعثرت . بدأ الهندوس في الاعتراض على الحكم الإسلامي الذي استمر عصورا طويلة . تشكلت دولا عديدة واعترفت اسما فقط ، بيادشاه دلهي . وأصبحت الهند ، عرضة لتدخل وإستيلاء خارجي . تراجعت الدولة التيمورية عن وضعها كقوة عالمية ثانية ، واستولت إيران مرة أخرى على هذه الأماكن .

(كانت المدن الموجودة في القارة الآسيوية كبيرة ومزدحمة جدا نسبيا ولم نذكرها هنا بسبب عدم توافر المعلومات التي يمكن أن تكون أساسا لتقدير عدد نفوس كل منها) :

تركية العثمانية ، كانت لاتزال الدولة الأولى في العالم : المساحة ١٥٥٣٨٠٠٠ كم^٢ والنفوس ٧٦ ١٥٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٤٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٥٨٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٢٥ ٠٠٠ ، تونس ١١٥٠٠٠ ، اسكندرية ٩٣٠٠٠) . لم تعد الإمبراطوريات الآسيوية ، تأتي بعد تركية من حيث القدرة والأهمية ، كما كانت قبل فترة وجيزة ، وإنما تأتي دولتان أوربيتان هما أولا فرنسا ، ثم بريطانيا العظمى (مع كافة مستعمراتها) :

الملكية الفرنسية ٥٣٩٦ ٢٦٢ كم^٢ و ٢٢ ٦٥٣ ٠٠٠ نسمة (باريس ٦٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٣ ٠٠٠ ، مارسيليا ١٠١ ٠٠٠ ، نانتي ٩٩٠٠٠ ، بوردو ٩٤٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٧١٦٢٩ كم^٢ و ١٢٩٨٥ ٠٠٠ نسمة (لندن ٨٠٠ ٠٠٠) .

بعد ذلك يمكن ذكر إمبراطوريتي الصين وإيران بالتسلسل . كانت إيران قبل عدة سنوات ، الدولة الثانية ولكنها فقدت وضعها هذا بعد وفاة نادر مباشرة : الصين ١٠٧٩٧٨٠٤ كم^٢ ، ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، إيران ١٧٥١٧٩١ كم^٢ ، ١٦٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت مساحة الامبراطورية الألمانية ٨٣٤٠٠٩ كم^٢ ونفوسها ٢٦٣٤٤ ٠٠٠ (فيينا ١٦٠ ٠٠٠ ، ميلانو ١٣٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ١١٠ ٠٠٠) . ثم تأتى بعد ذلك الإمبراطورية التيمورية الهندية : ٣ ١٠٣ ٢٤٣ كم^٢ ، ١٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت ملكية أسبانيا فى دور الانحطاط ١٥٠٩٨٤٥٥ كم^٢ ، ٣٢٤٢٧٠٠٠ نسمة (نابولى ٣١٠٠٠٠ ، المكسيك ١٠٤٠٠٠ ، مدريد ١٠٢٠٠٠ ، باليرمو ٩٥٠٠٠) . الإمبراطورية الروسية ١٦ ٥١٧ ١٨٥ كم^٢ ، ١٥٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (موسكو ١٢٠ ٠٠٠ ، بطرسبورغ ١٠٠ ٠٠٠) . ومن ثم يمكن ذكر الإمبراطورية الأفغانية لأحمد شاه درانى الكبير (١٧٤٧ - ١٧٧٣) التى اتبعت طريق نادر فى ضرب الإمبراطورية الهندية : ١٦٥٢٠٤٢ كم^٢ ، ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت ملكية بولونيا التى هى فى دور الانحطاط ٧٩٠ ٤٠٠ كم^٢ ، ١٥٦٠٠ ٠٠٠ نسمة . ملكية بروسيا ١٢١ ٢٢٤ كم^٢ ، ٢٤٠٠ ٠٠٠ نسمة (برلين ١٠٥٠٠٠) كانت بروسيا قد دخلت حديثا فى عداد الدول الكبرى بفضل فريدريك الكبير (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . جمهورية هولندا ١٠٢١ ٢٧٤ كم^٢ ، ٧٩٥٠ ٠٠٠ نسمة . وقد خرجت فى ١٧١٣ من عداد الدول الكبرى (امستردام ٢٠٠ ٠٠٠) . ورغم أن ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم^٢ و ٣ ٤٥٠ ٠٠٠ نسمة ، فإنه يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى .

امبراطورية فاس لامماعيل الكبير (١٦٧٢ - ١٧٢٧) كذلك يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى بعد وفاته (نفوس فاس مع أقطار الزنوج) : ٣٥٠١٦٩٩ كم^٢ ٨٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (فاس ٢١٠ ٠٠٠ ، مكناس ٩٢٠٠٠ ، مراكش ٩٠ ٠٠٠) . ولم تكن جمهورية البندقية كذلك فى عداد الدول الكبرى فى ١٧١٥ : ٥١٠٤٠ كم^٢ و ٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (البندقية ١٧٠ ٠٠٠) .

مجموع مساحة الخانات التركية فى تركستان ٥٥١٢٨٠٠ كم^٢ وتحوى على ١١٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ، كانت الإمبراطورية اليابانية ٣٧٣٥١٠ كم^٢ و ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

ومن بين الدول الأوروبية الأخرى : ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم^٢ و ٦٦٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونة ٢٥٠ ٠٠٠) ، ملكية الدانمارك ٢٥٨ ٩٥٧ كم^٢ و ١ ٧٦٠ ٠٠٠ نسمة ، الملكية العظمى لتوسكانا ٤٨٩ ٢١ كم^٢ و ١٠٥٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية السويد ٤٠٠٣١ كم^٢ و ١٨٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت أفريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم^٢ و ٣٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة وأمريكا الشمالية ١٠٥٤٨ ٣٠٢ كم^٢ و ٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ مجهولة تماما من قبل البيض .

كانت توزيع الإمبراطورية العثمانية على القارات بصورة تقريبية كما يلي : في أوروبا ١١٢٨٠٠٠ كم^٢ و ٢٣٨٠٠ ٠٠٠ نسمة ، في آسيا ٣ ٩٤٠ ٠٠٠ كم^٢ و ٢٦ ٥٥٠ ٠٠٠ نسمة ، أفريقيا ١٠٤٧٠ ٠٠٠ كم^٢ و ٢٥٨٠٠ ٠٠٠ نسمة (٣٠٤٠ ٠٠٠ كم^٢ و ٧٠٠٠ ٠٠٠ نسمة منها ، ملكية بورنو الزنجية المسلمة التابعة إلى البادشاه نظرياً) .

ويمكن تقدير نفوس العالم في ١٧٠٠ بـ ٦٨٤١٠٤٠٠٠ نسمة وفي ١٧٥٠ بـ ٧٠٠٣٩٩ ٠٠٠ نسمة ، (ليست هناك زيادة مهمة) . وتوزيع النفوس على القارات في ١٧٠٠ و ١٧٥٠ هو كما يلي : زادت نفوس آسيا من ٤٥٤٩٠٠٠٠ - ٤٤٧٠٨٠٠٠٠ ، أوروبا من ١٣٤٤١٢٠٠٠ - ١٥٢٣٤٨٠٠٠ أفريقيا من ٧١١١٩٠٠٠ - ٧٥٠٥٥٠٠٠ ، أمريكا الشمالية من ١٠٨٢٣٠٠٠ - ١١٧٢٦٠٠٠ ، أمريكا الجنوبية من ١٠٦١٠٠٠٠ - ١١١٣٠٠٠٠ ، أوقيانيا من ٣١٤٠٠٠٠ - ٣١٤٠٠٠٠ .

(٢٦) دور السلطان عثمان خان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧)

جلس مكان محمود الأول ، أخوه الصغير عثمان الثالث لمدة سنتين و ٥ أشهر . أبوه ، مصطفى الثاني ، أمه السلطنة - والده شهسوار (١٦٨٢؟ - ١٧٥٦/٤/٢٧) . كان وليا للعهد خلال مدة سلطنة أخيه الكبير التي دامت ٢٤ سنة ، شهرين ، ١١ يوما (١٧٣٠/١٠/٢ - ١٧٥٤/١٢/١٣) . رئيس أساتذته هو القضاة فاضل الله - زاده ابراهيم أفندي . كانت لديه ٤ زوجات ، ولكنه كأخيه الكبير محمود الأول ، لم يرزق بأولاد . لذا فإن السلالة ، لم تستمر من مصطفى الثاني ، بل استمرت من أبنى أخيه أحمد الثالث . إن مدة سلطنة السلطان

عثمان الذى دُفن فى مقبرة بنى جامع جوار أخيه الكبير ، عبارة عن سنتين ، شهر ، ١٨ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٢٨ يوما . جلس على العرش وعمره ٥٦ عاما ، وهو أكبر السلاطين الذين جلسوا على العرش عمرا إلى ذلك التاريخ .

عثمان الثالث ، من الحكام العثمانيين القليلي الذكر جدا ، وتوجد إمارات تدل على ضعف نصيبه من الخلق العالى . عنيد جدا . صعب المراس ، عصبي ، متردد . لم يتعايش أبدا مع أى صدر أعظم . كان كومه بدر مصطفى باشا ، صدرا أعظم عند جلوسه على العرش ، وهو ابن الوزير جورلولو صوفو عبد الرحمن باشا . ظل فى مقامه هذا مدة سنتين ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . تصدر حكيم أوغلو على باشا للمرة الثالثة (١٧٥٥/٢/١٥) . لم ينسجم مع البادشاه وعزل بعد ٣ أشهر ويوم بعد نقاش حاد (١٧٥٥/٥/١٨) . مجموع صداراته الثلاث ٥ سنوات ، ٤ أيام . الذى تصدر مكانه ، هو نائلى عبد الله باشا من الرجال المدنيين ، عالم ومن وزراء المالية . عزل بعد ٣ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٥/٨/٢٤) . أما الرجل الشاب يبقلى على باشا فاعدم بعد ٢ شهرين ويومين (١٧٥٥/١٠/٢٥) . عزل يرمى سكينز جلبى - زاده محمد سعيد باشا بعد أن شغل السلطة مدة ٥ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٦/٤/١) . كان رجلا جيدا ، تواجد فى شبابه فى باريس عندما كان أبوه يرمى سكينز جلبى محمد أفندى سفيرا فيها ، له الفضل فى افتتاح أول مطبعة وطنية ، مؤلف كتب تركية وفارسية . توفى فى ١٧٦١ . أصبح باهر مصطفى باشا صدرا أعظم للمرة الثانية لمدة ٩ أشهر ، ١٠ أيام . واحتل مكانه قوجا محمد راغب باشا (١٧٥٧/١/١١) . دبلوماسى ممتاز جدا عمره ٥٨ عاما ، رجل دولة كبير وشاعر ممتاز . أحسن صدر أعظم فى القرن ١٨ بعد نوشهرلى إبراهيم باشا وحكيم أوغلو باشا .

(٢٧) دور السلطان مصطفى خان الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤)

كان ولى عهد عثمان الثالث ، وابن عمه الذى يصغره بـ ١٨ عاما ، هو السلطان محمد . توفى وفاة عثمان الثالث بـ ٣٩ يوما فقط عن عمر يناهز الـ ٤٠ عاما . كان شهزاده (أمير) نشأ نشأة حسنة ، وفاته أحدثت تأثيرا كبيرا . دُفن فى بنى جامع جوار أبيه أحمد الثالث . كان أخوه السلطان مصطفى الذى يصغره بـ ١٧ يوما

فقط ، ولى عهد وأصبح بعد ٣٩ يوما بادشاها على أثر وفاة ابن عمه عثمان الثالث .
وارتقى أخوه السلطان بيازيد الذى يصغره بستين إلى منصب ولى عهد .

مصطفى الثالث ، هو ابن أحمد الثالث . أمه أمينة مهرشاه قادين أفندى
(زوجة السلطان) الثانية (٩١٦٩٣ - ١٧٣٢) ، كانت قد توفيت منذ سنين ،
وهى والدة الشهبادة سليمان بن أحمد الثالث الكبير ووالدة ولى عهد - شهبادة
بيازيد كذلك . دامت سلطنة السلطان مصطفى الذى جلس على العرش وعمره
٤٠ عاما ، مدة تقل عن ١٧ سنة بـ ٨ أيام وتوفى وعمره يزيد على ٥٧ عاما بـ
٤ أيام ، دفن فى قبره الكائن فى جامع لاله لى الذى شيده هو . سُمى « غازى »
منذ ١٧٦٩ . شاعر وخطاط . سليم الثالث ، هو ابن مصطفى الثالث . ولعدم إنجاب
سليم الثالث ، استمرت السلالة من عبد الحميد الأول ، أخ مصطفى الثالث وخلفه .
والشهبادة محمد ، الابن الآخر لمصطفى الثالث ، توفى قبل بلوغه سن السادسة
(١٧٦٧/١/١٠ - ١٧٧٢/١٠/١٢) . توفيت بناته الخمس قبل بلوغهن سن الـ
٤ ، توفيت السلطنة مهرشاه فى السادسة من عمرها (١٧٦٣/١/٩ -
١٧٦٩/٢/٢١) ، أما بناته الـ ٣ اللواتى عشن فهن : (١) السلطنة شاه
(١٧٦١/٤/٢١ - ١٨٠٣/٣/١١) ، جرى عقد قرانها للصدر الأعظم
ياغلقجى - زاده حاجى محمد أمين باشا (١٧٢٣ - ١٧٦٩/١ ك) لكنها لم تزف ،
ثم تزوجت بالوزير داماد نيشانجى سيد مصطفى باشا (وفاته ١٨١٣) وأنجبت
٣ بنات . (٢) السلطنة بيخان (١٧٦٦/١/١٣ - ١٨٢٤/١١/٧) ، تزوجت
بالوزير داماد سلاحدار بریشان جليك مصطفى باشا (١٧٤٨ - ١٧٩٨)
وخلفت بنتا واحدة . (٣) السلطنة خديجة (١٧٦٨/٦/١٣ - ١٨٢٢/٧/١٧) ،
تزوجت بالوزير داماد سيد أحمد باشا (١٧٤٧ - ١٧٩٩) ، ابن داماد سليمان
باشا وأبى داماد علاء الدين باشا .

منحت آخر اكرامية جلوس ، عند جلوس مصطفى الثالث فى ١٧٥٧ ثم تركت
هذه العادة بعد ذلك التاريخ . كان مصطفى الثالث ، مجددا وكذلك مشجعا للحركة
العمرائية . قام بإصلاحاته الجديدة بعناية ودون إثارة تشكيلات القابو قولو التى
يكرهها . لكن هذه الاصلاحات لم تكن كافية وظلت قاصرة . فكر فى فتح قناة
السويس . أسس بدلا من المدرسة التى تخرج المهندسين والمسماة « مهندسخانه

همايون « التي كانت قد أسست فيما مضى ، مدرستي « مهندسخانه برى همايون ومهندسخانه بحرى همايون « أى مدرسة الهندسة البرية الهمايونية ومدرسة الهندسة البحرية الهمايونية . الأولى ، جامعة إستانبول التكنولوجية الحالية ، والثانية المدرسة الحربية البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج ضباط الاستحكام والمدفعية والبحرية وتم تدريب ضباط الخيالة والمشاة الذين يشكلون نواة الجيش ، فى معسكرات الجيش . ولخشيتته من الانكشارية ؛ لم يتمكن من المساس بصنف المشاة . كان هماما ووطنيا . حدث على زمانه زلزال إستانبول الكبير فى ٢٢ أيار ١٧٦٦ . أعاد إنشاء جامعى أيوب سلطان وفاتح اللذين هدمتا فى الزلزال .

كان ، الصدر الأعظم ، عند جلوسه راغب باشا . توفى بعد صدارة دامت ٩ سنوات و شهرين و ٢٨ يوما (١٧٦٣/٤/٨) . كان فى سن ال ٦٤ . لم يملأ الفراغ الذى حدث بوفاته . كانت حرب السنوات السبع فى أوروبا قد انتهت فى عام وفاة راغب باشا ، اسقطت انكلترا ، فرنسا إلى الدرجة الثانية وأصبحت أقدر دولة مسيحية ، أثبتت ملكية بروسيا الصغيرة ، أنها قوة عسكرية لا يستهان بها . وبناء عليه ، فإن ميزان قوى الدول فى أوروبا كان قد تبدل . لم يدخل راغب باشا الحرب ، رغم مساندته بروسيا والملك فردريك تجاه روسيا . عاشت تركية عهد استقرار ورفاهية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تشتعل بنار الحرب . لم يكن بالامكان إيجاد حل لضعف بولونيا ، وبالرغم من مساندة العثمانية وفرنسا لها ، فإنها بقيت تحت تهديد ضغوط كل من روسيا ، ألمانيا (النمسا) وبروسيا .

جاء مكان راغب باشا ، نيشانجى حمزه حامد باشا لمدة ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، ثم تصدر باهر مصطفى باشا للمرة الثالثة (١٧٦٣/١١/١ - ١٧٦٥/٣/٢٨) . عزل بعد سنة و ٤ أشهر و ٢٧ يوما واعدم بعد ٢٧ يوما . مجموع صداراته الثلاث ٤ سنوات و ٩ أشهر و ٢١ يوما . احتل مكانه داماد محسن - زاده محمد باشا ، رجل الدولة القدير وابن الصدر الأعظم محسن - زاده عبد الله باشا ، عزل بعد ٣ سنوات و ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٧٦٨/٨/٧) . لم يتمكن سلاحدار حمزه ماهر باشا البالغ سنه ٤٠ عاما ، من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين و ١٤ يوما . بدأت على عهده حرب كبيرة جدا مع روسيا .

صار ، ياغلقي - زاده داماد نيشانجي حاجي محمد أمين باشا ، البالغ سنه ٤٥
عاما ، صدرا أعظم (١٧٦٨/١٠/٢٠) . عزل بعد ٩ أشهر و ٢٣ يوما
(١٧٦٩/٨/١٢) . قطع رأسه بعد مدة وجيزة . لم يتمكن قاسطامونيلي
مولدوفاجي على باشا ، من البقاء في الصدارة أكثر من ٤ أشهر و يوم . شغل
عوض - زاده خليل باشا ابن عوض محمد باشا ، من الصدور الأعظم السابقين ،
منصب الصدارة لمدة ١٠ أشهر و ١٤ يوما (١٧٦٩/١٢/١٢) -
(١٧٧٠/١٠/٢٥) . أما داماد سلاحدار محمد باشا ، فظل في السلطة مدة سنة ،
شهر و ١٧ يوما . أصبح محسن - زاده صدرا أعظم للمرة الثانية
(١٧٧١/١٢/١١) . ومجموع صدارتيه الاثنتين بفاصل ثلاث سنوات ونصف ؛
٦ سنوات ، ٤ أيام . توفي على عهده مصطفى الثالث وجلس عبد الحميد الأول .



البحث السابع

دور الإنجليز (١٧٦٨ - ١٨٢٦)

كهر الانحطاط

(١٧٦٨ - ١٨٢٦)

(١) الحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)

بدأت الحرب الروسية - العثمانية الكبرى ، بسبب إدخال روسيا الجنود إلى بولونيا ، رغم مذكرات الاحتجاج العديدة التي أرسلها الباب العالي . أعلنت الحرب على روسيا التي أخذت تطارد الوطنيين البولنديين حتى داخل الأراضي العثمانية (١٧٦٨/١٠/٨) . مر على مصالحة بلغراد ٢٨ سنة و ١٠ أشهر و ١٩ يوما . مرت على تركية فترة صلح غير اعتيادية ، ولعدم دخول الجنود الحرب ، نسوا حتى كيفية القتال . أما الجيش الروسى ، فقد جهزته الإمبراطورة كاترينا الثانية بشكل جيد على الطراز البروسى . حتى ذلك التاريخ . لم تكن دولة أوروبية بمفردها قد استطاعت أن تنتصر على العثمانية .

بدأ القتال بصورة فعلية بهجوم شتائى مفاجئ قام به خان قرم كيراي مع جيشه البالغ ١٠٠ . ٠٠٠ خيال (١٧٦٩/١/٣١) على اوكرانيا وقلبها رأسا على عقب وعاد مع مئات الألوف من الأسرى . أما الصدر الأعظم والسردار الأكرم ياغلحقى - زاده محمد أمين باشا ، فسار من إستانبول (١٧٦٩/٤/٣) ووصل Isakel (١ أيار) على الطونة في شمال Dobruca وظل فيها ٢٥ يوما . وخلال قضاء الصدر الأعظم وقته مع الجيش الهمايونى في دوبروجه ، بدأ القتال في خوتين على نطاق واسع .

خوتين ، باب بولونيا ، تقع على نهر دنيستر وعلى نقطة عرض ٤٨ ٣٠ . لا يمكن دخول الروس إلى بولونيا ورومانيا ، دون إسقاط هذه القلعة ، إلا أن يكون ذلك استيلاء مؤقتا . أما القلعة العثمانية القديمة كامانيجه (Kamenec Podolsk) الواقعة في الضفة المقابلة من دنيستر ، فهي الآن بيد الروس ، وترى خوتين على الضفة المقابلة ، وكانت مدينة جرنوفيج الواقعة على مقربة من جنوب - غرب خوتين ، لدى العثمانية . ولأهميتها الاستراتيجية هذه ، اجتاز الأمير Galitsin مع ٦٥٠٠٠ جندي في ٢٦ نيسان (١٧٦٩) ، دنيستر ودخل الأراضي العثمانية ، وبعد ٤ أيام وصل أمام خوتين . ولكن الجيش العثماني الذي خرج في اليوم الأول من أيار ، شتت الجيش الروسى . لم يتمكن الأمير من لم جيشه وتنظيمه قبل مضى ٣ أشهر و ١٢ يوما ، ثم جاء ثانية أمام خوتين . خرج آخيسكالى حسن باشا من القلعة وهزم الجيش الروسى مرة أخرى (١٢ آب) . لكن الجيش التركى الذى كان تحت إمرة قادة لايفقهون العسكرية ولم يسبق أن دخلوا الحرب ، كان فى حيرة من أمره . تركت حامية خوتين - التى استاءت من سحب الصدر الأعظم الجيش إلى اساكجى لغرض قضاء الشتاء - القلعة وتبعت الجيش . عندما دخل الأمير Galitsin في ٢١ أيلول إلى القلعة شاهد بدهشة ، عدم بقاء جندي تركى واحد ، ووجود ٣٠٠ مدفع وبجواره عتاد ضخمة ترك على حاله . وهكذا ، انقلبت الحرب التى بدأت بانتصار الأتراك ، إلى سقوط خوتين فى خريف عام ١٧٦٩ ، بيد الروس . دخل الروس إلى قفقاسيا كذلك واستولوا على بعض الأراضي التابعة للعثمانية .

كان الأسطول الروسى فى بحر البلطيق ، بسبب كون البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة . فى عام ١٧٦٨ ، أبحر الأسطول الروسى من Kronstadt المركز البحرى له فى خليج فنلنده متوجها إلى المحيط الأطلسى ، واجتازه إلى البحر الأبيض . أخبر السفير الفرنسى الكونت - Saint Priest ، الباب العالى ، بتحرك الأسطول الروسى إلى البحر الأبيض . لكن أحدا من الوزراء ، لم يصدق إمكان اجتياز أسطول العدو لتلك البحار ووصوله إلى المياه العثمانية . (كان بعض الوزراء لا يصدقون وجود أسطول روسى بالمعنى الصحيح) . كان أغلب قادة الجيش الروسى جنرالات ألمان ويحوى أسطولهم على أميرات وضباط انكليز . كان على رأس الأسطول - فى الظاهر - أحد عشاق الإمبراطورة Kont Aleksey Orlov ، لكن قيادة الأسطول الروسى ،

كانت في الحقيقة ملقاة على عاتق الأميرال الأسكتلندي Elphiston ومعاونيه الضابطان الإنكليزيين Dugdale, Gregg .

أنزل الأسطول المكون من ٢٤ سفينة حربية وسفن عديدة مساعدة أخرى ، جنودا في مورا وأدى ذلك إلى تمرد الروم . جاء محسن - زاده محمد باشا إلى مورا وقذف الروس إلى البحر وقتل ٧٠ ٠٠٠ من الروم العصاة الذين تجمعوا في تريبوليجه وسفكوا الدم العثماني في مورا (١٧٧٠/٤/٩) . دخل الروس إلى بحر إيجه لتعويض اندحارهم في مورا .

تقابل الأسطولان العثماني والروسي في شمال ساقيز ، غرقت سفينة من كل منهما . انسحب Elphiston من مجال القتال على أثر مشاهدته غرق سفينة الأميرال Spiridov وغرق ٧٠٠ روسي وإنقاذ الكونت Fedor من البحر بصعوبة (صباح ٦ تموز ١٧٧٠) . كان القتال قد استمر مدة ٤ ساعات . القبطان دربا (مشير البحر ، قائد القوات البحرية) ، كان قانعا بانسحاب الروس . رست السفن بصورة متقاربة ودون احتياط . اقتربت إلى الميناء ليلا سفينتان صغيرتان من السفن المساعدة الروسية التي يقودها Dugdale . أراد العثمانيون في البداية اغراقهما . انتظروا اقترابهما بعد أن قررتا انهما قادمتان لغرض اللجوء . وكانتا في الحقيقة سفينتي احراق (بالفرنسية : brulot) . كانت فكرة جريئة لـ Elphiston . أشعلت قنابل الحريق التي أطلقتها السفينتان ، شراعات السفن التركية الشراعية وانتقل الحريق إلى السفن الأخرى التي رست جنبا إلى جنب ، ثم انفجرت المعدات الموجودة بالسفن . احترق الأسطول العثماني برمته ، عدا سفينتين . دخل القستون ، ميناء جشمه وقصفه . نجا أكثرية أفراد البحرية العثمانية بقفزهم إلى البحر في بداية الحريق . أحدثت غارة جشمه هذه (ليلة ٧/٦ تموز ١٧٧٠) صدى عظيما في أوروبا ، وزادت من اعتبار روسيا . حاصر الروس ميناء Mondros في جزيرة ليمنى مدة شهرين . أجبر جزائري حسن باشا-الذي سار إلى الروس بـ ٢٣ قطعة بحرية - أسطول العدو على التراجع . منح رتبة القبطان دربا وبصورة رسمية لقب « غازي » .

احتل الكونت Romanzov قسماً كبيراً من بغداد (Moldavya) بواسطة ٣٠ ٠٠٠ جندي . أما الكونت Panin فبدأ بحصار قلعة Bender بواسطة ٦٠ ٠٠٠

جندى . كانت بندر قلعة عثمانية مهمة في Besarabya على الساحل الجنوبي من Dnyestr (بالتركية تورلا) ، قرب مدينة كيشنيف Kisnev . انهزم الصدر الأعظم والسردار الأكرم عوض - زاده خليل باشا ، أمام رومانزوف في موقع كارتال (بالرومانية : Kagul) قرب ايساكجى (١٧٧٠/٨/١) . ذبح بالسيف ٥٠.٠٠٠ جندى عثمانى الذين طورحوا بعد تركهم القتال وهروبهم . وبذلك ، سقطت Bender (١٧٧٠/٩/٢٧) . ذبح الروس الذين تكبدوا خسائر كبيرة في بندر ، كافة المسلمين بالسيف . الآباء الأتراك الذين قتلوا بأيديهم نساءهم وأولادهم بالخنجر ، رموا بأنفسهم بين صفوف الروس ليستشهدوا .

وعلى هذا ، كانت روسيا هي المنتصرة في الحرب في بداية خريف عام ١٧٧٠ . وهذه ، نقطة تحول في التاريخ ، فلأول مرة في التاريخ تغلب دولة اوروية لوحدها في حرب شاملة ، الدولة العثمانية . إن تركية التي كانت حتى هذا التاريخ ، الدولة الأولى في العالم ، سقطت من حيث القدرة إلى الدرجة الرابعة بعد انكلترا ، فرنسا ، روسيا بالتسلسل .

بدأ الأمير Dolgoruki مع ٩٠.٠٠٠ جندى بمحاصرة أورقابو (بالروسية : Perekop) وهي مدخل لقرم واحتلها بعد محاولات دامت ٣ أشهر (١٧٧١/٦/٢٤) . وعدت الإمبراطورة ، خان قرم سليم كيراي الثالث ، بأنها ستعترف بقرم ، دولة مستقلة ، في حالة انفصاله عن العثمانية . فرق هذا الوعد القرميين إلى فريقين ؛ فريق يريد الاستمرار في القتال ولا يريد الانفصال ، وفريق سيطرت عليه رغبة تكوين دولة مستقلة ، يريد عقد صلح مع الروس ، والانفصال عن العثمانية .

كان جيش قرم المكون من ٨٠.٠٠٠ خيال ، جيش قرون وسطى ، لا يمكنه دخول حرب جديدة دون مساندة المدفعية والوحدات الفنية الأخرى للجيش العثماني ، وكان هذا الجيش مفيدا فقط كوحدات للصاعقة . تخلى عن العرش ، سليم كيراي الذى لا يرغب في الدفاع عن قرم منقسمة إلى شطرين ، وجاء إلى إستانبول . ذهب ابنه إلى بطرسبورغ ، لفرض التفاوض مع الإمبراطورة حول استقلال قرم المزعوم . لم يحارب الجيش القرمي وحارب الوحدات العثمانية الموجودة في قرم فقط ، واستسلموا مع قائدهم القرمي الونير سلاحدار إبراهيم باشا (١٧٧١/٧/٣) . استولى

الأمير Dolgoruki على كامل الجزيرة . وبذلك انتهى حكم العثمانية الفعلي في قرم بعد ٢٩٦ عاما . اتضح بشكل مؤكد ، أن روسيا انتصرت في الحرب بشكل حاسم وأن الدولة العثمانية ، ليست هي الدولة العالمية الأولى ، حققت روسيا حلمها القديم ، وهبطت إلى البحر الأسود بشكل واسع . لم يعد البحر الأسود بعد الآن بحيرة عثمانية . بدأ استيلاء روسي مفرج على الجزيرة التي تضم مليوناً ونصف مليون تركي .

وخلال عام ١٧٧١ استولى الروس على بغداد (مولدافيا) ثم على أفلاق (رومانيا) كذلك . ورغم أن الجنرال Essen أراد عبور الطونة نحو الجنوب بجيشه البالغ ٢٠٠ ٠٠٠ ، فإنه عدل عن ذلك عند تكبده الخسائر (١٧٧١/٩/١٢) . أراد الصدر الأعظم محسن - زاده محمد باشا ، استرجاع بخارست . انهزم في Dumbovitza أمام الجيش الروسي البالغ عدده ٣٠ ٠٠٠ جندي (١٧٧١/١٠/٣٠) . استولى الروس الذين طفروا إلى جنوب دلتا الطونة ، على تولجا ، وعلى أثر اقتراحهم من باباداغى ، سحب القائد محسن - زاده مقره الموجود فيها ونقله إلى حاجى أوغلو بازارى ، في شمال فارنا . (وعند مجيئه إلى شومنو ، لقضاء الشتاء ، علم بإعادة تعيينه صدرا أعظم) . إزاء ذلك لم يتمكن الروس من إسقاط القلاع التركية الموجودة في اوديسا وجوارها الكائنة على البحر الأسود ، وانسحبوا بعد تكبدهم الخسائر .

خارت أنفاس الروس الذين حققوا فتوحات كبيرة . لم يقوموا بأية حركات مهمة خلال عام ١٧٧٢ . أنفقت كاترينا الثانية ، كامل خزينتها الاحتياطية في الحرب كما فعل مصطفى الثالث . كانت فرنسا وألمانيا (أوستريا) تتبعان سياسة خارجية موالية للعثمانية بسبب قلقهما من التوسع الروسي ، وخشيتهما بوجه خاص من ابتلاع روسيا لبولونيا . أما بروسيا وانكلترا فكانتا تتبعان سياسة موالية لروسيا . ولكنهم كانوا جميعا يذبلون جهدهم للابتعاد عن نار الحرب . جرت مفاوضات صلح ، لكنها لم تصل إلى نتيجة ، إزاء طلبات الروس المفرطة .

أظهرت الحركات الفاشلة التي قام بها الروس في عام ١٧٧٣ أنهم قد استنفدوا قدرة الهجوم ، فمثلا ، فشل الجنرال Unger أثناء غزمه على استيلاء فارنا (١٧٧٣/١٠/٢٠) . عقد مؤتمر صلح في قصبة كوجوك قاينارجه قرب الطونة في ربيع عام ١٧٧٤ . كان الأمير Renin والمارشال Romanzov ممثلين عن روسيا

وكشخدا الصدارة (وزير الداخلية) الدبلوماسى الشهير رسمى أحمد أفندى ورئيس الكتاب (وزير الخارجية) الدبلوماسى المعروف كذلك منيب أفندى ممثلين عن العثمانية .

(٢) معاهدة قايينارجه (١٧٧٤/٧/٢١)

يومان من المفاوضات ، كانا كافيين للاتفاق على أسس المعاهدة . ورغم أن الممثلين العثمانيين وقصوا على المعاهدة فى ١٧ تموز ، فقد أصر الأمير Renin التوقيع مدة ٤ أيام ووقعها فى ٢١ تموز ، هو يوم ذكرى عزنة لروسيا ، يوم الذكرى ال ٦٣ لمعاهدة Prut .

احكام المعاهدة المكونة من ٢٨ مادة ومادتين إضافيتين ، كالتالى :

تنفصل خانية قرم ، عن العثمانية ، وتكون دولة مستقلة . روسيا تعترف بصورة رسمية بالخاقان العثمانى خليفة لكافة المسلمين . وبناء على ذلك ، فان تبعية خان قرم للخاقان من الناحية الدينية وتنظيم الأمور الدينية لقرم من قبل شيخ الإسلام فى إستانبول ، لاتعتبر منافية لاستقلال قرم . على الجيش الروسى . أن ينسحب من قرم فى أول فرصة تراها روسيا مناسبة . يكون التار الذين يسكنون على ساحل البحر الأسود التى يسميها الأتراك « بوجاق » فى بيسارابيا ، والتار الذين يسكنون فى المنطقة التى تسمى « كوبان » فى بحر آزاك ، مستقلين عن الأتراك ، ويشكلون مناطق محايدة عازلة بين روسيا والعثمانية . تترك تركيا ، إلى روسيا ساحل البحر الأسود القصير الواقع بين نهري Bug (بالتركية : آقسو) و Dnyep (بالتركية : اوزو Özü) ، ميناء كرج المسيطر على مضيق كرج فى قرم وميناء آزاك (Rostov) الواقع فى نهاية بحر آزاك وحواليهما . تبقى لدى تركيا سواحل البحر الأسود الواقعة بين Bug و Dnyestr (بالتركية : تورلا) ، وبضمنها Özü وخوجاباشا (Odessa) . تعطى تركيا الإماراتين الرومانييتين (أفلاق وبغدان) الاستقلال النسبى ، وسوف يأخذ الباب العالى بعين الاعتبار الطلبات المعقولة من الناحية الدينية لروسيا فى هذه الامارات الارثوذكسية . تعامل العثمانية الملايين من تبعيتها الارثوذكس بشفقة . تستفيد روسيا كذلك كاتكلترا وفرنسا من الحقوق .

التجارية والعديلية المسماة « Capitulation » في الإمبراطورية العثمانية . ولأن البحر الأسود سيكون مشتركا بين الدولتين ، فسوف تبحر فيه السفن التجارية الروسية بحرية ، وتمر بحرية كذلك من المضائق إلى البحر الأبيض وبالعكس . ستسدد تركيا لروسيا خلال ٣ سنوات ، غرامات حرب مقدارها ٧٥٠ مليون آقجه .

على الرغم من أن معاهدة قارينارجه لم تفقد تركيا سوى اراض قليلة جدا بالإضافة إلى قرم ، فإنها تعتبر من أتمس المعاهدات التي وقعت عليها تركيا على مدى تاريخها .

يشير تحليل الاتفاقية باختصار إلى النتائج التالية :

ترفع المعاهدة روسيا دفعة واحدة إلى الدرجة الثالثة بين الدول بعد انكلترا وفرنسا ، أما تركيا فتسقطها مرة واحدة من القمة إلى الدرجة الرابعة .

ينتهى تحكم العثمانية في البحر الأسود ، ولا يقف الأمر عند حيازة روسيا ساحلا لأول مرة ، بل يكون خروجها إلى البحر الأسود بشكل موسع . ومن الطبيعي أنها ، ستؤسس بعد ذلك في البحر الأسود موانئ لإنشاء وتصليح السفن ويكون لها أسطول فيه ، وإن كانت ستستعمل هذا الأسطول في البحر الأسود فقط لعدم إمكاناتها إمرار سفنها الحربية من المضائق ، (المسموح به فقط هو السفن التجارية) .

بسبب وجود رعايا أرثوذكس كثيرى العدد في الدولة العثمانية والعطف المتوالى على المذهب الارثوذكسى ، فسوف تكون الأمور الدينية هذه ، ذريعة لتدخل روسيا في شئون العثمانية ، وسوف تبدأ برومانيا .

مع الاعتراف رسميا بأن البادشاه هو خليفة لكافة مسلمى العالم ، إلا أن هذا لايعنى أن البادشاه سيمكنه التدخل في شئون المسلمين في روسيا ، لأن تدخله كهذا ، لايمكن تحقيقه إلا بالقوة العسكرية ، ومن الواضح أن تدخل الطرف الضعيف سيبقى رمزيا فقط .

تدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة في التاريخ .

يترك مستقبل قطر صغير كقرم ، القطر التركي منذ ١٥ قرنا والذي يسكنه ١/٥ مليون تركى (يعتبر هذا الرقم عاليا جدا بالنسبة إلى ذلك الزمن) وذى الأهمية الاستراتيجية الكبرى ، بشكل تام إلى نوايا روسيا الطيبة .

دخلت العثمانية هذه الحرب ، التى ساقتها إلى الدمار ، فى سبيل استقلال بولونيا . وقد خشيت كل من فرنسا وسويسرا اللتين تؤيدان استقلال بولونيا بنفس الدجة ، من دخول الحرب . لأنهما ، خشيتا من دخول انكلترا وبروسيا اللتين تتبعان نفس سياسة انكلترا . إن الدولة العثمانية التى لم تستطع الدفاع عن بولونيا ، صارت فى وضع تجهل فيه تماما ، مايمكنها أن تعمله لهذه الدولة بعد الآن ، وبناء على ذلك فسوف تبقى بولونيا دون مدافع ومفتوحة أمام نوايا جاراتها السيئة . والواقع أن روسيا ، لايمكنها وضع اليد على كامل بولونيا دون أن تعطى حصة لكل من جارتها ألمانيا (اوستريا) وبروسيا ، وحيث أن تكون معرضة للصدام مع اتحاد تركى - سويدي - بروسي - ألماني - فرنسي خفيف . ولكن فى حالة منحها حصة لألمانيا وبروسيا ، فسوف لا يكون هناك اتحاد سياسى يمنعها من اقتسام بولونيا . وفى الواقع فإن روسيا أظهرت استعجالا بدرجة ما ، باقتسامها بولونيا الاقتسام الأول فى ١٧٧٢ مع بروسيا وألمانيا قبل انتهاء الحرب العثمانية ، ولكن فور احتلالها لقرم ووتيقها بانتصارها فى الحرب ، صارت بولونيا بعد الآن ، « بولونيا صغيرة » ، خرجت عن نطاق الدول العظمى إلى درجة أنها كانت حتى فى حدودها الجديدة هذه ، معرضة لتقسيم جديد .

أعطيت فى معاهدة قايبارجه ، صلاحية تعيين خانات قرم إلى تركية ، وبالأحرى إلى الخاقان - الخليفة ، وقد كان ذلك مجرد إظهار أن قرم مازالت تابعة للعثمانية ؛ لكن الحقيقة هى أن روسيا كانت تحفز لضمها فى أول فرصة . وصار من الواضح أن العثمانية ليس لديها القدرة على منع ذلك .

خوتين ، كانت لاتزال لدى العثمانية ، كأنها ذكرى تاريخية لها فى الشمال بين أوروبا الوسطى والشرقية . لقد أ بقيت خوتين فى حوزة العثمانية لأن انتقالها إلى روسيا ، سوف يولد المزيد من شكوك ألمانيا . وحقيقه الحال ، أن العثمانية لم تعد فى وضع يمكنها من أن تستعمل خوتين كضمان لاستقلال بولونيا ، كما أن تأمينها القوة التى تستطيع بها تحقيق ذلك كان من الصعوبة بمكان . وبالإضافة إلى ماضى فإن بولونيا كانت قد قسمت التقسيم الأول . إن التقسيم الأول لبولونيا ، لم يكن بالمعنى الصحيح وعلى المدى الطويل فى صالح ألمانيا (النمسا) ، ولا فى صالح بروسيا ، وإنما كان فى صالح روسيا فقط ، كان يقرب روسيا ، بصورة أكثر إلى أوروبا الوسطى ، ويجعلها جارة للبلاد الألمانية .

لقد اشتركت فيينا وبرلين في التقسيم للحيلولة دون ابتلاع روسيا لكامل بولونيا . ولم تكن هذه الأمور ، بعد ، لتشغل بال انكلترا التي أصبحت الدولة العالمية الأولى . كانت أوروبا البرية ، خارج نطاق السياسة العالمية لانكلترا ؛ فقد كان اهتمام انكلترا موجها إلى القارات الأخرى والمستعمرات . كانت فرنسا في هذا التاريخ ، هي المنافسة لها في هذا المجال ، ولم تكن روسيا . وبناء على ذلك ، كانت انكلترا مستعدة لمساندة أى اتفاق ضد فرنسا . اقتسام بولونيا ، كان خلا بالاعتبار إلى درجة كبيرة كذلك بالنسبة إلى السياسة الخارجية الفرنسية . استمرت الحرب ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٤ يوما، وضعفت أركان الدولة العثمانية . أظهرت أن الجيش العثماني فقد روح القتال والقدرة عليه ، وإذا لم يكن الأمر كذلك تماما ، فإن هذه الروح وهذه القدرة قد قلت لديه كثيرا ، وعلى ذلك فانه يكون فقد قوته المهابة والرادعة . ويكون من الصعب عليه، بعد الآن ، وقف تدفق السلاف إلى البلقان وقفقاسيا . لقد كان المد السلافي ، ينساب كذلك نحو الغرب وأوروبا الوسطى ، ضد العرق الجرمانى .

ينهى هامر التاريخ العثماني الكبير بمعاهدة قايينارجه ١٧٧٤ هذه . يبدأ جودت باشا بالتاريخ العثماني الكبير لفترة ٥٠ سنة اعتبارا من هذه المعاهدة .

حاولت العثمانية منذ هزيمة فيينا ١٦٨٣ وحتى هذا التاريخ ، المحافظة على وضعها كدولة عالمية أولى . خرجت في ١٦٨٣ من كونها دولة عالمية . لكن قوتها العسكرية والبحرية ، كانت لاتزال تخيف العالم قرابة عصر كامل إلى وقت الحرب الروسية ، فقد كانت لاتزال في الوضع الذى لم تستطع فيه دولة منفردة الانتصار عليها . كانت لاتزال تحكم الأقطار العظيمة في القارات الثلاث . ولعدم تحقيق الانقلاب الصناعى في أوروبا حتى ذلك التاريخ ، كانت بعض الأقطار العثمانية - وإن لم تكن بكاملها - داخله ضمن الأقطار العالمية الغنية .

إن الحرب التي بدأت في ١٧٦٨ ، والتي أخذت تميل نحو هزيمة تركيا في ١٧٧٠ ، ثم اكتسبت الهزيمة صفتها الأكيدة بالاحتلال الروسى لقرم في ١٧٧١ ثم تسجيل ذلك الوضع في ١٧٧٤ .. هذه الحرب جعلت تركيا العثمانية تهبط دفعة واحدة من وضعها كدولة عالمية أولى ، إلى المرتبة الرابعة ، دون مرورها بالمرتبتين الثانية والثالثة .

وبناء على ذلك ، تفتح صفحة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية . تبدأ بالبحث عن وسائل الإصلاح ، بعد الهزيمة .

ولوجود جيش مغلوب ، فإنه من الطبيعي أن يؤمن الأتراك بأن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الجيش .

لكن الجيش موزع ومفرق إلى عصابات ، اشبه ماتكون بالميليشيات ، ويرفض أن يكون من نفسه جيشا جديدا ، ويخشى من حرمانه من امتيازاته ، وكسبه غير المشروع ، ومايقوم بنهبه .

بسبب ذلك ، أقدم البادشاهات وقسم من الصدور العظام والوزراء على الإصلاح بتردد ، رغم أنهم يؤمنون بضرورته .

لم يتحقق إصلاح جذرى . عرضت زمرة القابوقولو ، ثورة كهذه ، بقطع الرعوس . عاشت الدولة مثل هذه المغامرة في الفترة التى استمرت حتى ١٨٢٦ . التجديد ، لم يكن بشكل جذرى . بينما كانت فى اوروبا ، فترة النصف قرن التى استمرت حتى ١٨٢٦ ، هى الفترة التى حدث فيها الانقلاب الصناعى ، وصلت رعوس الأموال إلى مبالغ ضخمة . بدأت التكنولوجيا تدخل فى صلب الجيش والبحرية وتصبح لاغنى عنها ، بدأت الميكنة فى انكلترا فى صناعة النسيج ، وتحولت المصانع الصغيرة إلى مصانع ضخمة ، فزاد الإنتاج وأخذ يغزو الأسواق الخارجية ، انتقل هذا الانقلاب - الذى هو المرحلة الأولى للانقلاب الصناعى - فورا إلى فرنسا ومنها إلى دول أوروبا الغربية الأخرى ، وبعدها ، إلى كافة أوروبا تقريبا . أما الدولة العثمانية التى لم تتمكن من إيجاد الفرصة المناسبة لاتخاذ قرار التجديد الجذرى ، إلا فى ١٨٢٦ ، فقد وجدت أمامها أوروبا بكاملها تقريبا ، قد تمكنت من تحقيق الانقلاب الصناعى ، ووجدت أوروبا الغربية ، قد اقتربت من المرحلة الثانية من هذا الانقلاب . وسوف نعرض فى الكتاب السابع ، هذا الدور الذى يتميز بتجارب التجديد التى لم توفق إلى تحقيق تغيير جوهرى فى الداخل . أما فى الخارج فسنجد أنه دور يتميز بسياسة استقطاع الدول الأوروبية الكبرى ، التى شخصت ضعف الدولة ، قطعا من العثمانية .

(٣) دور عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ، قضية قرم

مات مصطفى الثالث ، بسبب تأثره من الحرب الروسية . وعند جلوسه على العرش ، كان أخوته بيازيد ، ونعمان ، وعبد الحميد أولياء العهد الأول والثاني والثالث بالتسلسل . وبوفاة الشهبادة نعمان (١٧٦٤/١٢/٢٩) صار السلطان عبد الحميد ولى عهد ثانى وبوفاة أولو شهبادة بيازيد (١٧٧٠/١٢/١٩) ، أصبح ولى عهد السلطنة . وبعد ولايته للعهد لمدة ٣ سنوات ، جلس بعد وفاة أخيه الكبير الذى دامت سلطته ٨ سنوات ، وشهرا ، و ٢٣ يوما . وكان عمره ٤٩ عاما تقريبا (٤٨ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٣ أيام) .

عبد الحميد الأول ، هو أصغر أبناء أحمد الثالث . توفيت أمه رابعة شرعى قادين عام ١٧٣٢ ، عندما كان السلطان عبد الحميد فى ال ٧ من عمره . وعند وفاة أبيه المخلوع ، كان عمره ١١ عاما . استمرت السلالة العثمانية إلى يومنا هذا ، من السلطان عبد الحميد الأول هذا فقط . منح لقب « غازى » بصورة رسمية فى ١٧٨٨/٩/٢١ . دامت سلطته مدة ١٥ سنة و شهرين و ١٧ يوما . توفى وعمره يتجاوز ال ٦٤ ب ١٨ يوما . ومنذ ١٥٦٦ ، أى منذ عهد القانونى ، لم يبلغ أى بادشاه هذا القدر من العمر . دفن فى مقبرة الحميدية فى بقجه قابو .

توفى لعبد الحميد الأول ٩ شهباده (أمير) و ١٢ ابنة فى سن صغيرة . وأطول من عاش ، هما شهباده سليمان (١٧٧٩/٣/١٣ - ١٧٨٦/١/١٩) وشهباده محمد (١٧٧٦/٨/٢٢ - ١٧٨١/٢/٢٠) . واولاده الآخرون هما مصطفى الرابع (١٧٧٩/٩/٨ - ١٨١٨/١١/١٦) ومحمود الثانى (١٧٨٥/٣/٢٠ - ١٨٣٩/٧/١) واستمرت السلالة من هذا الأخير . أما بنات عبد الحميد الأول فهن : (١) اختر - ملك خام (١٧٥٨ - ١٧٨٦) تزوجت بابن الصدر الأعظم محمد عزت باشا ورزقت منه بابن واحد . (٢) السلطانة عائشة در شهور (١٧٦٧ - أيار ١٨٢٦) ، تزوجت بالداماد أحمد نظيف أفندى (١٧٤٧ - ١٧٨٩/٥/٢١) ورزقت منه بابتين أحدهما زوجة ابن الصدر الأعظم قوجا يوسف باشا . (٣) السلطانة أسماء (١٧٧٨/٧/١٧ - ١٨٤٨/٦/٤) ، هى زوجة قبطان دريا (مشير البحر) الوزير داماد كوجوك حسين باشا (١٧٦١ - ١٨٠٣/١/٨)

ولم تنجب أولادا . (٤) السلطنة هبة الله (١٧٨٩/٣/١٦ - ١٨٤١/٩/١٨) .
زوجة الداماد الوزير علاء الدين باشا (١٧٧٤ - ١٨١٣/٢) ولم تنجب
أولادا . علاء الدين باشا هذا ، هو ابن سيد أحمد باشا صهر مصطفى الثالث الذى
هو ابن سليمان باشا صهر أحمد الثالث .

حدثت فى عهد عبد الحميد الأول ، حرب إيرانية استمرت ٤ سنوات تقريبا
(١٧٧٥ - ١٧٧٩) . البادشاه الذى وقع على معاهدة قازينارجه بعد ٦ أشهر من
جلوسه ، جابه إيران بعد عدة أشهر . ظهرت فى هذه الأثناء سلالة تركمانية جديدة ،
وهم القاجاريون ، يحاولون جمع شمل إيران . من منافسى تلك السلالة ، كريم خان
زند ، بدأ بمحاصرة البصرة فى آذار (١٧٧٥) . على أمل أنه إذا انتصر على العثمانية
التي خرجت من الحرب الإيرانية منهزمة ، سيقضى على القاجاريين . أعلن الباب
العالى الحرب على إيران (١٧٧٦/٥/٢) . سقطت البصرة فى نيسان ١٧٧٦ بعد
صمودها للحصار مدة ١٣ شهرا وبقيت فى الحكم الإيراني ٣ سنوات تقريبا . هزم
السرعسكر (قائد) الوزير حسن باشا بكركيك الموصل ، الجيش الإيراني فى معركة
ميدانيتين (١٧٧٧/٤/٢٢ ، ١٧٧٧/٥/٥) . جرت الثانية فى اردلان قرب سینه .
دخلت الحرب بعد ذلك فى فترة التوقف وانتهت بإعادة البصرة إلى العثمانية دون
حدوث أى تغيير .

توفى الصدر الأعظم والسردار الأكرم محسن - زاده داماد محمد باشا إثر اشتداد
مرضه نتيجة تأثره بمعاهدة قازينارجه ، فى الطريق أثناء عودته إلى إستانبول
(١٧٧٤/٨/٤) . دامت صدارته الثانية سنتين ، ٧ أشهر ، ٢٤ يوما ومجموع
صدارته ٦ سنوات ، ٤ أيام . أعقبه الصدر العظام التالية أسماؤهم : عزت محمد
باشا ، الذى كان قائممقام الصدارة فى إستانبول ، البالغ عمره ٥٠ عاما ، صدرا أعظم
وهو من سلالة روم محمد باشا ، أحد الصدور العظام فى عهد فاتح . عزل بعد
١١ شهرا ، ٣ أيام (١٧٧٥/٧/٦) ، ثم جاء كتحدا الصدارة دارنده لى جبجى -
زاده محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أيام ، ثم فى (١٧٧٨/٩/١) اغا الانكشارية قالاغات
محمد باشا لمدة ١١ شهرا ، ٢٠ يوما ، أعقبه فى (١٧٧٨/٨/٢١) سلاحدار
عربسونلى قره محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أشهر ، ٢٩ يوما . وبهذا يكون ٦ أشخاص
مختلفين باسم محمد باشا ، تصدروا الواحد تلو الآخر . وبوفاة قره محمد باشا

(١٧٨١/٢/١٩) تصدر مجددا ، عزت محمد باشا الذى كان بكلربك ارضروم ، لمدة سنة ، ٦ أشهر ، ٤ أيام ومجموع صدارتيه ستان ، ٥ أشهر ، ويوم . عزل علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٨٢/٨/٢٥) بكلربك روملى الذى احتل مكانه ، بعد ٤ أشهر ، ٦ أيام (١٧٨٢/١٢/٣١) . وأخيرا أعتلى السلطة أول صدر أعظم لم يكن اسمه محمد ، وهو اسبارطه لى خليل حميد باشا .

كان خليل حميد باشا فى سن ٤٦ . وكان مصلحا . ولكنه بدلا من أن يتعاون مع البادشاه الذى كان مصلحا كذلك ، أراد خلع السلطان عبد الحميد الأول ، وجعل ابن أخيه ولى العهد السلطان سليم الذى يفوقه رغبة فى الإصلاح ، خاقانا . اكتشفت المؤامرة . عزل (١٧٨٥/٣/٣١) بعد صدارة دامت سنتين ، ٣ أشهر . وأعدم . وبالرغم من علم ابن أخيه (الذى سيكون سليم الثالث فى المستقبل) ، بالمؤامرة وعدم إخباره بها ، لم يمسه السلطان عبد الحميد بسوء ، لكنه حدد حركاته نسبيا بعد ذلك حيث كانت كل الآمال متعلقة بالسلطان سليم ؛ إذ إن أبناء عبد الحميد الأول كانوا لا يزالون اطفالا . كان ولى عهد - شهزاده (الامير ولى العهد) ، يرسل سفيرا بصورة شخصية إلى لويس ١٦ ملك فرنسا ويتراسل معه . عرقلت محاولة خليل حميد باشا الفاشلة ضد البادشاه ، حركة الإصلاح . لأن رجال البادشاه الآخرين المنتقدين له : قره - وزير محمد باشا الذى توفى قبل مدة ، صهر البادشاه نظيف أفندى وقبطان دريا (الاميرال الكبير) جزائرى غازى حسن باشا - كانوا كلهم محافظين ولا يرغبون فى الإصلاح الجذرى . جاء محافظ اوزو إلى إستانبول وتصدر لمدة ٩ أشهر ، ٢٤ يوما . احتل مكانه قوجا يوسف باشا (١٧٨٦/١/٢٤) . ازداد نفوذ قبطان دريا جزائرى حسن باشا ، إلى حد التحكم على الصدر الأعظم . وقوجا يوسف باشا هذا ، كان كذلك من جماعة حسن باشا الملتزمين ، وولده المعنوى . لكنه كان رجل دولة قديرا . وهو الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الأول ، والأول لسليم الثالث .

سببت معاهدة كوجوك قاينارجه اختلال التوازن الدولى . لم تحل مشكلة واحدة ، وتمخضت فقط ، عن روسيا كبيرة . لم تطبق روسيا المادة التى تنص على إخلاء قرم من الجيش الروسى . وكذلك لم تحل الدولة العثمانية مناطق بوجاق (بيسارايا الجنوبية) وكوبان فى قفقاسيا الشمالية . أبلغت العثمانية بأنه إذا سحب روسيا جيشها من قرم ، فإنها سوف تسحب جيشها المتواجد فى هذه المناطق وتمنع

لها الاستقلال . رفضت روسيا . لأنها كانت عازمة على السيطرة على قرم بشكل تام . ومستعدة لأن تعمل أى شيء فى هذا السبيل . كانت كل من الدولتين تستعدان للحرب بكل مافى وسعهما . كانت روسيا قد خرجت من الحرب متقطعة الانفاس متكيدة خسائر كبيرة ، ولم تكن لدى العثمانيين ، ولا لدى روسيا ، القدرة على دخول حرب جديدة بعد عدة سنوات .

انقسم الشعب التركى فى قرم الذى يطلق عليهم العثمانيون اسم « تثار » إلى قسمين : مؤيدى العثمانية ومؤيدى الروس . كانوا يريدون العثمانية ويخشون روسيا . كان الحزبان ، كأن احدهما عدو للآخر . كان صاحب كيراي الثانى من مؤيدى الروس . تحلى عن العرش بتأثير العثمانية وأحضر إلى إستانبول ، وعين مكانه دولت كيراي المؤيد للعثمانية . ورغم تصديق السلطان عبد الحميد على كونه خانا ، لم يتمكن من البقاء أكثر من سنة ، ٧ أشهر (حزيران ١٧٧٥) . وأجلس مؤيدو الروس ، برشاوى الروس ، شاهين كيراي ، أحد أخوة صاحب كيراي الثانى على العرش . اضطر الباب العالى إلى التصديق على تعيين هذا الشاب المنحط ، خانا . عاش شاهين كيراي عدة سنوات فى سراى الإمبراطورة فى بطرسبورغ ، وكان من المعجبين بالروس والمتطيعين بهاداتهم .

لم تطلق العثمانية الصبر على هذه الحال فى قرم ، وكان لدى الشعب العثمانى إصرار كبير على استرداد قرم ، وبينما كانت العثمانية على وشك اتخاذ قرار الحرب ، عرضت فرنسا الوساطة . وافقت روسيا على هذه الوساطة . وعلى هذا الأساس ، عقدت بين روسيا والعثمانية معاهدة آينالى قاباق (اسم السراى الكائن على الخليج فى إستانبول) (١٧٧٩/٣/٢١) . لكن الاتفاقية ، كانت ضد العثمانية ؛ لأنها تلغى حق الاعتراض على خان قرم ، وسوف يصادق البادشاه ، بعد الآن ، أوتوماتيكيا على أى أمير ينتخبه القرميون خانا ، شرط أن يكون من سلالة كيراي ، وستكون كذلك قرم متبوعة لصفة الخليفة . خلال ذلك ، أسقط العثمانيون شاهين كيراي وجعلوا القرميين ينتخبون سليم كيراي الثالث ، ولكن تدخل الروس بعد عدة شهور ، وجعلوهم ينتخبون شاهين كيراي مرة أخرى . كانت خانبة شاهين كيراي الثانية التى دامت ٤ سنوات اياما مظلمة لقرم . كان يلبس ملابس الجنرالات الروس المتميزين ويعلق على صدره الأوسمة التى تسلمها من الإمبراطورة . ويسير بين الشعب

راكبا عربته التى صنعها فى بطرسبورغ ولايسر ممتطيا الحصان كما كان يفعل أجداده ، يرتب الولائم بالمشروبات ويجعل المسلمين يرفعون اقداحهم شاربين نخب الشرف . يلغى الأوقاف ويضع يده على إيراداتها ، يحاول تأسيس أسطول لإلغاء سيطرة « العثمانيين الرجعيين » على البحر الأسود .. إلى غير ذلك من الأمور .

كان مقتنعا بأن الإمبراطورة (الجارية) تقدره وتجه . أما فى إستانبول فكان يضطر لتقبيل أردية الوزراء . لكن هذا العثماني الغريب ، الذى غره بهرج المدنية الروسية ، سيوقف عند حده ! نفذ صبر القرميين . خلعوا ، فى ١٧٨٢ شاهين كيراي من العرش وانتخبوا أخاه الكبير بهادر كيراي الثانى خانا وعرضوا ذلك على تصديق العثمانية . فر شاهين كيراي إلى بطرسبورغ وشكا إلى إمبراطورته ، القرميين وكذلك العثمانيين . أرسلت الإمبراطورة ، شاهين كيراي إلى قرم مع جيش روسى وأجلسته على العرش بعد ٧ أشهر . فبهادر كيراي إلى إستانبول . ولم تدم سلطنة شاهين كيراي ، الذى كان يعتقد أنها ستطول مدى حياته ، أكثر من شهور معدودة .

أستولى الوزير على باشا الموجود فى Kubon ، على Taman . وعندما صرح شاهين كيراي بأن Taman منطقة حيادية وطلب سحب جنده ، أمر على باشا باعدام السفير الذى جاء بالطلب ، لاسبب كونه سفيرا لدولة مستقلة ، بل بسبب كونه خائنا للوطن . أعترض الروس على المعاملة التى جرت مع السفير وأستولوا على شبه جزيرة تامان شمال نهر كوبان ، زاعمين أنهم يعملون ذلك مساندة لشاهين كيراي . نصب الأمير Potemkin القائد العام للإمبراطورية الروسية ومن الميع عشاق كاترينا الثانية ، مقره فى قره صوبازارى . لم تذع العكاز Ukaz (ارادة الإمبراطورة) وأخفيت عن الناس رغم توقيع الإمبراطورة عليها فى ١٩ نيسان . تليت بالروسية على أهالى قرم يوم ذكرى جلوس كاترينا ال ٢١ (١٧٨٣/٧/٩) . تتضمن هذه الإرادة ، ضم قرم إلى روسيا كأمانة جديدة ، ويطلب من أهالى قرم كافة ، بين الاخلاص للإمبراطورة ، والذين لا يرغبون فى أداء اليمين يتركون احرارا ويعطون الاذن فوراً للهجرة إلى تركية ، وسوف لايتدخل فى ديانة وعرف وعادات وحرية الذين يرغبون فى البقاء . وبذلك تنتهى سلطنة بنى جنكيز . نقل مركز قرم من باغجه سراى إلى آق مسجد وأرسل إليها وال روسى . توصل إلى ذروة قلة الحياء ، بالتصريح القائل بأن السبب الموجب ، لضم قطر مثل قرم لايسكنه فرد روسى او

مسيحي ، هو التخلص من مشكلة بسيطة تثير حربا جديدة مع العثمانية .

هذا مآلت إليه خانية قرم التي لم تمس حتى العثمانية استقلالها منذ ٣ قرون .
أعدم الأمير بوتمكن أكثر من ٣٠ . ٠٠٠ قرمى وكلهم من الطبقة الممتازة خلال أقل
من شهرين . قتل أكثرهم نتيجة التعذيب بتهمة التجسس لحساب العثمانية ! قضى
بهذه الطريقة على جميع أصحاب الأراضي . بدأ سيل المهاجرين الروس إلى قرم .
مئات الألوف من الأتراك انتشروا على البيوت الساحلية لقرم . بدأوا في البحث عن
السبل التي توصلهم إلى الأراضي العثمانية . كانت تجرى في قرم نفس الحوادث التي
جرت في الأندلس . مات أكثر بكثير من نصفهم نتيجة المطاردات والاضغوط الروسية
او باسباب اخرى كالمرض والجوع والبرد ، وألقى البقية أنفسهم في البلقان
والاناضول وإستانبول . هبط تعداد قرم الكثيف جدا ، إلى الثلث او إلى نسبة قرية
من ذلك (كان يسكن قرم في ذلك التاريخ ١/٥ مليون تركي وهذا يعنى ٦٠ شخصا
كم^٢ . وهذه النسبة ، نسبة عالية جدا في ذلك العصر) .

خصص الروس أولا ، راتبا لشاهين كيراي . ثم اعتبروا هذا الراتب لاداعى له .
ولعدم رغبتهم في تسديده ، اخذوا في اذلاله بصورة مستمرة . لم يتحمل الشاب
الغافل والخائن ذلك وفر إلى تركية . تفاضى الروس عن هروبه . أولا ليتخلصوا
من الراتب الذى يدفعونه له ، وثانيا لمعرفةهم ، العاقبة التي تنتظره في تركية . أعتقل
الباب العالى شاهين كيراي فورا ونفاه إلى جزيرة رودس وهناك قطع رأسه (تموز
١٧٨٧) . مجموع مدة جلوسه خانا للمرات الثلاث هو ٥ سنوات . هو الخان
ال ٤٩ لقرم ، وحفيد جنكيز في البطن ٢١ . هكذا انمحت من التاريخ خانية قرم ،
التي دامت ٣٥٦ عاما ولعبت دورا مهما ، في أوروبا الشرقية . أما حكم العثمانية
في هذه الإيالة فقد دام ٣١٠ سنين و ١٠ أشهر و ١٦ يوما ، ولو احتسبت حتى
معاهدة قايينارجه فتكون ٢٩٩ سنة وشهرا و ٢٠ يوما . أما فترة الاستقلال
المزعوم المرتبط بصوريا بالبادشاه ، فقد دامت ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٦ يوما .

اعترفت تركية بانضمام قرم إلى روسيا باتفاقية ٨ ك ١٧٨٤/٢ ، وأعتبر نهر كوبان
حدودا ، وتركت كامل قفقاسيا الشمالية إلى العثمانية . لكن الباب العالى لم يكن
مخلصا في هذا الاعتراف . وإنما كان يستعد للحرب ويتنظر الفرصة المناسبة . أعلن
بعد ٤ سنوات و ٤ أشهر من الانضمام ، شهباز كيراي ، خانا وكان عمره ٥٥ عاما ،

وهذا الأمير هو الاخ الكبير لدولت كيراي الرابع (اب ١٧٨٧) ، وأبنة حليم كيراي ، مؤلف مهم لتاريخ قرم (بالتركية) . وبعد سنة ونصف (شباط ١٧٨٩) منح الباب العالي لقب الخان ال ٥٢ إلى بخت كيراي (شباط ١٧٨٩) مكان شهباز كيراي . حمل هذا اللقب حتى آب ١٧٩٢ . يعيش اليوم في تركية العديد من نسل كيراي . وشغل بعضهم مناصب عالية في الدولة العثمانية .

جاءت الإمبراطورة في ١٧٨٧ مع ٦٠.٠٠٠ جندي إلى قرم . استقبلها والي إمالة قرم الأمير Potemkin في ميناء Kherson في مصب الدنيبر وأممرت من تحت قوس نصر كتب عليه « طريق يزنط » . مرت من تحت هذا القوس سوية مع حليفها جوزيف الثاني إمبراطور ألمانيا الذي حضر لزيارتها . أعلن الباب العالي الذي علم بهذه الصفاقة ، الحرب على روسيا (١٧٨٧/٨/١٣) . مضى علم مصالحة قائنا ، ١٣ سنة ، ٢٣ يوما ، لم تحسن ولا لحظة واحدة ، خلال هذه المدة ، العلاقات العثمانية - الروسية . سيمر التاريخان العثماني والروسي بعد ذلك بحروب تركية - روسية متعاقبة .

(٤) الحرب مع روسيا وألمانيا (١٧٨٧ - ١٧٩٢)

بالنسبة للحرب الروسية ١٧٦٨ - ١٧٧٤ ، كان من غير الممكن كسب تعاطف الشعب لتبني الحرب ، فلقد كان صعباً أن يفهم الشعب دخول حرب للحفاظ على استقلال بولونيا . أما هذه المرة ، فإن الحرب لا تتعلق ببولونيا وإنما تتعلق بقضية قرم .

كانت روسيا تجرى على مسلمي قرم الانكزسيون (المجازر البشرية) الحديثة . كل عثماني كان يضرر الحقد الدفين تجاه روسيا . بعد إعلان العثمانية الحرب انتظر الطرفان الربيع للحرب الفعلية ، الا أن ألمانيا ، قدمت مذكرة إعلان الحرب على العثمانية ، بعد إعلان الحرب بـ ٥ أشهر و ٢٨ يوماً وقبل حلول الربيع (١٧٨٨/٢/٩) . كان الإمبراطور جوزيف الثاني مبهوراً بالفتوحات والانتصارات السهلة التي أحرزتها روسيا على العثمانية في حرب ١٧٦٨ - ٧٤ ، وكان يريد الآن أن يأخذ حصته من سلب جديد . ونظراً لوفاة فريدريك (الكبير) الثاني في ١٧٨٦ ، فإنه لم يعد أمام روسيا ما تخشاه من جهة بروسيا . لكن السويد التي

خشيت من توجه روسيا نحوها بعد انتصارها ثانية على تركيا وسحقها لبولونيا ، أعلنت الحرب على روسيا ، دون ألمانيا (حزيران ١٧٨٨) ، لكن الجيش السويدي تلكاً دون قصد ، وضيع فرصة غزوا العاصمة بطرسبورغ وأسر الإمبراطورة ، وقد كان ذلك ممكناً لكون العاصمة بطرسبورغ على الحدود السويدية ، ولكون بطرسبورغ خالية من الجيش . حيث كانت روسيا ، قد جمعت كل جيشها على الحدود العثمانية .

سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم قوجا يوسف باشا من إستانبول قاصدا تنحية ألمانيا أولا (١٧٨٨/٣/٢٥) . كان الإمبراطور جوزيف الثاني قد اتخذ شبش (بالجرية : Sebes) في جنوب أردل (ترانسيلفانيا) مقراً لجيشه . اجتاز الجيش العثماني الحدود الألمانية وبعد أن تقدم مسافة طويلة جدا ، عثر هنا على جيش الإمبراطورية . شتت الجيش العثماني الجيش الألماني بعد تكبيده خسائر جسيمة في معركة شبش الميدانية (١٧٨٨/٩/٢١) . نجح الإمبراطور من الموت صدفة وبتضحيات . اغتتم الأتراك ٨٠ مدفعا وكافة المهمات و ٥٠.٠٠٠ أسير . وكأثما انتقم لـ Zenta بعد عصر كامل . خربت Banat وتامشوار من أولها إلى آخرها . وإزاء هذا الانتصار ، منح العلماء ، عبد الحميد الأول ، بصورة رسمية لقب « غازي » .

أمن انتصار شبش ، بقاء بلغراد والمناطق المجاورة لها ، لدى العثمانية لعصر آخر . كان هدف الإمبراطور ، هو الإلتهام مع الجيش الروسي . زال هذا الهدف ونحيت المانيا . وظلت العثمانية في المجال وجها لوجه أمام روسيا ، بعد هذه الحركات الحافظة .

وفي الجبهة الروسية ، جاء الأمير Potemkin مع ٨٠.٠٠٠ جندي إلى Özü (بالروسية : Ocszakov) أهم قلعة في شمال - غرب البحر الأسود ، واحتل هذه القلعة الشهيرة (١٧٨٨/١٢/١٧) . وجرت مجزرة بشرية ذبح فيها ٢٥٠٠٠ جندي تركي ، ونساء وأطفال . عذب جميعهم ولم يترك فردا واحدا على قيد الحياة . ثم سقطت قلعة خوجا باشا الواقعة بالقرب من أوزو ، حاليا أوديسا . وعلى هذا ، انتقل الساحل الشمالي - الغربي من البحر الأسود الذي يبدأ من غرب قرم ، إلى حوزة الروس . وسقطت بعدها قلعة خوتين في بودوليا .

انتقل الموقف الحرجى وهو على هذا الوضع إلى سليم الثالث . هزم جيش الاتحاد الروسى - الألمانى فى الحرب الميدانية فوكشانى (١٧٨٩/٨/١) أمام جيش القائد الوزير كانكش مصطفى باشا البالغ ٣٠.٠٠٠ شخص . فى منطقة فوشكافى ، قرب فرع Siret للطونة بين افلاق وبغدان (كان الجنرال Suvarov يقود الروس ، وأمير Sachsen-Koburg يقود الألمان) ، ثم هزم الروس - الألمان ، الصدر الأعظم والسردار الأكرم جنازه حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٢) فى حرب Buzau الميدانية . استشهد ٢٣٠٠٠ تركى وفقد ٦٨ مدفعا . فى ٩ ت ٢ احتل الألمان بخارست ، عاصمة الأفلاق ، واحتل الروس باش عاصمة بغدان . انسحب العثمانيون الذين انقطع ارتباطهم برومانيا ، إلى جنوب الطونة .

استولى الألمان الذين يقودهم الجنرال Laudon على بلغراد بعد حصار دام ٣ أسابيع (١٧٨٩/١٠/٨) . ساندت بولونيا وبروسيا ، العثمانية بالطرق الدبلوماسية كما فعلت السويد . لم يكونوا يريدون الاشتراك فى الحرب بصورة فعلية . انهزم الألمان فى الحرب الميدانية يركوى (بالرومانية : Giurgiu) فى الافلاق (رومانيا) فى الساحل الشمالى من الطونة . هرب قائد عام الإمبراطورية أمير Sachsen Koburg بعد أن خسر ٥٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠ أسير ، وآلاف الجرحى تاركا ٥٠ مدفعا من مجموع ٦٠ من مدافعه ، للعثمانية . اتضح من ذلك ، عدم إمكان اجتياز الألمان ، الطونة نحو الجنوب .

وفى معاهدة ييقوز (١٧٨٩/٧/١١) منح الباب العالى ١ مليار آقجه إلى السويد كإعانة ، مع أن السويد ، لم تساعد العثمانية فى هذه الحرب ، بصورة فعلية ، عدا أنها ثبتت قسما من الجيش الروسى على حدودها . اجتاز الأمير Potemkin ، دنيستر نحو الغرب ودخل بيسارابيا الجنوبية (بالتركية بوجاق) . استولى على قلعتين عثمانيتين مهمتين جدا Akkerman (١٧٨٩/١٠/١١) و Bender (١٧٨٩/١١/١٤) . ونظراً لسقوط قلعتى خوتين وبلطه، اللتين تشكلان سدا لبيسارابيا فى الشمال ، بيد الروس ، أصبحت بيسارابيا فى خطر . إلا أن الروس انهزموا فى معركة إسماعيل الميدانية فى أقصى جنوب بيسارابيا أمام جزائرى غازى حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٣) .

(١٧٩٠/١٢/٢٢) ، Tulca (١٧٩١/١١/١٦) ، ايساكجى
 (١٧٩٠/١١/٢٥) . كانت هذه القلاع الأربع مراكز دفاع عثمانية فى دلتا ألتونة
 بين ييساراييا ودوبروجة . فقد بوتمكن ، أمام اسماعيل ١٥٠٠٠ قتيل ، فانتقم لذلك
 بذبح ٣٠ ٠٠٠ مسلم بالسيف فى إسماعيل ؛ أكثرهم مدنيون ، ونساء وأطفال .
 أستولى الجنرال Kutuzov على Maşin (١٧٩١/٧/١٠) . كان كوتوزوف هذا ،
 الذى صار ماريشالا ثم أميرا ، من أصل تركى وقد انتصر حتى على نابليون فيما
 بعد .

نتيجة لاجتياح الثورة الفرنسية لأوروبا ، طلبت ألمانيا (النمسا) الصلح على أساس
 Statu quo (أى عرضت العودة إلى حدود ما قبل الحرب) . وقعت على معاهدة
 زيشتوفى Zistovi (١٧٩١/٨/٤) وهى قصبة تقع على الساحل الجنوبى من
 ألتونه . أنهت هذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة الحرب الألمانية - العثمانية التى كانت
 مستمرة منذ ٣ سنوات ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما . انسحب الألمان من بلغراد والأفلاق
 التى سيطروا عليها منذ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما والأراضى العثمانية التى استولوا
 عليها قبل الحرب الأخرى بعد إخلائها ، وأعادوا إلى العثمانية كذلك ، قلعة خوتين
 التى كان قد استولى عليها الروس خلال الحرب وأعطوها إلى الألمان . كان مكسب
 الألمان الوحيد ، هو انتقال قصبة اورشوا Orsova التى تقع بين أردل وأفلاق إلى
 الألمان ، أثناء إجراء تعديلات الحدود . كانت هذه الحرب هى آخر حرب تركية -
 ألمانية فى التاريخ . لم تحارب تركية ، أية دولة ألمانية بعد ١٧٩١ .

أخذت روسيا كذلك ، تميل نحو السلم بواسطة انكلترا وبروسيا . وبعد مضى
 ٦ أيام على مصالحة Zistovi تم التوقيع على مهادنة Kalas (بالرومانية : Galati) .
 أستمروا مؤتمر ياش مدة ٤ أشهر . أنهت معاهدة ياش Yas (١٧٩٢/١/٩) الحرب
 الروسية - العثمانية ، أخلت كل من بغداد ، ييساراييا ، بودوليا الجنوبية بوجاق
 وأعيدت إلى العثمانية . أما ساحل البحر الأسود الواقع بين نهري Bug ودينستر ،
 Özü (Oezakov) ، قىلبورون ، خوجا باشا (اوديسا) مع قلاعها فقد انتقلت إلى
 روسيا . أنقذت الثورة الفرنسية والتوازن الدولى الدقيق فى أوروبا ، العثمانية من
 خسائر أكبر . ولكن كان يتحتم تجديد الجيش العثمانى وتنظيمه ، حتى لاتعرض
 العثمانية لمثل هذه الخسائر فى المستقبل .

(٥) جلوس سليم الثالث (١٧٨٩/٤/٧)

أصيب عبد الحميد الأول بنزيف في المخ ومات ، عند قراءته عريضة الصدارة التى تبين سقوط قلعة اوزو في اوكرانيا وذبح الأهالى المدنيين . بالسيف . تبين ظروف وفاته ، طبيعته ، ومبلغ أصالته وإنسانيته وشعوره بالمسئولية . كان رقيقاً ، مؤدباً ، رحيماً ، وطنياً متحمساً ، مصلحاً باعتدال .

جلس على العرش ابن أخيه سليم الثالث ، الذى كان يشغل منصب ولى العهد طيلة مدة سلطنة عبد الحميد الأول التى استغرقت أكثر من ١٥ عاماً . جدد العرش ، شابه ، فقد كان سليم الثالث أصغر من عمه عبد الحميد الأول بـ ٣٦ سنة ، ٩ أشهر ، ٥ أيام كانت سن سليم الثالث ، الابن الوحيد لمصطفى الثالث ، يتجاوز الـ ٢٧ عاماً بـ ٣ أشهر و ١٤ يوماً ، وكان عمره عندما تولى ولاية العهد إثر وفاة أبيه وجلوس عمه على العرش ١٢ عاماً . كان أبوه وهو فى سنه هذه ، يستصحبه معه فى السفرات القريبة والمناورات . أتاح له عمه السلطان عبد الحميد الحر التفكير ، خلال مدة ولاية عهده الطويلة ، حياة حرة واتصالات واسعة ، وحتى بعد المحاولة الانقلابية التى دبرها خليل حميد باشا ، لم يقلص من حرية ولى عهده وابن أخيه ، الا القليل جداً . ويمكننا القول أن سليم الثالث ، هو أرقى الخاقانات الذين أتوا بعد السلطان مراد الثالث الذى توفى فى ١٥٩٥ من جهة الثقافة والتحصيل ، وهو كذلك أعظم الخاقانات الذين أتوا بين مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وعمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) . وهو كذلك الوحيد من بين سلالة بنى عثمان الذى وصل إلى درجة النبوغ فى أى فرع من فروع الفنون الجميلة ، كان ملحناً نابغاً ، وشاعراً ، وخطاطاً ، وعازفاً على الناي ، ملماً باللغات الشرقية تمام الأمام . مولولياً ، ذكياً ، مجتهداً ، وطنياً ، مصلحاً . ورغم زواجه فى تواريخ مختلفة بـ ١٦ امرأة ، لم يخلّف أولاداً ، انقرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول .

دامت صدارة قوجايوسف مدة ٣ سنوات ، ٤ أشهر ، ١٤ يوماً . احتل مكانه حسن باشا ، قائد Vidin (١٧٨٩/٦/٧) ؛ وبعد ٥ أشهر ، ٢٦ يوماً جاء القبطان دربا جزائرى غازى حسن باشا (١٧٨٩/١٢/٣) ، وبوفاته فى Sumnu بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوماً (١٧٩٠/٣/٣٠) ، تصدر جلىبى - زاده شريف حسن باشا محافظ راخوفا ، أى أن ٣ صدور عظام اسماؤهم حسن باشا تصدروا مددا

قصيرة الواحد تلو الآخر ، ومنهم غازى حسن باشا الاميرال المشهور الذى شغل منصب قبطان دريا (مشير البحر) مدة ١٨ سنة ، وشهرا ، ١٥ يوما ، وقد كانت هذه المدة هى أطول مدة بين كافة الذين شغلوا منصب قبطان دريا فى التاريخ العثمانى (قيليج على باشا هو الثانى فى تسلسل المدد ، داماد بياله باشا الثالث ، بارباروس خير الدين هو الرابع وهؤلاء فى العصر ١٦) أعدم شريف حسن باشا فى Sumnu بعد ١٠ أشهر ، ١٢ يوما (١٧٩١/٢/١٥) . تصدر قوجا يوسف باشا للمرة الثانية وعزل بعد سنة ، وشهرين ، ١٧ يوماً (١٧٩٢/٥/٤) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٤ سنوات ، ٧ أشهر ، ويوم . عين داماد ملك محمد باشا ، صدرأ أعظم ، وكان عمره ٧٢ عاما وهو أقدم وزير (بالعثمانية شيخ الوزراء) ، وهو ابن فندقليل سليمان باشا وصهر أحمد الثالث . شغل منصب قبطان دريا لمدة ٤ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٧ يوما ، كان واليا على كريت ، جاء من كاندية واحتل منصب الصدارة . كان قد مضى على نياله مرتبة الوزارة مدة ٣٩ عاما . أعلن فى عهدة النظام الجديد (نظام جديد) .

(١٧٩٣/٢/٤) بدء دور النظام الجديد

طلب سليم الثالث فى ت ١٧٩١/١ من ١٩ تركيا وأجنيين أن يقدم كل منهم تقريراً عن أسباب فقدان الإمبراطورية قدرتها السابقة ، واقتراح الإصلاحات التى يلزم إجراؤها حالياً لاستعادتها تلك القدرة (عاصم ، ١ ، ٣٤ ومابعده ، جودت ، ٦ ، ٣ ومابعده) . تركز الـ ٢١ تقريراً حول نقطة واحدة : مؤداها أن الدولة العثمانية قد فقدت قدرتها السابقة ، وإن مؤسساتها قد أصبحت فاسدة أو معطلة عن العمل ، وأن الأمر يحتم إجراء إصلاح (Reform) . وكان أصحاب التقارير يبحثون عن العلاج .

كان هناك ٣ جماعات أساسية :

المثاليون المحافظون : كانت العثمانية فى الماضى دولة عالمية ، لم يكن لها منافس ، كانت جميع مؤسساتها فى ذلك العهد قوية تماماً . يمكن العودة إلى تلك المؤسسات ولو أمكن إحيائها لأمكن ، بالطبع ، إعادتها إلى قدرتها السابقة .

الرومانطيقون : « سبقتنا أوروبا في بعض المجالات منذ مدة . لناخذ تكنولوجيا أوروبا غير الموجودة لدينا ونهضمها دون أن نبذل نظامنا ، ودون استعجال . ولما كان واقع الأمر أن المسافة التي بيننا وبين أوروبا قد انفتحت قبل ٣٠ سنة ، فإنه من الممكن اللحاق بهم بسرعة وعودتنا إلى مركزنا السابق كأكبر دولة » .

الراديكاليون القائلون بتبديل النظام : « من الواضح أن أوروبا الآن قد سبقتنا في بعض المجالات . ولو بقينا على نظامنا هذا ، لسبقونا في كافة المجالات . لنغير نظامنا نحن كذلك ونلحق بهم ونسبقهم . ولسنا أقل منهم قدرة أو ذكاء » .

قرأ سليم الثالث ، ال ٢١ تقريراً . تذكر الإصلاحات التي حققها أسلافه الخاقانات والوزراء ، والتي عزموا على تحقيقها في السابق قبل مدة ليست بالقصيرة واتخذ قراره دون تردد : سيطبق الشق الثالث . ستطبق الإصلاحات الأساسية (الراديكالية) . سوف يتبدل النظام . ووجد له اسم : النظام الجديد = (بالعثمانية : نظام جديد) .

بعد مضي عشرين ، يمكننا نحن المؤرخين أن نقول : إن البادشاه كان محقا في ترجيحه ذلك الشق . لكن هناك شيئا غاب عن نظر البادشاه هذا الشيء مهم جدا ، لم يستطع البادشاه أن يراه ، لكننا نستطيع رؤيته اليوم بعد دراستنا للأحداث ، ذلك هو :

أن الراديكاليين الذين رجح البادشاه وجهة نظرهم ، قد يدون في ظاهر الأمر متفقين ، لكنهم في الحقيقة يمثلون ٣ جماعات :

جماعة القائلين بأفضلية كل شيء أوروبى ، وأن كل شيء تركى ، عثمانى ، - ويجوز - إسلامى ، هو فاسد . وهؤلاء ، يعتبرون رومانطيقين ، كما أنهم يتنكرون للتاريخ التركى والعثمانى والإسلامى .

جماعة المصلحين الجريصين جدا على الثروة والنفوذ والسلطة ، وهؤلاء غايتهم الحصول على المناصب وامتصاص البلاد تحت شعار الإصلاح والتظاهر بالنظام الجديد .

و .. رجال الدولة المخلصون الذين يريدون نهضة تركية بإجراءات أساسية (راديكالية) سريعة .

كانت هذه الجماعة الراديكالية الأخيرة ، مقبولة . ومن الطبيعي أن تكون كذلك ؛ إذ لا يمكن الحصول على نتيجة ، إلا بترجيح رؤية هؤلاء . ومن الطبيعي أنه في حالة تدخل الجماعتين الآخرين ، فإن جماعة المخلصين هذه ستكون على مر الزمن ، غير قادرة على العمل .

والحاصل أن السلطان سليم الثالث ، اعتبر الراديكاليين كتلة واحدة . كان هؤلاء من مؤيدي النظام الجديد ، وكان واجبه كسلطان ، الدفاع عنهم تجاه المحافظين ، وحمايتهم من أن يكونوا لقمة سائغة لهم . وعند الشروع في تطبيق النظام الجديد ، كثر عدد المصلحين الذين لا هم لهم غير الانتفاع ، ظاهراً : يقولون بالنظام الجديد ، « النظام الجديد » وعملاً يركضون وراء جمع المال والملك ؛ والمناسب والرفعة والشهرة . ولذلك فقد أخذ المحافظون يتساءلون « أهذا هو النظام الجديد ؟ » ، أهؤلاء مرغوب فيهم أكثر منا ؟ « وفي النهاية » لماذا يقدم هؤلاء علينا ؟ . يجب وقفهم عند جذعهم . أخذت كتلة رجال الدولة ذوى النيات السيفة الذين همهم الانتفاع بدعوى أنهم المحافظون في تحريض كتلة المحافظين الوطنيين المخلصين حقاً . فترحماس الكتلة الكبرى تجاه النظام الجديد وتجاه موجدته ومثله الخاقان ، وامتنعوا عن مساندته بإخلاص . والحقيقة أنه لا يمكن تحقيق إصلاح حقيقي ، دون الاستناد إلى الكتلة الكبرى . كان من الممكن إجراء إصلاح في الجماعات الصغيرة والهبوط تدريجياً من الأعلى إلى القاعدة ، إلا أن هذا ، لايعنى نهضة بالمعنى الصحيح .

في الديمقراطية الغربية لانجد فرقا بين جوهر أهداف المحافظين والمصلحين من حيث المصالح العليا للدولة، ونشاهد أن كلا من الجماعتين تتولى الحكم ولانلاحظ خلافاً كبيراً بين أعمال بعضهم البعض .

سليم الثالث هو أول مصلح ، ورائد حقيقى في التاريخ العثمانى كله ، في جميع العالم الإسلامى ، في كامل آسيا ، يستلهم أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيتها العليا . كل الذين جاءوا بعده ، قلده .

كان أصحاب التقارير ال ٢١ ، من أكثرهم تحفظاً إلى أكثرهم راديكالية ، متفقين

في نقطة واحدة هي أن : الإصلاح يجب أن يبدأ في الجيش أولاً ! كان اتفاقاً مدهشاً . مدهشاً بالنسبة إلى تشكيلات الإنكشارية . ترى هل ترضى هذه التشكيلات بالإصلاح ؟ لم يتردد سليم الثالث أبداً : كان هنالك بين أجداده ، وبين الوزراء كثيرون فقدوا رعوسهم القيمة ولكنهم لم يتمكنوا من إصلاح الإنكشارية . كانت هنالك حاجة إلى جيش لا يتدخل في شئون الدولة والسياسة ، ولا يهيب الشعب عن طريق تدخله في السياسة ، ويطيع قيادته طاعة عمياء ويكون ملماً بالمأما جيداً بالعسكرية الحديثة . هذا الجيش سوف لا يشتغل بالصناعات ، لا يفرض الضرائب ، لا يزاول أعمال النهب ، لا يرفع السلاح في وجه وطنه وضابطه ، لا يهزم عند رؤيته العدو . سيكون على النظام والضبط الذي كان عليه الجيش في عهد القانوني ، لكنه سيكون مجهزاً بتكنولوجية العصر . سيكون غذاؤه جيداً ، لباسه جيداً ، راتبه جيداً .

تابع السلطان سليم ، بكتبه الهمايونية المستمرة ، حركة التجدد (النظام الجديد) خطوة بخطوة وقام بتوجيهها . نشرت كتبه الهمايونية (الأوامر السلطانية) حول النظام الجديد فقط في مجلدين . أسست خزانة ودفتر دارية (مالية) خاصة بالنظام الجديد لغرض الإصلاحات . وجعلت كوزارة مالية ثانية للدولة . وشرعت الدولة أولاً في تخرج جيش المشاة الحديث ، المدفعية الأكثر حداثة ، رغم أنها أصلحت مسبقاً ، المختصين في القنابل اليدوية (همباريه جي) ، في الاستحكام (لغمجي) ، في النقل (عربيه جي) . أنشأت معسكرات كبيرة لهذه الأغراض في مناطق لوند ، اسكدار ، سليمية . ومن ناحية أخرى ، كانت تشكيلات القابوقولو ورؤساؤهم التابعون لهم الإنكشارية ، لا تزال مستمرة . استقدم من أوروبا الضباط ، والمهندسين ، والبحريين . البس الجيش ملابس بطراز مستنبت من اللباس الأوروبي .

لم يكن الإصلاح في البحرية التركية ، بدرجة الإصلاح في الجيش البري . لأن سلك البحرية كان سلكاً أكثر استناداً على التكنولوجيا ، ولم يكن مشغولاً إلى الدرك الذي انحط إليه الجيش . لكن السلطان سليم ، كان يريد بحرية ذات قدرة كذلك . أمر بإنشاء أحدث السفن الكبيرة . عين داماد كوجوك حسين باشا ، قبطان دريا (مشير البحر) (١٠/٣/١٧٩٢) الذي كان شاباً في ٣١ من عمره وأخاً في الرضاة للسلطان سليم . تطوع لتنمية البحرية حتى وفاته مدة ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٨ يوماً . ويمكن اعتباره مؤسساً للبحرية التركية الحديثة .

لم يكن الأمر سهلاً ؛ لأن كامل الشعب ، كان مؤمناً بصورة عميقة - بأفضلية المدنية والثقافة العثمانية ، على الأوروبية .

أحيل داماد ملك محمد باشا ، الكبير السن إلى التقاعد (١٧٩٤/١٠/١٩) . دامت صدارته مدة سنتين ، ٥ أشهر ، ١٦ يوماً . صار عزت محمد باشا بكربك مصر السابق ، صدرا أعظم . ابن أخ قبطان دريا صفرانبولولو مصطفى باشا وعم القبطان دريا صالح باشا .

أعلن بمرسوم مهابوى فى ٢٤ شباط ١٧٩٣ ، نظام حركة التجدد (النظام الجديد) . ضعفت سلطة الباب العالى ولو فى قسم من الايالات ، كان قد مضى النظام القديم الذى كان يدار بشكل مركزى بحت . أصبحت ايالات الجزائر ، تونس ، طرابلس فى افريقيا الشمالية ، كأن لهم استقلالاً ذاتياً (Autonomy) . كان بكوات الممالك فى إيالة مصر التى تعتبر الإيالة الأولى فى البروتوكول ، يتمرّدون على البكربك - الوزراء الذين ترسلهم إستانبول ، ونشأت بكربكوات (ولاية) أرثية ، فمثلاً فى سوريا آل العظم ، وفى العراق ممالك الأيوبيين . وتركت اليمن لحالها لإدارة الإمام ، وحصلت عائلات « الأعيان » و « الأشراف » على نفوذ واسع فى منطقتى الأناضول ورومللى اللتين تعتبران شريان حياة الدولة . كانوا ينفذون أوامر المركز ، وحتى البادشاه ، فى حدود ما يحقق مصلحتهم . يرسل الجيش لتأديب ثلاثة أو خمسة منهم ولكن ، يحتل مكانهم خمسة أو عشرة وهناك من لا يقدر عليهم . نفشت حوادث السلب والنهب فى كل مكان واختل الأمن فى المدن وعلى رأسها إستانبول . كانت الإنكشارية ، كأنها مافيا فى إستانبول وخاصة فى رومللى ومدن أخرى . كانوا يجمعون الاتاوة من الجميع . كثرت حوادث هتك الأعراض . وبينما كان النظام الجديد فى محاولة تأسيس جيش مقتدر لافشال خطط تقسيم الإمبراطورية التى تحاك لها فى الخارج ، كانت الدولة فى الداخل وجها لوجه أمام هذه المشاكل .

(٧) الحرب العثمانية - الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠٢)

كانت أوروبا ، فى هذه الفترة ، تعيش دور الاضطرابات التى سببتها الحروب التى حدثت نتيجة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . حدثت الثورة الكبرى فى

نفس السنة التى جلس فيها السلطان سليم ، بعد عدة شهور (نيسان وتموز) . كان الجنرال القدير لفرنسا الثورة - التى أصبحت جمهورية فى ١٧٩٢ - فى أواخر العصر ١٨ ، هو نابليون بونابارت . ومنذ حرب Nigbolu فى ١٣٩٦ أى منذ ٤٠٠ سنة لم تعلن فرنسا ولاتركية الحرب على الأخرى منهما بصورة رسمية . حصلت مناقشات وخلافات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة القتال العام بين الدولتين . وخلال تلك الفترة ، اثبتت فرنسا أنها أقدر من انكلترا التى سبقتها قدرة عام ١٧٦٣ ، وأصبحت الدولة الأولى فى العالم . قضى الجنرال بونابارت على جمهورية البندقية فى ١٧٩٧ ووضع يده على أراضيها الموجودة فى دالماسيا ، واستولى على جزر ايونيا وأصبحت فرنسا فى وضع محاد لتركيا للمرة الأولى . قفز بونابارت إلى الهند ، كان قصده قطع شريان حياة انكلترا أعدى أعداء فرنسا . سار بونابارت ، مع الأسطول وبغارة فجائية ، استولى على مالطه (١٧٩٨/٦/١٢) وأنهى دولة فرسان مالطه . ثم شوهد أمام ميناء الاسكندرية ، دون أن يعلن الحرب على العثمانية (١٧٩٨/٧/١) . لم تستطع أية دولة أن تخمن أن الهدف هو مصر .

الأسطول الفرنسى ، كان يتكون من ٤٥٠ قطعة ، أكثرها سفن نقل . كانت تحمل ٣٥ ٠٠٠ جندي و ٢٥ ٠٠٠ من جنود البحرية . كان بونابارت ، أكبر عسكري فى التاريخ المسيحى ، كان عمره ٢٩ عاما . بقى ١٠ أيام فى الميناء واستولى على المدينة دون أن يمس الأهالى . ذكر فى منشوره الذى اذاعه باللغة العربية ، أنه جاء لمعاقبة بكوات المماليك الذين خرجوا على طاعة البادشاه ، وأنه سوف يترك المكان عند تثبيت سلطة البادشاه ، وأنه يحترم الدين الإسلامى واعرافه وعاداته . جاء مستصحبا معه وفدا كبيرا من العلماء والاختصاصيين . دأب هؤلاء على دراسة مدنية وثقافة مصر القديمة والحديثة ، تاريخها وجغرافيتها ، بحماس كبير ونشروا عند عودتهم إلى فرنسا ، كتابهم المشهور Description de L'Egypte المكون من ١٩ مجلداً مسلسل (الطبعة الثانية ٢٥ مجلداً) .

تقدم بونابارت من الاسكندرية إلى القاهرة . وفى ١٣ تموز شنت بكل سهولة جنود مراد بك أحد المماليك البالغ عددهم ١٠ ٠٠٠ ، الذى أراد سد طريق القاهرة (معركة رحمانية الميدانية) . وهزم بونابرت جنود الوزير أبو بكر باشا بكركبك مصر البالغ عددهم ٢٠ ٠٠٠ فى الحرب الميدانية التى جرت فى الجيزة فى ٢١ تموز ، خلال

وقت يقل عن الساعتين . اشتهرت هذه الحرب باسم « حرب الأهرام » . حيث جرت في الصحراء في سفوح الأهرام . وخطاب بونابارت الذي قال فيه لجنده قبل الحرب : « تاريخ ٤٠ قرنا ، ينظر إليكم من خلال هذه الأهرام » ، خطاب مشهور . وفي اليوم التالي ، دخل القاهرة . فرض ضرائب على الاغنياء (أخذ فقط من نفيسه خاتم زوجة مراد بك الذى فر إلى الجنوب ١٢٠ ٠٠٠ قطعة ذهبية) .

وبعد عدة أيام ، دخل الأميرال نلسون الذى كان يتعقب الأسطول الفرنسى منذ أسابيع ، إلى الاسكندرية وأحرق فى أنى قبر الأسطول الفرنسى برمته (١٧٩٨/٨/١) . ظل الجنرال بونابارت الذى أصبح مجردا من الأسطول ، حبيساً فى مصر .

عزل الصدر الأعظم عزت باشا ، على أساس أنه كان قبل تصدده الوزارة بكلمرك على مصر وأنه رغم اطلاعه على مصر بصورة جيدة ، لم يتمكن من تجهيز الإيالة ضد الخطر الخارجى (١٧٩٨/٨/٣٠) . لم يكن هذا السبب صحيحا ، إذ إن ماحققه بونابارت من أعمال فى القارة الأوروبية ، كانت أعمالا فوق العادة مثل فتحه مصر . دامت صدارة عزت باشا ٣ سنوات ، ١٠ أشهر ، ١٢ يوما . تصدر الوزير يوسف ضياء الدين باشا بكلمرك ارضروم . كان مثقفا ، ورجل دولة قديرا .

أعلن الباب العالى الحرب على الجمهورية الفرنسية (١٧٩٨/٩/٢) . وعلى هذا أصبح حليفا طبيعيا لانكلترا التى تحارب فرنسا . وقعت الاتفاقيتان العثمانية - الروسية (١٧٩٩/١/٣) والعثمانية - الانكليزية (١٧٩٩/١/٥) ، ضد فرنسا .

سار بونابارت ، فى أوائل شباط (١٧٩٩) من القاهرة . احتل غزه فى ٢٥ شباط ودخل فلسطين . وفى (١٣ آذار) جاء إلى يافا وذبح بالسيف مايقرب من ال ١٠ ٠٠٠ جندى ومدنى عثماني . اقترف هذا الجرم لإرهاب السكان المحليين والاستيلاء على سورية دون مقاومة . وفى (١٩ آذار) جاء أمام عكا وهى أقوى قلعة محصنة فى المنطقة . كان الوزير جزار أحمد باشا ، هو الذى يدافع عن القلعة . وكان وضعه جيدا لتسلمه الامداد من جنود النظام الجديد من إستانبول قبل فترة وجيزة . قدم الاسطول المشترك التركى - الانكليزى إلى مياه عكا وفتح النار على الفرنسيين ، الا أن هذا القصف لم يكن بالغ التأثير على الفرنسيين ، ولكنه رفع معنويات مدافعى

عكا وزاد من حماسهم . ظل بونابارات دون حراك أمام عكا . كان رجل حرب ميدانية . نفر من حصار القلعة . لكنه كان متورطا فيه ، وعندما قدمت في ٧ مايس وحدة جديدة من وحدات النظام الجديد المؤلفة من ٣٠٠٠ جندي ووقفوا في دخولهم قلعة عكا ، أصبح الفرنسيون في وضع خطر . كان بونابارات قد ترك عدة آلاف من الجنود في القاهرة . وعلى أثر فشله في عكا ، علم بقيام عصيان في القاهرة . وفي ٢١ أيار قطع أمله في الحصار الذي دام شهرين و١٤ يوما ، ودفن بصورة سرية كافة مهماته وانسحب من عكا . وفي ١٤ حزيران ، نجا بنفسه حيث وصل إلى القاهرة بعد أن طارده وحدات الجيش العثماني المظفرة . وقال بعدها « لولا أن وقفت عكا في طريقي ، لاستوليت على الشرق برمته » .

استقبلت أوروبا بسرور هذه الخسارة الأولى لبونابارات . أرسل سليم الثالث ، إلى جزار أحمد باشا اكليلًا من الذهب ، ومنح نلسون الذي أحرق الأسطول الفرنسي وساما من الماس . ولم يزوج بونابارات نفسه ابدا ، بعد ذلك التاريخ ، وإلى نهاية حياته في حصار قلعة ، وبحث عن العدو دائما في الصحراء المفتوحة .

أنزل كوسه مصطفى باشا ، قرب الإسكندرية ٨٠٠٠ جندي بواسطة ٨٠ سفينة . لكن الفرنسيين أسروه . (١٧٩٩/٧/٢٥) . تخلص أكثرية جنوده من الفرنسيين بصعوبة ، بهروهم إلى الأسطول . سار جيش من إستانبول متوجها إلى مصر . يظهر في هذا الوضع أن ليس لبونابارات حظ في الشرق . ترك مصر في ٢٥ تموز في سفيتين . وتمكن من الوصول إلى فرنسا ، دون أن تشعر به الأساطيل الإنكليزية والعثمانية . كان يريد إجراء المساومة حول مصر ، في باريس . كان قد بقي في مصر مدة سنة ، شهر ، ٢١ يوما . لم يتمكن من نسيان ذكرياته في الشرق حتى نهاية حياته . عين Kléber اقدر عسكري بين جنرالاته لقيادة الجيش الفرنسي في مصر ، وخلال وجود بونابارات في مصر ، احتل الاتفاق العثماني - الروسي جزر ايونيا وموانئ أبير الموجودة في حوزة فرنسا . وبموجب معاهدة ٢١ آذار ١٨٠٠ ، أعيدت إلى تركية الموانئ الأربعة الموجودة في أبير Epir ، وبضمنها Preveze . وأسست جمهورية الـ ٧ جزر في جزر ايونيا (كورفو... الخ .) وأعطيت لإدارة العثمانية مثل جمهورية Dubrovink . تسدد للباب ضريبة سنوية قدرها ٣ ملايين آقجه .

كانت فترة النصف الأخير لعام ١٧٩٩ ، عام ١٨٠٠ ، النصف الأول لعام ١٨٠١ ، مليئة بالمصاعب المتزايدة بالنسبة لجيش الاحتلال الفرنسي في مصر . انتخب الجنرال بوناپارت في باريس رئيسا للجمهورية بلقب « القنصل الأول » وكان يستعد لإعلان نفسه إمبراطورا . جاء الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) يوسف ضياء الدين باشا ، إلى غزة . أراد الدخول إلى القاهرة ، لكنه انهزم أمام Kléber . ومنى عظم - زاده وزير نصوح باشا ، بنفس العاقبة . وفي ١٤ حزيران (١٨٠٠) ، طعن ، تركى عمره ٢٤ عاما أسمه كليسى سليمان بك ، Kléber بطعنة خنجر اردته قتلا . قتل سليمان بك شهيدا بعد تعذيبه بالنار وطعنه بالوتد . سار القبطان دريا (مشير البحر) داماد كوجوك حسن باشا إلى الاسكندرية مع ٧٠ قطعة بحرية وحال دون عودة الفرنسيين عن طريق البحر . وعندما قطع الجنرال Bélard القائد العام الفرنسي الجديد ، أمله في حصوله على مساعدة من فرنسا ، ولمنع وقوع كارثة ، وقع على اتفاق إخلاء مصر (١٨٠١/٦/٢٧) . دخل الجيش العثماني في ١٠ تموز إلى القاهرة وفي ٢٦ آب إلى الاسكندرية التي يدافع عنها الجنرال Menou . اقيمت في إستانبول الأفراح لمدة ٤ أيام و٤ ليال . منح سليم الثالث لقب « غازى » بصورة رسمية . كان الانكليز قد أخذوا مالطة من الفرنسيين عام ١٨٠٠ .

وقعت معاهدة باريس بين تركيا وفرنسا (١٨٠٢/٦/٢٥) وقع المعاهدة باسم فرنسا ، وزير خارجيتها الأمير Talleyrand ، وباسم العثمانية ، سفير باريس وهو من مؤيدى حركة النظام الجديد المشهور غالب أفندى ، الذى صار بعدها الصدر الأعظم غالب باشا . استقال يوسف ضياء الدين باشا ، بعد صدارة دامت ٦ سنوات ، ٧ أشهر ، ٢٥ يوما (١٨٠٥/٤/٢٤) . وهذه أطول مدة صدارة ، اعتبار من ١٧٣٠ وحتى نهاية السلطنة . صار ، قبطان دريا حافظ إسماعيل باشا ، البالغ عمره ٤٧ عاما ، صدرا أعظم .

٨) الوهاية ومشاكل البلاد العربية

أخذت الحركة الوهاية التى ظهرت في البلاد العربية في التعاضم على مر الزمن واكتسبت درجة من الأهمية . وضع الفقيه الحنبلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

أسس مذهب سنى جديد . تلخص فلسفة المذهب فى إعادة الاسلام إلى منابعه الصافية فى عهد الرسول (ﷺ) ، وتنقية الدين من البدع . صار أمير نجد محمد ابن السعود صهرا للشيخ ، اتبع مذهبه ووفر له الامكانيات المادية لنشر المذهب . استمر أخلاف أمير نجد محمد ابن السعود الذى دامت إمارته مدة ٣٩ سنة حتى ١٧٦٦ ، على نشر نفس المذهب .

علم الباب العالى باتباع الأمير محمد فى ١٧٤٥ ، المذهب الوهاى . لم يظهر الباب العالى ، فى السنوات الأولى ، أى رد فعل ، بموجب السياسة العثمانية التى ترى عدم التدخل فى شئون المذاهب . ولكن عندما أخذت الحركة الوهاية فى الانتشار خارج نجد ، ارادت الدولة العثمانية أن تتخذ تدبير لذلك . وسع عبد العزيز ابن السعود بن الأمير محمد والذى احتل مكانه بعده والبالغ عمره ٤٣ عاما ، الدعاية لمذهبه وأخذ أتباعه فى الازدياد ودخل الحجاز فى أوائل عام ١٨٠٣ . وبعد حصار دام شهرا واحدا ، احتل الطائف . وفى ٣٠ نيسان دخل مكة . بقى فى مكة ٣ أشهر ، ٦ أيام . استرجع شريف باشا بكربك الحجاز ، مكة (١٨٠٣/٨/٦) . لكن مجرد بقاء مكة ، ولو لمدة قصيرة بيد الوهابيين ، أحدث تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى كافة وعرف العالم الإسلامى بالمذهب الجديد . طعن أحد الشيعة الأمير عبد العزيز بخنجر فى الجامع فى عاصمته درعية ، واستشهد (١٨٠٣/١١/٤) . كان عمره ٨٠ عاما . اكتسب المذهب الوهاى قوة كبيرة من خلال دعوته المتصلة طيلة ٣٧ عاما . ورغم شن ، أمير مكة شريف غالب ، ٣ حملات على نجد ١٧٩٠ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٨ لم يتمكن من القضاء على الوهابيين . أغار الأمير عبد العزيز الذى احتل الاحساء فى ١٧٩٠ على كربلاء (١٨٠٢/٤/٢١) ، وفى ١٨٠٠ و ١٨٠١ جاء إلى مكة متكررا بفرض الحج ودرس وضع المدينة . احتل مكانه ابنه الأمير سعود ابن السعود البالغ من العمر ٥٥ عاما والذى كان يقوم بإدارة الوهابيين ونجد منذ عام ١٧٨٧ باسم أبيه . احتل عمان مرتين فى ١٨٠٣ و ١٨١١ . حكم المدينة مدة ٧ سنوات ، ٥ أشهر (حزيران ١٨٠٥ - ١٨١٢/١٢/٢) ومكة مدة ٧ سنوات (١٨٠٦/٢ - ١٨١٣/١/٢٣) .

وهكذا انتقلت المشكلة الوهاية من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى . كانت تدبير البلاد العربية الأصلية فى النظام العثمانى السلالات المحلية التى يرأسها حكام

محمليون باسم شيخ أو أمير . ويوجد في مكة والمدينة أحد شرفاء الهاشميين بلقب أمير . كان يشرف على إدارة القسم الغربى من البلاد العربية ، بكركبك العثمانية الساكن في جدة ، أما القسم الشرقى فكان يديره بكركبك البصرة أو بغداد ، وفي بعض الأوقات بكركبك الإحساء ، ويدير القسم الشمالى بكركبك الشام . كان البكركبكوات (الذين برتبة فريق) يسعون في تنظيم علاقات الشيوخ مع الأمراء التى لم تكن جيدة .

ظهر الوضع الذى فتح المشاكل الكبيرة على الباب العالى والدولة العثمانية ، فبينما كان الباب العالى يشك في بكوات الماليك ، إذ بهذه المصيبة تتطور بالشكل الذى لا يؤمل ، وتأتى على يد شخص يأتى من الخارج ، هو محمد على باشا .

عندما دخل محمد على آغا ، مصر في ١٧٩٩ ، كان عمره ٣٠ عاما . كان أميا ولا يجيد العربية أبدا . ولد في Kaval في مكدونيا الجنوبية . كان واحدا من ١٧ ولدا لإبراهيم آغا ، أحد الضباط العثمانيين من عائلة جاءت من قونيا وسكنت مكدونيا . جاء محمد على من قاوالا إلى مصر كمساعد لابن عمه خليل آغا الذى عين بأمر الدولة قائدا لسرية مؤلفة تقريبا من ٢٠٠ متطوع اختيارى . كانت مصر لاتزال تحت الاحتلال الفرنسى . وعندما فر خليل آغا إلى قاوالا ، ترأس محمد على السرية . أخذ يكتسب الأهمية بصورة مطردة بعد الاحتلال الفرنسى . سخر الجنود المتطوعون الانكشاريون الموجودون في مصر ، بكوات الماليك ، ضد البكركبك خسرو باشا (الذى صار صدرا أعظم بعد ذلك) . كان يقبض على بكوات الماليك الذين يخرجون على طاعة الباب العالى ويقطع رؤوسهم . جذب انتباه الباب العالى ، هذا الضابط الشاب ، الذى عمل مالم يستطيع عمله بكركبك مصر ، فبدأ يعتمد عليه . عرض محمد على على الباب العالى ، أنه سيذهب إلى الجزيرة العربية ويقضى على الوهابية ، فيما إذا منح رتبة البكركبك . أصبح محمد على بكركبك مصر برتبة وزير (١٨٠٥/٧/٨) . وخلال ٦ أشهر احتل مصر ذلك القطر الكبير الذى لم يكن يعرفه من قبل .

٩) الثورة الصربية والحرب مع روسيا (١٨٠٦)

ثار الصرب في ١٨٠٦ . أحد أسباب الثورة هو فكرة القومية التي نشرتها الثورة الفرنسية في كافة أوروبا وانتقال شرارتها إلى الأقوام المسيحية للدولة العثمانية . السبب الآخر ، هو معاملة جماعة الإنكشارية بوجه خاص للمسيحيين في البلقان معاملة سيئة ، كان الانكشاريون خلال هذه الأيام ، قد مزقوا محافظ بلغراد حاجي مصطفى باشا . ويمكن أن تتصور زمرة تعامل قائدها بهذا الشكل ، كيف يمكن أن تعامل المسيحيين . وكما هو الحال في الأناضول ، فإن روملي وهي الجناح الآخر للدولة ، كانت كذلك تحت سيطرة الأشقياء الذين يطلق على أكبرهم اسم « أعيان » وكان لبعضهم جيش لا يستهان به ، فمثلا ، كان لكل من بازقان اوغلو عثمان آغا في Vidin ، تيرسينيكي اوغلو اسماعيل آغا في روسجك قوة كبيرة . ولسحق أعيان روملي ، استدعى سليم الثالث ، الوزير قاضي عبد الرحمن باشا اشهر قواد حركة النظام الجديد ، من قونية إلى إستانبول . سار الباشا ، مع ٢٤٠٠٠ من جنود النظام الجديد إلى إستانبول (١٨٠٦/٦/٢) . سار في ١٥ تموز إلى أدرنة وفي الطريق ، قضى على من صادفه من الأعيان ، اقطاعيين ، اشقياء ، جبابرة . شكوا اعداء النظام الجديد من رجال الدولة الموجودين في إستانبول ، الباشا ، إلى السلطان بأنه سفك دماء المسلمين . أمر السلطان سليم ، عبد الرحمن باشا ، بالعودة . وبهذا فقد عرقل عملية تنظيف روملي من الأشقياء الجبابرة ، وإضافة إلى ذلك ، سبب اتساع ثورة الصربيين . ومن ناحية أخرى ، كان ذلك تنازلا كبيرا لأعداء النظام الجديد ومشجعا لهم .

لم يكن كل الأعيان من أعداء النظام الجديد ، بل كان بعضهم من مؤيديه ، وأحد هؤلاء هو أعيان Serez إسماعيل بك . والآخر ، هو علمدار مصطفى آغا ، أعيان روسجك الذي احتل مكان تيرسينيكي اوغلو بعد مقتله .

شجعت ألمانيا (النمسا) ، الثورة الصربية . كان زعيم الثورة ، قره يوركي صنيعة فينا . وفي ١٨٠٤ ، خان أسياده ، وتقرب إلى روسيا من حيث المذهب والقومية . وبعد كفاح طويل احتل بلغراد وذبح بالسيف كافة المسلمين في المدينة (١٨٠٦/١٢/١٣) . أعلنت روسيا الحرب على العثمانية ، بغية استمرار الثورة

الصربية وعدم القضاء عليها وعلى أمل الحصول على فتوحات جديدة .

استولى الجنرال Mihelson مع ٦٠.٠٠٠ جندى على Bender (١٨٠٦/١٢/٨) ، وخوتين (١٨٠٦/١٢/١٦) . وبعد استيلائه على Kiliye و Akkerman ، احتل سواحل البحر الاسود لبيسارايا . انهزم في اسماعيل ووقف عند دلتا الطونة . بدأت حرب روسية - عثمانية بعد ١٤ سنة ، ١١ شهراً ، و ١٤ يوما من معاهدة ياش . انتقلت الحرب من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثاني .

عزل الصدر الأعظم حافظ اسماعيل باشا ، بسبب تصريجه بعدائه لحركة النظام الجديد بعد سنة ، ٦ أشهر ، ٢٠ يوما (١٨١٦/١١/١٤) . صار ابراهيم حلمي باشا آغا الإنكشارية ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . وعندما سار إلى الجبهة ، صار الوزير كوسه موسى باشا قائمقام الصدرة (وكيل رئيس الوزراء) في إستانبول . وعندما انتصر ، خلال هذه الاثناء ، وإلى سلستره الوزير علمدار مصطفى باشا قرب بخارست ، على الروس للمرة الثانية ؛ هرعت انكلترا لنجدة حليفها روسيا لانقاذها من وضعها السيئ . سار أسطول البحر الأبيض الانكليزي المكون من ١٦ سفينة حربية بقيادة الفريق البحري الأدميرال John Dukworth ، ورغم أنه اجتاز مضيق جنالقة وجاء أمام إستانبول (١٨٠٧/٢/٢٠) ، إلا أنه خرج مستعجلا من بحر مرمره . وفي هذه المرة ، قرر نفس الاميرال تجربة حظه في مصر . احتل الإسكندرية (١٨٠٧/٣/٢٠) . لكن بعد عدة شهور ، أخرجه من الاسكندرية قاواالى محمد على باشا . صنع هذا الانتصار لمحمد على باشا البالغ عمره ٣٨ عاما شهرة كبيرة في أوروبا . الصدر الأعظم الذى سار في ١٢ نيسان (١٨٠٧) وصل سلستره في ٢٤ أيار . ولرفض تشكيلات القابوقولو ، الخروج إلى الحملة سوية مع جنود النظام الجديد ، لم يرسل الجيش الجديد إلى الجبهة . من الواضح أن دولة كهذه ، لايمكنها الانتصار في حرب كبرى . ولكن عند الوصول إلى سلستره ، رفضت الإنكشارية عبور الطونة ودخول رومانيا خوفا من الروس الذين كانوا قد ضربوهم ضربا مبرحا في الماضى ، ولأن الروس لم يتمكنوا من حشد قوات كبيرة على الجبهة ، خوفا من نابليون ، أنقلبت الحرب إلى حرب تعادل . أخذ الأسطول الروسى بالتجوال حول بوزجه آدا ، لكنه انسحب عندما جاء القبطان دريا (المشير البحرى) جزائرى

سیدی علی باشا . استولی الروس فی قفقاسیا علی تفلیس . منح یوسف ضیاء الدین
باشا الصدر الأعظم الأسبق وبکلربک ارضروم لقب السردار (قائد) وانیط به
الدفاع عن الجبهة الشرقية .

(١٠) ثورة قباچجی (١٨٠٧/٥/٢٥)

عندما كانت الدولة العثمانية فی حالة حرب مع انکلترا وروسيا اللتين كانتا الدولتين
العالميتين المقتدرتين الثانية والثالثة بعد الإمبراطورة الفرنسية ، وكان وضعها الداخلي
كذلك یزید له ، وحتى إستانبول كانت بؤرة للإرهاب ، حدثت ثورة تشبه ثورة
باترونا التي جرت قبل ٧٧ عاما ، وأكثر منها ضررا من حيث النتائج . كانت حركة
رجعية تماما .

كان العلماء فی البداية ، مترددين تجاه حركة النظام الجديد . كان بينهم من یؤید
الحركة . لكن عدم قدرة بعض رجال النظام الجديد ، وسوء تصرفهم شاع بشكل
مفضوح . بدأ العلماء فی المعارضة . وعند مجيء اسحق - زاده محمد عبد الله أفندی
إلى المشیخة (١٨٠٦/١١/١٤) ، وعلى الرغم من أنه كان من عائلة قره اسحق -
زاده التي شرفت التاريخ العثماني والتي قدمت الكثير من شیوخ الاسلام ، أخذ
على عاتقه عملا غیر شریف وحرص العلماء على العصیان ضد النظام الجديد وضد
مؤسس هذا النظام البادشاه . من ناحية أخرى كان سليم الثالث كثير التنازل ،
كان فنانا كبيرا یتحاشى سفك ولو قطرة واحدة من الدماء . لم تكن أخطاؤه قليلة ،
كان كأنه یرید هدم آثاره التي أنشأها بيده . ظن أنه إذا قدم تنازلا ، فإن
المعارضین سیلینون ، والحال ، انهم تشجعوا . لم یتمكن رغم محاولاته ، من
تصفية تشکیلات القابو قولو . أما هم ، فكانوا یعلمون أنهم یعيشون بأیامهم
الأخيرة . سواء كانوا الجند المخلصین الذين یؤمنون بأن ابتعادهم عن تقالیدهم ،
وتركهم تشکیلات تقلل من شرفهم ، أو الذین یخشون من فقدانهم الكثير من
دخلهم حيث سیتصر الدخل على الراتب فقط فی حالة دخولهم النظام الجديد ،
لم یكونوا راغبین فی الانفصال عن تشکیلات القابو قولو وتسجيل أنفسهم

في حركة النظام الجديد . كان عدد جنرالات الإنكشارية المثقفين الذين يوقنون بعدم إمكان القتال مع الدول الأوروبية بواسطة هذه التشكيلات كبيراً ، وكان هؤلاء مقتنعين بأنه ليس هنالك حل بغير الغاء هذه التشكيلات ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم بسبب كونهم من ذوى الرتب العالية ، حيث أنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون إلى مناصب أخرى . لكن عدم وجود الشجاعة الكافية لدى البادشاه لالغاء هذه التشكيلات ، زادت من شجاعة المعارضين . كان رجال الدين الجهلة المتعصبون تعصبا أعمى يدعون أن جيش النظام الجديد كافر لانه يرتدى البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطي النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع) ، وأن البادشاه سوف يلبسهم القبعات كذلك وكانوا يثيرون الجهلة بمثل هذه الأقوال . خصصت الدولة للنظام الجديد ميزانية ضخمة قدرها ٣ مليارات آقجه . أما زمرة القابو قولو فكانوا يتسلمون رواتبهم التي تسمى علوفه بصعوبة . كانت الدولة تدفع رواتبهم كرها وتعتمد تأخيرها ، لأنها تعلم أنهم جميعا يشتغلون بالصناعات المختلفة ويتسلمون الجزية . لم يكن من السهل إعاشة جيش طفيل بالإضافة إلى إعاشة جيش نظامي . كانت هذه التغيرات التي من الواضح جدا أنها من النمط الأوروبي ، تستثير المواطن المحافظ . ولم يكن هؤلاء قليلين . كانوا يتساعلون ، بأى جيش ذهبنا إلى فينا ؟ ولم يكن أحد منهم يسأل نفسه بأى جيش دافعت أوروبا عن فينا . كان سليم الثالث ، يعامل ولى عهد - شهزاده مصطفى الذى كان يعامله أبوه بشفقة كبيرة عندما كان وليا للعهد ، معاملة حسنة جدا . لكن السلطان مصطفى هذا ، كان يحرض معارضى النظام الجديد ضد السلطة في سبيل اعتلائه العرش ، وحتى ولع سليم الثالث بالفنون الجميلة ، عزفه على الطنبور ، الناي ، غناؤه ، تلحينه .. كان موضوع نقد . هل يليق بالخاقان - الخليفة أن ينصرف إلى أعمال غير لائقه كهذه ؟ أخوات البادشاه ، السلطانة بيخان ، والسلطانتان خديجة وأسماء والأخت الكبرى لولى العهد ، كن يعشن حياة تكاد تكون أوروبية في السرايات (القصور) الكائنة على المضيق . كن يتقابلن مع رجال الفن الأوروبيين كالعمار Melling ، ويستمتعن بنشوة إلى الاشعار الغرامية كأشعار الشيخ غالب . وصار ذلك موضوعا للقبل والقال في الأوساط المتعصبة .

وفي ٢٥ أيار ، تمرد مساعدو الانكشارية الموجودين في فحة مضيق إستانبول على

البحر الأسود، بتحريض من رجال الدولة السالف ذكرهم ، ونصبوا على رأسهم جنديا اسمه قاسطامونيلي قباقي مصطفى . رفضوا لبس ملابس النظام الجديد ومزقوها . مزقوا شر ممزق محمود رائف أفندى ناظر المضيقي رئيس الكتاب (وزير الخارجية) السابق ، الفنان والعالم المتميز المسمى « انكليزي » لأنه أكمل تحصيله في انكلترا . عدة مئات من الفوغاء السفلة الذين مزقوا قائدهم خاصكى خليل آغا ، أخذوا ينتظرون الأوامر من رئيسهم الحقيقي كوسه موسى باشا (لغرض إنقاذ الشريعة) ، الذى كان وكيلا للمصدر الأعظم الذى ذهب إلى الحرب ، وبعد أن أمر الباشا بعدم خروج جنود النظام الجديد من معسكراتهم ، أقنع البادشاه ، بأنه سوف يتمكن من القضاء على هذه الحفنة من العصاة بواسطة البستانجى لى (محافظى حدائق السراى) ، وأن اقحام وحدات النظام الجديد ، سوف يسبب إثارة أفراد تشكيلات القابوقولو . وبذلك لم يصدر سليم الثالث، أمر خروج وحدات النظام الجديد من معسكراتهم .. وهكذا بدأ دور الرجعية الشثوم الذى سيستمر ١٩ عاما ، وسيترتب على هذا أن تعجز تركية عن سد هذه الفجوة الزمنية حتى يومنا هذا

كوسه موسى باشا وطوبال عطاء الله أفندى اللذان أجبرا سليم الثالث على الغاء النظام الجديد فى ٢٨ أيار لتسكين زمرة القابوقولو ، عزلا فى اليوم التالى البادشاه عن عرشه . وهكذا كانت عاقبة أكثر الحكام ثقافته وتقدمية فى الفكر وأقدر حاكم شهدته الدولة العثمانية منذ ١٦٧ عاما . دامت سلطنته ١٨ سنة ، وشهرا ، و٢٢ يوما . اعتلى العرش مكانه ابن عمه مصطفى الرابع الذى يصغره بـ ١٧ عاما ، و٨ أشهر ، ١٥ يوما . ذبح الباب لعهد الرجعية لمدة ١٩ عاما ، وهو العهد الذى فقدت فيه الدولة - التى لم تستطع تأسيس جيش حديث - الكثير من أراضيها . والأهم من ذلك ، أن أوروبا ، فى هذا الدور استعملت البخار فى الصناعات وحقت الانقلاب الصناعى . كانت سن سليم الثالث تتجاوز الـ ٤٥ بـ ٥ أشهر و٧ أيام .

(١١) الدول العالمية عند حلول القرن ١٩ (١٨٠٠)

تقدر نفوس العالم فى عام ١٨٠٠ بـ ٢٠٥ ٠٠٠ ٨٣٩ نسمة :
٤٦٠ ٠٠٠ ٥٤١ منهم فى آسيا ، ٩٧٦ ١٨٨ فى أوروبا ، ٨٥٧ ٧٦

في أفريقيا ، ١٥٩٨٢ ٠٠٠ في أمريكا الشمالية ، ١٢ ٩٧٥ ٠٠٠ في أمريكا الجنوبية ، ٢ ٩٥٥ ٠٠٠ في أوقيانيا . وتقدر الزيادة في نفوس العالم خلال ١٧٥٠ - ١٨٠٠ بمقدار ١٤٠ مليون نسمة . وخلال ١٨٠٠ - ١٨٢٥ بمقدار ١١٦ مليون نسمة . ووصل نفوس العالم في ١٨٣٥ تقريبا ، إلى مليار نسمة ، وللمرة الأولى خلال القرن الجديد تصل نفوس مدينة مسيحية (لندن) إلى مليون نسمة في ١٨٠٠ تقريبا ، وتجاوزت نفوس ٢٢ مدينة أوروبية ١٠٠ ٠٠٠ نسمة في كل منها .

كانت فرنسا ، خلال ١٧٩٩ - ١٨١٢ ، أقدر دولة في العالم . وبعد ١٨١٢ وحتى ١٩٤٠ صارت انكلترا أقدر دولة في العالم . كانت فرنسا خلال ١٧٩٢ - ١٨٠٤ جمهورية ، وخلال ١٨٠٤ - ١٨١٥ امبراطورية ، ثم ملكية مرة أخرى . تقدر أراضي ونفوس الدول في عام ١٨٠٠ بالنسبة لتسلسل أهميتها بما في ذلك مستعمراتها كما يلي :

جمهورية فرنسا ٣٨١٨٨٤٩ كم^٢ و ٣١١٣١٠٠٠ نسمة (باريس ٧٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٣٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ١١٥٠٠٠ ، نانتي ٩٦٠٠٠ ، بوردو ٩٥٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٣٢٤٢٨٦٦ كم^٢ و ٧٨٥٥٠ ٠٠٠ نسمة (لندن ١٠٠٠ ٠٠٠ ، دبلن ١١٠ ٠٠٠ ، كلاسكو ١٠٢٠٠٠ ، بريستول ١٠٠ ٠٠٠) .

امبراطورية روسيا ١٧٨٥٠ ٠٠٠ كم^٢ و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (بطرسبورغ ٢٣٠ ٠٠٠ ، موسكو ٢١٠ ٠٠٠) .

امبراطورية تركيا ١٢١٨٧٧٠٥ كم^٢ و ٦٣٧٠٠ ٠٠٠ (إسطنبول ١٥٠٠ ٠٠٠ (المدينة الأولى في العالم) القاهرة ٤٠٠ ٠٠٠ ، أدنة ٣٠٠ ٠٠٠ ، الجزائر ١٢٢٠٠٠ ، تونس ١١٢٠٠٠) (لم تحسب المدن الموجودة في قارة آسيا) .

الامبراطورية الصينية ١١٧٦٥٠٠٠ كم^٢ و ٢٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

الامبراطورية الألمانية ٩٨٠ ٢٣٦ كم^٢ و ٤١٤٧٠ ٠٠٠ نسمة (فيينا ٢٥٠ ٠٠٠ ، البندقية ١٦٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ١٢٠ ٠٠٠) : ألفى الامبراطور

نابليون الامبراطورية الألمانية في ١٨٠٦ ، وسميت الامبراطورية النمساوية . وقد انفى
مايقار ٥٠ دولة ألمانية كانت ضمن الامبراطورية ، وترك مايقارب الـ ٣٠ دولة . وكل
هذه الدولة انفصلت عن الامبراطورية النمساوية وشكلت دولاً مستقلة .

الملكية الإسبانية ١٤٨٨٧٠٤٨ كم^٢ و ٣١١٥٥٠٠٠ نسمة (مدريد)
١٦٤٠٠٠ ، المكسيك (١٢٥٠٠٠) .

ملكية بروسيا ٢٨٠٠٠٠ كم^٢ و ٩ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (برلين ١٩٠ ٠٠٠) .
امبراطورية ايران ١٧٣٥٦٥٤ كم^٢ و ١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

عدا هذه الدول الكبرى ، فان تقديرات أراضي ونفوس بعض الدول الأخرى ،
كانت كما يلى : ملكية البرتغال ٨٨٠٢١٩٢ كم^٢ و ٨٣٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه
٢٨٠٠٠٠) ، جمهورية هولندا ١٠١١٠٨١ كم^٢ و ٨٤١٥٠٠٠ نسمة (امستردام
٢٢٠٠٠٠) ، ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم^٢ و ٣٧٠٠ ٠٠٠ نسمة ، ملكية
الدانمارك ٥٢٨٩٥٧ كم^٢ و ٢١٥٨٠٠٠ (كوبنهاغن ٩١٠٠٠) ، البابوية
٣٥٣٣٦ كم^٢ و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة (روما ١٦٥٠٠٠) ، ملكية الصقليتين
٩٨٩٢١ كم^٢ و ٦٣٥٠٠٠٠ نسمة (نابولى ٤٠٠ ٠٠٠ ، باليرمو ١٠٥٠٠٠) ،
ملكية ساردونيا ٥٢٧٥٢ كم^٢ و ٣١٥٠ ٠٠٠ نسمة (توينو ٩٢ ٠٠٠) ، جمهورية
سويسرا ، ٤١٢٩٥ كم^٢ و ١٨٧٥ ٠٠٠ نسمة ، دوقية توسكانا الكبرى
٢١٤٨٩ كم^٢ و ١١٢٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ليكوريا (جنويز) ٥٤١٧ كم^٢ و
٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ماوراء الألب ٤١٩٣٤ كم^٢ و ٣٥٠٠ ٠٠٠ نسبة
(ميلانو ١٤٠ ٠٠٠) ، اتحاد الولايات الأمريكية ١٩٥١٧٨٠ كم^٢ و ٤٣٠٨٠٠٠
نسمة .

امبراطورية اليابان ٤٤٤٥٩٩ كم^٢ و ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية
الأفغان ٩٢٢٣٢٣ كم^٢ و ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الهند ٢٩٢٨٨٧ كم^٢
و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، خانات تركستان ٣٩٥٢٠٠٠ كم^٢ و
١١٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم^٢ و ٨ ٠٠٠ ٠٠٠

نسمة ، ملكية بورنو ٢٦٠ ٣٠٤٠ كم^٢ و ٧٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .
ممالك الزوج الأفريقية المجهولة ١٢٣٨٢٢١٢ كم^٢ و ٣٥٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ،
أوقيانيا المجهولة ٨٢٠٧٢٤٤ كم^٢ و ٢٨٠٠ ٠٠٠ نسمة .

(١٢) مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨)

مصطفى الرابع الأبن الكبير لعبد الحميد الأول . أمه ، السلطانة - الوالدة عائشة
سينه برور (Sineperv) (١٧٦١ - ١٨٢٨/١٢/١١) . كان السلطان مصطفى
وليا للعهد مدة سلطنة ابن عمه السلطان سليم الثالث التي استمرت أكثر من ١٨
سنة . كان عمره عند وفاة والده وشغله منصب ولي العهد ، يتجاوز الـ ٩ سنوات بـ
٧ أشهر . توفيت ابنة السلطان مصطفى الوحيدة التي ولدت بعد وفاته ، بعد
٦ أشهر ، ولم يرزق بأولاد عداها .

ورغم أن السلطان مصطفى وصل إلى العرش مستندا إلى فكرة مخالفته النظام
الجديد ، فإنه قتل المتسببين في ثورة قباچجى فردا فردا .

كان قد قتل في الثورة ، قسم من رجال النظام الجديد ، وتمكن القسم الآخر
من الفرار ، ولجئوا إلى علمدار مصطفى باشا ، أحد مؤيدى النظام الجديد في
روسجك . ويطلق عليهم « روسجك ياراني » (أصحاب روسجك) . وبتشجيع
رجال الدولة هؤلاء (الذين أكثرهم شباب) ، قرر علمدار ، لإجلاس سليم الثالث
على العرش مرة أخرى . ولكن السلطان مصطفى ، الذى مل من تحكم شيخ
الإسلام طوبال عبد الله أفندى الذى يعتنق الدكتاتورية ، ويميل إلى تحكم الأتقياء ،
استدعى علمدار مع جيشه إلى إستانبول . قتل علمدار فى الطريق قباچجى مصطفى
(١٨٠٨/٧/١٣) ووصل إستانبول فى ١٩ تموز . ذهب السلطان مصطفى إلى
سراى داود باشا ، خارج إستانبول واستقبل علمدار . عرض « أصحاب روسجك »
على علمدار اعتقال البادشاه هنا ، فقال علمدار بأن ذلك يتناقى مع الرجولة ، وهكذا
أضاع الفرصة .

عزل ، السلطان مصطفى ، شيخ الإسلام مستندا على علمدار . وفى نفس اليوم ،
نفى العلماء الذين تدخلوا فى الحركة الرجعية . شكر البادشاه ، علمدار على خدماته

وأمر بعودته وعدم تركه سواحل الطونة . تلكأ علمدار مدة أسبوع ، دون قصد . وفي النهاية اقتحم مع ١٥٠٠٠ من جنوده الباب العالى ، وأخذ الختم الهمايوى من الصدر الأعظم عنوة . استمرت صدارة جلى مصطفى باشا مدة سنة وشهر ، و ١٠ أيام . وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم بصورة فعلية ، وإن لم يكن بصورة شرعية .

جاء بعد ذلك إلى سراى طوب قابو الذى يبعد عنه قليلا . علم البادشاه بمحادث اقتحام الباب العالى ، وعلم بمقصد علمدار ، فاتخذ تدابير المشومة . لكن علمدار بدلا من اعتقاله البادشاه أرسل شيخ الإسلام إليه عارضا عليه التنازل عن العرش . أمر السلطان مصطفى الذى لم يستمع حتى إلى أقوال شيخ الإسلام ، بقتل الخاقان السابق سليم الثالث وولى عهد - شهزاده السلطان محمود . وبذلك يبقى هو الوحيد من بنى عثمان على قيد الحياة ، حيث لم يكن هنالك شهزاده (أمير) آخر غيره .

استشهد السلطان سليم بعد مضى ١٨٦ سنة وشهرين ، و ٩ أيام ، على واقعة « هائله عثمانية » التى استشهد فيها عثمان الثانى . وبامر السلطان مصطفى ، اقتحم ٢٥ شخصا من موظفى السراى ، شقة سليم الثالث ، رئيس الدولة الكبير الذى كان انذاك ينفخ على الناي ، وقتلوه شهيدا بالساطور (١٨٠٨/٧/٢٨) كانت سنة تتجاوز الـ ٤٦ بـ ٧ أشهر وه أيام . نقل جثثانه فى اليوم التالى فى حشد غفير إلى مقبرة لاله لى جوار أبيه مصطفى الثالث . لا ولد له .

بعد أن أجهز القتل على السلطان سليم ، دخلوا شقة ولى العهد . كان ولى العهد ينتظر ويده السيف . كان رجاله قلائل ، ففضى عليهم أثناء دفاعهم عن ولى العهد . أخرج السلطان محمود بتضحيات كبيرة من نافذة غرفته إلى السطح وأنزل بالسلام إلى الفناء . كان الفناء فى هذه الاثناء قد امتلأ بجنود علمدار . نجت حياة السلطان محمود .

ولكى يقضى مصطفى الرابع على أمل علمدار ، أمر بنقل جسد سليم الثالث إلى الفناء . وعندما انكب علمدار على النعش باكيا ، جاء السلطان محمود ، وكان أول من بايعه علمدار مصطفى باشا .

دامت سلطنة مصطفى الرابع سنة ، وشهرين . وهى أقصر مدة سلطنة فى التاريخ العثمانى بعد مراد الخامس (١٨٧٦) .

(١٣) جلوس محمود الثانى (١٨٠٨/٧/٢٨) .. وشخصيته :

أمر السلطان محمود ، بقتل مايقرب من ١٠٠٠ شخص من الذين قتلوا السلطان سليم ، أو تفرجوا على قتله أو لم يتأثروا لمقتله وكان بينهم ١٠ جوار . ولعدم إمكان إعدام النساء فى النظام العثمانى ، فقد تم خنقهن وإلقاؤهن فى البحر خارج موقع قيز قوله سى .

كانت سن السلطان محمود تتجاوز الـ ٢٣ عاما بـ ٩ أيام . كان تلميذا لابن عمه سليم الثالث الذى يكبره بـ ٢٣ سنة و٧ أشهر ، و٢٧ يوما ووارثا لجميع أفكاره . ربه سليم الثالث الذى لم يكن له اولاد كابنه من صلبه . علمه سليم الثالث ، النفخ فى الناي ، العزف على الطنبور وحتى الموسيقى . أما توصياته السياسية ، فكثفها خاصة خلال الـ ١٤ شهرا الأولى من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان البادشاه السابق يلتقى بكثرة مع ولى عهد - شهزادة بحجة تعليمه الموسيقى . استفاد السلطان محمود الذى يكن للسلطان سليم حبا عميقا ، من كافة اخطائه . كان يملك الصفات التى تؤهله لتقييم هذه الأخطاء . والحقيقة أن السلطان سليم ، سرد له معظم اخطائه بعد إجباره على التنازل عن العرش ، واوصاه بعدم الوقوع فى الأخطاء التى وقع هو فيها . وازاء الوضع الذى أصبح يتعدى كونه مسألة صيانة شرف سلالة ، إلى كونه مسألة صيانة مستقبل وكيان دولة ، التقت - باقتناع تام - ارادة سليلى بنى عثمان الاثنى : ذو العمر الناضج ، والشاب .

محمود الثانى ، هو الابن الصغير لعبد الحميد الأول وجد جميع بنى عثمان الذين عاشوا حتى يومنا هذا ولايوجد سلالة مستمرة من بادشاه يسبقه . أمه السلطانة الوالدة نقش دل (١٧٦٨ - ١٨١٧/٨/١٨) . لم يكن قد بلغ من عمره الرابعة عند وفاة أبيه . وكان بنفس العمر عندما صار ولى العهد الثانى لسليم الثالث الذى تبناه . كان أخوه الكبير مصطفى الرابع يكبره بـ ٦ سنوات تقريبا . صار وليا للعهد مدة ١٤ شهرا عند جلوس أخيه على العرش .

كان محمود الثانى الذى يسمى كذلك الأدبى « عدلى » ويحمل لقب « غازى » منذ ١٨١٣/٥/٢٨ ، شاعرا ، ملحنأ ، نافخا فى الناي ، طنبوريا ، مغنيا ، نقشيا ومولويا وهو خطاط عظيم فى خط الثلث والنسخ والجلي . أعظم بادشاه جاء منذ وفاة السلطان سليمان القانونى فى ١٥٦٦ وحتى نهاية السلطنة ، مؤسس تركية

الحديثة والجيش التركى . من أكبر الشخصيات التاريخية التى أنجبها التاريخ التركى . قامته تكاد تكون أقرب إلى الطول ، موزون الجسم ، جميل الوجه ومستديره تقريبا ، أسود اللحية ، ذاهية فى السياسة والأمور الإدارية ، ذكى ، وقور فعال ، جسور ، ذو عزم ، صبور . تمكن خلال سلطته ، من السياحة إلى سواحل الطونة (١٨٣١ - ١٨٣٧) ، وبواسطة يخته البخارى إلى جزر رودس (١٨٢٧) ، ومرتين إلى غاليفول وبولايير ، وزار فى الأناضول المحلات القريبة كازميت فقط . له الملم بعلوم عصره الحديثة ، وتعلم فيما بعد الفرنسية كذلك . له الملم بالثقافة واللغات الشرقية وإن لم يكن بدرجة سليم الثالث .

١٤) واقعة علمدار (١٨٠٨/١١/١٥) ، انتصار الرجعية الحاسم

استدعى « الأعيان » من الأناضول ورومللى إلى استانبول ، وأفهموا أن الدولة فى حالة حرب مع روسيا وحرروا ميثاق الاتفاق المسمى « سند اتفاق » (سند الاتفاق) الذى بموجبه وقعوا على أنهم سيمثلون لأوامر الدولة (١٨٠٨/٩/٢٩) . ولحاجة الدولة إلى جيش محارب ، تم إحياء النظام الجديد باسم « سكيان جديد » (١٨٠٨/١٠/١٤) . استدعى الوزير قاضى عبد الرحمن باشا من قونية إلى استانبول وترأس الجيش . وصار أحد أعضاء المجلس الثورى المسمى « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) ، الدختردار (وزير المالية) السابق ، بهيج أفندى وزيرا للحرية لهذا الجيش بلقب « أمور جهاديه ناظرى » (وزير الأمور الجهادية) .

كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا . عسكريا جيدا . لكنه لم يكن الشخصية التى يمكنها القيام بحركة الإصلاح . كان يجهل أمور إدارة الدولة المركزية . لم يكن نظام جيش علمدار الاختيارى الذى جاء إلى استانبول من سواحل الطونة بأفضل من الجيش الانكشارى ، بدعواهم كذلك بأمر الشدة والشقاوة . لم يتمكن البادشاه الشاب المدين بعرشه لعلمدار من استجماع نفوذه لمنع هؤلاء . وفى الحقيقة لم يكن راضيا عن علمدار الذى يميل إلى الدكتاتورية . كان الإنكشارية يستعدون للايقاع بعلمدار الذى أخبرهم بأنه سيلغى تشكيلاتهم . وقائد الجيش الحديث ، « سكيان جديد » قاضى عبد الرحمن باشا كذلك غير مقتنع بعلمدار ، ولا يعجبه لوضع هو ، ولا وضع جيشه . أما رجال النظام الجديد الشباب المثقفون الذين

يسمون « أصحاب روسجك » ، فكانوا مدينين لعلمدار الذى أنقذ حياتهم . لكنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرته على تحقيق الاصلاحات التى رسموها وتجمعوا حول الخاقان الذى وجدوه أكثر شبابا منه . وعلاوة على ذلك ، فهم يتهمون علمدار بعدم استماعه لقولهم وتسببه فى استشهاد السلطان سليم .

وفى جو كهذا ، اقتحم الانكشارية فى ليلة ١٥/١٤ ت ٢ (١٨٠٨) سراى علمدار . لم يتدخل قاضى عبد الرحمن . دافع علمدار مع رجاله إلى النهاية . وفى آخر الأمر أطلق النار من مسدسه على برميل البارود الموجود فى مخزنه وفجر السراى . مات نتيجة الانفجار مع أكثر من ٥٠٠ من الانكشارية الذين صعدوا على سطح داره ، أثناء محاولتهم ثقبه . دامت صدارته ٣ أشهر و ١٨ يوما . صار مميش باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر و ٩ أيام . ثم أعطى الختم المهابوى إلى بكربك حلب الصدر الأعظم الأسبق يوسف ضياء الدين باشا (١٠٨٩/١/١) . وصار قبطان دريا جرخجى على باشا ، قائمقام للمصدارة ، لحين وصوله إلى استانبول ، لمدة ٣ أشهر ، و ٢٣ يوما .

استشهد علمدار ، فى الساعات المبكرة من صباح يوم ١٥ ت ٢ . وفى نفس اليوم ، أصدر شيخ الإسلام ، فتوى قتل البادشاه السابق السلطان مصطفى . تردد السلطان محمود فى قتل أخيه الكبير . الا أن المتمردين أخذوا فى الهتاف باسم السلطان مصطفى . اقنع رجال الدولة البادشاه ، بأن حوادث سيئة جدا سوف تقع . خنق مصطفى الرابع ، بمزام حبرى (١٨٠٨/١١/١٥) . كانت سنة تتجاوز ال ٢٩ بشهرين و ٢٨ يوما . كان قد مضى على إبعاده عن العرش مدة ٣ أشهر و ١٩ يوما . دفن فى مقبرة حميدية فى بقعه قابو جوار أبيه . لم يبد الشعب أى تأثر لمقتل السلطان مصطفى لأنه كان ناقما عليه ، لقتله سليم الثالث شهيدا ، اشتركت جماعة قليلة فى تشييع الجثمان .

وبقتل السلطان مصطفى ، بقى محمود الثانى ، الشخص الوحيد من بنى عثمان . لم يكن هنالك أى شهزاده (أمير) وأى ولى عهد يرث العرش . بقى العرش دون وارث مدة ٣ سنوات وشهر و ٩ أيام لحين ولادة أحد شهزادات السلطان محمود . شهدت الدولة والسلالة هذا الوضع للمرة الثانية ؛ الأولى ، الفترة التى تقل عن سنتين تقريبا التى مضت لحين ولادة محمد الرابع الشهزادة الأول لإبراهيم خان الذى جلس

بعد وفاة أخيه مراد الرابع . كان المتمردون قد فقدوا وعيهم . مزقوا مصطفى رفيق أفندي كتحدا الصدارة (وزير الداخلية) من « أصحاب روسجك » . وتمكن البادشاه من إخفاء البقية . ثم سار العصاة بعد ذلك على البادشاه قاصدين قتله ، أى إفناء السلالة . أجابوا أرباب العقول عند سؤالهم عن سكون السلطان ؟ بأنهم سيجلسون السلطنة أسماء أخت البادشاه ، الأرملة التى تكبره بـ ٦ سنين . دافع عبد الرحمن باشا عن سراى طوب قابو مع ٤٠٠٠ من جنود سكيان جديد . مات المقات من كلا الطرفين . أيقن العصاة بعدم إمكان دخولهم السراى عنوة . أخفى عبد الرحمن باشا أثرهم ، وذبح بالسيف ٣٠٠٠ انكشارى . أمر البادشاه ، البحرية أن تقصف سليمانة المحل الموجود فيه سراى إقامة ومقر آغا الإنكشارية . كان يوما عصيبا كأنه من أيام يوم القيامة . شعب إستانبول ، كان تحت نار بحريته . ومن حسن الحظ ، أن جامع سليمانة الفخم الذى كان قريبا جدا من قصر الآغا ، لم يصب يضرر . أيقن العصاة عدم إمكانهم القضاء على البادشاه . لجأ كافة جماعة القابوقولو ، إلى العلماء ، وأقسموا على الإستجابة لأى قرار يصدرونه بشأنهم . أصدر العلماء القرار التالى : يوقف إطلاق النار فورا من كلا الطرفين ، يدخل القابوقولو إلى ثكناتهم ، يلغى البادشاه جيش « سكيان جديد » . وافق السلطان محمود .

لا الرجعيون تمكنوا من القضاء على الخاقان ، ولا الخاقان تمكن من تطهيرهم . بعد هذا ، تمكن الطرفان من الحفاظ على التوازن بالكاد لمدة ١٨ سنة . كان الحفاظ على هذا التوازن ، وتحويله لصالحه ، الشغل الشاغل للسلطان محمود . انتظر لحظة الانطلاق بصبر كبير . أعلن فى ١٨ ت ٢ إلغاء جيش « سكيان جديد » . أرسل الجنود إلى بلدانهم ووظف الضباط . كان العصاة قد عمدوا إلى حرق الأسطول ، ميناء صنع السفن ، الطوبخانه (معمل صنع المدافع) ، معسكرات لوند وسليمية (أى مؤسسات الدفاع التى تستند عليها الدولة) وسببوا حرائق كبيرة . شرع فى إصلاحها جميعا . لكن الانكشارية قبضوا فى الأيام التالية على كثير من جنود وضباط « سكيان جديد » وقتلهم شهداء .

(١٥) حرب روسيا (١٨٠٩ - ١٨١٢) ، معاهدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨)

وقعت روسيا التي كانت تعاني من نابليون ، على هدنة مع العثمانية في عهد مصطفى الرابع (١٨٠٧/٨/٢٥) . وعندما اتفق القيصر بعد ذلك مع نابليون وأخذ موافقته على انتقال رومانيا إلى روسيا ، بدأت الحرب مجددا . وازاء اتفاق القيصر مع نابليون ، وقعت انكلترا مع تركيا على معاهدة اتفاق (١٨٠٩/١/٥) . غادر الصدر الأعظم يوسف ضياء الدين إستانبول بصفته سردار أكرم (قائد أعلى) (١٨٠٩/٧/٢٣) . جاء إلى سلستره . انهزم الجيش الروسى البالغ ٦٠ . ٠٠٠ شخصا وخسر ١٠ . ٠٠٠ قتيل في المعركة الميدانية « تاتاريجه » الواقعة جوار تلك المنطقة ، وترك الساحة للعثمانية التي فقدت ١٠٠٠ شهيد (١٨٠٩/١٠/٢٤) . تقدم الروس الذين احتلوا « اسماعيل » في شهر ك ١ و « ابرائيل » في شهر ك ٢ (١٨١٠) وأصبحوا يسيطرون على دلتا الطونة وعلى الأراضي الرومانية ، في قفقاسيا على امتداد ساحل البحر الأسود .

أرادت روسيا في ربيع عام ١٨١٠ تكثيف حملتها على العثمانية لإجبارها على الصلح ، حتى تتفرغ لفرنسا . احتل الروس سلستره ودوبروجا ، حاصروا فارنا ، ولكنهم انسحبوا على أثر دخول الأسطول الهمايوني فارنا . أوقف تقدمهم في حرب شومنو الميدانية ، بعد تكبيدهم ٢٠ . ٠٠٠ قتيل (١٨١٠/٨/٤) . واحتلوا في ٢٧ أيلول روسجك وثم يركوى الواقعة في شمال الطونة . مر عام ١٨١١ بتوازن . عزل الصدر الأعظم والسردار الأكرم يوسف ضياء باشا بعد سنتين ، ٣ أشهر ، ٩ أيام (١٨١١/٤/١٠) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٨ سنوات ، ١١ شهرا ، ٤ أيام . احتل مكانه امراخور أحمد باشا . جاء إلى شومنو وترأس الجيش . استرجع روسجوك بعد حصار ١٢ يوما (١٨١١/٧/٩) . وبسبب حملة نابليون على روسيا ، كانت روسيا تريد الصلح مع العثمانية ومستعدة لاخلاء رومانيا التي صممت على أخذها . كان نابليون ، يعرض بصورة مستمرة على العثمانية ، الاتفاق ضد روسيا ويقول بأنهم سوف يتمكنون من القضاء على روسيا في الجبهتين . لكن ، الباب العالى لم يعد يعتمد على السياسة النابليونية .

انتهت معاهدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨) المكونة من ١٦ مادة ، الحرب الروسية - العثمانية : تركت كامل بيساراييا ، إلى روسيا (حوالى ٧٠.٠٠٠ كم^٢) . ولو أن أهالى بيساراييا ، كانوا روماناً وقسماً منهم اوكراناً ، لكن سكان سواحل البحر الأسود فى الجنوب التى تسمى « بوجاق » كانوا أتراكاً . وهكذا أصبح نهر بروت يشكل الحدود العثمانية - الروسية ، بدلاً من دنيستر . تبقى دلتا الطونة ، لدى العثمانية . تنقل القلاع مثل Kilye , Akkerman ، اسماعيل إلى روسيا ، لكن تبقى قالاس ، ابرائيل ، اساكجى ، تولجا لدى العثمانية . يعيد الروس الأراضى الرومانية (افلاق بغداد) والأراضى القفقاسية التى استولوا عليها بعد اخلائها إلى العثمانية . تتأسس إمارة صربية مستقلة استقلالاً ذاتياً فى بلغراد مع شريط من الأراضى يقع فى جنوبها وستكون مستقلة مثل افلاق وبغداد . يستمر الجيش العثمانى فى التواجد فى قلاع بلغراد والقلاع الأخرى . صار استقلال الصرب انموذجاً للشعوب البلقانية الأخرى ، وكان سبباً فى تحرير اليونان بوجه خاص .

عزل أحمد باشا ، بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٢٥ يوماً (١٨١٢/٩/٥) . صار الصدر الأعظم ، قائد صوفيا ، أحمد خورشيد باشا لمدة سنتين ، ٦ أشهر ، ٢٧ يوماً . وجاء مكانه بعده محمد أمين رعوف باشا (١٨١٥/٤/١) . ترك منصبه بعد سنتين ، ٩ أشهر ، ٤ أيام إلى محمد باشا والى (بورصه) (١٨١٨/١/٥) . وبعد سنتين ، ويوم ترك منصبه إلى اسبارطه لى على باشا والى خداوندكار (١٨٢٠/١/٥) . على باشا هذا ، فى تلك الحقبة ، هو زوج الأخت الكبيرة لمصطفى رشيد باشا البالغ عمره ٢٠ عاماً - « الكبير » فى المستقبل .

استولى الوهازيون الذين قدموا من نجد ، على قسم كبيراً من الحجاز . كلف الباب العالى ، أحد اولاد والى مصر ، قاولالى محمد على باشا ، والى جدة والحبش (الحجاز واريتره) الوزير محمد طوسون ، لاجراج الوهايين من الحجاز . استمرت الحركات ضد الوهايين من ١٨١١ إلى ١٨١٦ . استولى طوسون باشا ، على كل من المدينة (١٨١٢/١٢/٢) ، ومكة (١٨١٣ / ١ / ٢٣) ، الطائف (١٨١٣/١/٢٨) . اكمل حركات طوسون باشا ، اخوه الكبير ابراهيم باشا . وأحتل درعية . ورغم كل ذلك ، استمرت الحركة الوهاية ولم يقض عليها . انتشرت فى الإحساء (١٨٣٠) ، وصلت جزر البحرين (١٨٣٤) ، لكن أصبحت علاقتها مع الدولة العثمانية بعد ذلك اكثر وفاقاً .

كانت المسألة الأخرى التى شغلت العثمانية هى ، تبه دلتلى على باشا . حصل على باشا ، وأولاده وأقرباؤه على الولاية من الدولة وسيطروا على أراض واسعة فى Epir ، والبالنيا ، واليونان ، ومورا . كان مركزه يانيا . على باشا الذى كان من عائلة تركية من كوتاهية ، أخذ يتلكأ فى تنفيذ أوامر إستانبول . سار الصدر الأعظم السابق خورشيد باشا ، على تبه دلتلى . وبعد مقاومته فى يانيا مع ٥٠٠٠ من جنوده ، و ٢٠٠ مدفع مدة سنة و ٤ شهور ، ٢٥ يوم ، قطع رأسه (١٨٢٢/١/٢٤) . استمرت تبه دلتلى - زاده لر (عائلة تبه دلتلى Tepedelenli) إلى يومنا هذا وانجبوا رجال دولة عديدين للدولة العثمانية .

(١٦) الحرب الإيرانية الأخيرة (١٨٢١ - ١٨٢٣)

أراد القاجاريون فى إيران عند بدء الثورة اليونانية ، الاستفادة من الظروف المحيطة بالإمبراطورية العثمانية التى تورطت مع الدول الأوروبية . هجموا على الأناضول الشرقية وعلى العراق (١٨٢١/١١/١٥) . أحتلوا بيتليس وحاصروا بغداد . عقد صلح بعد سنتين على أساس الـ Statu quo أى بقاء الوضع على حاله (١٨٢٣/٧/٢٨) . وهذه آخر حرب تركية - إيرانية جرت فى هذا التاريخ . لم تتمكن الدولتان ، فى أى وقت من الأوقات من الاتفاق ضد روسيا . أخذت روسيا فى استقطاع أقطار كبيرة بهجومها تارة على تركيا وتارة على إيران . وفى معاهدة تركمنجاي ١٨١٣ ، استقطعت من إيران داغستان وشيروان (اذربيجان الشمالية) وفى معاهدة كلستان ١٨٢٨ ، أخذت روان (ارمنستان الحالية) ونهجون وكانت هذه الأقطار فى التواريخ المذكورة اقطارا تركية بحتة . وبمعاهدة ١٨٢٨ خرجت إيران ، لأول مرة فى التاريخ من صفوف الدول العظمى . كانت الدولة العظمى الوحيدة التى بقيت ، هى تركيا . كانت هنالك دولة كبرى غير مسيحية أخرى ، وهى الصين . أصبحت كفة الرجحان والسيطرة بيد الأوروبيين فى القارات الست . عزل اسبارطه لى على باشا من الصدارة بعد سنة ، وشهرين و ٢٤ يوماً (١٨٢١/٣/٢٨) . وأصبح والى جلدر بندرلى على باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر ، و ٣ أيام (١٨٢١/٤/٣٠) . أعدم بعد ذلك . لم يتمكن ازميزلى صالح باشا من البقاء

في مقام الصدارة أكثر من سنة ، و ٦ شهور ، و ١٠ أيام (١٨٢١/٤/٢٩) —
 ١٨٢٢/١١/١٩) . جرى على عهد هذا الصدر الأعظم نفى نيشانجي (وزير الدولة)
 قرملی هالت افندی ، الذي سيطر على الدولة بمصلاحيات واسعة منذ سنين وكان
 يسمى « مستشار السلطنة » ويستند على تشكيلات الإنكشارية ، إلى قونية
 وإعدامه . وأصبح دلي عبد الله (حمد الله) باشا ، أحد مشيرى البحر السابقين ،
 صدرا أعظم . عزل بعد ٤ أشهر (١٨٢٣/٣/١٠) . اعتلى مقام السلطة سلاحدار
 على باشا ، ابن الوزير هزاركرادلى عزت أحمد باشا ، لمدة ٩ أشهر و ٤ أيام . عين
 مكانه محمد سعيد غالب باشا ، أحد رجال النظام الجديد (١٨٢٣/١٢/١٣) ..
 عين واليا على أرضروم بعد ٩ أشهر ، ويومين (١٨٢٤/٩/١٤) . صار والى
 سلسرة بندرلى سليم سرى باشا ، صدرا أعظم . حدثت الواقعة الخيرية على
 زمانه .

١٧) بدء الثورة اليونانية (١٨٢١/٢/١٢) ومرحلتها الأولى

بدأت الثورة اليونانية في ١٢ شباط في صبيحة يوم دافىء من أيام شتاء عام ١٨٢١
 باحتلال مدينة باتراى من قبل ١٠ ٠٠٠ مسلح مورالى (من جزيرة مورا) بقيادة
 Germanos رئيس اساقفة Patras . ثم حاصروا قلعة المدينة . كانت هذه إشارة
 لعصيان مورا كلها . وفي بداية شهر نيسان ، انتقل كامل الجزيرة ليد العصاة عدا
 Tripolice مركز سنجق (لواء) مورا . أعلن اليونانيون بأن ميناء Nauplion
 (بالتركية آناپولى) الواقع في شمال - شرق مورا ، مركزا لقيادة الثورة .

كانت هذه الثورة ، نتيجة استعدادات طويلة الأمد القت بنورها كاترينا الثانية
 في الحرب الروسية - العثمانية في ١٧٦٨ - ٧٤ . لكن العصيان الذي قام به
 المانيوتيون Manyot في مورا ، لم يحقق أية نتيجة ، لانهاده فورا وبشكل حاسم على
 يد محسن - زاده محمد باشا . ونتيجة ذلك ، تم التخطيط لقيام الثورة في جميع المناطق
 وباستعدادات أدق ، بدلا من قيامها في منطقة واحدة . أجمعت حروب الثورة
 الفرنسية ، هذه المسألة مدة طويلة . وعلى أثر اكتساب أوروبا روحاً جديدة في مؤتمر

فينا عام ١٨١٥ ، أخذ اليونانيون ، تحت حماية الروس خاصة ، في تأسيس جمعيات علمية ، أدبية ، سياسية . ومن بين هذه الجمعيات ، جمعية « Ethniki Hetairia » التى تأسست في اوديسا عام ١٨١٤ وكانت جمعية سرية . كانت أهدافها إحياء الإمبراطورية البيزنطية ، أخذ إستانبول من الأتراك ، إخراج الأتراك من أوروبا ودفعهم إلى آسيا . لم تكن هذه الأفكار ، أفكارا جديدة . كانت مشابهة للخطط الأوروبية الفاشلة وغير المجدية التى سارت عليها أوروبا منذ قرون . لكن الفكرة القومية - بالمعنى الحالى - التى أوجدتها الثورة الفرنسية ، كانت تعطى الشجاعة لليونانيين . تقبلت شعوب الدولة العثمانية الناطقة باللغة اليونانية هذه المدنية القديمة ، رغم عدم وجود رابطة دم أساسية بينهم وبين اليونانيين القدامى ، عدا تكلمهم نفس اللغة بلهجة جديدة ، وبدعاياتهم أفهموا أوروبا أنهم ورثة المدنية اليونانية ، وأن المدنية التى أسسها أجدادهم ، تشكل كذلك الأساس للمجتمع الغربى ، وأنهم الآن يسحقون تحت أقدام الأتراك ، وأنهم فى ضوء ذلك كله أصحاب حق فى طلب الحرية . تمكنوا من إقناع أكتيرة المثقفين الغربيين . كانت فكرة طلب الحرية على أساس القومية - الطبيعية جدا فى أيامنا هذه - غريبة جدا بالنسبة للعالم فى ذلك العهد . كانت هذه الأفكار من معطيات الثورة الفرنسية ، ولم تكن قد وضعت فى مرحلة التطبيق .

وفى الحقيقة ، فإن الحكام الأوربيين ، لم يتقبلوا هذه الفكرة ؛ ذلك أنه فى حالة تقبلهم مثل هذه الفكرة فإن العديد من الدول الأوربية سوف تتمزق وتصبح قطعاً متفرقة . تقبلها القيصر فقط ، رأى اكساندر الأول الذى ورث هذه الفكرة عن ام أبيه ، أن هذه الفكرة فى صالح روسيا . كان يريد أن يثبت أنه هو حامى الأرثوذكس ، بسبب كونه مؤمنا بنفس المذهب الذى تؤمن به اليونان وخاصة أنه فى روسيا أكبر كتلة من أتباع هذا المذهب ، كما أن هذه الفكرة تضعف الدولة العثمانية وتستقطع منها اقطارا واسعة . يضاف إلى ذلك أن الأمير Lspilanti أحد بكوات بطريقية فنار Fener فى إستانبول ، الذى يدير جمعية Herairia ، كان مرافقا للقيصر . كانت الجمعية تحت حماية القيصر . وساندها بشكل كبير وزير الخارجية الروسى Capo d'Istria اليونانى الأصل Grigorios بطريق الأرثوذكس العالمى فى Fener وكان أكتيرة أشراف الروم الذين يسمون « فنار بكلىرى » « بكوات Fener » فى تعاون مستمر مع تلك الجمعية .

كان الناطقون باللغة اليونانية ضمن الإمبراطورية العثمانية في مورا ، Attika وجزر إيجه ، يشكلون كثافة سكانية تزيد على ٥٠٪ من مجموع النفوس . في كريت وقبرص ، كانوا تقريبا بنسبة ٥٠٪ . وكانوا أقلية في الأقطار الأخرى ، لذلك تقرر بدء الثورة من المنطقة التي يشكلون فيها كثافة سكانية . أتاح إرسال خورشيد باشا ضد تبه دنلى على باشا وإخلائه مورا بشكل تام وسحبه جنده ، الفرصة لليونانيين . كانت مدن مورا تحتوى على أقلية لا بأس بها من الأتراك وفي مدينة او مدينتين ، كانوا يشكلون الأكثرية . لكنه تقرر في الحال ، إفناؤهم جميعا بالذبح الجماعى .

المسلمون الذين تمكنوا من النجاة من القتل عند اشتعال الثورة في باتراس (بالتركية ، باليابادرا) وانتقلها إلى كافة مورا ، وصلوا بالكاد إلى تريبوليجه . لكن تريبوليجه سقطت كذلك (١٨٢١/١٠/٥) وقتل بالذبح الجماعى الجيش الموجود في القلعة و ٨٠.٠٠٠ تركى مدنى ، بمن في ذلك المواليد الجدد من الأطفال . كان يسكن مورا ٥٠.٠٠٠ تركى تقريبا . كان قسم منهم مستوطنا في مورا منذ ٤٠٠ سنة . قتل القسم الأكبر من سكان مورا الأتراك ، وتمكن قسم قليل من الهروب .

دهش الباب العالى للوهلة الأولى ، ثم غضب غضبا شديدا . الباب العالى الذى حمى اليونانيين منذ عصور ، وحسن حالتهم المادية عن طريق التجارة ، وأعطى أكبر الإمتيازات للبطريق ، والبادشاه هو الذى أعلن أنه بنفسه هو الحامى الرسمى للمذهب الأرثوذكسى ، هذا بالإضافة إلى أن حريتهم الدينية لم تمس ، كما أن الأتراك هم الذين حالوا دون سحق الكاثوليك لهم . وقد تحقق لهم كل ذلك بسفك دماء الكثير من المسلمين . وعندما ثبت اشتراك البطريق غريغوريوس بالثورة بوثائق مكتوبة ، قبض على البطريق العالى ، وأعدم أمام الباب الوسطى لبطريقة فنار . وشهر لمدة ثلاثة أيام بتعليق لوحة على عنقه تبين خيائنه (١٨٢١/٤/٢٢) . وبأمر من البطريق الجديد أغلقت هذه الباب الوسطية منذ ذلك التاريخ وأبطلت وقرر عدم فتحها لحين إعدام رئيس دولة أو حكومة تركية في نفس المكان ، وحاليا مغلقة ، ولا تزال في انتظار يوم فتحها .

أعدم كذلك اساقفة قيصرى ، طرايا ، أدرميت مع عدة بكوات من بطريقة فنار الذين ثبت اشتراكهم في الثورة . مرافق القيصر الأمير Lspilanti الذى علم بالعصيان الناجح في مورا ، جاء من اوديسا إلى ياش مركز بغداد (مولدافيا) مع

٣٠٠٠ رومى متطوع ، واحتلها في ٥ مارت وفي ١١ منه احتل كالاس ، وفي ٣٠ منه أحتل بخارست مركز افلاق (رومانيا ، رومانيا الجنوبية ، اولاهيا) . استعداد الجيش التركى الذى دخل رومانيا في الحال جميع هذه المدن وأفى الروم . اليقن اليونانيون خطأهم الكبير في اعتقادهم أن الرومانيين سيساندون الثورة لكونهم ارثوذكس مثلهم .

كثف اليونانيون الذين تركوا فكرة إحياء الإمبراطورية على أثر حل مشكلة رومانيا ، جهودهم وعزمهم المتواصل على تأسيس دولة وطنية يونانية فقط . احتج الباب العالى على روسيا . وعلى أثر ذلك ، عزل القيصر ، Jspilanti من وظيفته كمرافق له ، وطرده مرافقه الذى يحمل رتبة جنرال من الجيش .

أعلن الثوار تأسيس اليونان التى تضم مورا ، وجزر كيكلاذ ، وجزيرة آغرى بوز وشبه جزيرة Attika وأن الأفطار اليونانية الأخرى ستتنظم إليها وانتخبوا الأمير Mavrokordato رئيسا للدولة (١٨٢٢/١/١٣) . كانوا قد احتلوا أكثرية جزر بحر إيجه ، وإحدى هذه الجزر جزيرة سيسام (باليونانية : Samos) التى تقع في خليج جزيرة قوش آداسى للأناضول وبعد أن سيطر ٦٠٠٠ من سكان سيسام على هذه الجزيرة ، صعدوا إلى الشمال الغربى منها ونزلوا في جزيرة ساقيز الواقعة مقابل ميناء جشمه . كان تعداد ساقيز ٨٠ ٠٠٠ ، عدة آلاف منهم أتراك . تعدادها آنذاك يزيد على تعدادها حاليا ، كانوا يعيشون في رفاهية . أثار السيساميون ، أهالى ساقيز وحرصوهم على العصيان . قتلوا بالتعذيب المسلمين الذين ظفروا بهم . لجأ الذين تمكنوا من الهروب ، إلى قلعة ساقيز التى يدافع عنها الوزير وحيد باشا . دخل القبطان دريا (مشير البحر) نصوح - زاده على باشا ميناء ساقيز (١٨٢٢/٤/١١) بعد ١٩ يوما من بدء العصيان في الجزيرة ومحاصرة قلعة ساقيز . تم افناء وأسر العصاة الذين قاوموا مدة أسبوع . ثار المثقفون الأوروبيون الذين سكتوا على القتل العام الذى جرى للأتراك في مورا . بكى الشعراء مثل لورد بايرون ، فكتور هوغو والموسيقيون مثل بتهوفن ، والرسامون ، والصحفيون على إخماد عصيان ساقيز بمؤلفات محزنة وألفوا الحكايات الخيالية حول وحشية الأتراك في أوروبا وأخذت تنال الأسلحة ، والمتطوعون ، والنقود على اليونانيين من كافة أنحاء أوروبا .

لم تتمكن تشكيلات الإنكشارية التي تعيش لحظاتها الأخيرة من إخماد الثورة اليونانية . ولتحقيق ذلك ، كلف الباب العالي الوزير إبراهيم باشا ابن والى مصر محمد على باشا (١٨٢٤/٤/١) . جاء إبراهيم باشا البالغ عمره ٣٥ عاما ، خلال شهر تموز من اسكندرية إلى رودس مع ٣٠ ٠٠٠ جندى . كان قد منح رتبة الولاية على رودس بصورة رسمية . كان الأتراك المصريون ، هم الذين يشكلون الجيش المصرى المدرب تدريبا نظاميا . محمد على باشا الذى نصب الشراك لبكوات المماليك وجمعهم فى قلعة القاهرة وأفناهم ، وضع يده على أراضيهم الواسعة ، واثرواتهم الطائلة وأسس بذلك الجيش والبحرية . الشعب المصرى المحلى ، لم يكن يرغب فى الانخراط فى السلك العسكرى . جمع جيشه من المماليك ومن الأتراك الذين استوطنوا فى مصر فى عهد العثمانيين . كان قسم من جيشه يشكله الألبانيون ، الجراكسة ، والأباضة وهؤلاء يتكلمون اللغة التركية .

التقى قبطان دريا خسرو باشا ، مع إبراهيم باشا فى رودس . قضوا شتاء عام ١٨٢٤ - ٢٥ فى كريت . وفى نهاية الشتاء نزلوا فى ميناء Modon الكائن فى جنوب - غرب مورا (١٨٢٤/٢/٢٤) . تم احتلال ميناء نافارين الكائن قرب مودون (١٨٢٤/٥/١٨) ، بدأت حركات تطهير مورا من العصاة . تم خلال عام ١٨٢٥ احتلال كامل مورا عدا Nauplion التى سبق أن أعلن العصاة أنها عاصمة اليونان . سار محمد رشيد باشا من الشمال وجاء إلى Attika . حوصر العصاة بين نارين . جمعوا كامل قواتهم فى عدة أماكن مثل أثينا و Misolongi . سقطت . Misolongi (١٨٢٦/٤/١٣) بعد محاصرتها مدة سنة واحدة ، واستسلمت أثينا كذلك (١٨٢٧/٦/٥) .

أصبحت الثورة اليونانية ، كأنها لم تكن . كانت قد انتهت من الناحية العسكرية ، لكنها لم تنته من الناحية الفكرية . كان قد انطبع فى مخيلة اليونانى الأوروبي ، خيال دولة يونانية مستقلة . منح ابراهيم باشا رتبة الولاية على كريت . اكّد أنتصار جيش إبراهيم باشا المدرب تدريبا نظاميا ، وعزز ، لدى السلطان محمود المجرّب إلى الدرجة التى لا يمكن معها أن يفتّر ويعتقد بأن القضية اليونانية قد انتهت فى هذه المرحلة ، فكرة عدم تأخير تأسيس الجيش الحديث بعد الآن .

انتظر السلطان محمود ١٧ عاما بكاملها لالغاء تشكيلات القابوقولو . أن جندا لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان يوناني ، ماذا سيكون حالهم في حرب روسية يحتمل أن تعلن في أى لحظة . لم يكن هذا الأمر يقلق الخاقان فقط ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة ، وجزرالات الإنكشارية بالذات . لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك بارادة البادشاه الذى كان يعتقد في وقت ما ، أنها تأتى بعد إرادة الله عز وجل . كانت تشكيلات الإنكشارية قد اثبتت بعمليات عديدة وباراقة دماء كثيرة ، وبإظهارها عدم ترددها في سحق مصالح الدولة الحوية .. أنها سوف لا تعترف بمثل هذه الإرادة ، كان يجب البدء في العمل بتأسيس نواة جيش جديد كما عمل سليم الثالث . كان السلطان سليم ، قد لقن السلطان محمود بشكل جيد أن مستقبل الدولة متعلق بذلك .

السلطان محمود الذى لم يغفل عن أخطاء السلطان سليم ، أدخل بين جزرالات الإنكشارية جزرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة تأسيس جيش حديث . لم يكن ذلك بالأمر الهين أو البسيط . سعى لتحقيق ذلك سنين طويلا وباحتياط وصبر . لجأ إلى الطرق الملتوية حتى لا يثير الإنكشارية الذين كانوا حذرين وفي قلق . وفي النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد في الجيش باسم « تشكيلات اشكينجى » (١٨٢٥/٥/٢٥) . جند فورا ٧٦٥٠ شخصا وشرع بتدريبهم على الطراز الأوروى . أختير هؤلاء الأفراد من بين الإنكشارية المتطوعين اختياريا . يبين هذا مقدار الدقة والحساسية في هذا الشأن . أصدر شيخ الإسلام طاهر أفندى فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة . البس الجند الجدد ، اللباس على الطراز الأوروى وشرع في تدريبهم (١٨٢٦/٦/١١) . اتخذت كافة التدابير حيال عصيان انكشارى . كان آغا . (رئيس) الإنكشارية جلال الدين آغا وجزرالات الإنكشارية الآخرون ، من رجال البادشاه . عين لمحافظة سواحل المضيق الأناضولى ، عزت أحمد باشا . الصدر الأعظم في المستقبل ، وللمحافظة سواحل روملى آغا حسين باشا عدو الإنكشارية اللدود . كان هذان الجنرالان قد جمعا عساكرهما من الأناضول وعنيا بتعليمهم بشكل دقيق . واستنادا لأمر بادشاهى ، اتخذت

الترتيبات لإمكان إرسالهم إلى المدينة في أية لحظة . لكن الثورة اندلعت حتى قبل الوقت الذى كان يتصوره السلطان نفسه . الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديده ١٤ عاما ، عصوا فى هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات اشكنجى بـ ٣ أيام فقط ، مساء ١٤ حزيران . نجما بصعوبة جلال الدين آغا ، آخر آغا للانكشارية فى التاريخ ، من الموت بالتمزيق ، وأعلم السلطان محمود بالوضع .

يوم ١٥ حزيران ١٨٢٦ ، من الأيام المحدودة القليلة فى التاريخ التركى . أخرج الانكشاريون قرايهم (قدرهم) المشهور وقلبوه فى أت ميدان (ميدان آقسرائى) . أمر ، الصدر الأعظم بندرلى سليم باشا ، كلا من آغا حسين وعزت باشا ، الخروج إلى المدينة مع جنودهم . أمر السلطان محمود ، بتثبيت راية الرسول ﷺ (بالتركية صنجق شريف) فى ميدان سلطان أحمد . وأصدر الإرادة السلطانية بأن يتجمع كل إستانبولى يحب وطنه ، تحت الراية . حضر شيخ الإسلام طاهر أفندى ومعه اثنان من قضاته العسكريين ، قاضى إستانبول ، العلماء ذوو الرتب العالية ، ٣٥٠٠ طالب علم متعصب تعصب أعمى من الذين يدرسون فى القسم العالى من المدرسة العلمية وتجمعوا تحت الراية الشريفة وأخذوا بالقاء الخطب النارية . وإلى ذلك التاريخ ، كان الانكشارية يستحقون ويقضى عليهم فى كل عصيان يقومون به ، دون الاستناد إلى رجال الدين ، أما اليوم ، فكان فى انتظارهم كارثة كبيرة .

خرج إلى الشوارع كافة سكان استانبول . كانوا ناقلين على الانكشارية . لم يبق شيء منافع للاخلاق لم ترتكبه هذه التشكيلات . شوهد خروج النساء وانتشارهن فى الشوارع ، الأمر الذى لم يسبق أن شوهد فى التاريخ العثمانى . تشكيلات قابوقولو الأخرى ، عدا الانكشارية عرضت طاعتها واخلصها للبادشاه . فتح نقيب المدفعية قره جهنم ابراهيم آغا نار قذائف بطارته على ثكنات الانكشارية فى آقسرائى . لم يسبق ان اقتحمت ثكناتهم فى أية ثورة إنكشارية سابقة . تضعضعت أسوار الثكنة ، وفتحت فيها ثغرة وانهارت . ودفن معهم كذلك ، دور من أدوار التاريخ التركى . إبراهيم آغا ، أول شخص فى التاريخ يدخل عنوة إلى ثكنات الانكشارية دون أخذ الأذن منهم . استمرت قره جهنم - زاده لر (عائلة قره جهنم) حتى يومنا هذا ، وصار أخذ أفرادها داماد « صهرا » للبادشاه ، وأصيب حتى عقب قدمه برصاصة من بندقية إنكشارى .

دخل دارنده لى عزت باشا وآغا حسين باشا ميدان آقسرائى . كان يتجمعهم جمع
غفير هائل من الناس . كان أمام جامع طوبخانه حاجى حافظ أحمد أفندى ، أمام
الجند يشجعهم . وعند حلول المساء ، لم يبق شيء اسمه صنف الإنكشارية . قتل
٦٠٠٠ إنكشارى . أفنى شعب إستانبول بغضب شديد هذه التشكيلات ، التى
تركت الأقطار الإسلامية تحت أقدام الروس والروم العصاة ، والتى كانت تتقاضى
الخراج . وفى اليوم التالى . تم اعتقال ونفى ٢٠ ٠٠٠ إنكشارى . ألغيت هذه التشكيلات
فى كافة أنحاء الإمبراطورية . أيدت كافة علاماتهم . وجرت حوادث غريبة خلال
ذلك ، منها : أغلقت تكايا البكتاشية التى ينتسب إليها الإنكشاريون (ستفتح بعد
مدة) ، كسرت علامات رعوس الإنكشارية التذكارية المنحوتة على أحجار المقابر ،
محيت آثار الإنكشارية ، كما ألغيت أيضاً مهترخانه خاقانى (الموسيقى العسكرية
الخاقانية) تلك الموسيقى العثمانية العسكرية العظمى التى اعتبرت من تشكيلات
الإنكشارية . كان انقلاباً . لم يدع هؤلاء مجالا ليذرف أحد الدمع على هذا الصنف
الذى يملك ماضياً مشرفاً .

أحدث إلغاء التشكيلات التى استمرت ٤٦٥ عاماً ، صدًى كبيراً فى جميع أنحاء
العالم . خصصت الصحف الأوروبية عناوين كبيرة لذلك . هنا السفراء البادشاه ،
فى إستانبول باسم حكاهم . أطلق اسم « عساكر منصوره محمدية » (العساكر
المحمدية المنصورة) على الجيش الحديث المزعم تدريبه . تم احداث منصب
« سرعسكر » ومنحت له صلاحية وزير الحرية إضافة إلى رئيس أركان الجيش .
أصبح آغا حسين باشا أول سرعسكر . السراى القديم الموجود فى بيازيد (حالياً
البنية المركزية للجامعة) صار مقراً للسرعسكر ، تم تحويل سراى الاغا الموجود فى
سليمانية إلى دائرة مشيخة وأعطيت لشيخ الإسلام .

وهكذا أغلق الدور الأول لسلطنة السلطان محمود الذى دام ١٧ سنة ، ١٠
أشهر و ١٨ يوماً . وفتح الدور الثانى لسلطته والذى دام ١٣ سنة وشهراً ، و ١٦
يوماً . كان فى ذلك التاريخ فى سن ال ٤١ . ومع أن الدور الثانى هو أصعب من
الدور الأول ، لكن حجر الأساس لتركية الحديثه سيوضع فى هذا الدور . كانت
المؤسسات التى تسلمها محمود الثانى تتأثل من حيث الشكل مع عهد مؤسسات
فاتح ، ولكنها فى الوقت الذى كانت فيه مؤسسات عهد فاتح أرقى المؤسسات فى

العالم ، كانت هذه المؤسسات فاسدة بل إنها وصلت إلى شفا هاوية الانهيار ، ومن ثم فإنه كان يجب انشاؤها مجددا . ليس هنالك حق في الحياة لدولة لا تتجدد . ازال حادث الغاء تشكيلات الانكشارية وتشكيلات القابوقولو الأخرى بشكل جبرى وعدم التردد في التعرض لحرب داخل المدن والشوارع والتي انتقلت إلى التاريخ باسم « واقعة خيرية » ، المانع الكبير في تحقيق حركة التجدد دون خشية . الواقعة الخيرية ، حادث من أهم الحوادث القليلة في التاريخ التركي بأسره . كانت هذه الحادثة أكبر الانقلابات الجذرية . كانت البداية لتركيما الحديثة .

وهكذا فتح الباب أمام عهد التجديد في تاريخ الدولة العثمانية ...



فهرس محتويات المجلد الثاني

البحث الخامس:

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣) ٣٥٩

البحث السادس:

عصر التوقف (١٦٨٣ - ١٧٦٨) ٥٣٩

البحث السابع:

دور الإنحطاط (١٧٦٨ - ١٨٢٦) ٦٢١